السودان
من التاريخ القديم
إلى رحلة البعثة المصرية

(الجزء الأول)

عبد الله حسين

السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية
(الجزء الأول)

تأليف
عبد الله حسين

هنداوي

السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية (الجزء الأول)

عبد الله حسين

رقم إيداع ٢٠١٣/٧٨٨٠
تدمك: ٩ ٢٧٢ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

تصدير	٩
مقدمة	١٣
عبد الله حسين كما عرفته	١٩
كلمة المؤلف	٢٥
١- سكان السودان	٢٩
٢- ممالك السودان	٣٧
٣- مصر الفرعونية في السودان	٤١
٤- مصر والسودان	٤٩
٥- السودان في العصر الروماني	٥٣
٦- تاريخ النوبة	٥٩
٧- الحكومات العربية الإسلامية في السودان	٧٧
٨- العباسيون والفواطم والإخشيديون والمماليك	٨٥
٩- مملكة سنار	٩٣
١٠- الأتراك والكُشَّاف الأتراك	٩٥
١١- سلطنة الفور	٩٧
١٢- فتح محمد علي للسودان	١٠٧
١٣- السودان بعد محمد علي	١١٧
١٤- السودان في عهد سعيد باشا	١٢١
١٥- السودان في عهد إسماعيل	١٣٥
١٦- بعثات الكشف عن السودان ومنابع النيل	١٤٩

١٧- حكمدارو السودان ١٥٩
١٨- في عهد الحكم المصري ١٦٥
١٩- الحكم المصري في السودان ١٦٩
٢٠- النزاع بين مصر والحبشة ١٩٥
٢١- تجارة الرقيق ومنعها ١٩٩
٢٢- الثورة المهدية ٢١٥
٢٣- شريف باشا والسودان ٢٢١
٢٤- عودة غوردون باشا إلى السودان ٢٣٣
٢٥- مسألة المهدي المنتظر ٢٥٣
٢٦- محمد أحمد المهدي ٢٦٧
٢٧- وقائع المهدي وانتصاراته ٢٧٥
٢٨- الخليفة عبد الله التعايشي ٢٩٣
٢٩- المسألة الحبشية وجارات السودان ٣٢٥
مراجع الكتاب ووثائقه ٣٤٣

حضرة صاحب السمو الأمير العظيم عمر طوسون صاحب الفضل العظيم في توثيق العلاقات بين مصر والسودان.

تصدير

بقلم حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون

تفضلتم فأطلعتمونا على أكثر موضوعات كتابكم عن السودان قبل تمام طبعه، فدلَّنا الكثير الذي فرغتم منه على القليل الباقي الذي تعملون فيه، وخرجنا من هذا الاطلاع مقتنعين بعظم ما تبذلون في إخراجه من البحث والتحري، مع الإحاطة بالموضوع من جميع أطرافه، وهذا العمل المفيد والصنيع الحميد هو بلا شك وليد سفركم بالبعثة الاقتصادية المصرية إلى السودان، التي كنتم عضوًا من أعضائها.

نعم، إننا نعد هذا الكتاب الجليل المحيط بتاريخ السودان المصري، من ألفه إلى يائه، من ثمرات هذه البعثة، ونتفاءل بأن ثمارها الجنية ستتكاثر وتنمو وتنضج على ممر الأيام والسنين، وتعمُّ القطرين جميعًا، وإذا قدَّرنا هذه الثمرات المنتظرة بهذه الثمرة، وقسناها عليها، ذهب بنا الخيال كل مذهب في تصوُّر فوائد هذه البعثة المباركة، أمَّا إذا جاءت الحوادث بغير ما نشتهي، وجرت الأمور على غير ما نحب، ولم يكن لهذه البعثة ما قدَّرناه، وعصفت السياسة الإنجليزية مرة ثانية بهذه الآمال، وقطعت علينا هذه الأحلام اللذيذة، فإن كتابكم سيبقى حجة ناطقة على هذه السياسة الغاشمة، وسيكون دليلًا جديدًا على التواء سبلهم، وأنهم حقًّا عقبة في كل سبيل، وبلاء على كل أمة مُنيت

بتَسَيْطُرِهم ليس كمثله بلاء؛ بلاء شامل ماحق لكل خير، لا لشيء سوى العدوان وحب الأثرة والإضرار بالشعوب التي تقع تحت نيرهم.

وبعد، فلا مراء في أن المصريين خليقون بتعرُّف أحوال السودان، حريُّون بقراءة تاريخه، ومعرفة ما جرى عليه، وما هو فيه، ما داموا متعلقين به، وهم لا غنى لهم عن هذا التعلق، ولا مندوحة لهم عن ذلك الارتباط؛ فإن الطبيعة قضت به فأصبح حاجة من حاجهم، لا سبيل لهم إلى التخلص منها.

وإذا كان هذا شأن السودان منهم، وجب عليهم أن يعرفوه، ويلمُّوا بحوادثه الماضية والحاضرة، ويقرءوا ما كُتب عنه، ووجب على القادرين من كتَّابهم ومؤرِّخيهم أن يسعفوهم بهذه الطُّلْبة، ويقدِّموا لهم الغذاء وينوِّعوه لهم؛ ليُقبِلوا عليه، ويأخذ كلٌّ منهم ما يستطيبه منه.

وقد انقضت حقبة طويلة لم يخرج فيها أحد من المصريين كتابًا عن السودان يعتدُّ به ويستحق أن يُطلق اسم الكتاب عليه، وانقضت عدة من السنين على ما أُلِّف في شأنه وكتب عنه، حتى نفدت نسخه أو كادت، وأصبحت من الندرة بحيث لا تعثر عليها الأيدي عند الورَّاقين وباعة الكتب، وإذا وجدها راغب منهم لم يحصل عليها إلا بالثمن الغالي، وهي مع ذلك قد فاتها بطبيعة وضعها من عشرات السنين ذكرُ ما حصل بعد وضعها، وتدوين الحال التي عليها السودان الآن؛ خصوصًا من الوجهتين السياسية والاقتصادية.

وإننا لا نريد أن نفاضل بينها وبين كتابكم؛ إذ يكفيه أن يكون حاويًا لما لم تحوِهِ من مباحث وفصول، وأنه مؤلف حديث وُضع على النمط الحديث، ودُعِّم بالوثائق والأسانيد، وعُزِيَ أغلب ما فيه إلى مصادره، وهذه المزيَّة الأخيرة لا نزاع في أنها مزيَّة كبيرة في المؤلَّفات التاريخية خاصة؛ لأن هذا العلم ليس ككل العلوم، بل هو علم متجدِّد ما تجدَّدت الحوادث، فالشأن فيه أن يتجدَّد فيه التأليف ويتنوع، وقد أصبح ما كُتب فيه حديثًا أفضل مما كُتب فيه قديمًا، وإن كان هذا الحديث لا غنى له عن ذلك القديم.

وهذا الفضل يرجع للمزايا التي اعتمد عليها المؤلِّفون المتأخِّرون في وضع هذا العلم؛ فبعد أن كان روايات تُروى محتملة للصدق والكذب، أصبح بهذه المزايا حقائق لا يتطرَّق إليها الشك.

فعلينا أن نرحِّب بكل جديد من التآليف التاريخية إذا اشتمل على هذه المزايا، وأن نشكر مؤلفه ونثني عليه؛ خصوصًا إذا سدَّ لنا فراغًا كان يُخشى أن يبقى ثلمة مفتوحة إلى ما شاء الله، وقيَّد لنا أوابد ربما ظلَّت شاردة عنا.

ومناط الرغبة في المؤلفات التاريخية وغيرها أن تكون الحاجة ماسَّة إليها؛ فإذا كان تعلقنا بالسودان متغلغلًا في القلوب كما نزعم، فقيسوا ذلك بإقبال المصريين على كتابكم وتهافتهم على إحرازه وقراءته.

أما أنتم، فقد قمتم بالواجب، وحُقَّ لكم الشكر من المصريين والسودانيين جميعًا؛ لإخراجكم هذا المؤلف العظيم، وتحمُّلكم في تأليفه ما يعرفه المزاولون لصنعة التأليف من الجهد والمشقة والعنت، وبذلكم في هذا السبيل ثمينَ وقتكم ومالكم، وأما الأمة، فستجزيكم على ذلك بالإقبال على كتابكم، واستقباله بما هو أهلٌ له من الحمد والثناء إن شاء الله.

مقدمة

لحضرة صاحب العزة فؤاد أباظة بك المدير العام للجمعية الزراعية الملكية

السودان!

السودان يحيط بنا أينما حللنا، ونراه ماثلًا أمامنا أينما توجهنا، ونحس بوجوده في كل مرافقنا؛ فقد ملك علينا مشاعرنا، وارتبطت به اقتصادياتنا، واتصلت به مصائرنا.

ومنذ عادت بعثتنا من السودان واسم السودان ومصالحه ورجاله بين ظهرانينا؛ فنحن يومًا نستقبل ضيوفنا من إخواننا السودانيين الكرام، ويومًا آخر نحضر حفلة في الجمعية الزراعية أو النادي السوداني أو الغرفة التجارية، أو نحضر اجتماعًا في وزارة التجارة والصناعة، ونتبادل المكاتبات بين القاهرة والخرطوم وما إليها، ونحن ننظر بلهفة واشتياق إلى اشتراك السودان لأول مرة في المعرض الزراعي الصناعي القادم، المقرر افتتاحه بالقاهرة في ١٥ فبراير سنة ١٩٣٦.

لقد نجحت البعثة المصرية في مهمتها نجاحًا باهرًا، وفوق المنتظر؛ من ناحية توثيق العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين مصر والسودان، ولكن لا يزال كل منا ومنهم يشعر بأن عليه الواجب لتحقيق النتائج التي أسفر عنها النجاح الأول المبارك.

وهل أدَلُّ على دقة الشعور بهذا الواجب والقيام بعبئه من ذلك السِفْر الجليل الجامع؛ (كتاب السودان من التاريخ القديم إلى رحلة البعثة المصرية)، الذي ألفه حضرة زميلنا

الفاضل في البعثة وصديقنا الأديب المحبوب العالم الباحث الأستاذ عبد الله حسين المحامي والمحرر بجريدة (الأهرام الغرَّاء)، وصاحب الجريدة القضائية؟

إني أكتب هذا وبين يدي كتاب كبير يقع في ثلاثة أجزاء، ويبلغ عدد صفحاته حوالى الثلثمائة والألف، وبه صور كثيرة يمرُّ بها القارئ كأنما ينظر إلى شريط سينمائي يستعرض الحياة السودانية قديمًا وحديثًا، استعراضًا صادقًا مفيدًا وجذابًا.

لقد عالج المؤلف النشيط في أجزاء كتابه الجليل تاريخ السودان منذ أبعد العصور؛ فذكر الحياة السودانية في عهد الفراعنة والرومان والبطالسة والعرب والأتراك والمماليك، وشرح الفتح المصري، وما كان من اهتمام محمد علي مؤسس الأسرة العلوية المالكة، واهتمام الأمراء بعده بالسودان؛ ولا سيَّما عصر إسماعيل الذهبي، الذي اتسعت في عهده حدود الدولة المصرية جنوبًا، فشملت منابع النيل وبلادًا أخرى أصبحت مستعمرات لدول أوربية.

كما أنه شرح الثورة المهدية، ذاكرًا ما لها وما عليها، ومقدماتها ونتائجها، شأن المؤرِّخ المحقِّق الصادق واسع التفكير، والناقد البصير، ضاربًا بتحليله البديع الأمثال لمؤرِّخي الثورة المهدية.

كما بسط لنا المؤلف تاريخ الممالك والسلطنات والإمارات والقبائل التي قامت في السودان، أما المسائل السياسية فقد عالجها ببحوثه القيِّمة، وربط الحوادث ببعضها البعض ربطًا محكمًا، وحلل اتفاقية سنة ١٨٩٩، التي هي أساس الحكم الحاضر في السودان، كما هي أساس العلاقات بين مصر والسودان، وكما كانت المحور الذي دارت عليه المفاوضات السابقة، وذكر لنا النصوص الخاصة بالسودان، الواردة في مشروعات الاتفاق بين مصر وإنجلترا جميعًا، وما ورد بشأن السودان في تقارير الممثلين البريطانيين للدولة البريطانية، وما دوَّنته تقارير الحكام العامين المتعاقبين على السودان ومن إليهم، وما ورد في محاضر هيئاتنا النيابية القديمة والجديدة من مناقشات خاصة بالسودان وحوادثه وميزانيته ومشروعات الخزَّانات والسدود والقناطر؛ سواء أكان ذلك على البحيرات التي ينبع منها النيل أم على فروعه، وعلاقة تفاتيش الري المصري بالسودان ونقطه، وعلاقتها بتلك الأعمال وما تصرفه مصر عليها.

ومن أبرز تلك الأعمال في الوقت الحاضر، إقامة خزان جبل الأولياء على النيل الأبيض قبلي الخرطوم، تحت إشراف المهندس المقيم القدير عبد القوي أحمد بك، ومساعديه، والآلاف المؤلَّفة من العمال المصريين من الصعيد، الذين يشتغلون في إقامته، ويعاونهم في ذلك إخوانهم العمال السودانيون.

وعقد المؤلف فصلًا ممتعًا عن الجيش المصري قديمًا وحديثًا، وحادث خروجه، وتأليف قوة الدفاع عن السودان، والاعتماد المخصص لها في ميزانية وزارة الحربية، ومناقشات البرلمان حول دفع هذا المبلغ.

ومما تَقَرُّ له العين، وتستريح له النفس، أن يرى قارئ الكتاب ترجمة حياة ذلك الأمير العظيم حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون، ثم يقرأ آراءه العالية — جليَّة واضحة وموضوعة في مناسباتها — ذلك الأمير الغيور على توثيق العلاقات بين مصر والسودان توثيقًا علميًّا وعمليًا، ولا ريب أن سموَّه قد أصبح حجَّة في تاريخ السودان وتطوراته، كما أصبح يضيء لنا الطريق في هذه المهمة النبيلة، وينبوعًا يفيض بالخير والبركات على مصر والسودان والشرق جميعًا.

ولم يفُتْ المؤلف الأديب أن يبسط لنا شئون السودان الزراعية والاقتصادية والأدبية والاجتماعية، بسطًا وافيًا دلَّ على رسوخٍ في العلم ودقةٍ في البحث وسعةٍ في الاطلاع.

ولما كانت مشروعات الري ومسألة الخزَّانات قد أثارت، وما زالت تثير اهتمامًا في مصر والسودان، فقد عالج المؤلف هذه المشروعات مشروعًا مشروعًا، وخزانًا خزانًا، كل ذلك مدعَّمًا بالتواريخ والأرقام وآراء الفنيين العالميين.

ولم يفت المؤلف أن يسرد على مسامعنا تاريخ الصحافة في السودان، والأدب والشعر والأغاني والعادات وحالة المرأة ونظام الحكم والقضاء والطرق الصوفية وبعثات التبشير.

وقد سجَّل لبعثتنا المصرية تاريخًا، ألَمَّ فيه بما كتبه من وصفٍ لرحلتنا يومًا يومًا، ومقدمات الرحلة ونتائجها، وقد رسم المؤلف المبدع بريشته التحليلية صورًا لأشخاص زملائه أعضاء البعثة، كما كتب تاريخًا للهيئات التي اشتركت فيها.

وقد شاء أدبه وكرم نفسه ووفاؤه لأصدقائه أن ينشر لأسرتنا تاريخًا، وأن يخصَّ هذا الضعيف بترجمة حياته، وأن يعزو إليه فضلًا في سفر البعثة ونجاحها وتوثيق العلاقات بين القطرين الشقيقين اللذين وحَّد النيل بينهم، فأخجل تواضعنا، واستأهل الشكر من كل فرد من أفراد أسرتنا.

وبعد، فهذا قليلٌ مما وسعته العجالة من تنويه بهذا السِفْر النفيس، وإلا فالحديث عنه طويل لا يُملُّ، وكل كثير في إطنابه قليل في تصويره، ضئيل في بيان فضله.

وها هو الكتاب في أجزائه الثلاثة مبسوط للقراء، وحسْبُهم مطالعته للوقوف على مزاياه والإفادة من بحر علمه الواسع، وهو كتاب يفيد كل طالب وباحث وقارئ وسياسي ومدرس وصحفي وتاجر؛ حقًّا إنه مفيد لجميع الطبقات، ونَدُرَ أن يوجد مؤلَّف جامع يضعه بحَّاثة قدير يفيد الخاصة والعامة معًا كما يفيد هذا الكتاب.

بقي قبل أن أختم هذه الكلمة أن أذكر شيئًا عن صديقي المحبوب الأستاذ عبد الله حسين، وقد أتيحت لى الفرصة بالتعرف به منذ سنوات كثيرة في حفلات خاصة وعامة، وكنت في كل مرة ألقاه أزداد حبًّا له وتقديرًا، وقد عرفت فيه شابًّا مهذبًا جميل الشيم، أمامه مستقبل زاهر.

على أن الحق أقول إن اشتراكه معنا في البعثة قد كشف لنا عن سجاياه نورًا وضَّاءً وأدبًا رائعًا، حتى أَحبَّه واحترمه جميع أعضاء البعثة، لا أستثني منهم أحدًا، وكلهم يذكر له نشاطه العجيب وصبره الجمَّ، وأنه كان يدوِّن المعلومات في لباقة، وفي غير إثقال على أحد؛ ففتحت له مغاليق الأبواب، وشجعه الجميع، وما منا إلا وقد أكبر المؤلف في تلك المقالات الفياضة الممتعة؛ إذ كان يأبى أن يخلد إلى النوم أو الراحة بعد انتهاء زياراتنا والحفلات التي دعينا إليها، فكان يسهر الليل حتى ينتهي من وصف الحفلات التي شاهدها نهارًا ومساءً.

وقد كان حَسْبُ المؤلف غبطةً وفخارًا، حسن تدوين وصف رحلتنا يومًا يومًا، ولكن جهد المؤلف في إخراج كتاب يعدُّ الأول من نوعه ومنهاجه، لا في اللغة العربية وحدها، وإنما في اللغات الأخرى، يعدُّ شيئًا فذًّا، وعملًا لا يقوم به عادة إلا الجماعات العلمية والبعثات التي تنصِّب نفسها للبحث، وتمدُّها الهيئات بالمال، ومن الأسف أن الأوربيين قد سبقونا بوضع مؤلفات كثيرة عن السودان، مع أن علاقاتنا بالسودان قديمة، ومنَّا الألوف الذين عاشوا فيه قديمًا وحديثًا، وقد أنفقنا فيه بدر المال وأعز الرجال.

ومما يغتبط له كل مصري أن يقوم الأستاذ عبد الله بسدِّ هذا النقص بمؤلفه الجامع، الذي يتبوَّأ — بلا شك — مركزًا ممتازًا بين المؤلفات العربية والأجنبية عن السودان.

ونغتبط أيضًا بتلك الظاهرة الجديدة في صحافتنا المصرية، باشتراك شبابنا الأكفاء المتعلِّمين المهذَّبين في تحريرها، وأن جريدة «الأهرام» الغرَّاء لجديرة بالتهنئة حقًّا بوجود المؤلف في الصف الاول من كتَّابها ومحرريها، بل إن صحافتنا كلها جديرة بالتهنئة بأن يكون المؤلِّف من أعضاء أسرتها الكريمة، فضلًا عن تهنئتنا لأسرة المحاماة وللأسرة القانونية عامة، بإنجابها شابًّا ألمعيًّا نابهًا، يشرِّف كل هيئة ينتمي إليها.

وقد فاتني أن أشير إلى الأسلوب البليغ الذي كتب به المؤلف كتابه؛ فهو السهل الممتنع، والفصيح المبدع، وهكذا كان الأستاذ عبد الله كالمعدن النفيس؛ تزداد قيمته ويجلو بهاؤه كلما أمعن الناظر فيه، وكالفن الجميل؛ يأخذ سحرُهُ بألباب الفنان كلما تمعَّن فيه.

وجدير بوزارة المعارف أن تقرِّر هذا الكتاب في مدارسها، فمن الأسف أن الوارد في كتب الوزارة عن السودان؛ تاريخًا واقتصادًا وجغرافية، ضئيل لا يشفي الغلة، ولا يساعد

على فهم حقيقة السودان. هذه كلمة أوحى بها اطلاعي على الكتاب، ودفعني الإخلاص لتقديم الكتاب بها، والله أرجو أن يثيب المؤلف عن كتابه أحسن الجزاء، وأن يُكثِر من أمثاله بين شباننا العاملين، وإنه سميع كريم مجيب الدعاء.

بقي لي كلمة للقراء في مصر والسودان:

كل من يريد أن يلمَّ بالمسألة السودانية، أو يتباحث فيها، يَحسُن به أن يستوعب ما في هذا الكتاب النفيس من بيانات، ثم يَحسُن به جدًّا أن يُتْبِع ذلك بزيارة للسودان؛ لاستيعاب معلوماته عن قرب، وليرى بعينيه الصورة الحقيقية له، ليقابلها بسابقة تصوُّراته وخيالاته، وواجبٌ على المصري وعلى السوداني مطالعة ما جاء فيه، وكذلك طلبة المدارس والمعاهد؛ لمعرفة تاريخ بلادهم.

قد يقف القارئ عند كلمة أو جملة تثير شجونه، أو تحرِّك الذكريات المؤلمة من هذا الجانب أو ذاك، وموضوع الكتاب لا يمكِّن المؤلِّف إلا أن يصطدم بتلك الذكريات في خلال سرده للحوادث الحربية والثورية والسياسية ... إلخ، ولكن لا حيلة له إلا سردها متوخيًا الحكمة بقدر ما تمكِّنه قدرته الكتابية في بلوغ غرضه، على أنه لا شك في أن القارئ يخرج من هذا الكتاب الثمين بطائفة كبيرة من المعلومات كانت خافية عليه، ويشعر بإحساس عميق من العظة والاعتبار، وعفى الله عما سلف.

وقد كان من توفيق المولى — سبحانه وتعالى — أن تمكَّنت البعثة المصرية من السفر للسودان في أوائل هذا العام، ومهما حاولتُ التعبير عن شكرنا لإخواننا السودانيين الذين حظينا بلقياهم من بورسودان شرقًا إلى الأبيض غربًا إلى الخرطوم ثم العطبرة ووادي حلفا شمالًا، وما بين تلك المدن الزاهرة من البلاد والأحياء والحلل، ومن يقطنها من الجماهير الغفيرة التي لا يحصيها عدٌّ ولا حصر، فلا يمكنِّي إيفاءهم حقَّهم من الثناء؛ فقد خرجنا من زيارة السودان بنتائج ما كنا نحلم بها؛ لقد توطدت أواصر المحبة بينهم وبيننا نتيجة التعارف والاختلاط، وعندما قابل المصري أخاه السوداني في أي مكان حلَّ به وجد الطباع منسجمة والعادات متفقة، وقصارى القول، اكتشفنا أن لا تنافر ولا خلاف، بل وجدنا أنفسنا أهلًا وخلَّانًا على أتم ما يكون من الصفاء.

وفقنا الله لما فيه الخير للجميع.

مصر في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٥

عبد الله حسين كما عرفته

بقلم العالم الفاضل والأديب الكبير الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي المفتش بوزارة الأوقاف

في ليلة من ليالي شهر يونية سنة ١٩٢٤، كان عليَّ أن أكون بحجرة السكرتارية للزعيم الخالد «سعد» ذي الرياستين، وهو — ليلتئذ — بحجرة الوزراء يتروَّح أثناء انعقاد جلسة مجلس النواب، وكان قد طلب إليَّ الزعيمُ أن أرقب سير المناقشة في استجوابٍ طرحه على هيئة المجلس أحد ممثلي الحزب الوطني من النواب، وموضوعه: «مناقشة دارت في مجلس العموم الإنجليزي بشأن نهر الجاش، والأعمال التي تقوم بها دولة إيطاليا على ذلك النهر»، فكنت أحرَص ما أكون على ما أسمع؛ لأنقله إلى الزعيم، حتى إذا ما حقَّت كلمة الحكومة تحوَّل «سعد» إلى القاعة الكبرى فقالها حكيمة مبينة قاطعة …

في تلك اللحظات عرض لي شاب بدين، طلق المحيَّا واضح البسمات، وسألني أن يلقَى «سعدًا»، فاستمهلته حتى تنتهي الجلسة، فلما عاد «سعد» رئيس الحكومة إلى حجرة الوزراء ظافرًا على عادته في مسألة الاستجواب، وجدت في نفسي نوازع إلى رؤية «الشاب»، ووددت أن أسهِّل له لقاء «سعد»، وهو في ساعة من ساعات رضاه.

دخلت حجرة السكرتارية، فإذا الشاب لا تفارقه بسماته، ولا تَدَعْكَ نظراتُه، متوثب معتزم، يشغلك عن الفكر في سواه، فوجَّهت إليه خطابي في تودُّد وتلطُّف: سأحاول أن

تقابل الآن الرئيس، وأرجو أن يسعدك الحظ فألقاه وأستأذنه وهو لا يزال بهجًا كما غادر الجلسة. طرقت الباب ومثُلتُ بين يدي سعد، فقال: ماذا عندك يا جديلي؟ قلت: أمَّا (ما) عندي فإعجاب الزائرين الذين شهدوا جلسة الليلة، حتى لقد تجمَّعوا في فناء المجلس لتحية الزعامة في موقفها الوطني المشهود تلك الليلة، وأما (من) عندي، فعبد الله حسين!! هنا أغرق «سعد» في الضحك، وقال: هكذا تمتاز الطريقة الأزهرية، وهكذا يحق لنا الفخار بها.

لم يشأ (رحمه الله) أن يردَّ زائري، فأمر بإدخاله. دخل الشاب يدلف في نشاط حتى حيَّا الزعيم، فأمره بالجلوس، وجرت أحاديث وتشعبت موضوعاتها حتى جاء ذكر الزعيم الصحفي العظيم «الشيخ علي يوسف»، فعلَّمنا سعد عنه ما لم نكن نعلم؛ من شغفه بصحيفته، وهيامه بعمله، وضرب لنا الأمثال في ذلك، ثم نظر إلى الشاب يستطلع ما لديه في ذلك، فإذا هو من ذوي القربى لصاحب المؤيد، بل هو قد درج ونشأ ويفع في حضانة المؤيد.

استدناه «سعد» وقرَّبه، ثم قال: من عجبٍ ألا يوجد قلم يردُّ طغيان الجرائد الأجنبية عمَّا تخوض فيه الآن في أسلوب منطقي هادئ مقنع، وأخذ سعد يعالج الموضوع معالجة صحفية، ثم انتهى المجلس وودَّع سعد الحاضرين، والجمهور في الطريق يضجُّ هتافًا ودعاءً، حتى بلغ بيت الأمة …

في الأمسية الرابعة لتلك الليلة، حضر «الشاب» يحمل حزمة من الصحف الأجنبية، وطلب لقاء «سعد»، فسرَّني أن أبلغ مقدمه للزعيم، فأذن له ودخل، وإذا هو قد دبَّج مقالًا في بعض الصحف الأجنبية، ما خرم حرفًا، ولا تجاوز فكرة مما أراده «سعد» قبل ثلاث ليال. عجب سعد لهذا الشاب، وأطراه، ورجا له غاية بعيدة.

منذ ذلك الحين عرفت «عبد الله حسين»، وتوثَّقت بيننا الصلات؛ فكان من خلصائي، وذوي ودي، وعرفت في غضون صداقتنا أنه شخص ممتاز موهوب، وإن شئت فقل إنه أعجوبة من الأعاجيب.

نشأ في دار المؤيد؛ إذ يتزعَّم الشيخ علي يوسف أسرته، فكانت عين المؤلف لا تقع إلا على التحرير والتحبير، وهو إذ ذاك غلام مراهق، فعلق بنفسه ما كان يراه ويسمعه، وشهد ما كان يطوِّق دار المؤيد كل يوم من رتل السيارات تحمل عظماء الأمة وكبار رجالاتها، وكلهم حريصٌ على لقاء شيخ المؤيد، فعرف «عبد الله حسين» الصبيُّ ما للصحافة ولرجالها من

مكانة في المجتمع المصري، ولعل أحبَّ شيء إلى نفسه لم يكن غير أن يصبح صحفيًّا، ولم يجد ميدانًا يبرز فيه ميله النفسي غير صفحات كراساته المدرسية؛ فكان مدرس العربية يلقي إليه بموضوع الإنشاء، فلا يلبث أن يحوِّله إلى مقال ضافي الذيول، محبوك النسيج، حتى عُرِفتْ موضوعاته بين أقرانه في المدارس الابتدائية والثانوية بأنها مقالات.

وكان إعجاب أساتذته بكتاباته مغريًا له بأن يلتهم القواميس ويحاول حفظها، ولعل محاولاته هذه وهو في تلك السن، ثم لعل إرشاد أساتيذه له من ذلك الحين، قد خرَّج منه على طول السنين كاتبًا ألمعيًّا متفوقًا، عُني بالمعاني، وأعرض عن المقدمات، بل كرهها كرهًا. وإننا لنعرف مبلغ اهتمام أساتذة الإنشاء بمحو المقدمات في كراسات تلاميذهم، فلست رائيًا في كتابة عبد الله حسين الشاب المكتمل إلا الموضوعات محوطة بالحجج، يتمشَّى فيها المنطق الصحيح، ثم لا يزال بالقارئ يستهويه ويتنقَّل به إلى حيث يؤمن بصدق نتائجه، وصحة رأيه وحكمه.

ما رأيت عزمًا يعمل في الصعاب، ولا دأبًا يبدِّد العقبات، ولا أدركت إلى أي شأوٍ تبلغ الهمة بصاحبها، مثلما عرفت ذلك كله في «عبد الله حسين».

مات الشيخ «علي يوسف»، وأخذت «المؤيد» الأحداث، وتقلقلت حياة المرحوم السيد عبد الله حسين أبو صغير عميد آل صغير ببني عديات — منفلوط — مديرية أسيوط، مدير إدارة «المؤيد»، والد «عبد الله»، وقد كان أثرًا لدى الشيخ علي، بل كان صفوة أقربائه، وأخلصهم، وأعرفهم بشئونه، ترك له الشيخ علي تدبير خاصته، وكان يستشيره، ويصدر عن رأيه، وكانت الحياة نضيرة الجنبات ترفُّ عليه بخيرها، فلما تبدَّد تراث «المؤيد» كان من آثار ذلك أن شرع «والد المؤلف» يهيِّئ حياته مستقلة، ويوجِّه كل جهوده لإعداد ابنه الوحيد «عبد الله».

عانى الوالد شدائد؛ ولقي «عبد الله» ما كان حريًّا بأن يثنيه عن تمام دراسته، بل أن يقنعه بالدخول في تلك الوظائف، لكنه ما انثنى ولا قنع، فما زال يرتقي من دراسة إلى دراسة حتى ضاقت به دور العلم في مصر، ورأى مطامحه أفسح من هذا الأفق، فارتحل إلى بلاد الفرنجة وهو مسلَّح بهذا العزم القاطع، وذلك الخلق القوي، وعاد وهو يجيد الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية، هذا إلى لغته العربية التي حذقها حذقًا، وجعل لنفسه فيها أسلوبًا فذًّا يعرفه كل من قرأه، حتى لقد شاهدت الكثيرين يطالعون صدور «الأهرام» ولا يجدون توقيعًا لهذا الصدر، فيقسمون جهد أيمانهم أن الكاتب «عبد الله حسين»، وهم بررة في أيمانهم.

عاد وقد اجتمعت له إجازات دراسات كثيرة، ومنها إجازة الحقوق، فغامر في ميدان المحاماة على عادته من حب المغامرات، فما كاد يجري الشوط الأول حتى كان من أعلامها، جاءه مال كثير، واجتمعت له صفات المحامي الناجح من صدق ونزاهة ودأب، لو استراحت الكواكب ما استراح «عبد الله»؛ فهو دائمًا ينتقل في البلاد، ويغشى دور المحاكم، ويقدِّم المذكرات، ومن أبهر ما عرف له أن وقف في قضايا الاغتيالات السياسية إلى جانب المحامين المقاول مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومرقص حنا وأحمد لطفي، ثم شاء الله، وشاءت عنايته بموكله (…) أن صدر الحكم ببراءته، فكان لهذا دوي عظيم في الدوائر المختلفة.

وله في ميادين الاجتماع والخير آثار؛ إذ كان أحد واضعي قانون التعاون عندما كان عضوًا باللجنة التعاونية العليا، وقد سمعتُ من المرحوم فتح الله بركات باشا — إذ كان وزيرًا للزراعة سنة ١٩٢٦–١٩٢٧ — ثناءً على المؤلف في هذا الضرب من العمل، وهو من مؤسسي جمعية التقوى، التي حقَّقت تعليم ألوف الأميِّين القرويِّين، وهو أمين صندوقها.

لو أن هذا المِدْرَه القدير قد بقي في هذا الميدان لأشرف على الغاية القصوى؛ فهو من ناحية القانون ثَبْتٌ عميق، ومن ناحية البحث هادئ منطيق، وله هيام بالمطالعة؛ حتى لينسى أنه إنسان يأكل وينام، فهو يواصل الليالي ذوات العد حتى ليكاد أخصاؤه يشفقون عليه، فيطفئون السراج وهو يغالبهم، ويقول إن نشاطي لا يتجدد، وذهني لا يحتدُّ إلا وأنا على هذا النهج من الحياة!

نعم، ليته بقي محاميًا بحاثًا، وليته جمع أبحاثه القانونية، ومذكِّراته القضائية؛ إذن لكان فيها غناء وأي غناء. ومن عجبٍ أنه يترفَّع عن إخراج الكتب على كثرة ماله؛ من دراسات وأبحاث ومذكرات؛ لأنه يضنُّ بمجهوده أن يخرج في غير إهابه اللائق، أو على صورة تجارية؛ لهذا، عندما أراد إخراج كتابه هذا … احتفل له، ورصد كل جهوده، ولم يسمع بمصدر من المصادر؛ فرنجيًّا أو عربيًّا، إلا وقد استشفَّه، وأوغل فيه، ثم ما زال يرتِّب الأبواب، ويفصِّل الفصول، ويُحكِم المقدمات، ولا يستكثر شيئًا من جهوده على هذا الكتاب، حتى خرج كما يرى القراء دائرةَ معارف لم تدع شاردة ولا واردة عن السودان إلا أحصتها في أسلوب من النسق العالي.

كلما تخصَّص للمحاماة جذبته الصحافة إليها، فحنَّ لها، لكنه ما فتئ يرى في الأفق الصحافي والسياسي أشياء ينبو عنها طبعه، وتنفر منها نحيزته «الصريحة»؛ فهو صريح جدًّا، حتى خلقته خرجت صريحة هي أيضًا، فكأنما تقرأ في قسمات وجهه مطويَّ نفسه؛

فهو لا يحب المواربة، وأفق السياسة وجو الصحافة مليء بالدسائس والأنانية والاستغلال والمصانعة. فكثيرًا ما شاهدت «عبد الله» برمًا متضجرًا ضائق الصدر، ينتوي أن يحيا في أفقٍ وجوٍّ يستطيع التنفُّس فيه بملء رئتيه هواء صالحًا نقيًّا، وقد شاهدتُه يجمع رأيه على أن يدع الصحافة، وإن كان حنانه إليها يعاوده فيجيئه أصدقاؤه يثنون عزمه، ويقفون في سبيله؛ استزادة واستكثارًا من نفثاته الوطنية البريئة.

وجملة القول، فلقد عرفت «عبد الله حسين» صحفيًّا أمينًا ماهرًا نشيطًا ظريفًا واعيًا، يستمع لكل ما يقال، ولا يكتب مذكرة ولا مفكرة، ثم يصبُّ الحديث ما يخرم منه حرفًا، وعرفته معتزمًا مريدًا، ومحاميًا قديرًا، واجتماعيًا مستبحرًا، وصديقًا وفيًّا يتحرق على الأصدقاء، ويقدِّس الوفاء، ووطنيًّا لم تختلط وطنيته بدنس ولا عاب، وهل في استطاعتي أن أرضى الحق، قبل أن أقول: «إن عبد الله حسين أمة وحده»؟!

كلمة المؤلف

تفضَّل حضرة صاحب السمو الأمير العظيم عمر طوسون بتحلية جِيد الكتاب بكلمة التصدير التي استهللنا بها الكتاب، وتفاءلنا بها يمنًا وخيرًا، ونعدُّها فخرًا وشرفًا من لدن ذلك الأمير البحَّاثة العلَّامة الحجَّة الثَّبْت في مسائل السودان والمسائل العامة الأخرى، ولسموِّه منَّا كثير الشكر، ومن الله تعالى عظيم الأجر.

وتكرَّم حضرة صاحب العزة فؤاد أباظة بك، المدير العام للجمعية الزراعية الملكية، بوضع المقدمة النفيسة لهذا الكتاب، وتفضَّل علينا بثناء نقبله على اعتبار أنه تشجيع وصداقة وتعاون في توثيق العلاقات بين مصر والسودان، وإلا فنحن لا نرى أننا فعلنا إلا واجبًا من واجبات كثيرة علينا نحو العلم والتاريخ والسودان ومصر.

وشاء أدب صديقنا الحميم وأخينا الوفي العالم الأريب واللوذعي الأديب الأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي أن يتفضَّل على أخيه المؤلِّف بترجمة حياته وفاءً منه، بل كرمًا وتقدمة، وإلا فإن المؤلف دون ما وصف الصديق، ولا يعدُّ تلك الصفات التي خُلعتْ عليه إلا نبراسًا له، ومثلًا أعلى يرجو أن يتحقق على طول الزمان.

وما كان بي — بعد هذا — حاجة لتقديم الكتاب إلى القراء، غير أن لي كلمة أقولها عن الأسباب التي دعتني إلى تأليفه؛ ذلك أنه منذ الطفولة وأنا أسمع أخبار السودان وحوادثه؛ لأن سنَّ طفولتي قد اقترنت باستعادة السودان، وبالسنين التي تلتها، ولأن قضية شهيرة اسمها قضية التلغرافات — وقصتها في صفحة ٨٨ من الجزء الثاني من هذا الكتاب — كانت حديثًا يُذكر ويتناوله المرحوم والدي وأسرتنا. كما أنني طالعت وأنا في مستهل الدراسة الابتدائية كتاب «السودان بين يدي غوردون وكتشنر»، تأليف المرحوم اللواء إبراهيم فوزي باشا، وكما أن الصحف المصرية، وفي مقدمتها جريدتنا «المؤيد»، كانت

تواصل الكتابة عن السودان وأخباره وعلاقاته، وتنشر في كل عام الاحتجاج على اتفاقية سنة ١٨٩٩ وعدها باطلة.

فكنت أتابع الاطلاع على مؤلفات كُتبت عن السودان، وكتابات الصحف، وكان عمي وآخرون من بلدتنا «بني عديات» يذكرون التجارة التي كانت قائمة بطريق القوافل بين أسيوط والسودان عن طريق درب الأربعين، وأن أغنى الأسر الأسيوطية وأشهرها قد أَثْرَتْ من الاتجار بمحاصيل السودان ومنتجاته وتصدير البضائع المصرية إليه، وقد أتاحت لي بيئة جريدة «المؤيد» الوقوف على السياسة الوطنية المصرية والحالة العالمية منذ الصغر، فوجَّهت عناية خاصة إلى السودان وشئونه، حتى إنني فكرت أن أجعل إقامتي في السودان عقب إتمام دراستي العالية، ولكن عندما انتهيت من هذه الدراسة أصبح السودان غير صالح لتوظُّف المصريين فيه؛ إذ كنت أروم أن أُعيَّن قاضيًا مدنيًّا من قضاته؛ لأغتنم الفرصة للوقوف على البلاد السودانية ودراستها دراسة وافية.

واصلت مراجعاتي واطلاعي على الكتب المؤلفة عن السودان باللغات المختلفة، ولكنني كنت أجد في تاريخ السودان ثغرات ينقصها البحث والتقصي، واتصلت، في أثناء حضوري محاضرات القسم الجنائي في الجامعة المصرية القديمة، ببطل السودان حضرة الدكتور محجوب ثابت؛ إذ كان أستاذًا لنا في الطب الشرعي، ثم اتصلت بجريدة «الأهرام»، فأنمى هذان الاتصالان رغبتي في دراسة الشئون السودانية؛ لأن كلًّا من جريدة «الأهرام» والدكتور محجوب الذي كان يكتب فيها مقالاته السودانية، كان يُعنى بالسودان عناية ممتازة.

لكن مطالعاتي كان ينقصها زيارة السودان، وطالما فكرت في زيارته، ولكن العمل المضني المتواصل الذي نزاوله بغير انقطاع شغلني عن الزيارة، إلى أن كانت رحلة البعثة المصرية؛ فأظهرت رغبتي في الاشتراك فيها، وقد تفضَّل صاحب المقام العظيم حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون بالإذن لحضرة صاحب العزة فؤاد أباظة بك، الذي كان أول مرحِّب باشتراكي، بقبولي في البعثة، حتى إنني نُدِبتُ من قِبَل البعثة مندوبًا عن الصحافة المصرية كلها، لولا أن رغبت صحف أخرى في أن يكون لها مندوبون، فصرت مندوبًا خاصًّا «للأهرام».

بعد عودتي من البعثة طلب إليَّ الكثيرون أن أجمع مقالاتي عن الرحلة في كتاب، فرأيت أن أضع كتابًا كاملًا عن السودان من التاريخ القديم، وأنتهي به إلى رحلتنا، وها

أنا أقدِّمه للقراء الكرام، شاكرًا لجميع حضرات الذين تفضَّلوا بإعطائي البيانات الوافية، وعلى رأسهم سمو الأمير الجليل عمر طوسون.

والجزء الأول عن تاريخ السودان منذ الفراعنة إلى الثورة المهدية، والثاني من قمع الثورة إلى الحكم الحاضر، والثالث في رحلة البعثة مع البيانات الشاملة.

وأرجو أن يحقِّق هذا الكتاب الغرض الذي قصدتُ، والنحو الذي أردتُ، وهو وضع تاريخ شامل للسودان، وشئونه الجغرافية والاقتصادية والزراعية والاجتماعية والأدبية والعلمية، ولولا ضيق الوقت وكثرة النفقات لكان كتابي أضعاف ما صدر من الصفحات، على أن في باب المراجع الغناء لطلاب المزيد، وإنني لأرجو أن يكثر القادرون من التأليف في السودان؛ لأنه من الأسف أن نرى نصيب المصريين والسودانيين والناطقين بالعربية أقل من نصيب غيرهم في هذا الباب من التأليف.

والله أرجو أن يوفِّقني لمواصلة الاشتراك في خدمة مصر والسودان وأهلهما، ففي هذا كل فخري وأكبر آمالي.

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٥

الفصل الأول

سكان السودان

السودان قطر من أقطار إفريقيا، وسكانه الأصليون هم سكان إفريقيا، وسكان إفريقيا الأصليون هم السود أو الزنوج أو العبيد؛ أي: أولئك الذين لهم بشرة سوداء، وقامات في الغالب مديدة، ولكن هجر إلى السودان من قديم الزمان عرب الحجاز واليمن وآخرون من آسيا، وأقوام من الأمم المجاورة؛ كالحبشة ومصر وبربر بلاد المغرب، واختلطوا بأهله بعض الاختلاط، وامتزجوا بهم إلى حدٍّ ما، وكانوا يحضرون إليه للتجارة، للصيد، واقتناء ريش النعام وسن الفيل والصمغ والماشية، وبعد الفتح الإسلامي هجرت إليه قبائل عربية حجازية ويمنية ومغربية أو بعض أفرادها، وسادت أهله الأصليين وامتزجت بهم بالزواج، فكسب الوافدون السحنة السوداء قليلًا أو كثيرًا، وشيئًا من العادات، كما طاردوا عددًا كبيرًا من السكان وردُّوهم إلى الجنوب، ومن ثَمَّ احتفظ جنوبي السودان بطابع السكان الأصليين كما كان عهدهم منذ آلاف السنين، مع شيء يسير من التقدُّم، ظهر في المدن التي أنشأها الغزاة من قديم وإلى اليوم، وحوالي هاتيك المدن.

ويعيش سكان الجنوب على نظام القبائل، وهم أهل فطرة وسذاجة، وفي بعضهم ذكاء عجيب لا مثيل له أحيانًا في البلاد المتمدينة نفسها، ومن ثَمَّ احتفظوا بخلق أهل الفطرة؛ من شجاعة ومحاربات متواصلة وكرم طبيعي، ومجاهدة مع الطبيعة القاسية؛ بحرِّها وأنوائها وأعاصيرها وهبوبها، وأمراضها من الملاريا والحميات ومرض النوم.

وهم سريعو الانضواء تحت الإسلام؛ فقد حدَّثني بعض الثقاة أنه كان يحدث أن يحضر من شمالي السودان العربي «الجلاب» من المتَّجِرين بالماشية ويغشى مجتمعات الزنوج، ويؤدِّي فريضة الصلاة أمامهم، فسرعان ما يحاكيه القوم في صلاته ودعائه، ويردِّدون ألفاظه على غير فهم في بداية الأمر، ثم بتفهُّم وتفاهم، ويصير الزنجي مسلمًا، هذا إلى مَن أصبحوا مسلمين بالزواج أو الخدمة في الجندية وفي منازل المسلمين.

ولا شك أن العربي السوداني المسلم أقرب إلى التفاهم مع الزنوج من أي شعب آخر. وقد انتشر الإسلام بين زنوج إفريقيا بصفة عامة، من غير أن يفكر المسلمون في تنظيم البعثات أو إيفاد العلماء أو إقامة مستشفيات أو إعطاء إعانات وإنشاء مدارس لهم، وكُتُب الكثير من أهل الرحلات الأوربيين طافحة بأنباء انتشار الإسلام في إفريقيا انتشارًا طبيعيًّا اطراديًّا.

على أنه لا تزال في جنوبي السودان وفي إفريقية قبائل زنجية لا دين لها، ولا تلبس ثيابًا حتى، ولا تضع خرقة لستر العورات، وهناك بعثات تبشيرية مسيحية كثيرة تعيش في هذه الجهات، وتقيم المدارس والمستشفيات والكنائس والملاجئ، وتبذل صنوفًا شتى من وسائل الإقناع لحمل الزنوج على الانتماء إلى المسيحية.

(١) سكان السودان

قبائل كثيرة جدًّا، أصولها: الزنوج، والبجة، والعرب، والنوبة، والمولَّدون والمهاجرون.

(٢) الزنوج

قبائل كثيرة؛ منها: الشلك: غربي النيل الأبيض عند بحيرة نو، يعيشون في قرى متسلسلة، لكل قرية شيخ، ولكل مجموع من القرى ناظر، وأفرادها أقوياء وشجعان وطوال.

والدنكا: شرقي النيل الأبيض، سود الوجوه، وهم أجمل الزنوج شكلًا. والنوير: بين بحر سبت وبحر الغزال، في منطقة السدود والمستنقعات، ويسكنون الجزر. ثم قبائل الباري، والمادي، واللاتوكا، والمكارك، والجانقي، والبنقو، والقولو، والجور، والأجار، والديور، والشيري، والنيام نيام، والفراتيت، والنوبة: وأفراد النوبة يسكنون جنوبي كردفان، وأجسامهم عارية «ص٤٦ من كتاب تاريخ السودان لنعوم شقير بك».

ويشتغل الزنوج بالصيد، ويربون البقر والماشية، ولكل قبيلة لغة ومذهب وديانتهم الطبيعة، أو هم لا دين لهم، وقد وضع بعض الإنجليز والمرسلين كتبًا للغات الزنوج؛ لكي يتعلمها الموظَّفون والباحثون.

شابان محاربان من قبائل الشلك.

(٣) البجة

والبجة أو البجاة أو البيجة، هم سكان الصحراء الشرقية، بين النيل والبحر الأحمر، من بقايا شعوب إيتوبيا القديمة، ويقال إنهم من سلالة أولاد كوش بن حام الذين هاجروا إلى السودان بعد الطوفان. ويقول المؤرخون إن البجة كانوا وثنيين، ثم أصبحوا مسلمين عند هجرة العرب إلى إفريقيا، ومن قبائل البجة: العبابدة، ويتصلون بأسوان. والبشارين أو البشارية، من القصير حتى سواكن والأمرار.

دنكاوي زنجي محارب في أبهى زينته.

(٤) الهدندوة

وهم أقوى البجة وأكثرهم عددًا، يسكنون الصحراء بين خور بركة والعطبرة وطريق بربر وسواكن، وفسَّر بعضهم اسم «هدندوة» بأنه مشتق من هدا: بمعنى أسود، وأندوة: بمعنى القبيلة، ثم قبائل بني عامر، والحباب.

(٥) النوبة

والنوبة هم الذين يسمون أحيانًا البرابرة، ويسكنون ما بين الشلال الأول والشلال الرابع، وهم خليط من النوبيين الأصليين والعرب والترك، والنوبة من بقايا الشعوب التي كانت تتألَّف منها المملكة الإتيوبية القديمة.

نسوة من النوير.

ومن النوبة: الدناقلة، وهم سكان ما بين الشلال الثالث والرابع، ومن قبائلهم: الأشراف التي ينتسب إليها السيد محمد أحمد المهدي، والمحس، بين الشلال الثالث وجبل دوشة، وأهل سكوت، وأهل حلفا، والدر، والكنوز.

وهم أهل زراعة وحياكة وتربية ماشية ومراكبية، وفي خارج بلادهم يحترفون خدمة المنازل والحوانيت وقيادة السيارات.

(٦) العرب

العرب، وهم الذين سكنوا السودان بعد الإسلام، وهم أكثر سكان السودان عددًا وأوفرهم حضارة وذكاءً وعلمًا.

وقد سكن فريق من الأتراك السودان بعد فتح السلطان سليم سنة ١٥٢٠.

قبائل العرب

أشهر قبائل العرب — وهم الذين سكنوا السودان بعد ظهور الإسلام — هي قبائل الشايقية، والمناصير، والرباطاب، والميرفاب، والجعليين، والجميعاب، والسروراب، والعابدلاب، والجموعية، والحسنات، ودغيم، وكنانة، والرفاعية، والمسلمية، والكواهلة، والحلاوية، ثم المدنيون، والعراكيون، والشامباتة، والعقليون، والقواسمة، واللحويون، وبنو حسين، والزبالعة، ثم الفونج، وهم الذين أسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب، ويدَّعون النسب إلى بني أمية، والهمج وزراء الفونج.

أما قبائل البادية فهي: الشكرية، والبطاحين، والضباينة، والحمران.

وأشهر قبائل العرب في صحراء البيوضة: الحسانية، والهواوير، والخواوير.

وقبائل العرب في كردفان هي: الجوامعة، والبديرية، والتمام، والغديات، وهذه القبائل الأربع حضرٌ، وبقية سكان كردفان بادية، وهم إما أبَّالة؛ أي: يملكون الإبل ويربُّونها، وإما بقَّارة؛ أي: يملكون البقر.

ومن الأبَّالة: قبائل الكبابيش، ودار حامد، وبنو جرار، وحمر.

وأشهر قبائل البقَّارة: الحوازمة، والجمع، والهبانية، وأولاد حميد.

وأشهر قبائل العرب في دارفور من الأبَّالة: الزيادية، والماهرية، والعطيفات، والمعالية، والعريقات. ومن البقارة: الرزيقات، والهبانية، والمسيرية، والتعايشة، وبنو هلبة، وعرب البشير، وبنو فضل، وبنو حسين، والكروبات، والحوتية، والخوابير، والبرياب.

وترجع أصول هذه القبائل إلى قبائل عربية في آسيا، هي: بنو أمية، وبنو العباس، وجهينة، والزبير بن العوام، وجعفر الطيار.

(٧) أصول أخرى لسكان السودان

ومن سكان السودان غير ما قدَّمنا: المصريون: الذين دخلوا السودان قبل فتح محمد علي وبعده، واتخذوه مقامًا، والمكادة: وهم الأحباش النصارى، والجبرتة: وهم الأحباش المسلمون، والتكارنة: وهم مهاجرو السودان الغربي من فلاتة وبرنو وباجرمي، ولهم حلل جمع «حلة»، وهي مجموع من المساكن خارج المدينة.

وأكثر مهاجري التكارنة نزحوا إلى السودان؛ لأنهم فقراء رغبوا في أداء فريضة الحج عن طريق ثغر سواكن، مشيًا على الأقدام في أرض السودان، ولما عادوا من الحج استخدمهم الحكَّام والأعيان والتجار وأصحاب المزارع كفعلة وفلاحين وخدم ومنظفي الصمغ وعمال.

والحلبة

وهم المعروفون في مصر بالغجر، وفي الشام بالنَّوَر، وهم قوم رُحَّل، يشتغل رجالهم بالحدادة وترويض القردة ورعي الأغنام، ويشتغل نساؤهم بالوشم والدجل وختان البنات، ومنهم الشحاذون واللصوص الخطافون.

والمولدون: وهم النازحون إلى السودان، الذين تزاوجوا مع سكانه، وينقسمون إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول العرب الذين امتزجوا بالسكان الأصليين؛ أي: العبيد والزنوج، وكان ذلك عقب الفتح الإسلامي. والمولَّدون في عهد حكم الترك والمماليك لمصر، والمولَّدون بعد فتح محمد علي حتى أوائل القرن الحاضر، أما القسمان الأولان فقد أصبحا من أهل السودان، وأما القسم الأخير فإنه ما زال أكثره متصلًا بذوي قرباه في مصر واليمن والحجاز.

(٨) عدد سكان السودان

ما زال السودان بين البلاد التي ليس لها إحصاء صادق أو قريب منه؛ وذلك بسبب اتساعه وحياة سكانه وكثرة انتقالاتهم، ويقال إن عدد السكان كان كثيرًا جدًّا، يصل إلى خمسة عشر مليونًا، وأنه بلغ عشرة ملايين بعد فتح محمد علي حتى الثورة المهدية، وأنه بعد الثورة نزل العدد إلى ثلاثة ملايين أو أقل؛ وذلك بسبب الحروب وفتك الأمراض خلال الحركة المهدية، وأنه صعد إلى عدد يتراوح بين ستة ملايين وثمانية في الوقت الحاضر.

ومما يدل على عدم إمكان التعويل على أي إحصاء يَرِدُ في الكتب المؤلَّفة عن السودان، أنه قديمًا كانت الحكومة قد طلبت من أحد المديرين إحصاء سكان مديرية بحر الغزال، فوضع المدير إحصاءً قدَّره في ساعة واحدة وهو جالس على مكتبه، وجعل في إحصائه عدد الأطفال ستين ألفًا. وبعد عامين كان على المديرية مدير آخر طلب منه إحصاء عن عدد السكان، فذكر في إحصائه أن عدد الأطفال عشرة آلاف، وكان هذا الرقم تخمينيًّا أيضًا، ولم يكن المدير التالي يعلم بإحصاء سلفه الذي قدَّر عدد الأطفال بستين ألفًا.

فأرسلت الحكومة إليه تسأله كيف حصل هذا الفرق بين الإحصائين، فكتب إليها يقول: «إن النقص الذي حصل في عدد الأطفال سببه أنهم قد كبروا ودخلوا في عداد الرجال»، ثم قال: «الواقع أن إحصائي خطأ وإحصاء سلفي خطأ أيضًا؛ لأنه من المستحيل إحصاء سكان مديرية بحر الغزال؛ إذ ليس المرور فيها سهلًا، فضلًا عن محاولة إحصاء سكانها»، وتحاول الحكومة الحاضرة الحصول على إحصاء تقريبي، وستمضي سنوات كثيرة قبل أن يكون للسودان إحصاء دقيق عن عدد سكانه.

(٩) اللغة

اللغة الغالبة هي اللغة العربية، وهناك لهجات واصطلاحات وعبارات عامية للعربية والرطانات الزنجية، واللغة العربية أداة التخاطب المشتركة بين لغات القبائل، حتى الزنجية منها.

(١٠) الدين

الإسلام هو دين أهل السودان عامة، ما عدا القبائل الزنجية التي لا دين لها، وتسكن مدن السودان جاليات مسيحية، وحفنة من اليهود.

الفصل الثاني

ممالك السودان

قامت ممالك في السودان قبل الفتح الإسلامي وبعده؛ أما فيما يتعلق بالممالك القديمة فإن تاريخها غالبه مجهول، ويذكر المؤرخون أن أول مملكة قامت في السودان كانت مملكة إيتيوبيا؛ حيث كانت تمتد من الشلال الأول عند أسوان إلى أقاصي الحبشة شمالًا وجنوبًا، ثم انقسمت إلى قسمين: إيتيوبيا العليا، المعروفة الآن (بالحبشة)، وإيتيوبيا السفلى في شماليها.

وقد اشتهر لإيتيوبيا السفلى عاصمتان: «نبتة» عند جبل البرقل، قرب الشلال الرابع، و«مروى» عند البجراوية في رأس جزيرة مروى، قرب شندى، وكانت إيتيوبيا معاصرة للفراعنة والفرس والبطالسة والرومان الذين حكموا مصر على التوالي، وزال حكم إيتيوبيا سنة ٦٤٠ قبل الميلاد.

النوبة والبجة

وبعد زوال مملكة إيتيوبيا قامت مملكتان:

(١) مملكة النوبة على النيل بين الشلال الأول والحبشة.

(٢) مملكة البجة في الصحراء الشرقية، وكانت الوثنية ديانة ممالك إيتيوبيا والنوبة والبجة.

أما النوبة، فقد صارت نصرانية في القرن السادس للمسيح، وأما البجة فقد احتفظت بالوثنية حتى الفتح الإسلامي لمصر سنة ١٨ هجرية و٦٤٠ ميلادية، فتعلَّم البجة الإسلام.

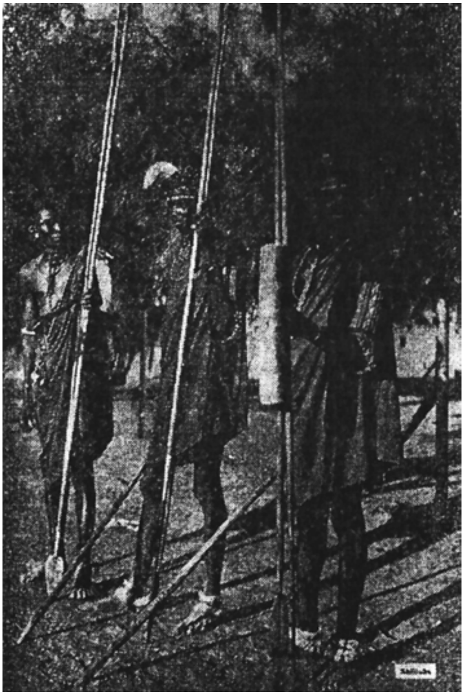

شبان محاربون من الشلك.

مملكة سنار

وفتح العرب النوبة السفلى سنة ٧١٧ هجرية وسنة ١٣١٨ ميلادية، واتحدوا مع الفونج في جنوبي سنار، ففتحوا النوبة العليا سنة ٩١٠ هجرية الموافقة ١٥٠٥ ميلادية، وأصبح أهلها مسلمين، وأسس الفاتحون مملكة سنار التي امتدت من الشلال الثالث إلى جبال فازوغلي شمالًا وجنوبًا، ومن سواكن ومصوع على البحر الأحمر إلى النيل الأبيض شرقًا وغربًا.

مملكة دارفور

واختلط العرب الفاتحون بالسكان، وأسسوا مملكة في دارفور امتدت من بئر النطرون في الصحراء الكبرى إلى بحر الغزال شمالًا وجنوبًا، ومن النيل الأبيض إلى ترجة بارقو شرقًا وغربًا.

الكُشَّاف والدولة التركية

بعد أن فتح السلطان سليم الأول — سلطان الدولة التركية العثمانية — مصر، أرسل قسمًا من جنوده إلى النوبة السفلى سنة ١٥٢٠ ميلادية، فأقامت معسكرات في أسوان وأبريم وجزيرة ساي، وكان الحكام الأتراك يسمون «الكُشَّاف»، وامتد حكمهم إلى الشلال الثالث، وامتد الحكم التركي في البحر الأحمر، فاحتل سواكن ومصوع وزيلع وبربرة، وجعلت تابعة لولاية الحجاز التي كانت قسمًا من الدولة العثمانية التركية.

الفصل الثالث

مصر الفرعونية في السودان

بين مصر والسودان علاقات قديمة، وترجع هذه العلاقات إلى أبعد المعروف من التاريخ القديم، ولا غرو في ذلك؛ فإن الأمم القديمة بدأت حياتها وظهرت مدنيتها على ضفاف الأنهار، وتعاقبت ممالكها على الحكم في المسافات الخصبة حوالي الأنهار.

ونهر النيل يجري في أرض السودان ومصر؛ لذلك كان الانتقال بين سكانهما مستمرًّا، والاتصال باديًا والحكم متراوحًا، وكانت القوافل الحاملة للتجارة تسير في الطرق الصحراوية. ولقد تضاربت آراء المؤرخين في أصل المصريين، قال ديودور الصقلي إن الإتيوبيين — وقد عرف القارئ فيما سبق أنه تألفت منهم مملكتان: إيتيوبيا العليا وهي الحبشة وإيتيوبيا السفلى التي كانت تمتد من أسوان حتى حدود الحبشة — «يقولون إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا، وأن طين بلادها طمي من بلادنا ساقه النيل إليها، وأن بين عاداتنا وعادات المصريين مشابهة ظاهرة، ومطابقة بين القوانين، وتشابهًا في زي ملوك البلدين؛ خصوصًا أن كلينا يتخذ الصلة زينة فوق التيجان.»

وقال «نافيل»: «إن رواية ديودور المؤيدة لمجيء المصريين من إيتيوبيا كافية وحدها لإثبات أن أصل المصريين القدماء من بلاد العرب الجنوبية؛ لأن في الرواية إشارة إلى أن أولئك الفاتحين بعد أن هجروا مواطنهم نزلوا على شاطئ البحر الأحمر في إيتيوبيا، وأقاموا فيها زمنًا قبل زحفهم على وادي النيل، فلما دخلوه وأظهروا فيه مبادئ الحضارة، انتحل الإيتيوبيون وجهًا لدعواهم قائلين إن هذه الحضارة مأخوذة عنهم، وهو قول يخالف الواقع.»

إن أقدم رواية تاريخية في حكم المصريين للسودان[١] هي المقروءة في حجر «بالرمو»؛ ففيه ذكر أن الملك «سنفرو» من الأسرة الثالثة «سنة ٢٩٠٠ قبل الميلاد» قد غزا بلاد النوبة، وأسر سبعة آلاف من الرجال والنساء، وغنم ألفين من الثيران والعجول، فلما جاء إلى مصر استخدم الرجال في أعمال الحكومة، والنساء في القصر الملكي، أما الثيران والعجول، فبعضها ذُبح للطعام، والبعض الآخر احتفظ به لتربية نتاجه لجودة نوعه.

وفي عهد الملك «بيبي الأول» من الأسرة الثالثة «سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد»، جنَّدت مصر من السودان جيشًا لإخضاع بعض القبائل العاصية في شرقي السودان، وكان السودان في عهد الأسرة الثانية عشرة تحت حكم المصريين، وكان الجيش المصري حافظًا النظام فيه، مشيِّدًا القلاع والحصون في جزر النيل وفي جهات كثيرة من ضفافه، واستخرج المصريون الذهب من مناجمه، وكانت تجارته رائجة، وشقوا طريقًا للسفن بين صخور الشلال الأول في عهد الأسرة السادسة تحت إشراف المهندس المصري «أونا» «سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد».

وكانت السفن تجري في النيل بين مصر والسودان بغير مشقة في تلك القناة التي شقَّها المصريون بين صخور الشلال الأول، وقد أعيد ذلك في عهد الملك «أوسرتسن الثالث» من الأسرة الثانية عشرة «سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد»؛ لتسهيل نقل الجيش والسفن الحربية والمعدات، لتأديب البلاد التي تحاول الخروج على الحكم المصري.

ومن الأسف أن هذه القناة أُهملت، وقال الأثري «بتري»: «لم يفكر أحد من المصريين حتى الآن في عمل طريق مثل ذلك الطريق المائي الذي كان يبلغ عرضه في عهد الفراعنة أربعة وثلاثين قدمًا، وعمقه أربعة وعشرين قدمًا، تسير فيه السفن النيلية مهما كانت كبيرة، وقد أصبح المصريون الحاليون مكتفين بخط حديدي لنقل البضائع من أحد طرفي الشلال إلى الطرف الآخر.»

كان سكان السودان في عهد الفراعنة هم سكان إفريقيا الأصليين؛ أي: العبيد أو الزنوج، وكان المصريون متفوقين عليهم بالعلم والمدنية والنظام والإدارة والكتابة ووسائل القتال، والتفاني في إطاعة الملوك والرؤساء، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة المصرية بثَّ ملوكها المدنية والعلم في السودان، واستخرجوا الذهب من شرقه، وأقاموا القلاع

[١] تاريخ السودان المتقدم للدكتور حسن كمال، والعقد الثمين لأحمد كمال باشا.

والمعسكرات إلى ما بعد الشلال الرابع، وكان الضباط المصريون يرسلون السودانيين إلى مصر لخدمة الحكومة، وكانوا يشرفون على نقل الذهب منه إلى مصر.

وكان المصريون ينشئون المعابد والهياكل، وكان رجال الإدارة والكهنة من المصريين، وقد جعلت الأسرة الثانية عشرة حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني، وبنى «الملك أوسرتسن الثالث» أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة، قلعة في جهة «سمنة» على بُعد أربعين ميلًا من وادي حلفا جنوبًا، ونصب هناك لوحًا أثريًّا حذر فيه مرور السودانيين شمالًا؛ برًّا وبحرًا، واستثنى منهم التجار ورسل الحكومة القائمين بأعمال رسمية.

وقد نصب هذا الملك حجرين كبيرين؛ أحدهما في «سمنة»، والآخر في «جزيرة الملك»، وصف فيهما معاملته لأهالي السودان وطرق حربهم، ورماهم بالجبن والفرار أمام العدو، والغباوة، وبتولية ظهورهم وقت صليل السيوف، وزعم أنه قتل كثيرًا من نسائهم، وحرق حصدهم وأتلف آبارهم، واستعمل معهم كل وسائل القوة والجبروت، ويظن الأثري «ماسبيرو» أن النفوذ المصري في عهد الأسرة الثانية عشرة قد وصل إلى جنوب نهر عطبرة.

وكانت القوافل تجلب الذهب من سنار إلى جزيرة مروى، وتستمر في الصحراء إلى مدينة «نبتة»؛ حيث ينقل في سفن نيلية إلى مصر، وكانت القبائل السودانية تدفع الجزية لملك مصر، وكانت المصنوعات المصرية رائجة في السودان.

أما في عهد الأسر الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسابعة عشرة، فتاريخ مصر في السودان غامض، ويقول المؤرخون: إن نفوذ مصر قد ضعف، وأن القبائل السودانية قد امتنعت عن دفع الجزية إلى مصر في ذلك العهد.

أما في عهد الأسرة الثامنة عشرة، فقد وصلت حدود مصر في السودان إلى النيل الأزرق، وذلك في عهد القائد «أحمس» الذي طرد العمالقة من مصر، وأعقب ذلك بتأديب القبائل السودانية التي كانت تعبث بالأمن وتعطل التجارة وتمتنع عن دفع الجزية.

وغزا «أمنمحعت الأول» «سنة١٥٨٠ قبل الميلاد» السودان، ووصلت جيوشه إلى جنوب الخرطوم، وكانت تعرف قديمًا بأرض الأغنام، كما جاء ذلك في لوحة حجرية وُجدت في «مروى».

وقد عين ملك مصر المذكور «أمنمحعت الأول» ابنه «تحتمس الأول» حاكمًا عامًّا على السودان، ثم لقَّبه بأمير كوش؛ و«كوش» هو الإقليم المعروف الآن بإيتيوبيا، وكان محل إقامته في «النوبة»، وكان يجيء إلى مصر أحيانًا، وقسَّم البلاد التي بين الشلال

من قبائل العبيد المشهورين بالصيد.

الأول والنيل الأزرق إلى مديريات أو أقاليم، يدير شئون كل منها حاكم مصري تابع لأمير كوش، وأصبحت البلاد السودانية إلى النيل الأزرق جزءًا من مصر، تسود فيه النظم الإدارية والسياسة المصرية.

بعد ذلك صار «تحتمس الأول» ملكًا لمصر «سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد»، وأرسل جيشًا كبيرًا وأسطولًا نهريًّا هزم القبائل السودانية المتمردة، وأجبرها على العود لدفع الجزية لمصر، وفي صخر بإحدى جزائر الشلال الثالث نقوش هيروغلوفية تدل على أن «تحتمس الأول» اجتاز الصحاري والجبال، ووصل إلى بلاد لم تطأها أقدام أسلافه.

ولما ولي «تحتمس الثاني» بعد وفاة «تحتمس الأول»، كانت القبائل السودانية قد عادت إلى العصيان، فهزمها الجيش المصري، واضطرها إلى دفع الجزية.

وقد ذكر «تحتمس الثاني» على جدران طيبة «١٤٢» اسمًا لأماكن في كوش والواوات كانت تحت حكم مصر، ودلَّت الآثار على أن بلاد الصومال والواوات كانت تدفع الجزية إلى «تحتمس الثالث»، وأن بلاد الصومال أرسلت في السنة الثانية عشرة من حكمه ١٦٨٥ مكيالًا من البخور، وكمية كبيرة من الذهب، وعددًا كثيرًا من الرجال والنساء والثيران والعجول والبقر والغنم.

واستمر حكم مصر في السودان في عهد الملك «أمنحتب الثاني» «سنة ١٤٤٨ قبل الميلاد» بعد وفاة «تحتمس الثالث»، وشيد «أمنحتب الثاني» معبدًا في «وادي باع النجا»

عند النيل الأزرق، وفي هذا الوادي تمثالان، وكانت عاصمة السودان عندئذ مدينة «نبته» غربي «جبل برقل»، بالقرب من الشلال الرابع.

واستمر الحكم المصري في السودان سائدًا، والقبائل السودانية مطيعة هادئة في عهد «تحتمس الرابع» سنة ١٤٢٠ قبل الميلاد، ثم في عهد «أمنحتب الثالث» سنة ١٤١١ قبل الميلاد.

وقد حدثت فتنة صغيرة قمعها بسهولة، وقد أعلن «أمنحتب الثالث» أنه إله للسودان، وشيَّد معبدًا له في جهة «صلب» التي تبعد مائة وخمسين ميلًا من وادي حلفا جنوبًا، وكانت زوجته الملكة «دي» تُعبَد كإلهة في معبد «سدنجة» الذي بُني باسمها، وهو يبعد أميالًا قليلة من «صلب» شمالًا، وفي دنقلة آثار يرجع تاريخها إلى عهد الملك «أمنحتب الثالث».

وقد استتب الأمر للمصريين في السودان مدة مائة وخمسين سنة، وكان السودانيون خلالها يدينون بالدين المصري القديم، ويتكلمون، أو يتكلم الظاهرون فيهم، باللغة المصرية، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية.

وقد وُجدت في السودان آثار يرجع تاريخها إلى عهد «إخناتون»، وكان حكمه لمصر «سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد»، وتدل الآثار على أن السودان كان يدفع الجزية إلى الملك «آي» «سنة ١٣٤٩ قبل الميلاد»، والملك «حور محب» «١٣٥٠ق.م» الذي زار السودان، وله لوح أثري في جبل «السلسلة» عليه اسمه، جالسًا على عرشه محمولًا فوق أعناق اثني عشر سودانيًّا، وأن الصومال كانت ترسل الخيرات إليه.

ولم ينقطع عصيان القبائل السودانية والمناوشات على الحدود من آنٍ إلى آخر، ولكن الحكام المصريين المعيَّنين من قِبَل مصر، والمسمين «أمراء كوش» كانوا يؤدِّبون العصاة.

وفي عهد الأسرة التاسعة عشرة كان الحكم المصري في عهد «رمسيس الأول» «١٣١٥ق.م»، مبسوطًا إلى الشلال الثاني فقط، ولكن ابنه «سيتي الأول» الذي خلفه «سنة ١٣١٣ق.م» أعاد الحكم المصري على السودان بصحاريه الشرقية والغربية، وأنشأ القلاع، وأصلح الطرق إلى مناجم الذهب في شرقي السودان، واحتفر الآبار، وأقام معبدًا للآلهة: «أمون رع» و«أزوريس» و«حوريس».

وقد وُجدت خريطة لمناجم الذهب بوادي «شوانب» في ورقة بردية محفوظة بمتحف «تورينو» بإيطاليا.

وكانت سياسة «رمسيس الثاني» «سنة ١٢٩٠ق.م» مسالَمة السودانيين، والاهتمام باستخراج الذهب، وتعبيد الطرق، بعد أن أدَّب العناصر المناوشة.

وظل الحال كذلك في عهد «رمسيس الثالث» «سنة ١١٩٨ق.م»، الذي زاد في تشجيع التجارة مع السودان، بما أنشأ من سفن نيلية وبحرية كانت تمخر في عباب البحر الأحمر إلى ميناء «القصير» الذي ازدهر في ذلك العهد، والذي نأسف الأسف كله على صيرورته مركزًا صغيرًا في مديرية قنا وإهمال مينائه، مع أن في ازدهارها خيرًا كثيرًا لتجارة الصعيد الجنوبي والسودان وبلاد العرب.

وفي عهد الأسرة العشرين ضعف الحكم المصري في السودان، وتمردت القبائل عليه؛ بسبب ضعف تلك الأسرة في حكم مصر نفسها؛ حيث تألَّفت عصابات للسرقة؛ ولا سيما سرقة آثار طيبة، وقد هجر كهنة «أمون رع» «طيبة» عاصمة مصر إلى «نبته» عاصمة السودان، وتدل الآثار على أنهم نشروا فيه عبادة «أمون» والخط الهيروغليفي، وعلى أنه قام في السودان ملوك من بلاد النوبة.

وقد ساء كهنة «أمون» أن يضطرهم المصريون إلى ترك مصر إلى السودان، فحرَّضوا الملك «كشتا»، الملك السوداني النوبي، على فتح الوجه القبلي، وخلفه الملك النوبي «بيعنخي» في «نبته» عاصمة السودان من «سنة ٧٥٠ق.م إلى سنة ٧٤٠ق.م»، وأرسل جيشًا وأسطولًا غزوا مصر بالوجهين القبلي والبحري.

وتاريخ حكم الملك «بيعنخي» مدوَّن في نقوش هيروغليفية على حجر جرانيتي طوله اثنتا عشرة قدمًا، وعرضه أربعة أقدام ونصف قدم.

وتولى «طهراقة» ابن «بيعنخي» عرش مصر «سنة ٦٨٨ق.م».

وقد غزا «آشور أخي الدين» «ملك آشور» مصر «سنة ٦٧٠ق.م»، وهزم «طهراقة» الذي زال حكمه عن الوجه البحري وبقي في الوجه القبلي.

وفي «سنة ٦٦١ق.م» غزت جيوش (آشور) الوجه القبلي، وهدمت معابد «طيبة»، وتقهقر الإيتيوبيون إلى «نبته»، وضعف ملوك السودان في حكمه حتى اضطرت الحكومة السودانية إلى الانتقال من «نبته» إلى أواسط السودان عقب غزوة «بساماتيك الثاني» في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، على أن مملكة السودان أخذت تتسع من ناحية الجنوب بدلًا من الشمال، وأصبح معها إقليم النيل الأزرق، وصارت (نبته) بمعزل عن أراضي السودان العامرة، تفصلها عنها شلالات كثيرة، وانتقلت الحكومة السودانية «سنة ٥٦٠ق.م» من «نبته» إلى (مروى) في منتصف المسافة بين نهر عطبرة «أتبرة».

وغزا «قمبيز» السودان «سنة ٥٢٥ق.م» بعد أن فتح مصر، ولكن الشلالات ووعورة الطرق حالت دون وصوله إلى «مروى» التي كان فيها الملك السوداني (نستاش)، فاضطر

(قمبيز) إلى الارتداد إلى مصر، على أن المملكة السودانية ضعف شأنها، وأخذ السودان يعود إلى الفوضى والشَّيَع.

لقد خلف أمنحوتب الرابع ابنُ لامنوفيس الثالث، يُدعى توت عنخ أمون، وقد تزوج بأخت أمنحوتب الرابع المسماة «أنخ سن نامن»، وقد غيَّرت اسمها بعد موت أبيها «أنخ سن أمون»، وهذا الملك هو من ملوك الأسرة الثامنة عشرة المصرية.

تولى الملك في وقت كان قد حصل فيه تغيير في الديانة المصرية، أحدثه سلفه أمنحوتب الرابع، ونشأ عن هذا التغيير اضطرابات داخلية في مصر، لم تنتهِ إلا بانتهاء هذه الأسرة، وكان أساس هذا التغيير عبادة الشمس بدلًا من المعبودات الأخرى التي عبدها المصريون من قديم الزمان؛ ولذا وجد الكهنة في هذا التغيير مخالفة للقديم، وفقدانًا لسيطرتهم الدينية، فأثاروا الاضطرابات التي لم تنتهِ بمصر إلا في أيام الملك «حور محب» آخر ملوك هذه العائلة، فرجع لعبادة أجداده.

والسبب في إدخال عبادة الشمس في ذاك العهد راجع إلى نفوذ ملكة «ابن» زوجة الملك أمنحوتب الثالث؛ فإنها كانت من بلاد العرب — أو الشام غالبًا — وكانت ذات دلال وجمال، ولها عيون زرقاء وشعر أسبط وخدود وردية، فلما بنى بها الملك أمنحوتب[٢] الثالث أدخلت معها عبادة الشمس، ولجمالها لم يعارضها زوجها في هذا، وصرَّح بإقامة شعائر دينها في عهده وبحضوره؛ إذ كان يُطاف بقرص الشمس محمولًا على زورق يمخر عباب بحيرة صناعية عُملت خصيصًا في عيد كان يقام في السادس عشر من شهر هاتور.

ولما توفي زوجها «أمنحوتب الثالث» خلفه ابنه «أمنحوتب الرابع»، وهو ابنها، فوجدت في جلوسه على عرش مصر أكبر مساعد لها على توطيد دينها، ولهذا صرَّح أمنحوتب الرابع بتغيير دينه وعَبَدَ الشمس (آتن)، وغيَّر اسمه إلى «خون آتن»؛ أي: روح الشمس، وترك طيبة ورحل إلى تل العمارنة، حيث أنشأ معابد جديدة فخمة لعبادة الشمس بها، وظل بها حتى خلفه توت عنخ أمون.

[٢] راجع مقالًا للدكتور محجوب ثابت تحت عنوان «للذكرى والتاريخ» في «الأهرام» الصادرة بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٢.

وعلى الرغم من حدوث الاضطرابات الداخلية الناشئة عن هذا التغيير الديني فإن مصر ظلت محافظة على أقاليمها الجنوبية؛ وهي بلاد كوش «السودان»، بدليل أن هذا الملك أصلح معبد جبل البرقل الذي شاده أبوه ببلاد النوبة «مديرية دنقلة»، وأقام بالمكان نفسه معبدًا آخر لأمون الذي كان يُعبد في الهليوبوليس، أو مدينة الشمس، باسم المعبود «توم» أو «تم»، كما دلَّت على ذلك النقوش الأثرية الموجودة على أحد السبعَيْن المصنوعَيْن من الجرانيت، والمحفوظة بدار الآثار البريطانية الآن، وقد نُقلا إليها من جبل برقل بمعرفة اللورد پردهو سنة ١٨٣٥، ويُرى على أحدهما رسم أمنحوتب الثالث، ومن رأي الأستاذ «بدج» المؤرخ الإنجليزي الشهير أنه هو الذي بدأ عمل الأثر الثاني، ثم تمَّمه ابنه «توت عنخ أمون»، وكتب اسمه عليه، وعلى السبع الثاني كتابة تدل على أن هذا الأسد قد اغتصبه أحد ملوك النوبة المدعو «أمون أسرو».

هذا وقد بقي السودان خاضعًا لحكم خليفة الملك المدعو «آي»، الذي لم يجد سببًا لإرسال حملات إلى هذه البلاد بفضل حسن إدارة أمير «كوش» المدعو «باؤور»، وقد أقام هذا الملك ضريحًا بالقرب من أبي سنبل، وقد نقش على جدرانه صورة نفسه مع أحد كبار موظفيه، مقدِّمًا القرابين للمعبود «فتاح» و«رع» و«حور» و«سبك»، ولسلفه الملك «أوزرتسن الثالث».

ووطَّد تلك العلاقات بين مصر والسودان خلفُه الملك «حور محب»، الذي ابتكر إصلاحات إدارية ذات فوائد جزيلة، وأصلح معابد الآلهة، وأقطعها الأراضي والأملاك، ثم صرف همته لزيادة دخل مصر؛ ولهذا أرسل الحملات إلى بلاد الشام والسودان، وإنه وإن تكن نتيجة حملته على بلاد الشام مشكوكًا فيها من حيث زيادة الخراج المضروب على قبائلها، فإن الحملة على بلاد السودان أتت بنتيجة باهرة، وقد ظلت مصر مالكة لبلاد السودان نحو مائتي سنة، حتى إن رجال الشلال والبقارة أدركوا أن الشر كل الشر في تعرُّضهم لقوافل الذهب وغيره النازحةِ من السودان لخزائن الفراعنة، أو تدخلهم في إدارة إقليم «كوش»؛ أي: السودان، وأدركوا أن فرعون مصر طويل الباع إذا عُصي، شديد العقاب إذا غضب.

الفصل الرابع

مصر والسودان

في عهد البطالسة

تمهيد

في سنة ٧١٥ قبل الميلاد توفي «ناستاسنن» ملك النوبة، وقليل ما يعرف عن حالة تلك البلاد وما آلت إليه بعد موته، على أن بلاد النوبة في ذلك الوقت لم تكن لتخشى بأس مصر؛ إذ كان يحكمها «أي مصر» دارا الأكبر ملك الفرس، الذي صرف همه إلى إصلاح شئون البلاد، وازدياد ثروتها، ورواج تجارتها، حتى لقَّبه الفرس «بالتاجر»، فتمكَّنت مصر بفضل مجهوده هذا من دفع ما فرضه عليها من الجزية دون عناء، ويقول الدكتور بدج المؤرخ الشهير: «إنه لا ريب في أن الذهب الذي كانت تدفعه مصر إلى «دارا» كانت تحصل عليه من «وادي العلاقي» التابع إذ ذاك لبلاد النوبة، وقد كانت القوافل تغدو وتروح في ذلك الوقت بين مصر والسودان متَّجِرة في الذهب والعاج والأبنوس، وكثيرًا ما كانت تحضر معها عددًا عظيمًا من السودانيين إلى بلاد مصر.»

هذا ما يقوله الدكتور بدج الإنجليزي عن العلاقة بين مصر والسودان في عصر لا تعرف فيه عن حالة السودان إلا النذر القليل، وكانت مصر تحت حكم أجنبي، ولكن بالرغم من هذا لم يسَعِ المؤرخ إنكار ما كان بين البلدين من متين الروابط واتصال الأواصر.

زد على ذلك ما رواه هيرودوت أشهر مؤرخي الإغريق وأعلاهم كعبًا في التاريخ القديم؛ إذ قال: «إن دارا فرض على بلاد النوبة جزية تُدفع له ذهبًا وعاجًا وعيدانًا.»

فمما تقدَّم يظهر بأجلى بيان أن العلاقة لم تنقطع قط بين مصر والسودان من زمن الفراعنة إلى البطالسة، بالرغم من أنه لا يُعرف شيء عن بلاد السودان في تلك الفترة.[١]

ولم تكن العلاقة بين القطرين في ذلك الوقت علاقة منافع وتجارة فقط، بل ارتبط أهلهما برابطة الدين، ويؤيد ذلك ما أثبته «هيرودوت» من أن أهل النوبة دانوا في ذلك العهد بدين أهل مصر؛ إذ يقول: «أهالي النوبة الشمالية كانوا يعبدون «أمون رع» و«أوزيريس»، وكانت عقيدتهم في هذين الإلهين عظيمة جدًّا، وكانوا يعتقدون في الأول أنه مدبِّر حروبهم، ومرشدهم إلى خير طريق لجيوشهم، فإذا ما همُّوا بحرب ولَّوا وجوههم شطره، وتوسلوا إليه ليلهمهم من أمرهم رشدًا.»

وإليك ما يدل على ما كان بين أهل مصر والسودان — عدا ما تقدَّم من رابطة الدين والمعتقد — من لحمات المصاهرة[٢] والنسب؛ فقد جاء فيما رواه هيرودوت «أنه يوجد على مسافة اثني عشر شهرًا بالنيل جنوبي مدينة مروى قومٌ يُعرفون بالأوتومولي Automoli أو «الأسماخ»، وهم سلالة فرقة مصرية بلغت نحو أربعين ومائتي ألف نسمة، نزحت من بلاد مصر إلى السودان إبَّان حكم فرعون مصر «إبسمتيك الأول» لمَّا أبقاهم ثلاث سنين متوالية قائمين بأعمالهم العسكرية دون أن يحلَّ محلهم غيرهم من الأجناد.»

ويقول الدكتور بدج تعليقًا على هذه الحادثة: «من رواية هيرودوت هذه يتبين جليًّا أن هؤلاء المهاجرين المعروفين «بالأوتومولي» سكنوا منطقة على النيل الأبيض على مسيرة أربعة شهور جنوبي مدينة إلفنتين، أو على مسافة بضع مئات من الأميال جنوبي موقع مدينة الخرطوم الحالية، وأنهم من القبائل غير الزنجية التي سكنت الإقليم المعروف الآن بمملكة سنار.»

تلك هي العلاقات التي ربطت بلاد وادي النيل بعضها ببعض بعد حكم الفراعنة، فلمَّا آلَ مُلك مصر إلى البطالسة عملوا على زيادة توثيق العُرَى بين ساكني مصر والسودان، وإحكام الرابطة بينهم، لما بينهم من متعدد المصالح الحيوية المشتركة.

[١] الدكتور محجوب ثابت — مقال «للذكرى والتاريخ» في «الأهرام»، في ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٢١.

[٢] يذكر فيكتور شولشر في كتابه «مصر» سنة ١٨٤٥ ص٢٨٩، نقلًا عن شامبوليون فيجاك «أن الأبحاث الهيروغليفية التي قام بها أخوه شامبوليون الصغير تدل على أن والدة الملك أمنوفيس الثالث زوجة تحتمس الرابع، واسمها طما وهموا كانوا من أصل إيتوبي، وقد رأى شامبوليون صورة هذه الملكة في مقابر القرنة بطيبة، وأظهر أن مُلكها كان في سنة ١٦٨٧ قبل الميلاد.»

وقد تجلَّى اهتمام البطالسة بأمر السودان في عهد بطليموس الثاني، الذي بدأ بإحكام صلات المودة بينه وبين ملك النوبة «أركمين أو أرجمينيس»، وازدادت التجارة بين القطرين في ذاك الوقت زيادة عظيمة بفضل سياسة بطليموس السلمية التي آثرها في ربط القطرين والاستيلاء على ينابيع ثروة السودان على سياسة القتال والفتح.

وقد كان جلُّ قصده أن يضع يده على مناجم الذهب بوادي العلاقي، ولم يكن ثمَّت من سبيل إلى ذلك إلا أن يبسط سلطانه على وادي النيل حتى «الدكة» جنوبًا، ولم يكن الإقليم الواقع بين «عمارة» و«الدكة» خاضعًا لملك ما، في ذلك العصر، «ويبلغ طوله ١٣٠ ميلًا»، وقد روى مؤرخو اليونان أن البطالسة بسطوا نفوذهم في ذلك الإقليم على مدى نحو مائة ميل.

ولم تقف مجهودات بطليموس عند هذا الحد، بل دفعه اهتمامه بأمر السودان إلى إرسال بعثة برية بالطريق الذي تبعه سلفه من الملوك، ولمَّا لم تأتِ البعثة بفائدة كبيرة ولَّى وجهه شطر المرافئ البحرية القريبة من جنوبي السودان؛ ليتخذ منها طريقًا للتجارة مع تلك البلاد، «وما تلك المرافئ إلا الملحقات التي يطالب بها الحزب الوطني.»

وقد دلَّت اللوحة الأثرية التي اكتشفها الأستاذ إدوارد نافيل الجنيفي سنة ١٨٨٤ عند (باطوم Pithom) أو «تل المسخوطة»، الواقعة على بعد عشرة أميال جنوبي بحيرة التمساح، على أن بطليموس أرسل عمارة بحرية إلى جنوب بلاد «خثيثت» بالسودان، عن طريق خليج السويس، وأن قائده حمل إليه كثيرًا من نفائس تلك البلاد، ولمَّا علم بطليموس بكثرة خيرات تلك الأرجاء وعظيم ثروتها شيَّد مدينة «إبيثيراس Epitheras» التي كان موقعها غير بعيد عن مدينة سواكن الحالية، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه، وقد أخذ ضباطه كثيرًا من فيلة تلك البلاد وأرسلوها بالسفن إلى مصر.

وقد ذكر المؤرخون بحقٍّ أن الملك بطليموس في مصر كان مؤيَّدًا، وخضعت له بلاد السودان خضوعًا تامًّا، ودانت له رقاب بلاد حملة الرماح والقسي، ويؤيد هذا الرأي الدكتور بدج أمين القسم المصري بالمتحف البريطاني.

وفي السنوات الأخيرة من حكم بطليموس الرابع أرسل بعثات كثيرة عن طريق موانئ البحر الأحمر لقنص الفيلة التي كانوا يستعينون بها في الحروب، وقد أصلح بناء معبد الدكة «بالنوبة» الذي بناه «أركمين» ملك النوبة.

وقد نسج حكام البطالسة جميعًا على هذا المنوال من الاهتمام بالسودان وتجارته وخيراته؛ لا سيما مناجم الذهب بوادي العلاقي، حتى قال الدكتور بدج:

> قد ساد السلام العلاقات بين مصر والسودان طول عهد البطالسة، وراجت التجارة بين البلدين، وكانت القوافل لا ينقطع لها سير دون عقبة في سبيلها، إلا ما كان من سطو بعض قطَّاع الطرق، والضرائب الباهظة التي كان يطلبها أحيانًا حكام المدن التي كانت تُعرض فيها تلك السلع للبيع.

مما سبق ذكره يتبين جليًّا أن العلاقات بين مصر والسودان في العصر البطلسي لم تكن بأوهى منها في العصر السابق، زد على ذلك أن العنصرين قد ارتبطا برابطة الدين، فقد تديَّن أهل النوبة آلهة مصر، حتى إن «أركمين» ملكهم معاصر بطليموس الرابع لقَّب نفسه «طنانخ آمن تع رع»، نسبة إلى إله مصر «آمن رع»، وسمَّى نفسه «ابن رع وحبيب إيزيس».

وقد جاء فيما نُقش على معبد «الدكة» أنه سمَّى نفسه «أوزيريس» و«إيزيس» «وخنمووساتي»، إلى غير ذلك من الألقاب المنسوبة إلى الآلهة المصرية.

فتيات سودانيات على النيل وأمام الأكواخ.

الفصل الخامس

السودان في العصر الروماني

كان أول حكام الرومان بمصر «كورنيليوس جاليوس»، وقد قام بخدمات جليلة لسيده الأمير الإمبراطور أغسطوس، فبعد أن استولى على مدينة «هيروبوليس» تابع تقدُّمه في مصر العليا حتى خضع له جميع أهل مصر، وقد كانت مدينة «قفط» و«طيبة» مركزَي القلاقل والثورة، يساعدهما أهل النوبة ممَّن يقيمون جنوبي الشلال الأول، فلمَّا أخضعها «كورنيليوس» سار بجنوده حتى «أسوان»، ودعا رؤساء النوبيين الذي كانوا يقيمون قريبًا من «الفيلة» جنوبي وادي حلفا، فأفهمهم ما «لروما» من الحقوق في تلك المنطقة من وادي النيل، وترك لهم أن يحتفظوا باستقلالهم، فظل أهل النوبة في السنوات الأخيرة من حكم البطالسة على سلام وأمان مع مصر.

ومن المحتمل أنهم ما كانوا ليحجموا عن مقاتلة الرومان لو لم يُبِحْ لهم «كورنيليوس» الاحتفاظ بما كان لهم من الحقوق والامتيازات، وقد عثر الكبتن «ليونس Lyons» عند «فيلة» على لوحة مكتوبة بالهيروغليفي والإغريقي والروماني تنطق بإخماد ثورة في سنة ٢٩ق.م، ومن هذا نستنتج أن أول اتفاق عقد بين الرومان وأهالي النوبة كان في تلك السنة أو التالية لها، ولما ولي «إليوس جاليوس» على مصر، أمره سيده بأن يقوم على رأس جيش إلى بلاد العرب السعيدة «اليمن» لإخضاعها؛ إما سلمًا أو قتالًا، فجهَّز عمارة عظيمة وجيشًا جرارًا، وسار على رأسهما، إلا أن المرض فتك بجيشه فتكًا، وفقد كثيرًا من سفنه، ورجع بأشد الخيبة والفشل.

فلمَّا علم أهل النوبة بانتقال حاكم مصر شرقًا، وأن عددًا عظيمًا من جنوده شغله قتال العرب، انتهزوا تلك الفرصة وغزوا «طيبة»، وهجموا على الحامية التي كانت قريبة من «أسوان»، واستولوا عليها، وانتزعوا تماثيل قيصر. فلمَّا علم الرومان بأمر هذه الثورة الرهيبة أرسلوا حاكم مصر «بترونيوس» الذي كان قد عُيِّن حديثًا على رأس جيش يبلغ

عدده عشرة آلاف من الجنود الراجلة، وثمانمائة من الراكبة لمقاتلة العدو الذي كان يبلغ عدد جيشه نحو ٣٠٠٠٠ جندي، فاضطر النوبيون إلى الرجوع؛ إما طردًا أو انسحابًا، إلى مدينة «بسلسيس؛ أي: الدكة» الحالية، وهناك بدأ «بترونيوس» قتالهم، فأرسل مندوبيه ليطلبوا من النوبيين إرجاع من غنموه وحملوه في غزوهم، وإبداء ما حملهم على الثورة، فأجاب النوبيون بأن ذلك يرجع إلى سوء معاملة «الملوك» لهم، فأجابهم بترونيوس «بأنهم ما كانوا قط سادة بلاد سيدها قيصر»، فطلب النوبيون مهلة ثلاثة أيام، ولما لم يبدوا شيئًا في هذه المدة هاجمهم «بترونيوس»، واضطرهم للقتال.

وقد كانت العاقبة وخيمة على النوبيين الذين لم تعضهم دروعهم ورماحهم وقسيهم وسيوفهم عن قلة ضباطهم وسلاحهم، فولَّوا الأدبار؛ فريقًا إلى المدينة، وفريقًا إلى الصحراء، وآخر عبر النهر إلى جزيرة صغيرة في النيل، وكان من بين الغادين قواد «كانداس» ملكة النوبة، فتبعهم «بترونيوس» في السفن وقبض عليهم، وأرسلهم إلى الإسكندرية، وقد هلك معظم النوبيين قتلًا أو أسرًا، وتابع «بترونيوس» تقدمه جنوبًا من مدينة الدكة حتى أريم عابرًا في طريقه التلال الرملية — التي هلك بالقرب منها جيش «قمبيز» بعاصفة شديدة — فاستولى على «أريم» دون عناء، وتابع السير في النهر نحو خمسمائة ميل حتى «نبته» عاصمة الجزيرة المروية القديمة، واستولى في طريقه على المدن المهمة.

ولم تكن[1] الملكة «كانداس» في «نبته» لَمَّا وصل بترونيوس، إلا أنها أرسلت رسلها في طلب الصلح، عارضةً إطلاق سراح من لديها من الأسرى وإعادة التماثيل، «ولعلها تماثيل قيصر»، فكان جواب «بترونيوس» أن هاجم «نبته»، واستولى عليها ودمرها، وأخذ كثيرًا من الأسرى والغنائم، ثم قفل راجعًا عندما رأى أن شدة الحر وكثرة الرمال تحول دون متابعة التقدم جنوبًا، ولما عاد إلى «أبريم» أقام فيها حملة من أربعمائة مقاتل، وزوَّدها بمئونة سنتين، ثم عاد إلى الإسكندرية وباع بعض من كان معه من النوبيين، وأرسل آلافًا منهم إلى «قيصر»، ومات عدد كبير من وطأة المرض، وبعد أن رحل «بترونيوس» عن «إريم» هاجمتها الملكة «كانداس» بجيش قوامه عدة آلاف من الجنود.

وقبل أن تتمكن من الاستيلاء عليها عاد «بترونيوس» إليها، فاضطرت الملكة إلى إرسال رسلها بقصد الصلح، فأحالهم على «قيصر»، ولما أنبأه بأنهم لا يعرفون من هو

[1] راجع مقال محجوب ثابت بتاريخ ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٢١ «بالأهرام».

ولا أين يقيم، أرسل معهم بعضًا من رجاله إلى «قيصر» في «ساموس»، وهناك حصلوا منه على كل ما طلبوا، حتى إن قيصر رفع الجزية التي كان قد ضربها عليهم.

وقد أثبتت غزوة «بترونيوس» هذه لأهل النوبة أن حكومة مصر إذ ذاك لا تؤمن عاقبة الثورة عليها «كما تحقق الدراويش ذلك بعد ثورتهم»، واعتبروا بما ألقاه عليهم بترونيوس من الدروس التأديبية، فقد أتاهم بخيله ورجاله، وحمل عليهم بشدة، وقوض أركان حاضرة ملكهم، وأرسل عددًا عظيمًا منهم إلى الإسكندرية حيث باعهم، ثم حمل ما وصلت إليه يداه من الغنائم.

ولقد جاء فيما رواه «بلين» عن تلك البلاد أنها كانت بلادًا ذات بأس وشهرة أيام حكم ملكها «ممنون»، ولكنها لم تكن في الواقع إلا ولاية مصرية، وكانت جديرة بهذا الوصف؛ إذ كثيرًا ما تولَّى زمامها حكام مصريون.

وفي عهد حكم أغسطوس بُدئ ببناء معبد «الكلبشة»، وزيد في معبدي «دندرة والدكة»، وفي حكم «كاديوس» «٤١–٥٤م» قام الرومان بمشروعات كثيرة؛ كتوطيد ترويج التجارة بين بلاد العرب والهند ومصر، وفكر «نيرون» في غزو إيتيوبيا «أي: السودان، لا الحبشة» بقصد وضع يده على حاصلات البلاد، ومن العجيب أن الروم حتى في ذاك الوقت لم يعلموا إلا النذر من جغرافية بلاد السودان، وإلا لأدركوا أن أثمن ثروة البلاد كائنة في دارفور وكردفان والأقاليم حول النيلين الأبيض والأزرق وبينهما، فقد أرسل «نيرون» قبل أن يقوم «بغزو النوبة» بعض ضباطه مع بعض الجنود ليرودوا البلاد، ويرفعوا إليه تقريرًا بحالتها، إلا أنهم عادوا منبئين بأن ليس على ضفاف النيل إلا أرض بلقع.

على أن ما عادوا به من المعلومات عن بلاد السودان لا تخلو من أهمية؛ فقد مروا ببلاد عديدة حتى مدينة «مروى»، وتابعوا السير حتى وصلوا إلى منطقة قالوا عنها إنهم رأوا الصخور فيها تعترض النهر حيث يندفع بقوة هائلة. ويؤخذ مما رووه: «أنهم وصلوا إلى إقليم تغمره مستنقعات عظيمة قد نبتت فيها أعشاب كثيفة جعلت الملاحة مستحيلة في تلك المنطقة»، ولو قارنَّا بين ما وصفوا به منطقة المستنقعات التي وصلوا إليها وبين ما وصف به «السير وليم جارستن» مستنقعات بحر الجبل لما خامرنا الشك في أنهم وصلوا إلى جزء من وادي النيل يخترقه هذا البحر، «بحر الجبل»، وإننا نأسف مع الدكتور بدج الأثري الإنكليزي الشهير؛ لأن كثيرًا من التفاصيل التي ذكرتها البعثة الرومانية الكشافة لم يصل إلينا، ولكن لا جدال في أن ما ذكروه من أوصاف منطقة المستنقعات لم تُبنَ إلا على مشاهدتهم الشخصية.

ومن سنة ٥٤ حتى سنة ٢٦٠م لم يلقَ الرومان متاعب تذكر من جانب النوبيين الذين رضوا بأن يتركوا أسياد المنطقة من أبريم الجنوبية.

على أن القبائل المعروفة بقبائل أو برجال التلال — كما كان يسميهم قدماء المصريين — بدأوا في أوائل القرن الثالث بمهاجمة حدود مصر الجنوبية، ونزلوا في غرب بلاد طيبة «الأقصر»، وقد روي أنهم نزلوا بأرض الواحة الخارجية، وكان الإغريق والرومان يسمونهم البلمعين Belimmyes، وهؤلاء القوم من أصل حامي، نزلوا بالصحراء الشرقية متنقلين فيها شمالًا وجنوبًا، مرتادين الكلأ والمراعي لإبلهم وماشيتهم، وتُعرف تلك القبائل عند الكتَّاب العرب «بالبجة أو البجاة» Auaks، ومنهم «قبائل البشاريين»، وقد انضم إليهم عدد عظيم من زنوج منطقة «مروى»، ونزل كثيرون منهم بالصحراء الغربية، وانتشروا فيها حتى كردفان، وقد حالفت تلك القبائل أهل طيبة للقيام في وجه الرومان بمصر، وقد اشتهر أهل تلك القبائل بشدة بأسهم وغلظة طباعهم، وبطشهم بالقوافل وسلبهم متاعها، وللكونت لينان دي بولفون الذي طاف بلادهم على عهد الخديوي إسماعيل مؤلَّف قيِّم عنها.

وحوالي سنة ٢٥٠م اشتد ساعدهم بصعيد مصر، فاعتدوا على مدائنه وقراه نهبًا وسلبًا دون أن يلقوا ما يسدُّ سيلهم ويضع حدًّا لأذاهم، فما كانت سنة ٢٦١م حتى سار إليهم «ماركوس يوليوس Marcus Julius»، الذي أقامه أهل الإسكندرية ملكًا على مصر، وهزمهم وردَّهم على أعقابهم إلى الشلال الأول، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى اعتدائهم على مدائن مصر في عهد كلوديوس الثاني Claudius.

وما زال يشتد ساعدهم ويعظم سلطانهم بما قدمه إليهم ابن ملكة النوبة وأهل مصر الناقمون على حكم الرومان، حتى رسخت أقدامهم وثبت سلطانهم بمصر العليا في حكم أوريليان Ourelian «٢٧٠–٢٧٥»، إلا أن أوريليان حمل عليهم حملة شديدة في سنة ٢٧٤، فهزمهم وأسر كثيرًا منهم وأرسلهم إلى روما، ولكنه لم يقبض على سلطانهم، حتى إن خلفَه «ريبوس» عجز عن إخراجهم من مصر العليا؛ لا سيما وقد اتحدت معهم قبائل الشرق والغرب، ولكنه فاز منهم بمدينة «قفط» مركز تجارة الشرق في ذلك الوقت.

وفي أوائل حكم دقلديانوس «٢٨٤–٣٠٥م» ازداد نشاط «البجة»، وتكررت غزواتهم واعتداؤهم على جنوب مصر، ورأى دقلديانوس أن لا قِبَل له على قمعهم وردِّ عاديتهم، على الرغم من تعزيزه لحامية أسوان وإقامة غيرها في كثير من المدن القريبة منها، ولم يكن في ذلك الوقت قادرًا على إرسال جيش إلى بلاد السودان ليكسر من شوكة تلك القبائل

وينزل بها شر الهزائم، فاستقر به الرأي على سحب تلك الحاميات، وأن يعهد بحماية مصر العليا ورد عادية «البجة» إلى قبيلة «نباكا»، وهي قبيلة ذات بأس سكنت الصحراء الغربية، يرجع أصلها غالبًا إلى دارفور وكردفان، وامتدت حتى الواحة الخارجة، وقد كان بيدها تجارة جنوب السودان كلها، وكان لأهلها من البأس والخشونة وصولة القتال ما جعلهم خير أنداد لأهل البجة، وهم سلالة قبائل «منيتو» أو «البقارة» الذين ألقوا الرعب في قلوب فراعنة مصر، فأقطعهم دقلديانوس أرضًا واسعة ورتَّب لهم مالًا كثيرًا سنويًّا في مقابل حراستهم لبلاد مصر، ورد عادية البجة عن مدنها وأهلها، وفي الوقت نفسه عقد مع البجة اتفاقًا بأن يدفع لهم مبلغًا سنويًّا نظير كفِّهم عن الاعتداء على مدن مصر العليا.

ولما تمَّ ذلك شيَّد حصنًا على جزيرة قريبة من «الفيلة»، وأقام فيه معبدًا ليجتمع فيه الرومان وأهل تلك القبائل؛ ليسووا ما بينهم من الخلاف حبيًّا، ويجددوا عهود الولاء ومواثيق الوفاء على أيدي قساوس من الفريقين.

كان أهل البجة وأمثالها يعبدون في «فيلة» الآلهة إيزيس وأوزيريس وبرباوس وغيرهم، وكان من عادات البجة أنهم يقدِّمون الرجال قربانًا للشمس.

وقد كانت سياسة دقلديانوس هذه هي السياسة الطبيعية الحكيمة في تلك الظروف، وهو أول حاكم لمصر أدرك بدهائه ورجاحة عقله أن خير سبيل للاطمئنان على أرض مصر من غزو أهل الجنوب هو بإيغار صدور قبائل الغرب على قبائل الشرق، ومبالغ يسيرة يدفعها سنويًّا لتلك القبائل.

وقد خيَّم السلم على مصر العليا، ووفت تلك القبائل بعهودها نحو مائة سنة، إلا أن البجة حنثوا بعهودهم في أواخر ثيودوسيوس الثاني «٤٠٨–٤٥٠م»، وقاموا في وجه نبته، وغزوا مصر العليا، واستولوا على الواحة الخارجة، وهزموا من كان فيها من جنود الرومان.

وفي حكم الإمبراطور ماركيانوس «٤٥٠–٤٥٧م» جمع ماكسيمانوس، القائد العام للرومان بمصر، جيشًا جرارًا وسار به جنوبًا حتى حلَّ بأرض البجة و«نبته»، فمزَّق جموعهم ونكل بهم، وأرغمهم على ردِّ من كان لديهم من أسرى، وفرض عليهم غرامة جسيمة، وزَّعها على من حلَّ بهم أذاهم وأصابهم اعتداؤهم، وحتَّم عليهم تقديم رهائن لضمان حسن سلوكهم مستقبلًا، وأن يتعهدوا بالتزام جانب السكينة والسلم مائة سنة، فرضوا بذلك كله مقابل مطلب واحد عجيب، ذي معنى عظيم، وهو «أن يسمح لهم

بالحج إلى معبد إيزيس بفيلة، وباستعارة تماثيلها من آنٍ لآخر؛ ليتوسلوا إليها أن تمدَّهم برحمتها وتشملهم بنعيمها»، فكان لهم من ماكسيمانوس ما أرادوا، وساد السلام بين الرومان وقبائل السودان طول حياته، ولكنهم ما لبثوا بعد موت ماكسيمانوس أن اتحدوا وسووا بينهم من الخلف، وغزوا بلاد مصر، واستردوا رهائنهم، ولكن فلوروس حاكم الإسكندرية أسرع إليهم وأخمد ثورتهم، وجدد البجة ونبته المواثيق عاملين باتفاقهم السابق.

وفي أواخر حكم جستنيانوس الأول «٥٢٧–٥٦٥م» انتهى أجل اتفاقية ماكسيمانوس، ويظهر أن تلك القبائل فكرت في مناوأة مصر، ولو أنه لا يوجد ما يدل على عزمهم على ذلك، ومهما يكن من أمرهم فإن جستنيان صاحب التشريع الروماني صبَّ عليهم جام غضبه؛ فبدأ بإغلاق معبد إيزيس وما حوله بفيله لاعتقاده أن وجوده يجعل تلك المنطقة مركزًا للدسائس والفتن، وأن لا مفر من ذلك ما دام لقبائل البجة ونبته حق الدخول إلى بلاد مصر بدعوى الحج إلى ذلك المعبد، فأمر بإغلاق المعبد، وحرَّم عبادة إيزيس، وحمل ما كان بالمعبد من التماثيل إلى القسطنطينية، وزجَّ قساوسته في أعماق السجون.

وقد عادت قبائل السودان إلى مناوأة مصر أيام حكم تيبيريوس الثاني «٥٧٨–٥٨٢م»، ولكن قائد جيوش الرومان بمصر أخضع ثائرتهم، ولم يروَ شيء مدة قرن بعد ذلك التاريخ؛ إذ شغل الرومان برد عادية الفرس، وتركوا قبائل الغرب والشرق تحكم نفسها بنفسها كما شاءت.

الفصل السادس

تاريخ النوبة

تقع بلاد النوبة فيما بين الشلال الأول والرابع، وقد أطلق عليها التاريخ أسماء كثيرة، فهي في التوراة بلاد الكوش، وكوش هذا — فيما تقول التوراة — هو جدُّ النوبيين، وأخو «مصرايم» جدِّ المصريين، وكلاهما من حام بن نوح. وأطلق عليها الإغريق اسم إيتيوبيا، ومعناه الوجه شديد السمرة، ويطلق هذا الاسم الآن على بلاد الحبشة.

أما اسم النوبة، فهو — فيما يقال — نسبة إلى كلمة نب، ومعناها في اللغة النوبية: الذهب، أي: بلاد النوبة هي بلاد الذهب، ولوفرة هذا المعدن في صحاريها.

وكان يسكن هذه البلاد قوم يجتمعون في نسبهم بقدماء المصريين، حتى ليذهب المؤرخ ديودور إلى القول بأن أصل المصريين جالية نوبية نزحت من الجنوب، ويؤيده في ذلك أن موتى المصريين — قبل عصور التاريخ — كانت تُدفن ورءوسها متجهة نحو الجنوب، وأن البخور كان يستعمل في العبادة المصرية منذ القدم، وما كان ذلك ممكنًا لو لم يكن المصريون قد جاءوا من الجنوب، وأن أشهر آلهة مصر من النوبة، مثل: أوزيريس الذي أنقذ مصر من الهمجية، وعلَّم أهلها الزراعة، ووضع لهم الشرائع، وشيَّد المباني في طيبة. ومثل زوجته إيزيس التي أخرجتهم من الوحشية، وصرفتهم عن أكل لحوم البشر، وعلَّمتهم قواعد الزواج الشرعي، وكذلك ابنهما حورس رب الوطنية والفروسية، الذي طهَّر مصر من آلهة الشر والفساد.

ويذهب آخرون إلى أن النوبيين نزحوا قديمًا من مصر إلى الجنوب، وحملوا معهم بذور الحضارة والعقائد المصرية، ويستدلُّ هؤلاء على ذلك بأن النوبيين كانت لهم حضارة قديمة، لا تختلف كثيرًا عن حضارة المصريين، كما أن الإله المصري أمون كان مقدسًا عندهم في نبته ومروى.

وسواء أكان المصريون جالية نوبية نزحت إلى الشمال، أم كان النوبيون جالية مصرية هاجرت إلى الجنوب، فإن مما لا شك فيه أنهما من عنصر واحد، فقد أثبتت الأبحاث العلمية التي أجراها العلامة إليوت سميث Elliot Smith في مقابر مصر والنوبة، أنه لا فرق بين المصري والنوبي في التكوين الجثماني، حتى ليتعذَّر من هذه الوجهة تعيين حدٍّ فاصل يميِّز أحدهما عن الآخر!

وقد[١] وقعت في بدء الأسرات الملكية في مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية، فأثَّرت في الدم المصري والنوبي، وكانت أشد تأثيرًا في المنطقة الواقعة فيما بين جبل السلسلة والشلال الثاني.

أما قبائل النوبة التي تقطن بين الزنوج جنوب كردفان، فإنها لا تمت إلى الزنوج بصلة، وإنما وُجدت هنالك منذ القدم، فرارًا من التصادم بالموجات البشرية القوية التي تدفَّقت إلى تلك البلاد، ولا تزال هذه القبائل في مستوى أرقى من الزنوج، وتمتاز عنهم في تكوين الجسم والطباع.

وهناك عنصر حامي لم يختلط بالزنوج، كالنوبة، وهو المعروف بقبائل البجة، بل ظل محافظًا على بداوته في الصحراء، بينما كان العنصر النوبي يعيش على ضفاف النيل.

ولما جاء الفتح الإسلامي تدفقت سيول القبائل العربية إلى تلك البلاد؛ لانتجاع الرزق واستغلال مناجم الذهب، فاختلطت دماء النوبيين والبجة بدماء العرب، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر، ثم جاء الفتح التركي بعنصر آخر، حتى صار النوبيون الآن خليطًا من عدة عناصر، أهمها: العربي، فالتركي، فالبربري، فالنوبي.

(١) مصر والنوبة

ويرتبط تاريخ النوبة ارتباطًا وثيقًا بتاريخ مصر، حتى ليصح القول بأن كلًّا منهما متمِّم للآخر؛ فإن وحدة الأصل والوطن والدين قد أحكمت بينهما أواصر القربى والجوار، فإذا هما شعب واحد في آماله وآلامه، على الرغم من اختلاف الإقليم والمناخ.

وللتاريخ النوبي أطوار عدة تبدأ منذ فجر التاريخ، حيث عهد البداوة والقبلية في النوبة، وبدء الحضارة والملكية في مصر، وفي هذا الطور قامت مصر بكثير من الحملات

[١] صحائف مطوية من تاريخ النوبة لمحمد كامل حتة، الأثر الجليل لأحمد نجيب بك، والعقد الثمين لأحمد كمال باشا.

التجارية والحربية في بلاد النوبة، وبذل ملوكها جهودًا متوالية في فتح الطرق البحرية بين الجنادل، وإخضاع القبائل النوبية المجاورة التي كثيرًا ما كانت تُغِير على الحدود المصرية.

وكان من آثار ذلك نمو العلاقات بين مصر والنوبة، وتبادل المنافع والدماء، فقد غزا سنوفرو، آخر ملوك الأسرة الثالثة، بلاد النوبة، ثم توغل في الجنوب وعاد ومعه سبعة آلاف أسير من الزنوج والنوبة، ومائتا ألف رأس من الماشية، واستخدم هؤلاء الأسرى في استثمار مناجم الفيروز بطور سيناء، أو في تشييد قبره بدهشور، وبناء هرمه في ميدوم، واستطاع بيبي الأول أحد ملوك الأسرة السادسة — بعد أن بسط نفوذه على شمال النوبة — أن يجنِّد منها جيشًا هَزم به أمراء الوجه البحري.

ولما سهلت المواصلات بين مصر والنوبة، هاجر كثير من المصريين إلى تلك البلاد؛ للبحث عن مناجم الذهب، أو فرارًا من ظلم الولاة، فدخلت بلاد النوبة في طور جديد، ونمت فيها بذور الحضارة المصرية، وازدادت عناية الفراعنة باستعمارها، فأقام ملوك الدولة الوسطى هنالك الحصون والقلاع؛ للسيطرة عليها وتأمين الطريق.

وفي عهد الدولة الجديدة، تم الاستيلاء على تلك البلاد، وامتزج بها الدم المصري، وانتشرت المدنية المصرية، ثم استقلت النوبة عن مصر، وقامت فيها مملكة قوية عاصمتها «نبته» على مقربة من الشلال الرابع، بسطت سلطانها على مصر فيما بعد.

وقد أسفرت هذه الأطوار عن إيجاد رابطة قوية بين مصر والنوبة، فإن مملكة «نبته» لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية، وبرعاية كهنة أمون الذين هاجروا إليها بعد سقوط طيبة، كما أن أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة تزوَّج بابنة ملك النوبة على عهده، فأمدَّه هذا الملك بجيش نوبي استطاع أن يطرد به الرعاة من مصر، وتزوج كاتشا ملك النوبة بابنة كاهن مصري، فأنجبت له بعض ملوك الأسرة الخامسة والعشرين.

ثم اضمحلت مملكة «نباتا» بعد سقوط هذه الأسرة، واستقلت كل من مصر والنوبة، وتعاقب على مصر الفرس والبطالسة والرومان، وقامت في النوبة مملكة مروى، فنالت في التاريخ شهرة واسعة لم تنلها نبته من قبل، وبعد أن زالت مملكة مروى ظهرت في النوبة ممالك أخرى، أشهرها: مملكة النوبة السفلى، من الشلال الأول إلى الرابع، وعاصمتها دنقلة العجوز، ومملكة علوة، من الشلال الرابع إلى أعالي سنار، وعاصمتها سوبة على النيل الأزرق، ومملكة أكسوم، وهي المعروفة الآن بالحبشة.

وحوالي القرن السادس الميلادي كانت المسيحية قد انتشرت في تلك البلاد، ولم يبقَ على الوثنية إلا قبائل البجة، وكان الإسلام إذ ذاك قد دخل مصر، وأحاط المسلمون ببلاد النوبة من الشمال والشرق، وكان لهم مع نصارى النوبة ووثنيي البجة وقائع كثيرة كانت تفرض فيها الجزية، وقلَّما تؤدى، حتى انتمى النوبيون إلى الإسلام حوالي القرن الثامن الهجري.

وقامت في المهاجر العربية في بلاد النوبة ممالك صغيرة، مثل: مملكة الشايقية، والدفار، ودنقلة، والحندق، وأرقو، وكانت على صغرها ذات بأس وقوة، حتى إن ملوك الشايقية كثيرًا ما كانوا يغزون ممالك النوبة ويفرضون عليها الجزية، ثم انقسمت بلاد النوبة بعد ذلك بين الفونج في الجنوب والكشاف في الشمال، حتى جاء الفتح المصري الأخير، فعادت كلها تابعة لمصر.

وقد ظهرت الحضارة هنالك منذ أربعة آلاف سنة، ثم أخذت تنمو وتزدهر وتصطبغ بالصبغة الفرعونية، حتى بلغت شأوًا بعيدًا في الدين والسياسة والفنون، فقامت هناك الأهرام والمعابد، وارتقت الفنون والصناعات، وانبسط سلطان النوبة على وادي النيل.

وقد وفِّقت هذه البعوث إلى كثير مما ترجوه، واستطاعت أن تجمع صورًا قيِّمة لتلك الحضارة؛ أهمها ما يختص بالعصر المروي، وهي بلا شك ثروة جديدة تضاف إلى نفائس التاريخ.

ولعل أقدم هذه الآثار ما وُجد في مقابر عنيبة، ويرجع تاريخها إلى ألفي سنة قبل الميلاد؛ منها مائتا آنية من الخزف والفخار، محفور عليها نقوش بديعة ملونة، وفي هذه المقابر أيضًا تماثيل صغيرة، كانت توضع مع الميت لتنوب عنه في أداء الأعمال الشاقة في الحياة الأخرى، وهذا لون من العقائد المصرية القديمة.

أما حضارة العصر المروي، فقد تأثَّرت بالفن المصري والروح البيزنطية، وفي مقابر فسطل وبلانة آثار ثمينة من الوجهة التاريخية والفنية، تمثل هذه الحضارة في أزهى عصورها، فهناك تيجان من الفضة المرصَّعة بالجواهر والتماثيل الصغيرة، ومجموعة ثمينة من الحلي والأسلحة والأطباق والملاعق، وتحف بديعة من البرنز على شكل مواقد ومباخر ومصابيح، ورقعة للشطرنج من العاج والأبنوس، وأطقم فاخرة من السروج والبراذع، مصنوعة من الجلد المصبوغ باللون الأزرق، ومطعَّمة بالفضة والأحجار الكريمة، ومحلَّاة بزخارف، هي مثل حي على رقي الفنون الجميلة في ذلك العهد.

وهذه المقابر خاصة بطبقة الملوك والأشراف، يُلبِسونهم التاج والحلي والسلاح، ويزوِّدونهم بالطعام والشراب، ويُودِعون قبر الملك تحفه الخاصة، ثم يشنق العبيد

من مشايخ أبي حمد والشلال وهم كأهل الصعيد.

أنفسهم لديه، وتطهَّم خيوله حيث تُقتل داخل القبر؛ ليكون الجميع في خدمته في الحياة الأخرى!

وقد روى هيرودوت أن النوبيين كانوا يحنِّطون الميت، ويطلون جسده بالجصِّ، ويدهنونه بمادة تجعله قريب الشبه بالحياة، ثم يوضع في أسطوانة من البلُّور؛ بحيث يُرى الميت ولا تنبعث منه رائحة الموت، وتُحفظ هذه الأسطوانة لدى أقارب الميت سنة كاملة، يقدَّم له في خلالها الذبائح وبواكير كل شيء، حتى ينتهي العام فتُنقل هذه الأسطوانة إلى المقابر.

وفي المتحف المصري قسم خاص بالتاريخ النوبي، تمتلئ غرفه وأروقته بآثار ثمينة، تمثل الحضارة النوبية في كثير من العصور، ويوجد تمثال من المرمر للأميرة أمنرتيس Amenartais الزوجة المقدسة لأمون وحاكمة طيبة، وهو قائم على قاعدة من الجرانيت الأسود، بقدٍّ أهيف وقوام رشيق ووجه صبوح، يزيِّنه التاج على رأسها، والأساور العريضة في معصميها، والحجول الكبيرة في رسغيها، وعلى قاعدة التمثال منقوش اسم أخيها الملك شبكا.

(٢) مملكة نبته أو نباطا وملوك النوبة في مصر

ومن المحقق أنه نشأت ممالك بالنوبة، ولكن تاريخها غامض، وقد ثبت أن الملك أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة قد استعان بملك النوبة على الرعاة الذين أرهقوا المصريين أكثر من ستمائة عام «٢٢١٤–١٦٠٠ق.م»، حتى تشتَّت كثير منهم في بلاد النوبة، وأسسوا فيها مهاجر كثيرة، وأمدَّه هذا الملك بجيش نوبي طرد به هؤلاء الرعاة من مصر.

ولما سقطت مملكة «طيبة» بعد عهد الرعامسة،[٢] نفى الملك «سمنتوميامون»، أحد ملوك الأسرة الحادية والعشرين، كهنة أمون معبود طيبة من مصر، فلجأ هؤلاء إلى بلاد النوبة؛ لأنها كانت تعبد هذا الإله، وشملوا ملوك النوبة برعايتهم، وقوَّوا فيهم نزعة الحرية والسيادة، فإذا بمملكة «نباته» «أو نباطا» مملكة قوية ذات حضارة وسلطان، وإذا بها تبسط سيادتها على وادي النيل، وتعيد لأمون نفوذه وسلطانه.

ومن ملوك «نبته» قامت الأسرة الخامسة والعشرون «٧١٥–٦٦٤ق.م»، ولا يزال باقيًا من آثار هذه المملكة بعض المعابد والأهرام، فهناك — عدا المعابد — ثلاثة عشر هرمًا في جبل البرقل، وخمسة وعشرون تجاهه في نوري عند الشلال الرابع، وهي مبنية من الحجر الرملي على هيئة أهرام مصر إلا أنها أصغر منها حجمًا، وفي واجهة كل هرم إيوان كأواوين المعابد المصرية.

وقد استولى النوبيون على الصعيد، وانقسم الوجه البحري إلى عشرين ولاية بعضها مستقل عن بعض، وكان على ولاية سايس أمير قوي «تفنخت»، طمع في ضم الولايات الأخرى إليه، فاستعان على ذلك بجنود نوبية حارب بها الأمراء حتى تغلب عليهم، وتم استيلاؤه على مصر السفلى، فعُدَّ مؤسِّسًا للأسرة الرابعة والعشرين.

ولم تقف مطامع «تفنخت» عند هذا الحد، بل جرَّد جيشًا يحاول به استرجاع الصعيد من النوبيين، وكان على «نبته» في ذلك العهد ملك عظيم يدعى بيعنخي Piankhi، هاله أن ينتقص «تفنخت» من أطراف ملكه، فعبَّأ الجيوش لقتاله، وردَّه على أعقابه، واستولى على بلاده، ومن ثمَّ صارت مصر إيالة نوبية.

وقد أبقى «بيعنخي» لأمراء مصر امتيازاتهم، وأقام عليهم «تفنخت» ملكًا من قِبَله بعد أن أُخضع وتاب، ثم عاد إلى عاصمة ملكه ظافرًا منصورًا.

---

[٢] صحائف مطوية من تاريخ النوبة.

ولما توفي الملك «بيعنخي» خلفه الملك «كاتشا»، ولم يكن من أسرة ملكية، وإنما كان متزوجًا من ابنة كاهن مصري؛ ولذلك انقض عليه «تفنخت» وأجلى جنوده عن مصر، ثم توفي «تفنخت» وخلفه ابنه باكوريس، وكان قوي الإرادة، فاتخذ خطة أبيه، وجرَّد الأمراء من سلطانهم، وصار ملكًا مستقلًّا على مصر، وفي أثناء ذلك مات «كاتشا» ملك النوبة، وخلفه ابنه «شبكا»، فتوجه إلى مصر لقتال «باكوريس»، واستعان عليه بأمرائها الذين يبغضونه، وشاء القدر أن يقع «باكوريس» في قبضته بمدينة تانيس، فألقاه حيًّا في النار! وعادت مصر تابعة لملك النوبة.

ويعد الملك «شبكا» مؤسِّسًا للأسرة الخامسة والعشرين، وكان ملكًا عادلًا محِبًّا للإصلاح، فشاد الجسور، وحفر الترع، وأصلح بعض المدن والمعابد المصرية، وجعل الأشغال الشاقة بدلًا من عقوبة الإعدام، ونظَّم الإدارة المصرية، فجعل على كل إقليم رئيسًا تحت إشراف أمراء من النوبة، وأقام أخته الأميرة «أمنرتيس» حاكمًا على طيبة.

وحدثت بين شبكا وملك آشور معارك كثيرة في الشام، انتهت بهزيمته وهزيمة حلفائه، فعاد إلى مصر بعد ضياع ملكه، ومات تاركًا حكم الصعيد والنوبة لابنه «سبيخون»، وكان الوجه البحري تتنازعه فئتان من المصريين، وفاز «سبيخون»، وقام ضده أمير من النوبيين يدعى طهارقة Taharqa، فأغار عليه وقتله وتولى مكانه، ثم طهَّر مصر من العصاة، واستقر فيها أمره إلى أن غزا مصر آشور أخي الدين، وعاد طهارقة إلى غزو مصر، فاسترجع مدينة طيبة، وأبطل منها عبادة العجل أبيس.

(٣) مملكة مروى في عهد الرومان

تاريخ المملكة

ظهرت بعد دولة «نبته» أو «نباطا» مملكة «مروى» في الجنوب، و«مروى» هذه غير البلدة المعروفة الآن بهذا الاسم، فإن الأولى كانت تقوم قرب شندى، ولم يبقَ منها اليوم إلا أطلال دارسة، أما الأخرى، فتقع قرب آثار مدينة نباطا القديمة، وبين هذه وتلك طريق في الصحراء يبلغ طوله ١٨٠ ميلًا، وفي بداية الأسرة السادسة والعشرين في مصر، أنشأ الملك «إبسمتيك» حاميات قوية لحدود الدولة في جزيرة إلفنتين عند أسوان، وكان لهذا الملك جيش قوي من الإغريق، واغتاظ الجند المصريون وفرُّوا إلى النوبة، وانضموا إلى ملك «مروى»، فضم بعض القبائل النوبية إليه.

وكانت «مروى» معاصرة للفرس والبطالسة والرومان، ولها وقائع مع هؤلاء جميعًا، وكان سلطانها يمتد من الشلال الأول إلى الحبشة، وآثارها تلي آثار نباطا في القدم وتفوقها في الأهمية، من بينها هيكل للإله أمون، ومجموعة من الأهرام يبلغ عددها ثمانين هرمًا، وفي جزيرة مروى بركة يملؤها ماء الأمطار، وحولها آثار هياكل فخمة، وبين هذه البركة ومدينة شندى آثار هيكل يبلغ محيطه ألف ياردة، ولملوك مروى آثار في نباطا نفسها، وهيكل قائم في بلدة عمارة جنوبي الشلال الثاني بنحو مائة ميل، في دكة ودبود من النوبة السفلى.

وقد نهضت مملكة مروى حتى قيل إنها كانت تجهز للحرب جيشًا مؤلَّفًا من مائتين وخمسين ألف مقاتل، وكان فيها أربعمائة صانع، وأن للمرأة في عهدها رقيًّا وسيادة، فكان أكثر ملوكها نساء، ولقد عجز قمبيز عن غزو المملكة.

وفي عهد البطالسة، استولوا على جزء من النوبة السفلى حتى بلدة المحرقة، وكان الملك أرجيمنس ملك مروى معاصرًا لبطليموس الثاني «٢٨٥–٢٤٧ق.ب»، وقد حوَّر هذا الملك في الديانة النوبية، وأدخل في مملكته كثيرًا من النظم والقوانين الإغريقية، ومن آثاره: هيكل في دكة، أقامه على أطلال من عهد الأسرة الثانية عشرة، وأتمَّه البطالسة من بعده.

واشتهر في مروى بعده الملك «أذخر أمون»، وله في دبود هيكل صغير لا يزال قائمًا إلى اليوم.

وقد أرسل الإمبراطور الروماني أغسطوس قيصر، حوالي عام ٢٣ قبل الميلاد، حملة من مصر لغزو بلاد العرب، وكان على مروى في ذلك العهد ملكة تلقب بكنداكة — وهو لقب الملكات اللواتي تولين الحكم في مروى، وفتحت الصعيد، وقد هزمها النائب الروماني بترنيوس بجيش مؤلَّف من عشرة آلاف وثمانمائة فارس، فتقهقرت أمامه حتى أدركها قرب دكة، وطلب منها رد الأسرى والغنائم، فلم تجبه إلى ذلك، فحمل عليها حملة قاسية شتَّت جيشها، ففرَّت منهزمة أمامه شرَّ هزيمة، وامتنعت في قلعة قرب الشلال الرابع حتى استولى على حامية أبريم، ودمر نباطا، وقد قبلت كنداكة الصلح.

وظلت المحرقة حدًّا فاصلًا بين مصر والنوبة إلى عهد الإمبراطور الروماني ديوقليشيان «٢٨٤–٣٢٣ب.م»، حيث رأى أن خراج هذه المنطقة، فيما بين المحرقة وأسوان، لا يفي بنفقات الجنود اللازمة لجمعه، فنزل عنها للنوبيين، وأعاد الحدود المصرية إلى أسوان، ثم قوَّى حامية إلفنتين، وعقد مع النوبة والبجة معاهدة على حفظ الحدود، ظلت قائمة إلى عهد الإمبراطور مارشيان، حيث نقضها النوبيون وغزوا مصر

العليا، وجلبوا منها كثيرًا من الأسرى والغنائم، فغزاهم القائد مكسيمينوس محافظ طيبة عام ٤٥١ للميلاد، وتغلب على النوبة والبجة معًا.

وكان لها معابد بيلاق «الفيلة» ودبود وكلابشة ودكة والسبوع وعمدة والدر وأبو سنبل الصغير وأبو سنبل الكبير وفريق.

معبد أبي سمبل في حدود مديرية أسوان ويرى لفيف أعضاء البعثة المصرية بالسودان أمامه سنة ١٩٣٥.

وما زال الرومان يعاملونهم بالحسنى حتى قام الإمبراطور جستنيان «٥١٧–٥٦٦ب.م» فأغلظ معاملتهم، وأمر نرفس قائد حامية بيلاق فعطَّل الهياكل، وسجن الكهنة، وأرسل تماثيل الآلهة إلى القسطنطينية، ولما زار المؤرخ إسترابون هذه الجزيرة، وجد أهلها من مصريين ونوبيين يعبدون صقرًا كبيرًا يؤتى به من النوبة، ولعل القبلة القائمة في الخلوة المقدسة كانت محلًّا لهذا المعبود.

وفي الجزيرة من آثار العهد المسيحي أطلال كنيسة لمارية العذراء، وأخرى للبطريق ماري أناطس، وكان فيها جامع ذو منارة لم يبقَ من آثاره الآن شيء، وقد كانت هذه الجزيرة أولى ضحايا خزان أسوان، يطغى عليها ماؤه أشهر الشتاء من كل عام، فتبدو في ذلك المنظر الرائع، وهي تصارع الفناء وتصمد له، حتى ينحسر عنها الماء أشهر الصيف، وقد ترك على معابدها أثر هذا الصراع الطويل.

وقد أنشأ رمسيس الأكبر معبد أبي سنبل الكبير، تذكارًا لانتصاره على الحيثيين، وهو منحوت في الجبل إلى عمق ١٨٥ قدمًا، ويزين صدره أربعة تماثيل عظيمة، تَهشَّم وجه أحدها، ويبلغ ارتفاع كل منهما ٦٥ قدمًا، وعرضه ٢٥ قدمًا، وهي تمثل رمسيس الأكبر جالسًا على عرشه، ينظر إلى النيل بتلك العظمة الخالدة منذ نيف وثلاثة آلاف سنة.

ويشتمل المعبد على ردهة واسعة، فيها ثمانية أعمدة على شكل تماثيل للإله أوزيريس، ارتفاع كل منها ١٧ قدمًا، وقد زُينت جدران الردهة بكثير من الصور الحربية، وحولها غرف مشحونة بالنقوش البديعة، وفي داخل المعبد ردهة أخرى تؤدي إلى مذبح فيه أربعة تماثيل ملونة، أحدها للإله هرماخيس، وآخر لرمسيس، وثالث للإله أمون رع، ورابع للإله بتاح، ويكاد يكون هذا المعبد سجلًّا شاملًا لفتوحات رمسيس ومواقفه المشهورة، فهو يشمل على نحو ألف ومائتي صورة تنطق بمجده وعظمته؛ منها صورتان كبيرتان على جانبي الباب من الداخل، تمثله في موقف رمزي وهو قابض بيده على شعور فوج من الأسرى الجاثين أمامه من مختلف الشعوب، وبيده مقمعة وهو متحفز لسحقهم بضربة واحدة، وأمامه الإله هرماخيس يقدِّم له حسام النصر، ويتلو عليه آيات المجد والفخار، وهناك لوحة أخرى تمثل وقائعه المشهورة مع الحيثيين، وقد جاء في وصف إحداها القصة الآتية:

«في العام الخامس من حكم رمسيس الثاني، كان جلالته في أرض الشاة على مقربة من قادش، وكانت الطليعة تراقب بانتباه شديد، ولما وصل الجيش إلى شمال مدينة شبتون، جاء إلى معسكر المصريين اثنان من عيون شاسو، وادَّعيا أنهما رسولان من قبل رؤساء القبائل لإخبار الملك رمسيس بأنهم غادروا ملك الحيثيين وهجروه، رغبة في عقد محالفة مع جلالته، وأنهم أصبحوا من ذلك الحين خاضعين لحكمه، ثم استطردا في الحديث مع جلالته وأخبراه أن زعيم الحيثيين في أرض حلب، وأنه يخشى الاقتراب من ملك مصر.

والواقع أن هذين الرجلين كانا جاسوسين أرسلا لكشف موضع رمسيس واستعداده الحربي، بينما كان زعيمهم على أهبة الهجوم.

وبعد ذلك بقليل جاء كشَّاف مصري إلى حضرة الملك وأخبره أن الجيش الحيثي قد ضرب معسكره خلف قادش، وأنه أفلح في ضم وحدات ومعدات كثيرة من الأقاليم المجاورة إلى جيشه.

عند ذلك جمع رمسيس رؤساء جيشه وأطلعهم على الأمر، وأنَّب فرقة الاستطلاع على تقصيرها في كشف مواطن العدو، ثم صدرت الأوامر للجيش بالزحف على قادش، وبينما هم يعبرون في النهر إذا بالجيش الحيثي وقد أطبق عليهم، فزأر رمسيس في جنوده زأرة أبيه مانتو ملك طيبة، وأسرع فسلَّح نفسه بالسلاح الكامل، وركب عجلته وانتقل بها في صفوف الأعداء، ولم يلبث أن وجد نفسه محصورًا بين الحيثيين، ومنفصلًا عن جيشه، فدعا أباه أمون أن يعينه على أمره، واستمات في الدفاع، فتكدَّست في طريقه جثث القتلى، ثم اتخذ لنفسه نفقًا بين صفوف العدو، وهو يصليهم بسهامه القاتلة، حتى نجا من الهلاك الذي كان محدقًا به من كل جانب.

وقد كانت مقدمة هذا المعبد مطمورة بالرمال المنهالة عليه من الجبال، فأزالت الحكومة هذه الرمال، وأقامت على سطح الجبل سورًا كبيرًا لمنع انهيالها عليه مرة أخرى، وقد عُثر هناك على آثار كثيرة نقلت إلى المتحف المصري منها مجموعة من الحجر الرملي تتألَّف من مسلَّتين صغيرتين، ومذبح كانت توضع عليه القرابين، وأربعة قردة تتعبد إلى الشمس وقت الشروق ووقت الغروب، وهيكل بداخله تماثيل بعض الحيوانات المقدسة.

تاريخ المسيحية في النوبة

يبدأ تاريخ المسيحية في بلاد النوبة حوالي عام ٥٤٥ للميلاد، حيث وصل إليها رسل من الإسكندرية يدعون أهلها إلى الدين المسيحي الجديد، وقد عطَّل الإمبراطور جستنيان معابد بيلاق، وسجن كهنتها، وأرسل تماثيل آلهتها إلى القسطنطينية، وفي عام ٥٧٧ قلب الرومان هيكل الإلهة إيزيس إلى كنيسة، وأقاموا فيها مطرانًا يدعى ثيودوروس، ومن ذلك العهد أخذت المسيحية تنتشر بسرعة في بلاد النوبة حتى عمَّتها في أواخر القرن السادس للميلاد.

وقد أرسل عمرو بن العاص إلى النوبة جيشًا من عشرين ألف مقاتل بقيادة عبد الله بن سعد بن سرح، حملهم على دفع الجزية ثم عاد إلى مصر.

ثم لما تولى هذا القائد على مصر بعد عمرو بن العاص، نقض النوبيون في أول ولايته الصلح الذي بينهم، فامتنعوا عن دفع الجزية، وأرسلوا سراياهم إلى صعيد مصر، فعاثوا فيه نهبًا وفسادًا، فغزاهم ابن أبي السرح عام ٣١هـ، وحاصر مدينة دنقلة، ورماها

بالمنجنيق، فطلب ملكهم المدعو قليدورون الصلح، وخرج إليه في ذلة وخضوع، فتلقاه ابن أبي السرح بالعفو والإكرام، وعقد معه معاهدة هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، عهد من الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السرح، لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة، من حدِّ أرض أسوان إلى حدِّ أرض علوة.

إن عبد الله بن سعد جعل لهم أمانًا وصدقة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة: إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي ﷺ أن لا نحاربكم، ولا ننصب لكم حربًا، ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم، على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه، وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه، وعليكم حفظ مَن نزل ببلدكم أو بطرفه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم، وإن عليكم ردَّ آبقٍ خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام، ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه، ولا تتعرَّضوا لمسلم قصده وجاوره إلى أن ينصرف عنه، وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم، ولا تمنعوا منه مصليًا، وعليكم كنسه وإسراجه وتكريمه، وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون رأسًا، تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلدكم غير المعيب، يكون فيها ذُكران وإناث، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم، تدفعون ذلك إلى والي أسوان، وليس على مسلم دفع عدوٍّ عرض لكم ولا منعه عنكم، من حدِّ أرض علوة إلى أرض أسوان.

فإن أنتم آذيتم عبدًا لمسلم، أو قتلتم مسلمًا أو معاهدًا، أو تعرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم، أو منعتم شيئًا من الثلثمائة والستين رأسًا، فقد برئتْ منكم هذه الهدنة والأمان، وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد ﷺ، ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من المسيح وذمة الحواريين، وذمة من تعظِّمونه من أهل ملتكم ودينكم، الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك.

كتبه عمرو بن شرحبيل في رمضان سنة ٣١هـ

وقد جرت العادة أن يكون البقط «أي: الجزية» ثلثمائة وستين رأسًا لفيء المسلمين، وأربعين رأسًا لوالي مصر، وكان الولاة يدفعون للنوبيين نظير ذلك مئات الأرادب من القمح والشعير، وكثيرًا من الهدايا والصدقات.

ولما انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس، حوالي عام ١٣٢هـ، طورد الأمير عبيد الله بن مروان أمير مصر فيمن طورد من الأمويين، ففر بعبيده وأمواله إلى بلاد النوبة، ونزل في مدينة خاوية، فاستعمر بعض دورها، وأرسل إلى ملك النوبة يستجير به ويستأمنه على حياته، فقدم إليه الملك في عسكر عظيم، وتقدَّم إلى الأمير عبيد الله فقبَّل يده، فأشار إليه الأمير أن يجلس على فرش قد نضدت له، فأبى الملك إلا أن يجلس على الأرض، وقال كل ملك لا يكون متواضعًا لله فهو جبار متكبر عنيد! وأطرق الملك طويلًا ثم سأل الأمير: «كيف سُلِبتم ملكَكم وأُخذ منكم، وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟

فأجاب أن الذي سلبنا ملكنا أقرب إلى نبينا منا.

فقال له: فكيف إنكم تمتُّون إلى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حُرِّم عليكم من الخمر، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم، ولم يفعل نبيكم شيئًا من هذا؟ وبلغنا أنك لما وُليت مصر كنت تخرج إلى الصيد، وتكلِّف أهل القرى ما لا يطيقون، كل ذلك في سبيل كركي تصيده.»

وصار ملك النوبة يعدِّد على الأمير جملة مساوئ وهو صامت لا يجيب، ثم قال له: «فلما استحللتم ما حرَّمه الله عليكم سُلِبتم ملكَكم، وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم، وأنا أخاف على نفسي إن أنزلتك عندي أن تحلَّ بي تلك النقمة التي حلَّت بكم، فإن البلاء عام، والرحمة مخصوصة.»

ثم أمره بالرحيل عن بلاده، فعاد إلى مصر حيث قبض عليه عمال الخليفة المنصور، وبعثوا به إلى بغداد فسجن فيها إلى أن مات.

وفي عهد الدولة الأموية والدولة العباسية كان في أسوان كثير من العرب من قبائل قحطان وربيعة ومضر، وخلقٌ كثير من قريش، وكانت لهم ضياع في النوبة، فلما دخل المأمون مصر استعداه ملك النوبة على هؤلاء، وقال بأن هذه الضياع له، وأن بعض عبيده من النوبيين باعوها للمسلمين بغير حق، فأحال المأمون هذه الدعوى على والي أسوان، ورأى المسلمون أن يفسدوا على الملك محاولته، فأوصوا البائعين أن يقرروا أمام الوالي أنهم ليسوا عبيدًا للملك، وأن علاقتهم به إنما تكون كعلاقة المسلمين بملوكهم، ولمَّا جمع الوالي بينهم قرروا ذلك، فسقطت دعوى الملك، ومن ذلك العهد صار سكان تلك الضياع

المجاورة لأسوان أحرارًا لا تسري عليهم شريعة ملك النوبة من حيث استعباد رعاياه، ومن ثم نشأت العداوة بين ملوك النوبة والمسلمين، فصاروا يتحيَّنون الفرص للإغارة على أسوان وبلاد الصعيد.

كانت أسوان مقر إمارة بيت كنز الدولة الذين هبطوا من الحجاز في خلافة المتوكل على الله — حوالي عام ٢٤٢هـ — وصاروا حكَّامًا على ذلك الإقليم من قبل الحكومة المصرية، ثم استقلوا بالحكم فترة من الزمن، وامتد نفوذهم فيها.

وفي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري، كانت أسوان ضحية حروب طويلة بين العرب والحكومة المصرية، وبين العرب وهوارة، حتى أقفرت وصارت خرابًا بلقعًا، إلى أن استعمرت بعد الفتح العثماني من جديد.

وأشهر الغزوات التي وقعت بين مصر والنوبة في العهد المسيحي، غزوة ملك النوبة لأسوان عام ٣٤٤هـ/٩٥٦م؛ حيث قَتَل وسَبى من أهلها خلقًا كثيرًا، فخرج إليه محمد بن عبد الله الخازن من قِبَل أنوجور الإخشيد، وزحف على بلاده في البر والبحر، حتى أدركه وأوقع به.

وهجم نائب ملك النوبة على أسوان عام ٣٥١هـ، فخرَّبها وأوقع بأهلها، وتوغل في صعيد مصر حتى مدينة أخميم، وكان ذلك عقب دخول القائد جوهر الصقلي أرض مصر، فلم يزد جوهر على أن دعا ملك النوبة إلى الإسلام وأداء ما عليه من الجزية، فلم يجبه إلى شيء من هذا، وإنما أكرم رسله وزوَّدهم بالهدايا.

وبعد سقوط الدولة الفاطمية، أراد السلطان صلاح الدين عام ٥٦٨هـ فتح النوبة، فجهَّز جيشًا بقيادة أخيه شمس الدولة والأمير كنز الدولة حامي أسوان، ففتح هذا الجيش بلاد النوبة إلى أبريم، ولمَّا لم يرَ صلاح الدين فائدة من الاستيلاء على تلك البلاد المجدبة، أعاد منها جيشه، وترك فيها حامية وأميرًا من الأكراد، ثم عاد فسحب هذه الحامية بعد غرق أميرها هناك، ونقضت النوبة عهدها مع صلاح الدين في عهد المماليك، فجرَّد عليها جيشًا عام ٥٧٤هـ أخضعها لشروطه.

وفي عام ٦٧٤هـ أغار داود ملك النوبة على أسوان، وأحرق سواقي كثيرة، وأراد التوغل في الصعيد فتصدى له الأمير نجم الدين عمر، أحد أمراء بيت كنز الدولة، ورده إلى النوبة، واتفق أنَّ سكندة ابن أخت داود ملك النوبة، قدم إلى السلطان الظاهر بيبرس مستجيرًا من بغي خاله، فتذرَّع السلطان بذلك وأراد الاقتصاص منه، فجهَّز جيشًا من المماليك والعرب وسيَّره إلى بلاد النوبة، ففتحها بعد معارك كبيرة، وأسر فيمن أسر الملك

داود وأسرته، ثم أقيم سكندة ملكًا على النوبة، وتعهَّد بأداء الجزية المقررة، وجعل نصف إيراد النوبة لعمارة البلاد وحفظها، ونصفه للسلطان، ونزل له عن منطقة الجنادل لقربها من أسوان، وقرر إهداء مجموعة كبيرة من الفيلة والزراف والفهود والإبل والبقر، تُهدى إليه كل عام.

وأرسل السلطان المنصور قلاوون جيشًا إلى النوبة عام ٦٨٦هـ، بعد أن استنفر العربان أولاد أبي بكر وأولاد عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد كنز الدولة وجماعة من بني هلال، فاستولى على البلاد إلى جنوب دنقلة، وضرب عليها الجزية ثم عاد.

وفي عهد السلطان الناصر ابن قلاوون، هاجر إلى مصر أمير نوبي يدعى نشلى، فأسلم وأقام عند السلطان، وكان على النوبة إذ ذاك ملك اسمه كربيس قد امتنع عن أداء الجزية، فجهَّز إليه السلطان جيشًا عام ٧١٦هـ، وبعث معه نشلى ملكًا على النوبة، ففرَّ كربيس إلى أرض علوة، واستقر نشلى في الملك إلى أن تآمر عليه النوبيون وقتلوه بممالأة جماعة من العرب، وكان كربيس قد حُمل إلى السلطان في مصر، فأبقاه عنده وأسلم فحسن إسلامه، فلما قتل نشلى أرسله السلطان ملكًا على النوبة، ولم يلبث أن أسلمت جميع رعيته، فكان هذا آخر عهد المسيحية في بلاد النوبة.

وفي دنقلة العجوز جامع قائم على أطلال كنيسة، وعلى واجهته حجر من الرخام، منقوش عليه تاريخ افتتاح هذه العاصمة في ٢٠ من ربيع الأول سنة ٧١٧هـ و٩ من يونية سنة ١٣١٨م على يد سيف الدين بن عبد الله الناصر، وأحد أمراء بيت كنز الدولة.

وقائع البجة

في الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر يقطن منذ القدم عنصرٌ حامي يُعرف بالبجة، وهو عنصر قوي شديد البأس، كان له مع قدماء مصر والنوبة وقائع كثيرة، وأشهر بلادهم مدينة عيذاب على البحر الأحمر تجاه جدة، وكانت فيما مضى مركزًا هامًّا لنقل الحجاج والتجارة، وتشمل بلاد البجة منطقة العلاقي، التي عرفت من أول عهد الفتح الإسلامي بهذا الاسم، كما عرفت قديمًا باسم أوكيتا، وفي هذه المنطقة تقع مناجم الذهب والزمرد التي استغلها الفراعنة عهودًا طويلة، ولا تزال بها بقية تعمل فيها بعض الشركات الأجنبية، وظل البجة عنصرًا مستقلًّا في تلك الصحراء إلى عهد الفتح الإسلامي؛ حيث وفد عليها كثير من القبائل العربية لاستغلال ما فيها من المعادن، واختلطت بسراة البجة في المعاملة والنسب.

وكان البجة كثيرًا ما يُوقِعون بالمسلمين الذين في المعدن، ويغِيرون على قرى النوبة والصعيد الأعلى، وهم في أمن ومنعة في الصحراء، فبعث إليهم المأمون جيشًا بقيادة عبد الله بن الجهم عام ٢١٦هـ، وكانت له معهم وقائع كثيرة، ثم فرض عليهم جزية قدرها مائة من الإبل أو ثلثمائة دينار في كل عام.

وأقام البجة على ذلك مدة قصيرة، ثم عادوا إلى غزو الصعيد والإيقاع بمسلمي المعدن، وكان ذلك في عهد المتوكل على الله «٢٣٢–٢٤٧هـ»، فاستشار الناس في أمرهم، فعلم أنهم ذوو قوة ومنعة في الصحراء، وأن الطريق إليهم يستغرق مسيرة شهر بين المهامة والجبال، ففترت همته عن غزوهم، ولكنهم أمعنوا في البغي والعدوان، واستطار شرُّهم في الصعيد، فولى المتوكل محمدًا بن عبد الله القمي على الصعيد الأعلى، وأمره بحرب البجة، فسار إليهم عام ٢٤١هـ بجيش عرمرم مؤلَّف من عشرين ألف فارس وراجل، ووجَّه إلى البحر الأحمر سبع سفن محملة بالمؤن والأقوات، وأمرها أن توافيه عند ساحل البحر مما يلي بلاد البجة، ثم زحف بجيشه حتى جاوز المعدن وانتهى إلى حصونهم، فخرج إليه ملكهم المدعو علي بابا في أضعاف جيشه، ودار بينهما القتال في غير حزم ولا بلاء، فقد كان ملك البجة يرمي إلى مراوغتهم حتى ينفذ ما لديهم من الزاد فيأخذهم بغير قتال! فلمَّا وصلت السفن واستولى المسلمون على ما فيها من الأزواد، ناجزهم البجة بصدق وجلاد.

وكانوا على إبل فارهة نفورة، فأمر القمي بوضع الأجراس في أعناق الخيل، وحمل بها على البجة، فذعرت الإبل وفرت هاربة بهم في الجبال والوديان، وأوسعهم المسلمون قتلًا وأسرًا، حتى طلب ملكهم الصلح والأمان، فصالحه القمي على أداء ما عليه من الجزية، وتمكين المسلمين من العمل في المعدن.

واتصل البجة بمهاجري العرب، واعتنق الحداربة الإسلام — وهم صفوة القوم — ثم تبعهم الرنافج بإسلام ضعيف، ومن ذرية هؤلاء قبائل العبابدة والبشارية.

(٤) القبائل العربية

وأول ما نزلت القبائل العربية بالنوبة إنما نزلت في صحرائها الشرقية، وعلى الأخص في وادي العلاقي؛ حيث معادن الذهب والزمرد، فإن المعاهدة التي بين النوبة والمسلمين كانت تحرِّم أن ينزل أحدهما في بلد الآخر إلا مجتازًا غير مقيم فيه.

وبسطت ربيعة نفوذها على البجة، وكفَّت عدوانهم عن ديار مصر؛ ولذلك كان لها السيادة على المعدن، والغلبة على باقي القبائل العربية، وكان رئيسها بشر بن مروان بن إسحاق — حوالي عام ٣٣٢هـ — يركب في ثلاثة آلاف من قبائل ربيعة ومضر وأحلافها من العرب، وثلاثين ألف حراب على النجب من الحداربة المسلمين!

أحد مشايخ العرب في السودان.

ولما خرب المعدن ونضب معينه تفرَّقت القبائل العربية على النيل، وانتشرت في النوبة السفلى والعليا، وتلاشى العنصر النوبي واللغة النوبية في النوبة العليا؛ لكثرة من هاجر إليها من العرب، ولأن أغلب أهلها كانوا من الزنوج الذين انسحبوا بإزاء هجرة العرب إلى الجنوب.

عرب العليقات

ونزل من القبائل العربية، في منطقة مستقلة بين بلدتي المضيق وكرسكو، عربٌ يُعرفون بعرب العليقات، نسبة إلى وادي العلاقي الذي نزلوا منه بعد خرابه، وهم يدعونه من النسبة إلى عقيل بن أبي طالب.

واشتهر من ربيعة بيتٌ لقِّب أمراؤه بكنز الدولة، وأول من حمل منهم هذا اللقب الأمير محمد بن عبد الله حامي أسوان، فإنه ظفر بأبي ركوة الأموي — حوالي عام ٣٩٧هـ — وكان أبو ركوة ثائرًا على الحاكم بأمر الله الفاطمي، فأكرمه الحاكم إكراما عظيمًا، وخلع عليه هذا اللقب الكريم، فصار من ذلك العهد علمًا على هذا البيت وأمرائه.

وقد ربض هؤلاء الأمراء على حدود مصر الجنوبية يردُّون عنها غارات النوبة وعدوان البجة، وبسطوا سلطانهم على الصعيد والنوبة بعد إسلامها، فقامت لهم دولة في سنار حوالي القرن التاسع الهجري، وصار نفوذهم في فترة من الزمن يمتد من جبال فازوغلي جنوبًا إلى حدود النوبة شمالًا، أما في مصر، فكان سلطانهم يمتد من أسوان إلى نهاية الأعمال القوصية مدى ستمائة عام.

ويذكر التاريخ لأمراء هذا البيت معارك كثيرة مع السلطان صلاح الدين وبعض الولاة وقبائل هوارة، وذرية هذا البيت منتشرون في النوبة والصعيد، ومن الخطأ تسمية النوبيين بالبرابرة.

الفصل السابع

الحكومات العربية الإسلامية في السودان

كثرت هجرة القبائل العربية إلى مصر والسودان بعد ظهور الإسلام في الجزيرة العربية وفتوحاته، وقد حكم السودان بقواعد الشريعة الإسلامية ملوك سنار والفور والمهدي والتعايشي.

غزا عمرو بن العاص مصر في ديسمبر سنة ٦٣٩م، ذي الحجة سنة ١٨هـ، وكان معه أربعة آلاف مقاتل ثم لحقت به أربعة آلاف أخرى، وفي يونية سنة ٦٤٠م، رجب سنة ١٩هـ، وصل الزبير بن العوام ومعه ١٢٠٠٠ مقاتل، وفتحوا الإسكندرية في نوفمبر سنة ٦٤١م، ذي الحجة سنة٢٠هـ، وكان جيش المسلمين خليطًا من القبائل العربية جميعًا، وكان بين القبائل العربية الثانية التي اشتركت في الفتح تفصيلًا: لخم، وجزام، حتى دعاهم عمر بن الخطاب الخليفة بالقبائل المصرية، وفي سنة ٢٢هـ/٦٤٢م ندب عبد الله بن أبي السرح لغزو النوبة، وكان معه عشرون ألف مقاتل، وفي عهد الطولونية زاد عدد الوافدين من العرب، وكانت أكبر الفرص للمهاجرة مجيء الوالي الجديد، فقد كان يرافقه عشرون ألف مقاتل، لم يكن يرغب الكثير منهم في الرجوع إلى سوريا أو بلاد العرب.

وفي عهد الأموية الذي انتهى سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م كانت القبائل الوافدة على مصر ٢٢ قبيلة، منها سبع من قريش معظمهم من بني أمية، وسبع من قيس عيلان، وواحدة من جهينة، واثنتان من الأزد، وثلاث من حمير، وواحدة من لخم، وواحدة غير معروفة النسب. وفي عهد العباسية من سنة ١٣٣هـ/٧٥٠م إلى سنة ٢٤٢هـ/٨٥٦م كانت القبائل الوافدة على مصر ٣٣ قبيلة معروف نسبها تقريبًا، منها خمس عشرة عباسية، وثلاث من تميم، وخمس من الأزد، واثنتان من طيء، وواحدة من لخم، واثنتان من مذحج، واثنتان من بجيلة، واثنتان من حمير.

ولما تغلَّب العباسيون على الأمويين فرَّ هؤلاء إلى مختلف الأقطار الإسلامية، ومنها مصر والسودان، وأحدث ذلك رد فعل في قبائل مصر، خصوصًا قيسًا، ففي سنة ١٦٦هـ/٧٨٢م ادَّعى أحد الأمويين الخلافة في الصعيد، ونجحت دعوته ولكنه قُتل، وفي سنة ٢١٦هـ/٨٣١م كثرت قلاقل قيس، وتمكنوا من إثارة القبط أيضًا، فثاروا معًا ثورة هائلة جاء الخليفة العباسي المأمون بنفسه لإخضاعها في المحرم من سنة ٢١٧هـ، ومنذ ذلك التاريخ فازت العرب بالغلبة، يضاف إلى ذلك إذلال عبد الله بن الجهم للبجة، وأسره ملكها «علي بابا» وأرسله إلى بغداد، فكانت معه المعاهدة المشهورة التي تمكَّن العرب بعدها من التوغل في بلاد النوبة، وامتلاك مناجم الذهب في عيذاب، مما فضَّلت معه ربيعة وجهينة أن تسكن الصحراء الشرقية، ثم تصاهرتا مع البجة.

عرب السودان

والعرب بدنات كثيرة تفوق الثلاثين، وهم غير عرب النوبة الذين وصفناهم، وأشهر هذه البدنات:

(أ) **الفونج:** وهم الذين أسسوا مملكة سنار القديمة مع العابدلاب، قيل إنهم عرب أمويون نجوا من بني العباس، وقيل لا، بل هم سود.

(ب) **العابدلاب:** مركزهم الحلفاية «خرطوم بحري»، نسبة إلى عبد الله جماع الذي أسس مملكة سنار مع الفونج، ومعنى آب باللغة البيجاوية: القبيلة.

(جـ) **الهمج:** وزراء الفونج أيام دولتهم، ويدَّعون النسبة إلى الجعليين، وقد حكموا جبال الفونج بعد فتح محمد علي — حكمها الشيخ إدريس الذي سمِّيت الجبال باسمه.

(د) **والجعليون:** ومنهم الملك «نمر» الذي غدر بإسماعيل باشا، وهم شجعان أهل ككر وطافية، ومعناها باللغة السودانية: «كرسي وملك»، وهم منتشرون في السودان والحبشة، وهم فوق الثلاثين بدنة، ومنهم ولد النجومي.

(هـ) **الجموعية:** ومن فروعهم الفتيحاب — سكان أم درمان والخرطوم الأصليون — وهم يدَّعون أن جدَّهم هو «أبو مرخة» الذي حضر أبوه وعمه إلى السودان هربًا من العباسيين، فتزوج أبو مرخة بنات عمه السبعة واحدة بعد واحدة، ثم صار جدًّا لقبائل عربية.

(و) **والزبالعة:** يقال إن أصلها ليس عربيًّا، يسكنون جزيرة سنار، والبلاد التي بين الرهد والدندر، وهي شيعة تعرف في السودان بالملَّة الخامسة، ومؤسس شيعتهم رجل

اسمه «أبو جريد»، وهو عندهم رسول الله، ولا يعرفون نبيًّا آخر سواه، وقد أقاموا رمزًا إلى قبره في حلة «بنزفا» شرق النيل الأزرق، بين كركوج والرصيرص؛ حيث يجتمعون للأذكار مساء كل أحد وثلاثاء، ويرددون قولهم «لا إله إلا الله أبو جريد نبي الله».

وفي شهر صفر من كل سنة يعتزل مشايخهم إلى الخلوات للرياضة، فيقيم كلٌّ منهم في خلوة، ويجعل عليها الحراس؛ لكي لا يدخل عليه أحد مدة سبعة أيام، فإذا انتهت خرج من الخلوة ودعا رهطه من الرجال والنساء وأقام حلقة للذكر — قيل إنهم ونساءهم جميلات، بياض بحمرة نعيم وترف، وهم يتجنبون مصاهرة العرب، والعرب كذلك يتجنبونهم، وقيل فيهم سحرة وطب.

(ز) **والزيادية:** ومركزهم مليط، يجرون في الملح والقطرون، ويُنسبون لأبي زيد الهلالي، أحد عرب نجد.

(ح) **والتعايشة:** ومسكنهم مندرة، كانوا يشتغلون في خطف الرقيق، وهم يُنسبون إلى جهينة، ومنهم الخليفة عبد الله التعايشي.

(ط) **والحمران:** مركزهم قرب فوز رجب وكسلا، وهم قليلو العدد، ولكنهم من أفرس العرب وأجرئهم، ونساؤهم من أجمل النساء وأشدهم تحصنًا وعفافًا، ومنهن «تاجوج ومحلق».

وتاجوج هذه بنت الشيخ أوكد شيخ الحميران، ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، أجمل نساء السودان، يفد إليها الناس للتفرج، تزوَّجها ابن عم يسمَّى محلقًا، وأحبها حبَّ عبادة، طلب يومًا منها أن تمشي متجردة فأبت، فألَحَّ، فتكدرت، فألَحَّ، فقالت: إذا أجبتك فماذا تفعل؟ قال: «أنفذ كل طلب لك»، قالت «أقسم» فأقسم، فتجردت ومشت أمامه ذهابًا وإيابًا إلى أن قال كفى، ثم قال فاطلبي الآن ما تريدين، قالت: أن تطلقني في الحال.

فطار صوابه، ووقع على قدميها يقبِّلهما ويسألها العفو، فأبت إلا البر بقسمه فطلقها، وهام على وجهه ينشد في حبِّها الأشعار كمجنون ليلى.

ومن ذلك قوله:

أنا الجنب التعيس سوِّيت بأيدي   في كلمة مزاح قليت غميصي

فواطر أم قبيل ملح الرشيدي   تاجوج ما أتلقت يا خملة زيدي

والمعنى: «الجنب»: المشوم، «سويت بأيدي»: جنيت على نفسي، «والفواطر»: الثنايا، «أم قبيل»: الجميلة، «والخملة»: الهم.

ثم إن تاجوج تزوَّجت شابًّا من وجهاء قبيلتها، فتأثَّر محلق، وكان أفرس منه، ثم كان يأخذ منه ماله المرة بعد المرة، ويرده إليه إكراما لها، ولما اشتد عليه الكرب وأضناه الحب ألحَّ على أهله أن يمكِّنوه من رؤيتها، وهو طريح الفراش، فذهبوا إليها وأخبروها بما آلَ إليه حاله، فرقَّت له وذهبت، فإذا نساء حوله ينددن بها ليصرفن قلبه عنها، فلما دخلت لم يسعهن إلا الوقوف احترامًا لجمالها وإعجابًا، وأجلسنها إلى جانب سريره، فلما رأته على تلك الحال وقد هزله المرض، تنهدت وقالت: «أإلى هذه الحال وصلت يا حشاي وأنا لا أدري؟» ثم وضعت رأسه على ركبتيها، وكان قد أغمي عليه، فأفاق ونظر إليها وأنشد ما أنشد فيها.

أسباب هجرة العرب

يقول مستر مكيكل، السكرتير الإداري السابق في حكومة السودان: إن الأسباب هي:

(١) مراعي السودان أخصب من أراضي جزيرة العرب، وملجأ أمن، وموضع لنهب العبيد والأهالي، وليس البحر الأحمر إلا فلق عرضي في أرض واحدة هي السودان والجزيرة، والجو والصحاري والتلال فيهما واحدة، ولكن حالت دون أمانيهم في الهجرة مدة الفتح تفضيل ولاتهم البقاء بجانبهم، وحيلولة حكام النوبة دونهم، وعدم السماح لهم بالدخول إلى السودان عن طريق النيل.

(٢) أقاليم المستنقعات يسكنها زنوج يقتاتون بالماشية، ويمتازون بطول السوق، والتلال يسكنها قوم أصغر وأنشط من سابقيهم.

(٣) العرب يسكنون أواسط السودان، وأطراف ذلك الإقليم الجنوبي المليء بالمستنقعات والصحاري الشمالية الصالحة للسكنى، فأقاموا بين الزنوج في الجنوب، وبين المراعي في الشمال — وقد ظلمهم «دواتي» في وصفه إياهم بالجنون وقطع الطريق و…

(٤) منذ عهد ابن طولون تغيَّرت الحال بالنسبة للعرب بمصر؛ لأن الولاة كانوا غير عرب، بل أن بعضهم استبد مع العرب، وزادت مصيبتهم منذ فتح سليم، وصاروا

في نظر الحكومة والأهالي قومًا فضوليين لا يخضعون لتدريب حربي منظم، بل سبق عصره أن الحكومة كادت تخرجهم من حكم القانون.

وفي إبَّان الثورات التي كانت تحدث كانوا يتسللون إلى الجنوب.

(٥) مملكة النوبة المسيحية تقع على نهر النيل وراء الشلال الأول، وعاصمتها دنقلة، وتمتد إلى الجزيرة، وكان يسكن جزءها الشرقي وشمالها الشرقي قبائل البجة الرُّحَّل الهمجية، التي قامت على أنقاض مملكة مروى القديمة في القرن السادس الميلادي، ثم دخلت في النصرانية على يد قس بعثت به الإمبراطورة «ثيودورا» زوجة الإمبراطور جستنيان، ويقال إنهم صنف من الزنوج، بل قيل هم خليط من قدماء الفراعنة واللوبيين المندمجين في الزنوج، وعاشت نحو ٦٠٠ سنة بعد فتح العرب مصر.

(٦) فتح عمرو مصر، وجرَّد حملة من ٢٠ ألف مقاتل عليها عبد الله بن سعيد لغزو بلاد النوبة، فتوجهت إليها وفرضت عليها جزية من العبيد، ثم أصبح عبد الله واليًا على الوجه القبلي، فجرد حملة أخرى بعد عشر سنين وصلت إلى دنقلة، وحطمت كنيستها، وبنت مسجدًا ووضعت شروطًا معتدلة، وأخذ جزية قدرها ٣٦٠ عبدًا سنويًّا، وبقيت المعاهدة ستة قرون تقريبًا، وكان العرب يقدِّمون هدايا لملوك النوبة فبقيت المودة، ثم حدث نزاع بين البجة التي في شرق السودان وبين العرب؛ لأن البجة كانت تريد غزو الوجه القبلي، فأرسل إليهم العرب كتيبة أدبتهم، وعقدت معاهدة بينهما كالمعاهدة التي بين العرب والنوبة.

العرب في السودان اليوم

ينقسمون بالنسبة لجغرافية البلاد إلى ثلاثة أقسام:

(١) (أ) سكان الصحاري في الشمال الأقصى. (ب) سكان السهول الواسعة ذات المراعي الطيبة المتفرقة في الوديان. (ج) الأراضي الرملية الغنية المترامية الأطراف. حيث الغابات والأمطار، وحيث تنجح زراعة الذرة والسمسم، ثم على خط عرض ١٢، حيث الغابات جميلة تصلح للماشية، ثم منطقة الزنوج الحارة.

(٢) السكان الذين على النيل من العرب غير متنقلين، وقد تحضَّروا، والذين في داخلية القطر ما عدا الشمال الأقصى تصبغهم صبغة البداوة، وييممون الشمال ومعهم إبلهم من أغسطس إلى نوفمبر حيث المرعى خصب، والذين في الغرب إلى حدود الصحراء

من قبيلة الهدندوة من البجة.

الكبرى الجنوبية، والذين في الشرق إلى سهول البطانة الواقعة بين عطبرة والنيل الأزرق، والبقارة الذين يسكنون منطقة الزنوج يرحلون منها مدة شهري أبريل ومايو، ميممين الشمال في المنطقة الوسطى؛ لأن المطر — عندئذ — يهطل عندهم بكثرة.

(٣) المعاهدات والمصاهرات بين العرب والزنوج، كم فضَّت من مشاكل إلا في بعض الجهات، مثل النوبة، فلا تزال السهول للعرب والروابي والتلال للنوبة.

(٤) اتحد العرب والزنوج منذ أوائل القرن الثالث عشر إلى اليوم، كما اتحد النوبيون والعرب في الشمال.

(٥) العرب الذين تحضَّروا على النيل تزاوجوا بعضهم مع بعض، ولونهم الأسود نتيجة التسرِّي، وفي أنسابهم ضعف، أما البادون فيقربون من الصحة.

(٦) سكان السودان بعضهم يدَّعي النسب إلى جهينة، والبعض إلى فزارة، وهذه هي القبائل الكبرى، وهي تقتني الماشية والجمال، والبعض ينتسب إلى العباس، وهم شمال الخرطوم والجزء الجنوبي من النيل الأزرق، والقبائل المولَّدة من الزنوج التي في داخلية القطر، والأهالي مهتمون بهذه الأنساب.

(٧) التسرِّي بالزنجيات مدة حكم مصر والدراويش أبقى من العادات الزنجية الشيء الكثير في العرب.

(٨) ترمي سياسة حكومة السودان إلى تحاشي التدخل في شئون العرب، وتلقي العبء على رؤسائهم.

الفصل الثامن

العباسيون والفواطم والإخشيديون والمماليك

وقد تدفَّق العرب المسلمون إلى السودان من جهات مختلفة، أكثرها مصر، ثم من الحجاز واليمن إلى شرقي السودان، ومن بلاد المغرب إلى غربي السودان.

في سنة ٨٣٣ ميلادية، تراخى أهل النوبة في دفع البقط «الجزية»، فغلَّ مسلمو الحدود أيديهم عن إرسال ما اعتادوا إرساله من المؤونة إلى ملك النوبة، فصمم زكريا بن بحنس ملك النوبة بإيعاز من ابنه «فيرقي» على قبض يده عن دفع الجزية، وأن يتأهَّب إذا دعت الحال لقتال سيده الخليفة المعتصم «٨٣٣–٨٤٢».

فشد «فيرقي» الرحال شطر بغداد للدفاع عن مطالب أبيه إلى الخليفة، وانضم إليه في طريقه ملك البجة، فلمَّا وصل إلى بغداد أكرم الخليفة المعتصم وفادته وقبل هداياه وكافأه بأضعافها، وطلب إليه أن يبسط له ما يريد، فرجا الأمير النوبي أن يفكَّ عقال من لدى الخليفة من أسرى النوبيين، فكان له ما أراد فورًا، وزاد في إكرامه فأهداه القصر النازل به بالعراق، وابتاع له قصرين آخرين بمصر، أحدهما بالجيزة، والآخر ببني وائل بالقاهرة «قسم الوايلي»، ولما طرح أمر البقط على الخليفة ظهر له أن ما منح من النوبيين من الهدايا والعطايا يربو على بقطهم، فأنكر عطية الخمر، وأجرى الحبوب والثياب التي أُعتيد إرسالها، وأن يدفع البقط كل ثلاث سنين، ثم طلب الأمير النوبي أن تُزال مسلحة القصر «حصنها» من بلادهم، وتُنقل إلى الحدود، وأن ينظر بعدل في أمر الأرض التي ادَّعى الأمير النوبي على قوم من أسوان أنهم اشتروا

تلك الأملاك من عبيده، فأمر الخليفة أن ينظر بعدل في أمر تلك الأراضي النوبية التي اشتراها بعض أهالي أسوان.[١]

وفي سنة ٨٥٤م حنث البجة[٢] بعهودهم، وأبوا دفع الجزية، وذبحوا الضباط والمعدنين الذين كانوا يشتغلون باستخراج الزمرد من الصحراء الشرقية «صحراء عيذاب»، وغزوا مصر ونهبوا مدينتي إسنا وإدفو، فبعث حاكم مصر إلى الخليفة ببغداد رسالة بذلك، فعقد هذا العزيمة على الاقتصاص من الثائرين، فسرعان ما جُمعت الجيوش في كور قفط وإسنا وأرمنت وأسوان على النيل، وفي القصير على البحر الأحمر، وزوِّدت بعدد عظيم من الأسلحة والخيل والإبل وغير ذلك، وأعدَّت عند القلزم سبع سفن محملة بالمؤن والذخائر، وأقلعت إلى سنجا بالقرب من عيذاب على مسافة سبعة عشر يومًا من قوص.

فسار إليهم محمد بن القمي في جيش عدده سبعة آلاف مقاتل، وجدَّ في الصحراء إلى مناجم الزمرد، ووصل إلى دنقلة، فاستعد «علي بابا» ملك البجاة لملاقاته، ولكن عُرَى جنوده وقِصَر رماحهم أضعف مركزهم أمام العرب، فعمدوا إلى المقاومة حتى كادوا يهلكون العرب، ولمَّا وصلت السفن من القلزم اشتد ساعد المسلمين، وحمل قائدهم برجله وركبه مكبِّرين على السود، وفتك بهم فتكًا ذريعًا حتى ولوا الأدبار لاحقين بملكهم الذي طلب الصلح راضيًا بدفع الجزية «البقط»، ولمَّا أقبل إلى محمد القمي أحسن لقاءه وأكرمه وحمله على زيارة الفسطاط.

وفي سنة ٨٥٥م، زار هذا الملك الخليفة في بغداد، وتعهد الملك بأن لا يتعرض للمسلمين في مناجم الزمرد.[٣]

وفي سنة ٨٧٨م، ذهب أبو عبد الرحمن بن عبد الله العمري إلى مناجم الذهب بالصحراء الشرقية، ومعه ستة آلاف جمل وعدد عظيم من الرجال، واستمر مدة يستخرج الذهب، إلا أن عرب تلك المنطقة كبَّدوه متاعب جمَّة، فرحل إلى شنكير Shankir جنوبي دنقلة، وهناك هزم النوبيين بقيادة ملكهم جرجس.

[١] انظر المقريزي ص٢٠١، وبوركارت ص٥١٤، والمسعودي.

[٢] انظر المسعودي، وبدج ص١٩٠، وابن الأثير ج٧ ص٢٩.

[٣] راجع كتاب (بوركات) (Burckhardt)، وابن ماسكويه ٥٠٨–٥٠٩، وستانلي لين بول ص٤١–٤٢.

وفي سنة ٩٥٦ هاجم[٤] ملك النوبيين مدينة أسوان، وقتل كثيرًا من المسلمين، وفي السنة التالية سار إليه محمد بن عبد الله الخازن من قِبَل أنورجور الإخشيد، وهزمه وأرسل عددًا من الأسرى إلى مصر، واستولى على أبريم، وأخذ منها ١٥٠ أسيرًا وكثيرًا من الرءوس.

قال المتنبي من قصيدة مشهورة سنة ٣٤٦هـ يمدح بها كافور الإخشيدي «٩٦٦–٩٦٨م»:

يصرِّف الأمر من مصر إلى عدن إلى الحجاز فأرض الزنج فالنوب

وبعد ذلك ببضع سنين غزا النوبيون مصر للمرة الثانية، واستولوا على الصعيد حتى مدينة أخميم شمالًا.

وفي سنة ٩٦٩، أرسل جوهر الصقلي حاكم مصر بعثة إلى جرجس ملك النوبة؛ لأخذ الجزية المعتادة، ودعوته إلى الإسلام، فلمَّا وصل الرسول أحمد بن سليم إلى ملك النوبة رحَّب به وبالغ في إكرامه، ودفع الجزية، إلا أنه بقي على مسيحيته.

وفي سنة ١٠٠٥، ميلادية اضطرب حبل السلم في النوبة؛ فقد استولى أحد سلالة بني أمية الوليد بن هشام الخارجي — وكان يكنَّى «أبا ركوة»؛ نسبة إلى القربة التي كان يحملها إلى أسفاره سنة الصوفية — على برقة، وهزم جيوش الخليفة الحاكم بأمر الله، وغزا مصر، وشتت شمل جيوشه عند الجيزة، ولكن وَجد أن الضرورة تحتِّم عليه التقهقر إلى النوبة، وهناك انضم إليه عدد عظيم من أهلها، فما لبث أن لحقت به جيوش الحاكم وهزمه هزيمة منكرة، وجزَّ رأسه ورأس ثلاثين ألفًا من أتباعه، وأرسلت إلى مصر، ثم طافوا بها مدن سوريا محمَّلة على مائة جمل، وبعد ذلك ألقيت في الفرات.

وقال في ذلك المؤرخ الكبير الحجة الثبت أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير في كامله:

> في سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٧م، سار «أبو ركوة» إلى بلد النوبة، فلمَّا بلغ إلى حصن يُعرف بحصن الجبل للنوبة أظهر أنه رسول من «الحاكم» إلى ملكهم، فقال له صاحب الحصن: «الملك عليل ولا بد من استخراج أمره في مسيرك لسيدي»،

[٤] الدكتور محجوب ثابت، مقال «بالأهرام»، ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٤ «للذكرى والتاريخ».

وبلغ الفضل الخبر فأرسل إلى صاحب القلعة بالخبر على حقيقته، فوكَّل به من يحفظه، وأرسل إلى الملك في الحال، وكان ملك النوبة قد توفي وملك ولده، فأمر أن يسلَّم إلى نائب الحاكم، فتسلمه رسول الفضل وسار به، فلقيه الفضل وأكرمه وأنزله في مضاربه وحمله إلى مصر، فأشهر به وطيف به فألبس طرطورًا، وجعل خلفه قردًا يصفعه كان معلَّمًا بذلك، ثم حُمل إلى ظاهر القاهرة ليُقتل ويُصلب، فتوفي قبل وصوله، فقطع رأسه وصلب، وبالغ الحاكم في إكرام الفضل إلى حدٍّ أنه عاده في مرضه دفعتين، فاستعظم الناس ذلك، ثم إنه عمل في قتل الفضل لَمَّا عوفي فقتله.

وفي سنة ١١٧٣م، توجه القائد شمس الدولة توران شاه — وكان يلقَّب بفخر الدين، الأخ الأكبر لصلاح الدين — بحملة إلى بلاد النوبة بقصد جباية الجزية، وأن يرى هل تصلح تلك البلاد لأن تكون ملجأ لصلاح الدين إذا ما اضطر إلى الفرار من وجه سيده نور الدين عند قدومه إلى مصر، فعبر توران شاه البحر من اليمن إلى بلاد النوبة بقصد جباية الجزية، وساق الأهالي أمامه حتى وصل إلى «أبريم»، وكانت مزودة بكميات عظيمة من المؤن والذخائر، وبالرغم مما أبداه النوبيون من الاستبسال في الدفاع عنها، فقد هُزموا ودُمِّرت المدينة، ووقع في أسر توران شاه أهل المدينة أجمع، وقد بلغوا نحو٧٠٠٠٠٠ من رجال ونساء وأطفال، ووجدوا بالمدينة ٧٠٠ خنزير، بادر المسلمون بقتلها، ثم أمر بنزع الصليب من الكنيسة، وسلب أتباعه ما كان بها، ثم أذِّن في قبتها للصلاة، وأُسر مطران المدينة واعتُقل في قلعة التل الحصينة، وعثر توران شاه في المدينة على كمية كبيرة من القطن أرسلها إلى قوص حيث بيعت، ثم رحل من البلاد بعد أن ترك قوة من الفرسان مزودة بالمؤونة والسلاح والذخيرة في «أبريم».

وقد روى أبو صالح أن صلاح الدين ذهب مع البطريرك أنبا ميخائيل ليطلب المعونة من جرجس ملك النوبة، فغضب هذا للمعاملة التي عومل بها البطريق، ووصل إلى مصر على رأس جيش يبلغ نحو ١٠٠ ألف مقاتل، وما يماثل هذا العدد من الإبل، واتجه متقدِّمًا فيها مخرِّبًا ومدمِّرًا حتى وصل إلى القاهرة، وقد وضَّح المؤرخ الإنكليزي بطلر أن هذا الحادث وقع في حكم مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية «٧٥٠–٧٥٤م»، في عهد أمير مصر عبد الملك بن موسى بن نصير، لا صلاح الدين.

وفي سنة ١١٧٤م، هَزمت جيوشُ صلاح الدين كنزَ الدولة حاكم أسوان الثائر، الذي كان قد تقدَّم إلى القاهرة بجيش من العرب والعبيد، ووقعت معركة شديدة عند

قرية طود «مركز الأقصر» مُزِّقت فيها جيوش كنز الدولة شرَّ ممزق، وقد ولى الأدبار، ثم خيَّم السلام بعد ذلك نحو عشرين سنة بين أهل النوبة وصلاح الدين، الذي توفي في ٤ مارس سنة ١١٩٣م، وآلت بعد ذلك أسوان إلى السقوط والخراب.

وفي سنة ١٢٧٥م، ضم المسلمون السودان، ويرجع ذلك إلى أن داود — ملك النوبة الذي أبى دفع البقط الذي ضُرب على بلاده أيام عمرو بن العاص وحنث بالعهود والاتفاقات بين البلدين — قبض على عدد من العرب، وزجَّهم في السجون بأسوان، و«عيذاب» أهم مواني البجة على البحر الأحمر.[٥]

وزيادة على ذلك أحرق ملك النوبة كثيرًا من السواقي التي تروي أراضي شاسعة، وتَلِفَت زراعتها، فهمَّ حاكم قوص بمقابلته، ولكنه عجز عن غلبته، غير أنه أخذ كثيرًا منهم أسرى، من بينهم ملك الجبل، وحاكم جزر ميكائيل ومنطقة «داو»، وأرسلهم إلى القاهرة حيث أمر الخليفة السلطان الظاهر بيبرس «١٢٦٠–١٢٧٧م»، من المماليك البحرية، بقتلهم.

وقد حدث في ذاك الوقت أن قَدِم إلى مصر ابن أخت داود؛ ليطلب المعونة على خاله الذي أنزل به الأذى، فأجابه «بيبرس» إلى ذلك، وبعث معه بجيش جرار تحت قيادة اثنين من الأمراء؛ لينزع الملك من يد «داود»، ولما التقى الجيشان بأرض النوبة استبسل الفريقان في القتال، ولكن هُزم النوبيون أخيرًا وولوا الأدبار، فواصل المسلمون تقدُّمهم بالبر والنهر، واستولوا على الحصن بعد الحصن، وذبحوا وأسروا كثيرًا من الأهالي، ووصلوا أخيرًا إلى جزيرة «ميكائيل» عند رأس الشلال، وطردوا السفن النوبية، واضطر النوبيون إلى الفرار إلى جزر النيل، ووقع عدد عظيم من ماشيتهم في أيدي المسلمين، فأقسم قمر الدولة لقائد جيوش داود يمين الطاعة لشكندة، ولما أخذ الأمير شمس الدين آق سنقر الفرقاني أحد قائدي جيش بيبرس أرجع أهالي بلاد مريس المجاورة لأسوان وجميع الفارين.

ولقد لجأ داود وأخوه إلى طابية صغيرة بإحدى جزر النهر لَمَّا صدَّهما الأمير عز الدين أيبك «الأفرم» واستولى عليها، ففرَّ داود ووقع أخوه في يد الأمير الذي ذبح مائتين من رجالهما، فاقتفى المسلمون أثر داود ثلاثة أيام، ولكنهم لم يدركوه، ثم نصب الأمير «شكنده» ملكًا على بلاد النوبة، وقد تعهَّد بدفع جزية سنوية من ثلاثة فيلة، وثلاث

[٥] انظر بدج صحيفة ١٩٣.

زرافات، وخمسة فهود، ومائة جمل أصهب، وأربعمائة رأس من البقر، وقد وعد أن يقسم خراج بلاده إلى قسمين؛ أحدهما يعطى بيبرس أو لمن يليه، والآخر ينفقه على إصلاح بلاده وإدارتها وحمايتها.[٦]

أما منطقة بلاد الجنادل البالغة ربع مساحة النوبة فلقربها من أسوان عُدَّتْ ملكًا لبيبرس، وكانت حاصلاتها في ذاك الوقت التمر والقطن، هذا وقد قبل «شكنده» مقابل بقائه وأهل بلاده على مسيحيتهم، أن يدفع دينارًا ذهبًا عن كل ذكر بالغ من أهل بلاده، وقد أقسم بألا يحيد عما شرط عليه، ولا يحنث بعهوده، وكذلك فعل رعاياه.

ثم دمر الأميران كنائس النوبة كلها، وحملا ما كان بها من متاع ونفائس، وقبضا على عشرين من زعماء النوبيين، وأفرجا عن الأسرى المسلمين ممن أخذوا من أسوان وعيذاب، ولما أقسم شكنده اليمين تُوِّج وأُجلِس على العرش ملكًا، والتزم بدفع جميع ما لداود ولكل من قُتل وأُسر، علاوة على البقط الذي بلغ إذ ذاك أربعمائة رأس من العبيد والزراف، وقد تعهد المسلمون مقابل ذلك أن يرسلوا إليه ألف أردب من القمح، وثلثمائة لرسله.[٧]

ومن قبائل أسوان: العبابدة، وتنقسم إلى العشاباب، والفقراء «المليكاب»، والعبودين والشناتير، ثم قبيلة العقيلات والبشارين.

البجة

البجة — أو البجا أو البيجة أو البجاة — هم سكان الصحراء الشرقية في السودان — بادية بني كوش — أصلهم من الحبشة، وباديتهم بها معادن الذهب والفضة والزمرد والحديد والرصاص.

وقد غزا الفراعنة والرومان بلادهم من أجل الذهب، وكان أنسابهم من الفقراء، وهم أصحاب ذمة، وأهل ضيافة، ألوانهم مشرقة الصفرة، وجوههم عريضة.

---

[٦] انظر المقريزي ص٢٠٢.

[٧] المقريزي ٢٠٣.

كانوا يعبدون الأصنام، واختلط العرب بهم بعد فتح مصر، وكانوا يغزون ريف الصعيد، وولوا ملكًا عليهم يدعى «علي بابا»، خضع ودفع الخراج لجعفر المتوكل على الله بن المعتصم.[٨]

وقد انقسم البجة إلى قبائل العبابدة والبشارين والهدندوة والأمارار والحلانقة والحباب وبني عامر، ومن مدنهم عيذاب وسواكن على البحر الأحمر.

[٨] تقويم البلدان: أبو الفدا — خطط المقريزي — معجم البلدان: ياقوت.

الفصل التاسع

مملكة سنار

ملوك الفونج

يرجع التاريخ الأقدم لملوك الفونج إلى دارفور والشلك، ويرجع تاريخهم العربي إلى نفر من بني أمية، فروا من الشام إلى المغرب الأقصى والسودان، فأسسوا مملكة سنار، وكان ملكهم القديم يبدأ من الشلال الثالث إلى جبال فازوغلي وسواكن، وكان للمملكة ممالك صغيرة ومشيخات، وبين الشلال الثالث والشلال الأول بلاد حكمها الكُشَّاف الأتراك.

غزو الترك

ورأس ملوك الفونج[1] الملك عمارة دنقس «١٥٠٥ / ١٥٣٤م» في سنار، وفي عهده ملك السلطان سليم الأول سواكن ومصوع، وحاول غزو سنار، ولكنه ارتدَّ عنها.

وخلف الملك عمارة ابنه عبد القادر سنة ٩٤٠هـ و١٥٣٤م، ثم أخوه نائل سنة ٩٥٠هـ و١٥٤٤م، فأخوه عمارة أبو سكاكين ٩٦٢هـ و١٥٥٥م، ودكين الملقَّب بالعادل سنة ٩٧٠هـ و١٥٦٣م، وطبل سنة ٩٨٥هـ و١٥٧٨م، وأنسه سنة ٩٩٧هـ و١٥٨٩م، وعبد القادر الثاني ١٠٠٧هـ و١٥٩٩م، وعدلان بن أبه ١٠١٣هـ و١٦٠٥م، ودخل الإسلام في سنار في عهد هارون الرشيد سنة ٧٨٦م.

[1] تاريخ السودان — نعوم شقير بك.

ثم الملك بادي ١٠٢٠هـ و١٦١٢م، ورباط ابنه ١٠٢٣هـ و١٦١٥م، وبادي أبو ذقن ١٠٥٢هـ و١٦٤٣م، وكان يمجد علماء مصر، وبنى بسنار جامعًا وقصرًا بقيت أطلالهما.

والملك أنسه الثاني، وبادي الأحمر، وأنسه الثالث، ونول، وبادي أبو شلوخ، وناصر، وإسماعيل، وعدلان الثاني، وأوكل، وطبل، وبادي الخامس، ونوار، وبادي السادس، ورانفي.

وكان لهؤلاء الملوك جيش، وبنوا المساجد والدواوين، وعطفوا على العلماء والأدباء، وأوفدوا البعوث إلى الأزهر، وكانت سنار مركزًا تجاريًّا مع البحر الأحمر والحبشة ومصر والحجاز والهند وسائر السودان، وكان لملوكها حروب مع الحبشة، ومات أكثرهم قتلًا.

مشيخة العابدلاب

العابدلاب ذرية الشيخ عبد الله جماع، الذي اقتسم المملكة مع الفونج، وبدأت المشيخة في قرى، ثم امتدت إلى الحلفاية، ثم امتدت من حجر العسل إلى سوبة، وخلف الشيخَ عبد الله الشيخُ عجيب، وكان تقيًّا، فالعجيل، فحمد السميح، فابنه عثمان، فدياب، الأمين ود مسمار، وعجيب عبد الله، وعبد الله الثالث ود عجيب، وعمر أخو عجيب، ومحمد الأمين ابن مسمار، وبادي بن مسمار، وعبد الله الرابع ود عجيب، وناصر ود الأمين، وأمين الثاني ابن ناصر.

وحظي العابدلاب بالمكانة الأولى عند ملوك الفونج، وكان الناس يستأذنون العابدلاب للدخول على الملوك.

الممالك التابعة للفونج

وقد تبع ملوك الفرنج والعابدلاب دويلات صغيرة؛ منها: مشيخة خشم البحر، ومملكة فازوغلي، ومشيخة الحمدة، ومملكة بني عامر، ومملكة الحلانقة، ثم مشيخة الشنابلة، ومملكة الجموعية، ومملكة الجعليين، ومملكة الميرفاب، ومملكة الرباطاب، ومشيخة المناصير، ومملكة الشايقية، ومملكة الدفار، ومملكة دنقلة العجوز، ومملكة الخندق، ومملكة الخناق، ومملكة أرقو.

وكانت مملكة سنار تسمى بالسلطنة الزرقاء، أما السلطنة الحمراء فهي حكومة مصر.

الفصل العاشر

الأتراك والكُشَّاف الأتراك

امرأة من الهدندوة من قبائل البجة.

عندما فتح السلطان سليم الأول مصر، غزا سواكن ومصوع فالنوبة، وفشل في غزو سنار وارتد عنها.

أما الكُشَّاف الأتراك فهم في الأصل الجنود الأتراك الذين أرسلهم سليم الأول لغزو النوبة ففتحوها حتى الشلال الثالث، وكان قوسي حسن قومندانًا للجنود، وحاكمًا مستقلًّا على النوبة، ويرسل الجزية إلى والي مصر، وتولَّت ذريته حكم النوبة، وكانت عاصمتهم الدر، وارتد جيش الفونج في محاربته الكُشَّافَ الغُزَّ، وعيَّن إسماعيل باشا فاتح السودان حسن كاشف على البلاد من أسوان إلى حلفا، وخلفه ابنه سليمان، ثم أخوه محمد، وقد زال حكمهم بقيام الثورة المهدية، وبقيت ذريتهم.

ولهم آثار في سكوت والمحس، كالقلاع والأبراج.

الفصل الحادي عشر

سلطنة الفور

المتواتر في السودان أن سلطنة الفور من أصل عربي من سلالة بني العباس، ومن الروايات المسموعة، أنه كان بين العباسيين الذين تفرَّقوا بعد زوال دولة بني العباس شقيقان: أكبرهما يدعى عليًّا، والأصغر أحمد سفيان، وكانت زوجة «علي» تحب «أحمد سفيان»، وعلم «علي» بهذا السر، فاستلَّ سيفه وضرب أخاه في رجله فعقرها، وتركه، وعولج «أحمد» ونُقِل إلى جبل مرة في دارفور، حيث كان فيها — يومئذٍ — ملك يدعى دورشيت، وكان همجيًّا وكريمًا، فزوَّج ابنته من «أحمد»، ووُلِد لأحمد ابن سماه سليمان خَلَفَ جدَّه، وبدأت سلطنة دارفور بالسلطان سليمان الأول سنة ٨٤٨هـ و١٤٤٥م، وكان يتبع الفور ٢٧ ملكًا من المجوس والمسلمين.

وخلف سليمانَ السلاطينُ: عمر، وعبد الرحمن، ومحمود، ومحمد صول، ودليل، وشرف، وأحمد، وإدريس، وصالح، ومنصور، وشوش، وناصر، وتوم، وكورد، وسليمان الثاني، وموسى، وأحمد، ومحمد دورة، وعمر الثاني، وأبو القاسم، وتيراب، وعبد الرحمن أخوه، الذي كان في فترة فتح نابليون مصر، وقد راسله، ومحمد الفضل في عهد محمد علي الذي طلب إليه الخضوع، ومحمد حسين ابنه، وقد عاصر سعيد وإسماعيل، وبادلهما الهدايا، وأهدى سعيد إليه مركبة، وإبراهيم، وهو آخر سلاطين الفور، وانتهت مدته ١٢٩١هـ و١٨٧٥م.

وقد قتل الزبير باشا السلطان إبراهيم في بلدة منواشي في ٢٤ أكتوبر سنة ١٨٧٥، وزال سلطان دارفور، وقد قبضت الحكومة المصرية على بقية أمرائهم وأسكنتهم سوق السلاح، وسقطت دارفور في يد المهدي، وحاول بقية الأمراء استرداد الحكم في أثناء المهدية ففشلوا، وقد أصبح الأمير علي دينار بن الأمير زكريا بن السلطان محمد الفضل

سلطانًا على دارفور، وكان يدفع جزية إلى أن قُتل في بداية الحرب الكبرى، بعد أن هزمته الحملة المصرية، إثر انتقاضه وانضمامه إلى الأتراك، وأصبحت دارفور مديرية.

وقد جاء في «كتاب السودان» — تأليف العالم الأزهري الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، من علماء القرن الحادي عشر — عن بعض ملوك السودان في سنار وغيرها ما يلي عن ملوك سغي:

أما الملك الأول زا الأيمن، أصل اللفظ جاء من اليمن، قيل إنه خرج من اليمن هو وأخوه سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا، وهو قديم جدًّا في ساحل البحر في أرض سغي، كان في زمن فرعون، حتى قيل حشر منه السحرة في مناظرته مع الكليم — عليه السلام— وقد بلغاه في بئس الحال، حتى كادت صفة البشرية أن تزول عنهما من التقشب والتوسخ والتعري، إلا خرق الجلود على أجسادهما، فنزلا عند أهل ذلك البلد، فسألوهما عن مخرجهما، فقال الكبير جاء من اليمن، وبقوا لا يقولون إلا زا الأيمن، فغيروا اللفظ لتعسر النطق به على لسانهم لأجل ثقله من العجمة، فسكن معهم، ووجدهم مشركين لا يعبدون إلا وثنًا، فيتمثل لهم الشيطان في صورة الحوت يظهر لهم فوق الماء في البحر والحلقة في أنفه، في أوقات معلومة، فيجمعون إليه ويعبدونه، فيأمرهم وينهاهم، فيتفرقون عن ذلك ويتمثلون بما أمر ويجتنبون ما نهى، وهو يحضر ذلك معهم، فلمَّا علم أنهم على ضلال مبين أضمر في قلبه، وعزَّم عليه، فأعانه الله في ذلك، فرماه بالحديد في يوم الحضور وقتله، فبايعوه وجعلوه ملكًا.

قيل إنه مسلم لأجل هذا الفعل، والارتداد طرأ في عقبه بعده، ولا نعلم من ابتدأ به منهم، ولا تاريخًا لخروجه من اليمن، ولا لوصوله إليهم، ولا ما هو اسمه، وبقي اللفظ علمًا له، وصدره لقبًا لكل من تولى بعده من الملوك، فتناسلوا وتكاثروا حتى لا يعلم عدتهم إلا الله سبحانه، وكانوا ذوي قوة ونجدة وشجاعة وعظم جثة وطول قامة، بحيث لا يخفى ذلك على من كان عنده معرفة بأخبارهم وأحوالهم.

دويلات وممالك

وقد ورد ذكر «الفور» في كتاب مخطوط اسمه «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان»، تأليف الشيخ محمد بن السيد عمر التونسي بن سليمان، وكتابة المؤلف تدلُّ على ظلام التاريخ القديم للسودان، وتخبُّط المؤلِّفين وخرافات الأقدمين وخيالات المؤرخين وقد قام برحلة في بلاد الفور، قال في «الفصل الأول»:

«أما دارفور فهو الإقليم الثالث من ممالك السودان، وذلك أن للقادم من المشرق إلى بلاد السودان أول مملكة وإقليم يعرض هي مملكة سنار، ثم كردفال «كردفان»، ثم دار الفور، فظهر أنها الإقليم الثالث، وبحسب ذلك إقليم وداي هو الرابع، والباقرمه الخامس، وبرنوا السادس، وأدقز السابع، ونفه الثامن، ودار تنبكتو التاسع، ودار ملا أو ملي العاشر، وهي قاعدة ملك الفلان وهم الفلانة، وأما الذي يأتي من المغرب فإنه يعدُّ ملا الأول، وتنبكتو الثاني، ونفه الثالث، وهكذا.

واعلم أن القدماء يطلقون على بعض أهل السودان اسم التكرور، ويعنون به أهل مملكة برنو، لكن الآن قد عمَّ هذا الاسم على ممالك متعددة؛ أولها: داروداي أو وداي، المعروفة أيضًا بدار صليح، وآخرها: برنو، فيدخل في ذلك باقرمه وكتكو ومندرة، فيقال لأهل كل منهم تكرمور، حتى إنه صار عرفًا بينهم.»

ثم قال: «وفي خلال دارفور مملكة البرقد، ومملكة برقو، والتنجور، وميمة، إلا أن مملكة البرقد والتنجور في الوسط، ومملكة البرقو والميمة من جهة الشرق، ومملكة الداجو والبيقوا من الجهة الجنوبية، وكذا مملكة فراوجيه، ولكل من هذه الممالك حاكم يسمَّى سلطانًا، لكن يوليه عليهم سلطان الفور، وكلهم على نسق واحد في الهيئة والملبوس، إلا ملك التنجور، فإنه يلبس عمامة سوداء، وسألته عن سبب سواد عمامته فأخبرني أن أصل مملكة دارفور لأجدادي، وتغلَّب عليها سلطان الفور، فلبس العمامة السوداء إشعارًا بحزنه على فقد مملكته.»

ثم قال المؤلف: «إن طول دارفور بملحقاتها لا تبلغ نحو خمسين يومًا، وهذه الملحقات هي البلاد الجنوبية التي بعد دار الفراوجيه؛ لأن الفراوجيه آخره حدود ممالك الفوراوية الحقيقية، وما يسمون أهل الفور بالسعيد المساحة الممتدة من ريل لآخر دارفور من جهة الجنوب، ودار أباديما هو دار تموركه، وأباديما اسم منصب — كما سنذكره — معناه الجناح الأيمن للسلطان، والحاكم المسيحي بهذا الاسم يحكم على دار تموركه، فسمِّي لذلك دار تموركه بدار أباديما، ويقابله التكنياوي، الذي هو أيضًا

اسم منصب معناه الجناح الأيسر للسلطان، ويحكم التكنياوي على اثني عشر ملك أيضًا، وهو حاكم الزغاوة وما يليها لجهة الشرق؛ ولذلك أيضًا سمي دار الزغاوة بدار التكنياوي.

ثم اعلم أن دارفور منظَّمة تنظيمًا على وجه محكم؛ لأننا ذكرنا أن جبل مرة يشقها، وأن نصفها من جبل مرة إلى جهة الشرق سهل، وعرض جبل مرة — بقطع النظر عن ارتفاع الجبال — نحو يومين، ووراءه من جهة الغرب سهل أيضًا، لكن من جهة الشمال الزغاوة والبرتي، وهما قبيلتان عظيمتان، فالبرتى من جهة الشرق والزغاوة من جهة الغرب، وفي وسطها من جنوب جديد كريو يسكنها التنجور والبرقد، وهما قبيلتان عظيمتان، وهكذا إلى جديد رأس الفيل وأزيد، بل إلى تبلدية، وإن كان بينهما بلاد وقبائل صغار.

ثم من هناك إلى الخلاء من جهة الجنوب والشرق وجهة دار أباديما، يسكنه الداجو والبيقو من جهة المشرق، وشرقي جديد كريو يسكنه البرقور والميمة، وهما قبيلتان عظيمتان، ثم إن جبل مرة لا يسكنه إلا أعجام الفور، وأعجام الفور ثلاث قبائل؛ أحدها: كفجارة، وهي تسكن من قرلي إلى بعد الجبيل الصغير المسمى مرة بالخصوص وهو مرة حقيقة: وبعده بقليل إلى حد دار أباديما فيسمونه تموركه، وبعد دار أباديما دار روكة ودار فراوجيه، ولكن روكة من جهة المغرب وفراوجيه من جهة المشرق، ودار فنقرو بعد دار فراوجيه، وبعد دار روكة دار سلا، لكن تميل إلى المغرب أكثر؛ ولهذا يحكمها أهل الوادي.

واعلم أن جبل مرة ليس جبلًا واحدًا كله، بل هو عدة جبال كبار وصغار، وقبل الدخول في دار أباديما ينقطع الجبل وتبقى أرض سهلة يسكنها الفلان، حتى إنهم يقربون من المساليط من جهة المغرب، ويليهم بنو حلبة والمسيرية الزرق، وجميع ما ذكرناه غير البدو الحافين فيها من شمالها وشرقها وجنوبها، وغير المولَّدين من القبائل، والفور يسمونهم الداراوية؛ أي: المنسوبين للدار، فإنهم في الوسط لا يعتبرون بقبيلة.»

ثم قال: «ثم اعلم أن أعمر البلاد من جهة الشمال بلاد البرتي والزغاوة؛ لكثرة ما فيهما من العالم، وانظر حكمة الله؛ فإن القبيلتين في خط واحد، لكن البرتي أرق قلوبًا وأحسن وجوهًا وأجمل نساء، والزغاوة بالعكس، كما أن الداجو والبيقو في خط واحد، وبنات البيقو أجمل من بنات الداجو، وأما البرقد والتنجور فيوجد في كل منهما المليح والقبيح، لكن البرقد خائنون سرًّا، وليلًا ونهارًا، لا يخافون الله ولا رسوله، والتنجور

معهم بعض دين، وبعض عقل يمنعهم، وأما أهل الجبل فكلهم على حد في الوحاشة والوخاشة، لكن متى جئت في دار أباديما، تجد الرجال والنساء حسانًا؛ فسبحان من هذا صنعه! وأما المساليط فنساؤهم يسبين العقل ويذهبن باللب، وأجمل النساء في دار الفور على الإطلاق نساء العرب، بل رجالهم كذلك.»

عادات الفور ولغتهم

وقال المؤلف: «وليعلم أن الرجال في دارفور لا يستقلون بأمر البتة، إلا الحرب، فليس للنساء دخل فيه، وما سوى ذلك فهم والنساء سواء، بل أكثر الأشغال وأشقها على النساء، وللرجال اختلاط عجيب بهن بالليل والنهار في جميع الأعمال، ومن العجب في أهل جبل مرة أنهم لا يأكلون من القمح الذي يزرعونه، بل يبيعونه ويستبدلون بثمنه دخنًا.»

ثم قال عن لغتهم: «وأما لغتهم فهي لغة فيها حماس، ألفاظها تشبه ألفاظ اللغة التركية؛ لأنهم إذا دعوا إنسانًا يقولون له: كلا، والترك يقولون: كال، وقَوْلي تشبه اللغة التركية ليس معناه أنهما متقاربتا المعنى، بل وجه الشبه في مجرد الألفاظ وإن اختلف موضوع معنى كل منهما، وذلك أن الفور يقولون للفرس: يا مورتا، وعند الترك هو اسم للبيض، والقبيح عند الفور اسمه: لجتي، وعند الترك فعل ماضٍ بمعنى ذهب، ولم أسمع لغة أنقص من لغتهم؛ لأن العدد بلغتهم ينتهي إلى ستة ويكمل بالعربي. فيقولون: ديك واحد، أو اثنان، إيس ثلاثة، أوكل أربعة، أوس خمسة، أو صنانديك ستة، ثم يقولون بالعربي: سبعة، ثمانية، تسعة، ثم يقولون: وأيه، وهو لفظ يدل على عشر الأعداد.»

وقال عن خرافاتهم القديمة: «من أعجب ما سمعته بجبل مرة أن الجن ترعى مواشيهم التي ترعى في الكلأ بدون راعٍ معهم، ولقد أخبرني عدة رجال ممن يُظنُّ صدقها أن الإنسان إذا مرَّ بمواشيهم ورأى أن لا راع لها، ربما طمع فأخذ منها شاة أو بقرة أو غير ذلك، فإن ذبحها تلتصق يده بالسكين على منحرها، ويعجز عن فكاكها، حتى أرباب الماشية، فيقبضون عليه ويغرِّمونه ثمنها بأغلى قيمة، بعد إهانتهم له وضربهم إياه الضرب المؤلم.

ولقد تكرَّر عليَّ سماع ذلك حتى بلغ مبلغ التواتر، مع أني لا أصدقه، وحين كنت في جبل مرة توجَّهت إلى دار رجلٍ منهم في غلية أسأل عنه، فما رأيت في داره أحدًا،

لكن سمعت داخل الدار صوتًا غليظًا مرعبًا، اقشعر منه جلدي، يقول لي: أكبا، يعني أنه ليس هنا، وفي ذلك الوقت أردت أن أتقدَّم وأسأل أين ذهب، فمرَّ بي إنسان وجذبني وقال: ارجع، فإن الذي يخاطبك غير آدمي! فقلت: وما هو؟ فقال: هذا الحارس الجني؛ لأن لكل إنسان منَّا حارسًا من الجن، ويسمى بلغة الفور: دمزوقة.

فخفت ورجعت من حيث أتيت، ولَمَّا رجعت من هذه السفرة وتوجهت إلى الفاشر واجتمعت مع الشريف أحمد بدوي، الذي أخذني من مصر وذهب بي إلى دارفور، فأخبرته القصة، فقال صدقٌ، وأسمعني أعجب من ذلك، وقال لي: يا ولدي، اعلم أني كنت في أول أمري أسمع أن الدمازيق تباع وتشترى، ومن أراد منها دمزوقًا يذهب إلى من يعلم أن عنده دمازيق فيشتري منه واحدًا بما يرضيه، ثم يأتي بقرعة فيها لبن ويدفعها إلى رب المنزل، فيأخذها ويدخل إلى المحل الذي هن فيه، فيسلم عليهن ويعلق القرعة التي فيها اللبن في علاقة في البيت، ثم يقول لهن إن صاحبي فلانًا عنده مال كثير، وخائف عليه من السرقة، وأراد مني حارسًا، فهل إحدى منكن تذهب إلى داره؛ لأن عنده لبنًا كثيرًا وخيرًا غزيرًا، وقد أتى بهذه القرعة مملوءة لبنًا؟

فيتمنَّعن أولًا ويقولن لا أحد يذهب معه، فيتحنَّن لهن ويتملق حتى يرضين، فيقول من أراد الذهاب منكن فلينزل في القرعة، ويبعد عنهن قليلًا، وحين يسمع بصوت وقوعه في اللبن يغطي القرعة بطبق من سعف، ويأخذها من علَّاقتها مغطاة، ويدفعها لصاحبه المشتري فيأخذها ويذهب بها إلى داره ويعلقها في بيته، ويوكِّل بالقرعة جارية أو امرأة تأتي كل يوم على الصباح وتأخذ القرعة وتريق ما فيها من اللبن، وتغسلها جيدًا ثم تضع فيها لبنًا آخر محلوبًا في ساعته وتعلقها، وحينئذ يأمن الإنسان على ماله من السرقة والضياع.

وكنت أكذِّب ذلك حتى كثر مالي، وصارت العبيد والخدم يسرقونه، فاحتلت على منع السرقة بكل حيلة فلم يمكنني ذلك، وشكوت لبعض أصحابي فأمرني أن أشتري دمزوقة وأني أكفى شر السرقة، فحداني حب المال أن توجهت إلى رجل سمعت أن عنده دمازيق، وقلت له: أعطني دمزوقة تحرس لي مالي، وأعطيته ما طلبه، فقال لي: اذهب واملأ قرعة من لبن حليب وهاتها، ففعلت وأتيت بالقرعة مملوءة لبنًا، فأخذها وذهب، وبعد ساعة جاءني والقرعة مغطاة وقال لي: علِّقها حيث مالك مخزون، وعرَّفني ما ينبغي أن يُفعل كل يوم من غسل الآنية وتجديد اللبن، ففعلت ذلك ووكَّلت جارية بذلك، وأمنت على مالي حتى إني كنت أترك بيت مالي مفتوحًا ولا يقدر أحد على الوصول إليه،

وفيه من العين والأمتعة شيء كثير، وكل من رام أخذ شيء بغير إذني تكسر رقبته، فقُتل لي عدة عبيد، وعِشت آمنًا على مالي مدة حتى كبر لي ولد كان اسمه محمد، فلما شبَّ واحتلم تعلَّقت آماله بالبنات، وأراد أن يهاديهن ببعض خرز وحلي، فترقَّب غفلتي يومًا وأخذ المفاتيح وفتح خزينة الأمتعة، وأراد أن يدخل فكسر الدمزوقة رقبته ومات في الحال، وكنت أحبه حبًّا شديدًا، فلما أُخبرت بموته جزعت عليه جزعًا عظيمًا، وسألت عن سبب ذلك، وأُخبِرت أنه أراد أن يأخذ شيئًا من الأمتعة فقتله الدمزوقة، فحلفت يمينًا أن الدمزوقة لا يجلس في بيتي، وأردت إخراجه فأعجزني، وشكوت لبعض أحبابي فأشار عليَّ أن أصنع وليمة وأجمع فيها أناسًا كثيرين، يكون مع كل واحد منهم بندقية وبارود، ويأتون كلهم دفعة واحدة يطلقون البنادق ويصيحون بصوت واحد بكلام الفور دمزوقة أيئيه، ومعناه: أين الشيطان؟ ويكررون الطلق ويرفعون أصواتهم بذلك حتى يدخلوا إلى المحل الذي فيه المال، فربما خاف وهرب منه، ففعلت ذلك ففرَّ ولله الحمد، وخلصت من معاشرة الدمازيق، أي: الشياطين.

ولقد أخبرني عدة رجال أن النقاقير التي في بيت السلطان فيها واحدة تسمَّى منصورة، متملكها الشياطين، وإنها ربما ضُرِبت بغير ضارب، فإذا وقع ذلك يحدث في دارفور أمر عظيم؛ إما حرب عدو لهم، أو حرب بينهم، وسيأتي لهذا مزيد توضيح حين نتكلم على عوائد الملوك، وأما عوائد القبائل الأُخَر، كالبرتي والداجو والبيقو والزغاوة والبرقو والميمة وغيرهم، فإن بعضها يقرب من عوائد أهل الجبل، وبعضها يخالفها، أما المخالِفة، فبعض هذه القبائل فيه كرم ونجدة ورقة طبع؛ وذلك لمخالطتهم للعرب أهل البادية، وللتجار الذين يذهبون من أرض مصر وغيرها، فتراهم إذا رأوا أضيافًا أقسموا عليهم وأحسنوا ضيافتهم، وإن رأوا غريبًا أكرموه، وذلك بخلاف الفور الأعجام، كأهل جبل مرة وتموركه، فإنهم يكرمون الضيف ولا يألفونه، ولا ينزل الضيف عندهم إلا قهرًا عنهم.»

تقاليد ملوك الفور

وقال المؤلف عن عادات ملوك الفور: «عادة ملوك الفور مخالفة لعوايد غيرهم من الملوك، ولملكهم السلطنة التامة عليهم؛ فإذا قتل منهم ألوفًا لا يسئل لماذا، وإن عزل ذا منصب لا يسئل لماذا، فهو تام التصرف في كل أمر يريده، وإذا أمر بأمر لا يُراجع فيه

ولو كان منكرًا، إلا من قبيل الشفاعة، ولا تُرد له كلمة، لكنه إذا فعل ما لا يليق من الظلم والعسف يحصل له بغض في قلوبهم، ولا يقدرون له على شيء!

شابة نوبية في السنة الثانية من زواجها.

فأول عوائدهم: أن الملك لا يكون إلا من بيت الملك، أي: من سلالتهم، ولا يمكن تولية أجنبي منهم، ولو شريفًا وتحقَّق نسبُه عندهم. وثانيها: أن الملك إذا تولَّى يجلس في بيته سبعة أيام لا يأمر ولا ينهى، ولا تقوم بين يديه دعوة، وكلهم على ذلك إلا السلطان عبد الرحمن، فإنه خرق عادتهم. وثالثها: أن لهم عجائز تسمى الحبوبات، وهن طائفة عظيمة، ولهن رئيسة تسمَّى ملكة الحبوبات، فعند خروج السلطان يوم الثامن يجتمعن ويأتين إليه، وكل واحدة منهن بيديها أربع قطع من الحديد تسمَّى القطعة منها كرباجًا، وفي كل يد كرباجان يضربنها على بعضها فيحصل منها صوت، وبيد إحداهن قبضة من سعف أبيض ومعها ماء، اختلف أهل دارفور فيما تركب منه، فتبلُّ العجوز السعف من ذلك الماء وترش به على السلطان مع قول كلام لا يعقله إلا هن، ويأخذن السلطان في وسطهن، ويطفن به البيت، ويتوجَّهن إلى دار النحاس، وهو المحل الذي فيه النقاقير، وهي طبول السلطان، فيدخلن البيت ويأتين إلى النقارة المسماة بالمنصورة، فيقفن حلقة ويجعلنها في الوسط والسلطان وحده معهن، ويضربن

الكرابيج على بعضها ويقلن من كلامهن، ثم يرجعن بالسلطان إلى كرسي مملكته، وبعد جلوسه ذاك تدخل إليه الدعوى ويتناول الأحكام.

ومن عادتهم أن السلطان لا يسلِّم على غيره إلا بترجمان، صغيرًا كان أو كبيرًا، عظيمًا أو حقيرًا؛ وكنية ذلك أنه إذا دخل عليه أناس يجثون على ركبهم، ثم يتقدَّم الترجمان ويسميهم واحدًا بعد واحد إلى آخرهم، وهو أنه يقول: إنولورا فلان دوكة كنبجي داري، ومعناه: أن هنا برا فلان سلام يعطي طاعة.»

الفصل الثاني عشر

فتح محمد علي للسودان

كان المماليك متنافرين متنابذين، سواء في عهد عروشهم المصرية أم عندما كانوا بيكوات تحت الحكم العثماني التركي، وكانوا كثيرًا ما يلجأون إلى الوجه القبلي، ومنه إلى السودان، ولا سيما المديريات الشمالية ومديرية دنقلة، وكان آخر التجاء البيكوات المماليك في عهد الحكم الفرنسي أولًا، ثم في حكم محمد علي، وخاصة بعد ذبحه أكثرهم في مذبحة القلعة المشهورة في أول مارس سنة ١٨١١، ففروا إلى النوبة ودنقلة، بل إلى جنوبي السودان.

شغل محمد علي عندما استقر له الحكم في مصر بتوطيد دعائم الحكم، واستكمال عناصر السيادة والاستقلال، فقد شغل بحربه مع الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٠٧، ثم الحرب الوهابية التي قامت إثر الدعوة الوهابية في جزيرة العرب، التي قام بها محمد بن عبد الوهاب سنة ١٧٠٣ ميلادية الموافقة سنة ١١١٥ هجرية في «العيينة» من بلاد نجد، وكان حنبلي المذهب، لا يقبل الترخص في الدين، ويمقت البدع، ويحرِّم لبس الحرير وشرب الدخان، وقد انتصر عليه «أحمد طوسون باشا» بن محمد علي مع الجيش المصري بعد أن استهدف للهزائم، وحلَّت بحملته الخسائر، وبعد أن اضطر محمد علي للسفر لإنجاد ولده، وبعد أن توفي بالدرعية في أبريل سنة ١٨١٤ الأمير سعود بن عبد العزيز جدِّ الملك بن السعود الذي ناصر الدعوة الوهابية، وكان لها درعًا. جرَّد محمد علي الكبير حملة لفتح السودان، ويرجع فتحه السودان إلى الأسباب التالية:

(١) حماية حدود مصر الجنوبية؛ إذ كانت معرضًا للمناوشات بين القبائل.

(٢) الخوف من تجمع فلول المماليك في دنقلة وقيامهم بحركة، وبتجنيد جيش من السودانيين والزحف به على مصر، لا سيما وأنه كان عند بعض الدول ميل إلى مساعدتهم وهدم الحكم المصري الوطيد بزعامة محمد علي.

(٣) علم محمد علي من مستشاريه الفرنسيين بأن السودان أرض واسعة، تستأهل الفتح والاستعمار ونشر الحكم المصري فيه.

(٤) علم محمد علي، كما علم ملوك مصر من الفراعنة وغيرهم، بأن في السودان مناجم للذهب، وأن الذهب ضروري لمساعدة الحكومة المصرية في توطيد الحكم، وتوسيع الملك، وتنظيم شئون الدولة.

(٥) كان محمد علي في حاجة إلى الجند، وقد عرف أن السودانيين يصلحون للجندية، وأنهم مطيعون للحكام، وأنهم أهل شجاعة.

محمد علي باشا مؤسس الأسرة العلوية المالكة في مصر «١٧٦٩–١٨٤٩».

بعد أن اختمرت فكرة فتح السودان في رأس محمد علي، أخذ يدرس الخطة الحربية والاستعداد للفتح، فذهب بنفسه إلى حدود مصر العليا في سبتمبر سنة ١٨١٩، ومعه حسن باشا قائد الجنود الألبانيين ومحمد لاظ أوغلي، ووضع خطة الزحف على السودان من جنوبي شلال أسوان، وعاد إلى الجيزة في ١٥ نوفمبر سنة ١٨١٩، بعد أن أمضى شهرين في تلك المنطقة.

تألفت الحملة على السودان من ٥٤٠٠ مقاتل، معهم ٢٤ مدفعًا، كان أكثرهم من العرب والمغاربة، وكانت الحملة بقيادة ابنه إسماعيل باشا.

وأعد محمد علي قوة أخرى بقيادة صهره، محمد بك الدفتردار، عددها ٤٠٠٠ (أربعة آلاف) جندي، معهم عشرة مدافع، لفتح كردفان، وكان مع الحملة ثلاثة من العلماء المصريين؛ لدعوة السودانيين إلى قبول الحكم المصري، وكان مع الحملة مسيو فردريك كايو، ونُقلت الجنود من مصر القديمة في النيل على ثلاثة آلاف مركب إلى إسنا، حيث سارت برًّا ومعها ثلاثة آلاف من الإبل.

وكان بداية سفر الحملة في ١٨ يولية سنة ١٨٢٠، وبعد وصولها إلى أسوان وصلت إلى وادي حلفا وبقيت فيها عشرين يومًا، ثم توجهت من وادي حلفا إلى سكوت، ومن سكوت إلى دنقلة، وقد فرَّ فلول المماليك عند رؤية الجيش المصري، وقدَّم أهل البلاد التي مرَّ بها الجيش الطاعة، وتم احتلال مديرية دنقلة، ثم واصل الجيش سيره جنوبي دنقلة في بلاد «الشايقية».

وعلى مقربة من «كورتي» — على الشاطئ الغربي للنيل — هجم الشايقية على فرسان الجيش الذين تقدَّموه، ولكن الفرسان المصريين هزموا المهاجمين، الذين سلَّموا وانضووا جنودًا في الجيش المصري، وقد أحرق إسماعيل باشا — نجل محمد علي باشا الكبير — بلدة «كورتي» عاصمة الشايقية، التي كانت الجزء الجنوبي لمديرية دنقلة، ثم واصل الزحف في ٢١ فبراير سنة ١٨٢١ في صحراء «بيوضة» حتى وصل على النيل تجاه «بربر»، التي فتحها الجيش المصري في ١٠ مارس سنة ١٨٢١، وأخضع ملكها «نصر الدين»، وأقامه إسماعيل عليها، ووصل الجيش إلى «شندى» يوم ٨ مايو سنة ١٨٢١، حيث أعلن ملكها «الملك نمر» الولاء، ثم استمر الجيش في سيره جنوبًا، فاحتلَّ «حلفاية» القريبة من موقع الخرطوم، واحتل «أم درمان» ونزل فيها بالمراكب، فأقام الجنود في محلة صغيرة، كانت الموقع لمدينة الخرطوم التي أنشأها محمد علي فيما بعد وجعلها عاصمة للسودان، وقد جُعلت — أولًا — معسكرًا للجيش، وفتح إسماعيل بعد ذلك مملكة سنار، واحتل واد مدني، وأخضع ملكها «بادي»، واحتل سنار العاصمة في ١٢ يونية سنة ١٨٢١.

فتح كردفان

أما الحملة التي بقيادة محمد بك الدفتردار فقد واصلت السير جنوبي دنقلة إلى بلدة «بارة» شمالي الأبيض، وعند بارة حدثت موقعة في أبريل سنة ١٨٢١ انتهت بهزيمة جيش السلطان محمد الفضل سلطان دارفور.

على أن هذه الحملة قد استهدفت للأمراض والمناوشات ولسوء الجو ولقلة المؤونة والذخيرة ولموت الكثيرين، حيث مات نحو نصف الجنود.

ملك فازوغلي سنة ١٨٢١.

ثم وصل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا إلى سنار، حيث نظمت حملتان: الحملة الأولى بقيادة إسماعيل باشا لفتح البلاد التي على النيل الأزرق حتى فازوغلي، وأخرى بإمرة إبراهيم باشا إلى أعالي النيل.

ووصلت حملة إبراهيم باشا إلى جبل القربين، حيث مرض بالدوسنتاريا، واضطر إلى العودة إلى مصر، أما حملة إسماعيل باشا، فقد وصلت إلى بلاد فازوغلي — وفازوغلي مديرية أسميت بهذا الاسم لوجود جبال فازوغلي بها — وجعل محمد علي بلدة «فامكا» عاصمة لها بدلًا من عاصمتها الأولى قبل الفتح، وقد خضع ملك فازوغلي — وكان يدعى الملك حسن — للحكم المصري، ثم وصلت الحملة إلى جبل «بني شنقول» جنوبي فازوغلي، وحاولت كشف مناجم الذهب، فعثرت على فتات من التبر هيِّنة القيمة.

قتل إسماعيل حرقًا في شندى

وقد مرض إسماعيل، وفشت الأمراض في جنوده، وانقضَّت عليه بعض القبائل، وجنَّد الأسرى السودانيين، وغضب سكان حلفاية وشندى على الحكام المصريين، وكانوا من الأرناؤود، وهجم العصاة على الجنود المصريين الذين كانوا مرافقين للأسرى السودانيين، الذين أرسلوا إلى أسوان لتجنيدهم.

ولما علم إسماعيل بذلك كله، سافر مباشرة إلى «شندى»؛ حيث علم أن ملكها الملك نمر هو الذي أثار السكان وخان العهد، فدعاه، ولمَّا حضر أمامه وبَّخه وأهانه، ولطمه على وجهه «بالشبك» وحجزه، ثم عفا عنه مقابل غرامة مالية جسيمة يوفيها في خمسة أيام، وألفٍ من الرقيق، فتظاهر الملك نمر بالإذعان، وكان يبطن الانتقام، ثم دعا الملك نمر إسماعيل ومعيته إلى وليمة في داره بشندى، وكانت من القش، فلبَّى «إسماعيل» الدعوة، وتظاهر الملك وأعوانه بالترحيب بهم، وفي أثناء ذلك جمع أنصار الملك الحطب والقش والتبن حول الدار بحجة جمع العلف لخيل الباشا، ولكن الحقيقة أن ذلك كان للتنكيل بإسماعيل باشا ومن معه؛ حيث أُشعلت النار في العلف الموهوم، وحيث كان أنصار الملك محيطين بالباشا وحاشيته وقد رموهم بالنبل والسهام، فمات الباشا ومن معه، ولم يهرب إلا أفراد قلائل.

وعندما علم محمد علي باشا بقتل ابنه وبنكبة شندى حزن، وقد توجه محمد بك الدفتردار من كردفان إلى شندى، حيث انتقم من ذلك الحادث الأليم، فخرَّب شندى،

وأنزل العذاب بالثائرين المتآمرين، وقتل ألوفًا من أنصار الملك نمر، الذي فرَّ إلى حدود الحبشة.

نظام الحكم في عهد محمد علي

نظَّم محمد علي باشا الحكم في السودان على الوجه التالي: عيَّن حاكمًا له يدعى حكمدار السودان، له السلطة العسكرية والمدنية المطلقة، وجعله تابعًا لديوان الداخلية بمصر، وأنشأ مدينة الخرطوم وجعلها عاصمة للسودان ومقامًا لحكمداره، وقُسِّمت البلاد المفتوحة إلى مديريات، بلغت سبعًا، وهي: دنقلة، وبربر، والخرطوم، وكردفان، وكسلا، وسنار، وفازوغلي، لكل منها مدير، وقسِّمت المديريات إلى أقسام، لكل قسم ناظر، وللمدير وكيل ومعاونون وكتبة وقاضٍ ومفتي ومجلس أهلي وضبطية، وأبقى حكام البلاد الذين كانوا قبل الفتح في مناصبهم، كمشايخ النوبة ودنقلة وبربر والحلفاية والرصيرص وفازوغلي وملك سنار، وعلى كل حال، كان الحكم في السودان كنظام الإدارة في مصر.

وبلغ الجيش المصري في السودان ١٨٠٠٠ جندي، منهم ١٠٠٠ من الفرسان الأتراك، و١٦٠٠٠ من الجنود المصريين النظاميين، وقد جُنِّد معهم جنود سودانيون، وأصبحوا جزءًا من الجيش المصري، وكان العلم المصري مرفوعًا على دواوين الحكومة، وكان السودان معدودًا من مصر.

وكان للمدير وكيل ومعاونون ونائب قاضٍ ومجلس أهلي وضابطة، وفي كل مديرية حامية، والجند جهادية وباشبوزق؛ أي: جنود نصف نظاميين.

وإيرادات الحكومة تُجمع من الضرائب والجمارك وملاحات البحر الأحمر وآبار النطرون وويركو التجار وأرباب الصنائع، وتؤخذ الضرائب من عرب البادية على ماشيتهم، ومن الحضر على سواقيهم ونخيلهم.

وقد نظَّم البريد الذي كان يُنقل بالسفن ثم على الهجن، وأنشئت له محطات، وكان البريد بين مصر والخرطوم مرتين في الشهر، وكانت المسافة تستغرق حوالي خمسة وعشرين يومًا.

وقد استتب الأمن، واستُعملت الشدة مع المتمردين والمجرمين، وهي شدة استدعاها نظام الحكم المطلق، وقرب العهد بالفتح والخضوع والنظام العسكري، وهي شدة

احتملها المصريون كالسودانيين على السواء في حكم ناشئ ودولة جديدة، في حاجة إلى التوطيد ورد الغارات وكبح جماح الكائدين والمنتقضين.

وقد أدخل المصريون في السودان زراعة القمح والخضر، وأنشأوا البساتين، وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبرتقال وليمون، وقال الكولونيل استيوارت: «يميل المصري بطبعه إلى الزراعة، وكان لا يمضي ستة أشهر على إنشاء معسكر للجنود المصرية في السودان وإقامتهم بمعسكرهم حتى يكون من المؤكد ظهور الزرع والخضر …»

وأسس محمد علي المدن، من ذلك إنشاء مدينة الخرطوم التي كان موقعها محلة صغيرة للصيادين، وجُعلت سنة ١٨٢٢ معسكرًا للجيش، وجُعلت سنة ١٨٣٠ مقرًّا لحكمدار السودان خورشيد باشا وعاصمة للسودان، وقد أسميت بالخرطوم لأن موقعها — وهو عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض — يشبه خرطوم الفيل، وأسست بها سراي الحكومة بالطوب الأحمر من دورين، وسراي مديرية الخرطوم، ومسجدان، ودار لبعثة دينية مسيحية، وثكنة للجنود شرقي المدينة، ومستشفى، ومصنع للبارود، ومخزن للمؤن، وترسانة بها مسبك للحديد، ومصنع للنجارة.

وانتشرت بها الحدائق والدور، وأقام فيها موظفون أولًا، ويقول «مانجان» في كتابه:[1] «إن عدد سكان الخرطوم قد بلغ ثلاثين ألفًا في عهد محمد علي، وزاد العدد إلى أربعين ألفًا سنة ١٨٥٤، وخمسين ألفًا سنة ١٨٥٦»، وقال الكولونيل استيوارت: «إن عددهم سنة ١٨٨٣، وقبيل الثورة المهدية، قد بلغ عددًا يتراوح بين خمسين ألفًا وخمسة وخمسين ألفًا.»

وواصل محمد علي تأسيس مدن للسودان، فأسس مدينة كسلا التي أصبحت — عندئذ — عاصمة إقليم التاكا، وعاصمة السودان الشرقي، وقد كثرت هجرة المصريين إلى السودان، واتخذه كثيرون منهم مقامًا، كان منهم التجار، وتزوجوا من نساء السودان، وأصبح أولادهم مولَّدين.

وأنشأ محمد علي مدينة «فامكا» على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢، على بعد ٢٥ ميلًا من الرصيرص، وجعلها عاصمة مديرية فازوغلي، وأقام على بعد خمسة أميال منها جنوبًا، قصرًا ومعملًا للتنقيب عن الذهب، وبقيت آثارهما للآن.

[1] تاريخ مصر في حكم محمد علي، جزء ٣ ص١٠٨.

حكمدارية السودان الأولى

يعد إسماعيل باشا — الذي قُتل في شندى، ونجل محمد علي باشا — أول حكمدار للسودان، ولما قُتل في أواخر سنة ١٨٢٢ أصبح محمد بك الدفتردار — صهر محمد علي باشا — خلفًا له في حكم السودان، ثم خلفه الميرالاي عثمان بك سنة ١٨٢٣، وبعد سنتين عُيِّن محله محو بك الذي احتفر آبارًا للشرب والسقاية تُعرف إلى الآن باسمه، وفي سنة ١٨٢٦، عُيِّن خورشيد باشا الذي أدخل صناعة بناء الدور بالطوب في السودان، والذي فتح القلابات القريبة من الحبشة، وبقي حتى سنة ١٨٣٧، وعُيِّن محله أحمد باشا أبو ودان الذي فتح إقليم التاكا «كسلا»، وأسس مدينة كسلا، وتوفي ودفن بالخرطوم. وفي عهده — بين أكتوبر سنة ١٨٣٨ ومارس سنة ١٨٣٩ — زار محمد علي السودان باحثًا عن الذهب، ومعه علماء فرنسيون، وعُيِّن أحمد المناكلي باشا — الذي أخمد ثورة في بلاد التاكا — حكمدار، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٤٥ وخَلَفَه خالد باشا.

قال مسيو ديهيران:[٢] إن «استتباب الأمن كان من أجلِّ أعمال محمد علي»، وقال مستر بورنج — أحد السائحين الإنجليز في عهد محمد علي: «إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد علي، فحيثما بسط نفوذه وحكمه وطَّد دعائم الأمن ورعاه، وحيثما ضعف نفوذه ضاع الأمن، مثال ذلك: عندما انسحبت جنود محمد علي من السودان سنة ١٨٤١ لم يعد التجار آمنين على متاجرهم، ولما انسحب إبراهيم باشا اختلَّ الأمن، وعادت الفتنة بين المصريين والمسيحيين.»

وقال قنصل فرنسا في مصر الكونت بتديتي: «إن الأهالي والأجانب على السواء يستطيعون السير في أي بلد من البلاد التي يحكمها محمد علي في وادي النيل إلى أقاصي السودان، وفي سوريا وجزيرة العرب، فقد أقام العدل صارمًا في حزم وفي غير ضعف، فالسودان قد ساده الأمن كما ساد غيره، وقد استطاع الرحالة بالم أن يجتاز كردفان مع خادم واحد، كذلك الرحالة كوتش، والأمير الألماني، وأسرة مسيو ميلي، وقد وصلوا جميعًا إلى الخرطوم دون أن يقع عليهم أي اعتداء؛ حيث لم يكن التاجر قبل حكم محمد علي يأمن أن يسير في السودان منفردًا.»

[٢] كتاب السودان المصري على عهد محمد علي ص١٢٠.

حدود السودان

كانت حدود مصر تنتهي بجزيرة ساي جنوبي وادي حلفا، وقد وصلت حدود السودان في عهد محمد علي إلى حدود الحبشة، ودخل في حدود مصر: إقليم التاكا، والقضارف، والقلابات، وسواكن ومصوع اللتان استأجرهما محمد علي باشا من سلطان تركيا مقابل ٥٠٠ كيس. ووصلت حدود السودان جنوبًا في النيل الأبيض إلى جزيرة دنكا أمام

غندكرو، ووصلت حدود الحكم المصري السودان إلى كردفان غربًا، وإن كانت عدَّتْ من أملاك مصر بالفرمان الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الذي صدر بموافقة الدول.

فلم يفتح محمد علي إقليم خط الاستواء، ولم يكشف منابع النيل، وتم ذلك في عهد إسماعيل.

الفصل الثالث عشر

السودان بعد محمد علي

في عهد إبراهيم

ظلت الحالة في السودان بعد عهد محمد علي باشا كما كانت في عهده، أي ظل السودان بحدوده وإدارته التي أنشأها محمد علي سائرة في عهد ابنه إبراهيم باشا، الذي كان حكمه قصيرًا، إذ ولي الحكم في أبريل سنة،١٨٤٧ وتوفي في ١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨، وإبراهيم باشا هو أكبر أنجال محمد علي، وقائد جيوشه، وساعده الأيمن في الحروب الوهابية واليونانية والشام والأناضول، وفي تنظيم الإدارة المصرية، ولد في قولة سنة ١٧٨٩، وحضر إلى مصر مع أخيه طوسون في سبتمبر سنة ١٨٠٥.

وقد عُيِّن وتوفي في حياة والده محمد علي الذي اعتلَّت صحته وضعف عقله في آخر حكمه، وتوفي في ٢ أغسطس سنة ١٨٤٩ في سراي رأس التين بالإسكندرية، ونُقل إلى القاهرة ودفن بمسجده في القلعة.

في عهد عباس باشا الأول

خَلَفَ عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد علي باشا — عمَّه إبراهيم باشا — في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨، وكان أميرًا مستبدًّا، كثير الوساوس، وقد عَدَّ السودان منفى للذين غضب عليهم، وقد نفى إليه رفاعة بك رافع الطهطاوي الذي ولد سنة ١٨٠١ وتوفي سنة ١٨٧٣، وتخرج في الأزهر، وفي البعثة المصرية بباريس، وعُيِّن ناظرًا لمدرسة الألسن ولقلم الترجمة سنة ١٨٥١، حيث أنشأ عباس باشا الأول مدرسة ابتدائية بالخرطوم، وجعل رفاعة بك ناظرًا لها، ومحمد بيومي أفندي كبير أساتذة الهندسة والرياضيات بمدرسة المهندسخانة، وأحمد طائل أفندي أستاذ الرياضيات، وغيرهم، مدرسين بها.

إبراهيم باشا الأول بن محمد علي باشا.

وقد ترجم رفاعة بك في أثناء إقامته في السودان كتاب تليماك، ونظَّم مدرسة الخرطوم، وكان معجبًا بالسودانيين وتلامذته منهم، وقال: «إن لهم قابلية للتمدين الحقيقي؛ لدقة أذهانهم، فإن أكثرهم قبائل عربية، ولا سيما الجعليين والشايقية وغيرهم، واشتغالهم بما ألفوه من العلوم الشرعية عن رغبة واجتهاد، ولهم مآثر عظيمة في حسن التعلم والتعليم، حتى إن البلدة إذا كان بها عالم شهير يُرحل إليه من البلاد المجاورة من طلبة العلم العدد الكثير والجمِّ الغفير، فيُعينه أهل بلدته على ذلك، بتوزيع المجاورين «أي: الطلبة» على البيوت بحسب الاستطاعة، فكل إنسان من الأهالي يخصه الواحد أو الاثنان، فيقومون بشئونهم مدة التعلم.»

وهذا الذي يقوله رفاعة بك منشورًا في صحيفة ٦٢ الطبعة الثانية من كتاب «مناهج الألباب المصرية» لا يزال متبعًا إلى اليوم، فإن الطلبة الفقراء الغرباء في المعهد العلمي بأم درمان يوزَّعون على كبار تجار أم درمان، الذين خصصوا في منازلهم غرفًا خاصة لإيواء هؤلاء الطلبة مع إطعامهم وكسوتهم.

عباس باشا الأول والي مصر من سنة ١٨٤٨ إلى سنة١٨٥٤.

وقد قال رفاعة بك من قصيدة:

رفاعة خمس المنظوم مرتجلا   قريضه وهو «بالخرطوم» قد وجلا
قالت هواتفه بالله كن رجلا   فان جدك «طه» بالخطوب جلا

ويقصد رفاعة بك بقوله «طه» أنه من بيت شريف يتصل نسبه بمحمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين ابن فاطمة الزهرة بنت النبي ﷺ.

وقد عاد إلى مصر رفاعة بك من السودان عقب وفاة عباس باشا الأول سنة ١٨٥٤، حيث مات عباس باشا مقتولاً.

رفاعة رافع بك.

الفصل الرابع عشر

السودان في عهد سعيد باشا

سعيد باشا والي مصر من سنة ١٨٥٤ إلى سنة ١٨٦٣.

تولى سعيد باشا الحكم سنة ١٨٥٤ خلفًا لابن أخيه عباس باشا، وتوفي سنة ١٨٦٣.

وقد حدث في عهد سعيد باشا حرب جمهورية المكسيك في أمريكا الشمالية. كانت هذه الجمهورية — ولا تزال — معرضًا للفتن والثورات الداخلية لانتزاع رياسة الجمهورية من زعيم أو حزب إلى آخر. وفي سنة ١٨٦١ كان يرأس الجمهورية مسيو جُوارز، وكان الإمبراطور نابليون الثالث في فرنسا يعضِّد الثائرين على رئيس الجمهورية، وجرَّد حملة عليها، واستعان على حربه بصديقه سعيد باشا، الذي أرسل له جيشًا من الجنود السودانيين بقيادة البكباشي جبر الله محمد السوداني، والصاغ محمد ألماس، وسافرت الحملة السودانية إلى المكسيك سنة ١٨٦٢، فانتصر الجيش الفرنسي أولًا، وألغيت الجمهورية، وأعلن اعتلاء الأرشيدوق مكسميليان النمسوي سنة ١٨٦٤ إمبراطور في المكسيك، ولكن تغلبت الجنود المكسيكية على الجيش الفرنسي، وقد أبلت الجنود السودانية في هذه الحرب بلاءً حسنًا، وشهد المارشال فوري قائد الجيش الفرنسي لها بالشجاعة، وقال: إنهم «ليسوا جنودًا فقط، وإنما هم أسود.»

(١) أورطة المكسيك السودانية

وكان سبب حرب فرنسا مع المكسيك أن حكومة المكسيك أساءت[١] معاملة كثير من رعايا فرنسا وإنجلترا وإسبانيا، ونهبت أموالهم على أثر مطالبتهم لها بوفاء ما عليها لهم من الديون، فكان ذلك السبب الظاهر لهذه الحرب.

ويقال إن الغرض الذي كان يُسِرُّه نابليون الثالث في قرارة نفسه، ويرمي إليه من وراء هذه الحرب إنما هو تأسيس حكومة ملكية كاثوليكية في المكسيك؛ ليضمن بذلك وجود التوازن في هذه البلاد مع نفوذ الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد عقدت هذه الحكومات الأوربية الثلاث النية على استخدام القوة المسلحة للحصول على مطالب رعاياها، ووجهت كل منها حملة إلى المكسيك في سنة ١٨٦١م، ولكن لم يلبث الخلاف أن دبَّ بين هذه الدول، فسحبت إنجلترا وإسبانيا جنودهما من المكسيك في أبريل سنة ١٨٦٢م، وقامت فرنسا وحدها بأعباء هذه الحرب.

وأرض المكسيك تنقسم إلى جبال ووهاد، ووهادها تسمَّى الأراضي الحارة، وهي واقعة على سواحلها البحرية، ومناخها وبيل تنتشر فيه الحمى الصفراء والدسنتاريا،

[١] الأورطة السودانية — لسمو الأمير عمر طوسون.

وإذا أقام به الأوربيون فتكت بهم هذه الأمراض فتكًا ذريعًا. أما الزنوج، فيمتازون بحصانة طبيعية ضد هذين المرضين؛ ولهذا استخدمت فرنسا عساكر منهم جنَّدتهم لهذه الحرب، خاصة من مستعمراتها.

وخطر بفكر نابليون الثالث أن يرجو سعيد باشا — والي مصر في ذلك الحين — أن يمدَّه بآلاي من الجنود السودانيين، فقبل سعيد باشا رجاءه، غير أنه لم يرسل سوى أورطة مؤلفة من ٤٥٣ جنديًا، بين ضباط وصف ضباط وعسكر.

وهذه الأورطة مكونة من أربعة بلوكات، وهي من آلاي المشاة التاسع عشر، وقد اشتركت في حرب المكسيك من عام ١٨٦٣م إلى عام ١٨٦٧م، وها نحن نبيِّن ما قامت به في هذه السنين من الأعمال المجيدة:

عام ١٨٦٣م

في ٨ يناير سنة ١٨٦٣م أقلعت النقالة الفرنسية لاسين La Seine بهذه الأورطة من الإسكندرية مارَّة بطولون، حتى وصلت بها إلى فيرا كروز، وهي أكبر فرضة في المكسيك في ٢٣ فبراير، بعد سفر مدة ٤٧ يومًا، وقد مات منها في أثناء السفر سبعة جنود. وكانت الأورطة بقيادة البكباشي جبر الله محمد أفندي، ووكيله اليوزباشي محمد ألماس أفندي.

وجاء في التقارير الفرنسية عنها أنها كانت ذات ملابس حسنة، وسلاح جيد، وهيئة أنيقة، واستعداد عسكري يثير إعجاب كل من يراها، إلا أن سلاحها كان يختلف عن أسلحة الجنود الفرنسية، فنجم عن ذلك متاعب وعراقيل من جهة الذخيرة، فوزَّعت القيادة الفرنسية عليهم أسلحة فرنسية، وأودعت أسلحتهم المخازن، ثم أعادتها إليهم عند رجوعهم إلى مصر.

كما أن التفاهم معها في بادئ الأمر كان متعذرًا؛ لجهل أفرادها اللغة الفرنسية، فدعت الحالة إلى استخدام بعض الجنود الجزائريين الذين كانوا معهم في حرب المكسيك للترجمة بينهم وبين سائر الجنود الفرنسية هناك، فأمكن بذلك معرفة احتياجاتهم والاستفادة من أهليتهم وكفاءتهم.

وقام جنود هذه الأورطة بأعظم الخدم وأجلِّها لشجاعتهم وبراعتهم في الرماية وضرب النار، وبذلك أمكن التعويل عليهم في المواقع التي كانت الجنود الفرنسية لا

تستطيع المقام فيها، فصدُّوا غارات العصابات التي كانت تجوس خلال هذه الديار وتشن الغارات على قوافل المؤونة والذخيرة، وعلى المخافر التي بها قليل من الحرس.

وقبل مباشرة هذه الأورطة العمل رُتِّبت على النظام الفرنسي.

وفي مايو سنة ١٨٦٣م فُجِعت الأورطة المصرية «السودانية» بوفاة البكباشي جبر الله محمد أفندي، على أثر إصابته بالحمى الصفراء، فخلفه القائد الثاني لها الصاغ محمد ألماس أفندي بعد أن مُنح رتبة البكباشي.

وكان لوفاة هذا الضابط العظيم رنَّة أسى عند الجميع، وجاء في تأبين السلطة الفرنسية له أنه كان على جانب كبير من دماثة الأخلاق والتحلي بصفات عسكرية نادرة، وأنه كان محترمًا من الجميع؛ لسلوكه الحسن، وقيامه بواجباته على الوجه الأكمل، وقَدْره ما على عاتقه من المسئوليات.

وبلغت قيمة تركته ٥٦٦٧ فرنكًا، أرسلتها السلطات الفرنسية فيما بعد إلى الحكومة المصرية لتسلمها إلى ورثته، مع مبلغ ٥٠٠٠ فرنك على سبيل المنحة منها لهم.

ويدرك المرء مقدار وخامة الأراضي الحارة وفساد مناخها، إذا علم أنه مع متانة بنية جنود الأورطة السودانية المصرية ومقاومتها لوخامة ذلك الجو أكثر من المكسيكيين أنفسهم، كان لا يوجد في كل بلوك منها أقل من ٤٢ مريضًا على الدوام، ٣٠ في المستشفى و١٢ في الثكنات.

ومع أن هذه النسبة كبيرة بالنظر لمجموع عدد الأورطة، إلا أنه عند مقارنتها بنسبة عدد مرضى فرق الجيوش الفرنسية الأخرى نجدها أقل منها بكثير.

ولما احتلت الجيوش الفرنسية مدينة مكسيكو عاصمة المكسيك أقيمت احتفالات باهرة في كافة المدن التي في قبضة هذه الجيوش.

وفي ٢١ يونية سنة ١٨٦٣م أقيم في فيرا كروز قداس حضره القائد العام، ومثلت فيه جميع السلطات العسكرية والمدنية، فعهد إلى الأورطة السودانية المصرية القيام بمهام التشريفات، وبعد انتهاء الاحتفال استعرضت في أكبر ميادين المدينة.

ولما وقف القائد العام المارشال «فوريه Forey» على ما قامت به هذه الأورطة في عدة وقائع كافأها على ذلك، فأمر في ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٦٣م أن تؤلَّف منهم كتيبة الجنود الذين يسمون «برنجي نفر»، فأُلِّفت منهم هذه الكتيبة، وبلغ عددها ربع عدد الأورطة، وأمر فمنح كل فرد من أفرادها ٦٥ سنتيمًا يوميًّا «قرشين ونصف القرش تقريبًا»، وأن يميَّزوا بشارات صفراء تُوضع على أذرعتهم، فأحدث هذا العمل أثرًا عظيمًا

في نفوسهم وفي نفوس ضباطهم، ودلَّ على عظيم عناية القيادة الفرنسية بهم، وقَدْرِها لجدارتهم.

وكتب قائد فيرا كروز في تقريره الذي أرسله إلى القائد العام عن واقعة نشبت في ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣م ما معربه:

> لقد كلل هذا القتال رءوس السودانيين المصريين الذين قاموا بأعبائه بأسمى أكاليل الفخر، فإنهم لم يبالوا بالنار المنصبَّة عليهم من الأعداء، وردوهم، وهم يزيدون في العدد عليهم تسع مرات على أعقابهم مدحورين.

وقد بلغ عدد الوقائع التي خاضت هذه الأورطة غمارها في عام ١٨٦٣م ثمانيًا، وفي أثناء عام ١٨٦٤م كانت الأورطة المصرية قد خاضت غمار إحدى عشرة معركة.

عام ١٨٦٥م

حدث في ٢١ و٢٣ و٢٤ من يناير سنة ١٨٦٥م ثلاث معارك عظيمة اشتركت فيها الأورطة السودانية المصرية ببسالتها المعتادة، وإليك ما قاله القائد العام للأراضي الحارة في تقريره عنها:

«من الصعب العثور على كلام يمكن التعبير به عن بأس هذه الأورطة البارعة، وبسالتها وصبرها على الحرمان واحتمال المشاق، وحميتها في إطلاق النيران، وجلدها في المشي، فلقد قام كل جندي من جنودها في هذه الوقائع الثلاث بواجبه خير قيام» ويرى قائدها أن كافة جنودها تستأهل المدح والثناء، غير أنه لفت الأنظار إلى ثلاثة جنود منها أصيبوا إصابات شديدة «لكني أرى من واجبي أن أذكر أيضًا الأشخاص الآتية أسماؤهم:

لقد أبلى الملازم فرج الزيني في هذه الوقائع بلاء حسنًا كعادته، وكان يقود المؤخرة فأعاد إلى الذاكرة ما لم تنسه من حماسته وبسالته في حروبه السابقة.

وأصيب الملازم الأول محمد سليمان بستة جروح من طلقات نارية، فبرهن بذلك على إقدامه، وهذا الضابط الذي أنعم عليه بوسام في ٢٠ ديسمبر، قد أظهر الآن مقدار جدارته لهذا الإنعام، فألتمس منحه رتبة اليوزباشية.

أما الجنود الأربعة الآتية أسماؤهم فقد أُنعم على كل منهم بالوسام العسكري، وهم: جادين أحمد، ومحمد الحاج، وإدريس نعيم، وعبد الله سودان.»

وفي ذلك الوقت كان أمير الآلاي آدم بك المذكور قائد الآلاي الأول السوداني في الخرطوم، الذي يبلغ مجموعه ٨١ ضابطًا و٢١٩٠ من صف الضباط والجنود، وترقَّى بعد ذلك إلى رتبة لواء، وفي سنة ١٨٦٨م أُسندت إليه القيادة العامة للجيوش السودانية.

ولما وصل تقرير قومندان الأورطة السودانية أرسل إليه الخديوي إسماعيل باشا في ١٦ ذي القعدة سنة ١٢٨١هـ/١٢ أبريل سنة ١٨٦٥م الكتاب الآتي:

أمرٌ عالٍ إلى صاغ أورطة السودان

> قد ورد إنهاؤكم «كتابكم» بتاريخ ٣ شعبان سنة ١٢٨١هـ، الموافق أول يناير سنة ١٨٦٥، يحتوي أنكم ومن معكم قائمون على أقدام الاهتمام، ومنقادون لأمر مأمور الجيش على الدوام، فحصل لنا بذلك مزيد السرور والارتياح منكم، ومن جميع من معكم من الضباط والعساكر، فعرِّفوهم أني أريد منهم أن يداوموا على هذا المسلك الحميد والمنهج السديد؛ حتى يعودوا إلى أوطانهم فينالوا الفخر بين إخوانهم، ثم بلِّغوهم أننا سننظر في ترتيب عساكر ليُرسَلوا بدلًا منهم إلى تلك الجهة، وإن شاء الله عن قريب نرسل البدل المذكور، وتحضرون أنتم ومن معكم حيث طالت إقامتكم هناك، وعلى حسب التماسكم أهدي إلى البكباشي مارشال النيشان المجيدي الرابع، وأرسل مع الفرمان المتعلق به.

وأتت الأورطة السودانية المصرية في أثناء انتظارها من سيخلفها من الجنود بضروب الشجاعة والإقدام، إذ كانت تحتل في متسع من الأرض مساحته ١٦٠ كيلومترًا، سبعة مواقع، بعضها ليس به منها أكثر من ٣٠ جنديًّا، ومع ذلك فقد استطاعت أن تبعث الخوف والذعر في قلوب عصابات تتراوح كل عصابة منها بين ٢٠٠ و٣٠٠، وأن توقفها عند حدها، وإليك معرب العبارة التي مدح بها قومندان الأراضي الحارة هذه الأورطة:

> يا لها من يقظة، ويا لهم من رجال أبطال تملَّك حب القيام بالواجب أفئدتهم، فهم لا ينفكون عن القيام به، حتى إنه لم يحدث مطلقًا أن بوغت يومًا جندي منهم في نوبة حراسته ووُجد غائبًا عن محله، وهم من أنفسهم يضاعفون الحرس ليلًا إلى ثلاثة أمثاله بدون أمر ما؛ ليأمنوا أية مباغتة.

وفي بداية عام ١٨٦٦م لم تكن الأورطة السودانية المصرية الجديدة قد استعدَّت بعدُ للذهاب إلى المكسيك لتحل محل الأورطة السودانية التي بها، مع أن الخديوي إسماعيل أصدر في ١٠ ذي القعدة سنة ١٢٨٢هـ ٢٧ مارس سنة ١٨٦٦م أمرًا إلى وكيل الشركة العزيزية «الشركة الخديوية فيما بعد» ليصدر التعليمات اللازمة لنقل جنود الأورطة الجديدة إلى مصر.

وبالرغم من كل هذه الأوامر والتعليمات لم تسافر هذه الأورطة إلى المكسيك؛ لمجاوزة مدة تجهيزها الحد المألوف بسبب ما حدث من الطوارئ، ولما تبيَّن أن الحرب أوشكت أن تضع أوزارها، وأن الأورطة التي بها قد دنا رجوعها إلى وطنها.

وفي يوليو سنة ١٨٦٦م، مرَّت الإمبراطورة بفيرا كروز لتبحر منها إلى أوربا، ولم يكن بهذه المدينة من الجنود غير عساكر الأورطة السودانية المصرية لتأدية التشريفات اللازمة لها.

وفي ليلة ٢٥ يوليو سنة ١٨٦٦م، هاجمت فرقة مؤلفة من ٢٠٠ مكسيكي نقطة يحتلها ٢٦ جنديًّا من الأورطة السودانية المصرية، وبالرغم من أن الهجوم عليهم كان فجأة مع قلة عددهم، فقد استمرت رحى الحرب دائرة إلى الساعة ٥ ونصف صباحًا، ثم انسحب العدو تاركًا في حومة الوغى تسعة من القتلى، وعددًا كبيرًا من الجرحى.

وإليك ما قاله حضرة قومندان الأراضي الحارة في تقديره عن هذه المعركة:

لقد استحقت الفرقة السودانية المصرية جزيل المدح والثناء لسلوكها العجيب.

عام ١٨٦٧م

كان قد تقرر في سنة ١٨٦٦م جلاء الجيوش الفرنسية التي في المكسيك، فأخذت تنسحب من ١٣ يناير سنة ١٨٦٧م، وتم جلاؤها في ١٢ مارس من هذه السنة.

وتعداد جميع الأعمال الحربية التي قامت بها الأورطة السودانية المصرية بالمكسيك في كل مدة إقامتها أمر يطول شرحه، وفضلًا عما تقدم ذكره، اشتركت في ٤٨ واقعة حربية في المدة التي قضاها هناك، من ٢٣ فبراير سنة ١٨٦٣م إلى ١٢ مارس سنة ١٨٦٧م، أي: أربع سنوات وسبعة عشر يومًا، وفازت على أعدائها في جميع المعارك، مع أنها كانت دائمًا أبدًا أقل منهم عددًا، وقد نيطت بها فوق ذلك أعمال أخرى قامت بها خير قيام.

أما المدائح المستطابة التي وُجِّهت إليها من السلطات الفرنسية المختلفة عقب كل معركة فكثيرة جدًّا، وهي تشرِّف — بالطبع — الجيش المصري الذي كانت الأورطة جزءًا منه، إلى أقصى حدود التشريف.

ولما أخذت الأورطة في الرحيل أبحرت من فيرا كروز في ١٢ مارس سنة ١٨٦٨م، ووصلت إلى «ساترير»، ثم إلى باريس في أواخر شهر أبريل.

وكانت في مدة إقامتها في باريس تحت قيادة المارشال قائد الحرس الإمبراطوري، فقدَّمها بنفسه إلى الإمبراطور نابليون الثالث، وعندما استعرضها جلالته في ٢ مايو سنة ١٨٦٧م في الساعة الثالثة بعد الظهر، كان بمعيته صاحب السعادة جاهين باشا ناظر الجهادية المصرية، وكان يزين صدور عدد كبير من ضباطها وجنودها وسام «لاكروا دي لاليجيون دونور»، أو وسام الحرب، وكان هندامهم جميلًا أنيقًا لا عيب فيه، وقبل انصرافهم هنَّأ جلالته قائد الأورطة البكباشي ألماس أفندي بمقدرة عساكره وأهليتهم، ووزع بيده على الذين أصيبوا بجروح — وكانوا كثيرين — المكافآت، أما البكباشي ألماس أفندي الذي كان حائزًا لرتبة «شفاليه دي لاليجيون دونور» منذ ٢٠ أبريل سنة ١٨٦٤م، فقد مُنح في هذا اليوم وسام «لاكروا دفسييه».

ثم غادرت الأورطة فرنسا، ووصلت إلى الديار المصرية، وأصبح عددها ٣١٣ بعد أن كان عددها ٤٥٣، فتكون خسارتها ١٤٠ نفسًا.

وفي ٢٨ مايو سنة ١٨٦٧م، استعرضها الخديوي إسماعيل في فناء قصر رأس التين بالإسكندرية، وفي مساء هذا اليوم، أقام لها لطيف باشا ناظر البحرية حفلة حافلة رأسها شريف باشا، جمعت ضباط الأورطة والضباط الفرنسيين المقيمين بالإسكندرية والمارين بها، وحضرها قنصل فرنسا العام، وموظفو القنصلية، وقائد الأسطول الفرنسي، وكثير من عظام الضباط المصريين، وكانت قاعة الاحتفالات مزينة بالأعلام الفرنسية والمصرية.

ولما عاد ضباط الأورطة وجنودها عُينوا في وظائف الجيش المصري ونال الكثير منهم رتبًا عالية، فوصل الملازم الأول فرج الزيني أفندي إلى رتبة فريق وباشجاويش، البلوك الثاني بخيت بتراكي إلى رتبة أمير آلاي.

(٢) رأي مؤرخين فرنسيين

يقول الكاتبان الفرنسيان «آميديه سكريه» و«لويز أوتربون»[٢] في مؤلفهما:

ولمَّا كانت الجندية هي سبب نجاح محمد علي باشا فقد وجَّه عنايته للعسكرية، وأسَّس جيشًا لا يقل عن أحسن جيوش أوربا نظامًا وتدريبًا، بل في كل شيء إلا في عدده.

ولقد دون التاريخ الانتصارات الحربية لعسكرية الباشا المهيبة الجانب، ولسنا هنا في مقام تفصيل ذلك، فهي وقائع معروفة، ولكن الذي لا يعرفه الكثيرون معرفة كافية هو: أن المصري جندي متفوق إذا ما أدير بيد ماهرة قوية.

وإذا صح ما قيل من أن صفات الأمم العالية تمثَّل في جيشها، وأن حب النظام وطاعة الأوامر العسكرية هما الدعامة الكبرى للفن العسكري، فالجندي المصري يقيم الدليل المحسوس على صحة هذه الحقيقة؛ فهو قنوع صبور مطيع للأوامر، بصير حذر وشجاع، ويحتمل دون ما ضجر حرمانه من حاجاته لدرجة فوق التصور، وعندما أتيحت له الفرصة استطاع أن يمنع ويصدَّ جموع الفيالق الروسية دون الاستيلاء على «سيلستري»، وأن يقطِّع إربًا إربًا بالفرات في واقعة «نصيبين» جيشًا كان ضعفيه عددًا، وفي عهد قريب في «أوائل حكم إسماعيل باشا» تجلَّت تلك الروح العسكرية بأوضع المظاهر في اللواء المصري الذي أرسله إلى فرنسا عزيز مصر سعيد باشا ليكون في حملة المكسيك، وأقرَّه على ذلك خلفه إسماعيل باشا.

«فإن دلائل التفوق وشهادات الفخار العسكرية والنياشين التي اختُصَّ بها عدد عظيم من ضباط وعساكر هذا اللواء في غنى عن كل شرح وبيان — راجع مذكراتنا الإيضاحية بآخر الكتاب رقم ٣.

وإلى القارئ ما ورد في تلك المذكرة ملخَّصًا عن ست صفحات:

«لا يُقرأ بدون اهتمام ذلك التقرير الذي أصدرته القيادة العليا الفرنسية «بفيرا كروز» عن واقعة ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣، التي اشتبكت فيها فصيلة من أورطة سودانية

[٢] كتاب «مصر في عهد إسماعيل» ص١٧٠ و١٧١.

مصرية، فلقد كان لثبات هذه الفصيلة الصغيرة وشجاعتها أعظم تأثير في الانتصار في هذه الواقعة، وقد قدَّر ذلك القائد الفرنسي حق قدره بعبارات تغنينا عن الشرح، فهي وحدها كافية للدلالة على قيمة موقف هذه الفصيلة المشرف للجندي المصري، وإليك بعض ما جاء بهذا التقرير:

> وفي ٢ أكتوبر سنة ١٨٦٣، عند الساعة السابعة صباحًا، تحرك القطار الحديدي من محطة «فيرا كروز» قاصدًا «صولداد»، وكان هذا القطار في حراسة أربعة عشر جنديًّا، سبعة من البلوك البحارة الوطنيين من جزائر الهند الغربية «أنييلس»، وسبعة من الأورطة السودانية المصرية، وهذه أسماؤهم:
>
> بخيت بدرين أومباشي، بيتال حماد، وأيتوم سودان، وإبراهيم عبد الرحمن، ومحمد عبد الله، وعمر محمد، ومحمد علي، وعند اتجاه القطار لجهة «تيجريا» فوجئ الركاب بإطلاق الرصاص من الجانبين، وتحولت المركبات عن خط السكة الحديدية، وفي وقت الفزع الشديد والاضطراب الذي شمل جميع الركاب نزل السبعة السودانيون المصريون بقيادة بخيت بدرين — وهو اسم يكثر عند الدنكا — وحملوا أسلحتهم ووقفوا مدة إلى جانب العربات بكل ثبات، منتظرين اكتشاف مكامن الثوار الذين كانوا يكمنون في المرتفعات المحيطة بهم، ولما خفيت مواقعهم على القائد ولم يستطع لهذا السبب أن يأخذهم من ظهورهم بحركة التفات، بادر بإصدار أمره بالتقدم لمهاجمة الثوار في معاقلهم المرتفعة، ولكن حالت كثافة الحشائش والأشواك في الطريق دون تحقيق ذلك، فتحصنوا بعربات القطار، وأصلَوْا الثوار نارًا حامية، ودام إطلاق الرصاص من الجانبين مدة كبيرة.
>
> ولما وقع القائد «لي جيه» صريعًا في ميدان القتال تقدَّم «بتال حماد» «وهو اسم يكثر بين الشلك» محاولًا حمله وإدخاله إلى العربة، فأصيب في رأسه إصابة مميتة، فتقدم «بخيت بدرين» و«أيتوم سودان» وبادرا بحمل القومندان — الذي كان لا يزال فيه بقية نفس — إلى العربة، ثم حملا بعده مواطنهما الشهم شهيد الواجب. ثم تولى القيادة الضابط الفرنسي «شير» الذي أرسل يستخدم بالقوة المصرية المعسكرة في «تجريا»، وأخبر القيادة العليا «بفيرا كروز» بالحادثة، وقد وَجِل الثوار من شدة فتك نيران الجنود السودانية المصرية من أن تهاجمهم جسمًا لجسم، وتقاتلهم يدًا بيد، ولكن

هؤلاء الجند لم يمكنهم تحقيق غرضهم، وردوهم مرات على أعقابهم، وقد قَتل الجندي «أيتوم سودان» «ويكثر هذا الاسم بين أهالي منجلا» بنفسه اثنين على بضع خطوات منه.

ودارت رحى القتال بشدة أكثر من ساعة، حتى كادت الذخيرة أن تنفد، وعند ذلك لوحظ هدوء طلقات الثوار، ثم انتهى بعد قليل بالسكوت المطلق، فظن القائد أن ذلك خدعة، وانتظر بضع دقائق حتى تقدَّم جندي هندي «أنتيلي» للاستكشاف، وما لبث أن عاد مخبرًا بتفرق الثوار وجلائهم عن أماكنهم بعد جسامة خسائرهم وعلمهم بتقدم المدد المصري من «تيجريا» عدوًا على الأقدام؛ مخافة أن يقعوا بين ناري المصريين.

وكانت الخسائر في هذه المعركة ثلاثة قتلى: القومندان «ليجيه»، و«بيتال حماد»، ومكسيكي من الركاب، والجرحى بجروح خطيرة، والمسيو ليون مدير السكة الحديدية، والراهب سافلي، وأحد العساكر، وجرح بجروح أقل خطورة: «شيرر»، وتسعة من العساكر الركاب، والملازم الثاني «بوتناي»، وسيدة مكسيكية.

واختتمت القيادة العليا تقريرها بما يأتي:

لقد أبلى الجنود السبعة المصريون في هذه الموقعة أعظم بلاء، وثبتوا ثباتًا مدهشًا فوق التصور، والكل كان موضع إعجاب الضباط والعساكر الذين حاربوا معهم جنبًا لجنب، وليس ثمَّت شك في أن أكبر فضل في هذا الفوز راجع إلى مقاومة أولئك الجنود مقاومة قوية عنيفة، أوجبت إعجاب القيادة، بعد أن علمت أن عدد الثوار كان يبلغ نحو الثلثمائة مقاتل بين راكب وراجل.

ولذلك رأينا ترقية وكيل الأومباشي بخيت بدرين إلى درجة شاويش، وترقية كل من أيتوم سودان، وإبراهيم عبد الرحمن، ومحمد عبد الله، وعمر محمد، إلى رتبة أومباشي، وفوق هذا أطلب لبخيت بدرين وأيتوم سودان «الميدالية العسكرية» من الإمبراطور.

وهذه المكافآت قد أعطيت لهم في أول مارس سنة ١٨٦٤ بيد القائم العام للحملة، وعقِّب ذلك بإمضاء القومندان العام للحملة الفرنسية بالمكسيك:

هـ. ماريشال

وذيِّل بإمضاء:

قومندان أوريزايا

دولسيون لواء

حرر بفيرا كروز ٢٤ مارس سنة ١٨٦٤

(٣) زيارة سعيد باشا للسودان

وقد اهتم سعيد باشا بأمر السودان، وعيَّن علي شركس باشا حكمدار للسودان، وندب سعيد باشا أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على إدارة السودان، ثم زار سعيد باشا السودان ومعه راغب باشا، وذو الفقار باشا، والدكتور أباته باشا، وإبراهيم النبراوي بك، وأراكيل بك أخو نوبار باشا، ومسيو فردينان دلسبس.

وقد وصل سعيد باشا إلى الخرطوم في ١٦ يناير سنة ١٨٥٧، وقد خطر بباله إخلاء السودان؛ نظرًا لمتاعب إدارته وكثرة نفقاتها، وبَرَمِ الأهالي بالضرائب التي تتقاضاها الحكومة منهم، وقد استقبل الأهالي سعيد باشا بالحفاوة، ورفعوا إليه ظلاماتهم، وأصغى إليها، ولمَّا علموا بتفكيره في إخلاء السودان، التمسوا منه عدم تحقيق هذه الفكرة، قائلين إن إخلاء السودان سيترتب عليه عودة الفوضى إليه، و«ونحن عبيد أفندينا».

فقبل رجاءهم وعدل عن الإخلاء، وأمر بإعفاء الأهالي من المتأخر عليهم من الضرائب، وخفضها وجعل تقديرها على أساس أن تتبع عدد السواقي في الأطيان؛ لأن السواقي تدل على مبلغ خصوبة التربة ومحصولها، ففرض ٢٠٠ قرش على الأراضي التي تروى من ساقية واحدة، وفرض ضريبة تتراوح بين ٢٠ و٢٥ قرشًا على الفدان في الأراضي التي تروى بالأمطار، وفصل الموظفين الترك الذين أساءوا معاملة الأهالي، وعاقب الموظفين المذنبين، وأمر المديرين بحسن معاملة الأهالي وإقامة العدل بينهم، وبتعويد الأهالي حكم أنفسهم بإنشاء مجالس عرفية من نظار القبائل ورؤساء العشائر والأسر المحترمة.

وجعل جباية الضرائب منوطة بغير الجنود، وأنشأ محطات صحراوية لنقل البريد بين مصر والسودان، ونظم البريد، وأقام معسكرًا على نهر السوباط لمنع تجارة الرقيق، وبعد عودته إلى مصر ندب موجيل بك — كبير المهندسين — لتسهيل المواصلات بين

حلفا والخرطوم، فوضع موجيل بك مشروع إنشاء سكة حديدية بين هاتين المدينتين، ولكن لم ينفذ المشروع لكثرة نفقاته، وألغى سعيد باشا منصب حكمدار السودان، وجعل السودان يتألف من خمس مديريات، كل منها تتبع نظارة «وزارة» الداخلية بالقاهرة مباشرة، وعين أراكيل نوبار بك مديرًا لمديرية الخرطوم وسنار، وبعد أن توفي أراكيل بك خلفه حسن سلامة بك، ثم محمد راسخ بك.

على أن إلغاء منصب «حكمدار السودان» قد ترتَّب عليه جنوح المديرين إلى الاستبداد، فأعاد سعيد باشا هذا المنصب، وعيَّن فيه موسى حمدي باشا، الذي عيَّن من الأهالي نظارًا للأقسام «أي: مأموري مراكز» ومعاونين، ومجالس، ونظم جباية الضرائب.

(٤) النظام القضائي في السودان

بقي النظام القضائي كما كان في عهد محمد علي، وظل للمحاكم الشرعية اختصاصها في المسائل الخاصة بالأحوال الشخصية ونقل الملكية، وأنشئت محاكم جديدة للفصل في الخصومات المدنية والتجارية، ودعيت باسم «مجالس الأقاليم»، وكان عددها أولًا خمسة: أربعة في مصر، هي: مجلس طنطا، ومجلس سمنود، ومجلس الفشن، ومجلس جرجا، ومجلس الخرطوم ويفصل في المنازعات التي تقع في السودان.

وكان كل مجلس يتألف من رئيس وأربعة أعضاء وأربعة كُتاب، عدا مجلس سمنود فإنه كان يتألف من رئيس وعضوين، وعيِّن لكل مجلس اثنان من العلماء يحمل كل منهما لقب مفتي، أحدهما للمذهب الحنفي، والآخر شافعي. وكان مجلس الأحكام والمجلس الخصوصي يُصدران القوانين واللوائح وتطبقها مجالس الأقاليم، وكان مجلس الأحكام معدودًا أعلى هيئة قضائية وهيئة تشريعية في الوقت ذاته.

الفصل الخامس عشر

السودان في عهد إسماعيل

إسماعيل باشا خديوي مصر من سنة ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٧٩.

الخديوي إسماعيل باشا هو ابن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، ووالد المغفور له محمد توفيق باشا الخديوي الأسبق، والمرحوم السلطان حسين كامل الأول، وحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول.

ولد إسماعيل باشا في ٣١ ديسمبر سنة ١٨٣٠ في قصر المسافرخانة بحي الجمالية بالقاهرة، وتعلَّم اللغات العربية والتركية والفارسية ومبادئ العلوم، ثم أرسله والده إلى فيينا عاصمة النمسا وكانت سنه ١٤سنة، وبعد، سافر إلى باريس، وكان عضوًا في البعثة المصرية المدرسية الخامسة مع أخيه الأمير أحمد رفعت، ومع الأميرين عبد الحليم وحسين من أنجال محمد علي، وتعلَّم في باريس الهندسة والعلوم الطبيعية والرياضية، وأتقن اللغة الفرنسية، وكان كثير الذكاء طموحًا.

وقد أحب الحياة الأوربية والحضارة الغربية، واعتزم أن يجعل من مصر بلدًا يشبه أوربا علمًا ومُلكًا وإدراة وقضاء،[1] وقد سافر إلى إستانبول «الأستانة»، وعينه السلطان عبد المجيد عضوًا بمجلس أحكام الدولة العثمانية التركية، وكان ذلك في عهد عباس الأول، ثم عاد من الأستانة في عهد عمه سعيد باشا الذي عينه رئيسًا لمجلس الأحكام في مصر، وكان هذا المجلس أكبر هيئة قضائية في البلاد، وقد نُدب إلى باريس، وقابل البابا في روما في بعض المهام السياسية.

وكانت القاعدة في نظام التوارث في العرش في مصر — طبقًا للنظام الذي وضعه محمد علي باشا — أن يلي الحكم الأرشد فالأرشد سنًّا من أعضاء بيت محمد علي، وكان لإسماعيل باشا أخ أكبر منه، هو «الأمير أحمد رفعت»، وبذلك كان هو الأحق بولاية العرش، إلا أنه توفي سنة ١٨٥٨ في أثناء سفره بالسكة الحديد عند كفر الزيات؛ حيث سقطت العربة في النيل ومات الأمير أحمد رفعت في النيل، وأصبح إسماعيل باشا ولي العهد، وعيِّن رِدفًا «قائمقام» لسعيد باشا في أثناء غيابه عن مصر، وعيَّنه سردار الجيش المصري، وكُلِّف بإخماد فتنة أثارتها قبائل في السودان، ولما مات سعيد باشا في ١٨ يناير سنة ١٨٦٣، خلفه ولي عهده إسماعيل باشا.

كانت أهم أعمال إسماعيل باشا توسيع استقلال مصر داخليًّا عن تركيا، والحصول على لقب خديوي بالفرمان السلطاني الشاهاني في ٨ يونية سنة ١٨٦٨، والاحتفال بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩، وزاد في عهده النفوذ الفرنسي والإنجليزي في مصر؛ بالمعاهدات، وبعقد القروض التي بلغت ١٢٦٣٥٤٣٦٠ جنيهًا إنجليزيًّا، ثم توسيع

[1] قال إسماعيل في حديثه مع السير ريفرس ويلسون في ٢٣ أغسطس سنة ١٨٧٨، بعد اطلاع سموه على تقرير لجنة التحقيق: «إن بلادي لم تعد في إفريقيا، بل نحن الآن قطعة من أوربا» — «الكتاب الأصفر الفرنسي سنة ١٨٧٨».

حدود مصر في السودان، ولم تشهد مصر في تاريخها القديم والحديث توسيعًا منظمًا ووطيدًا في السودان كما شهدت في عهد إسماعيل، الذي تعد فتوحه وبعثاته الكشفية في السودان من محاسن حكمه.

وصلت حدود السودان في عهد محمد علي إلى البحر الأحمر شرقًا، ومعها إقليم التاكا «كسلا شرقي نهر عطبرة»، وعند حدود الحبشة إلى القضارف والقلابات، ومعها سواكن ومصوع، وجنوبًا إلى جزيرة جونكر المواجهة لمدينة غندكرو على النيل الأبيض.

(١) فتح فاشودة سنة ١٨٦٥

تقدمت الجنود المصرية في عهد جعفر صادق باشا حكمدار السودان، واحتلت فاشودة سنة ١٨٦٥، وأقامت بها معسكرًا.

وتقع فاشودة عند ملتقى الطرق المختلفة من الخرطوم والحبشة إلى جنوب السودان، وبالقرب من ملتقى روافد النيل كالسوبات، وبحر الغزال، وبحر الزراف. وفاشودة نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم خط الاستواء، وبعد إعادة السودان بقيادة كتشنر باشا سميت باسم كودك، وسميت مديرية فاشودة باسم مديرية النيل الأعلى، أو أعالي النيل.

وقد حصل إسماعيل باشا بفرمان سلطاني في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٠ على ضم قائمقاميَّتَي سواكن ومصوع إلى حكمه، وقد كانتا في عهد محمد علي في حدود السودان وتحت حكمه، إنما بقيتا من أملاك الدولة التركية العثمانية، مقابل استئجارهما منها بدفع مبلغ سنوي قدره ٢٥ ألف جنيه إلى السلطان التركي، وقد جعل إسماعيل باشا كلًّا من مصوع وسواكن محافظة، وكانت محافظة سواكن تبدأ من رأس علبه إلى رأس قوصار، ومحافظة مصوع من رأس قوصار إلى حلة رهيقة عند بوغار باب المندب.

وقامت مصوع على جزيرة في البحر الأحمر، فأنشأ إسماعيل باشا جسرًا طوله ١٨٠٠ متر، وعرضه ١٠ أمتار، سنة ١٨٧٢ بينها وبين اليابسة، وشيَّد بها قلعة ومباني للحكومة وموظفيها، ومدت ترعة إليها، وبقيت محافظتا سواكن ومصوع ملكًا لمصر حتى قامت الثورة المهدية ووافق الخديوي توفيق باشا على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤، فبادرت إيطاليا بانتهاز الفرصة واحتلت محافظة مصوع سنة ١٨٨٥، وأصبحت مع

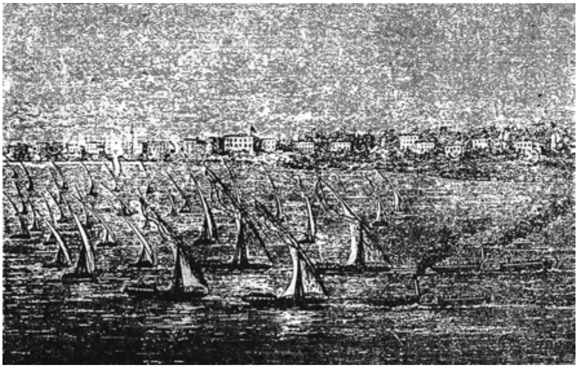

الأسطول النيلي الذي تحرك من الخرطوم يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ لفتح إقليم خط الاستواء، وكان مؤلَّفًا من ثلاثين سفينة شراعية وباخرتين.

أرض أخرى تدعى مستعمرة الأريتريا، وأصبحت سواكن بعد اتفاقية سنة ١٨٩٩ محافظة تابعة لحكومة السودان، وهي في الوقت الحاضر مركز.

وفي عهد إسماعيل باشا تم فتح إقليم خط الاستواء ومملكة أونيورة، وبسطت مصر حمايتها على مملكة أوغندة، وفتحت مديرية بحر الغزال وسلطنة دارفور، وعند حدود الحبشة والبحر الأحمر امتدت الحدود فضمت سنهيت وبلاد البوغوص، وإلى بوغاز باب المندب، وضمت محافظتي زيلع وبربرة على خليج عدن، وفتحت سلطنة «هرر» في الجنوب الشرقي للحبشة، ودخلت سواحل الصومال الشمالية في أملاك مصر السودانية إلى رأس «جوردفون» على المحيط الهندي، ثم إلى رأس حافون، وبذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصري جنوبًا إلى بحيرة ألبرت وبحيرة فيكتوريا، وشرقًا إلى البحر الأحمر وخليج عدن، وغربًا إلى حدود واداي. وقد بيَّنَّا هذه الفتوحات في البعثات الكشفية والحملات العسكرية بقيادة السير صمويل بيكر وغيره من رجال الجيش المصري المظفَّر في هذا الفصل، وقد نشرنا خريطة «للسودان في عهد إسماعيل — في الفصل التاسع عشر، باب الحكم المصري في السودان».

نقل أجزاء البواخر النيلية على ظهور الإبل من مصر إلى السودان في صحراء النوبة استعدادًا لفتح إقليم خط الاستواء.

السير صمويل بيكر واللادي بيكر.

(٢) غوردون باشا

عيَّن الخديوي إسماعيل باشا — بترشيح الحكومة الإنجليزية بصفة غير رسمية — الكولونيل غوردون مديرًا في مديرية خط الاستواء في يناير سنة ١٨٧٤، خلفًا للسير صمويل بيكر الذي كانت إدارته تابعة لحكمدار عموم السودان، أما الكولونيل غوردون

فقد عُيِّن مديرًا لخط الاستواء، على أن يكون مستقلًّا في إدارته عن حكمدار السودان، إسماعيل أيوب باشا يومئذ. وكان غوردون في القاهرة قبل تعيينه بشهرين، ووصل الكولونيل غوردون إلى الخرطوم وقد طلب من حكمدار حكومة السودان أن يعدَّ له أربعة بلكات من عساكر الجهادية أبناء العرب، مسلَّحين بسلاح رمنتن، معهم ضباطهم، وكان الكثيرون من الضباط وصف الضباط غير مرتاحين لمرافقة الكولونيل غوردون في حملته العسكرية في خط الاستواء؛ لبعد المسافة، وخطر الأوباء، والخوف من سكان خط الاستواء المعروفين بالبأس والقسوة، على أن غوردون قد لحظ أن الجنود المختارين لمرافقته كانوا أقل جنود الجيش كفاية، فشكى إلى الخديوي إسماعيل باشا اختيار إسماعيل باشا أيوب للجنود، فأرسل الخديوي تلغرافًا إلى أيوب باشا بتوبيخه وبإلزامه بانتخاب أفضل الجنود لمرافقة الكولونيل غوردون في خط الاستواء.

وممن رافقوا الكولونيل غوردون في حملته «إبراهيم فوزي»، وكان برتبة الأسبيران — وكانت هذه الرتبة من رتب الجيش تقع بين الصف الضابط والملازم الثاني — وقد أصبح إبراهيم فوزي فيما بعد «اللواء إبراهيم فوزي باشا»، كما سيجيء الكلام بعد.

غوردون باشا.

أقام الكولونيل غوردون عند وصوله إلى الخرطوم في سراي الحكومة، في الجانب الشرقي من مدينة الخرطوم، في قصر راسخ بك، وأعدت لحملته أربع بواخر نيلية، وهي: «بوردين» و«تلحوين» و«الصافية» و«المنصورة»، كان عليها البلكات الأربعة وسلاحها، أما غوردون فقد استقل الرفاص المسمى «خديوي»، وكان معه إبراهيم فوزي. وبعد سبعة أيام وصل «غوردون»[٢] ومن معه إلى «فاشودة»، فقابلهم مديرها المرحوم يوسف حسن كوردة بك بالحفاوة، وكان أهالي فاشودة من العبيد الشلك والنوير والدنكة، مطمئنين إلى الحكم المصري، وبعد يومين سار «غوردون» من فاشودة إلى محطة «سبت» أو «سوباط»، وهي محطة على مقربة من نهر «سبت» الذي يجيء من الحبشة، وتبعد عن فاشودة ١٨ ساعة بالبواخر النيلية. وقد أنشأ خندقًا بمحطة سبت وطوابي ومركزًا للحكومة، وعيَّن اليوزباشي محمد أحمد محافظًا على محطة سبت، وأمره بمنع تجارة الرقيق، ثم سار إلى جبل الرجاف وغندكرو ومدخل بحر الزراف، ثم وصل إلى مشرع[٣] الرق حتى مديرية شكا، حيث كان النهر مغطى بالأعشاب الكثيفة.

وقد وزَّع غوردون الهدايا والعطايا على رؤساء الأهالي، ثم وصل ومن معه إلى ميعة شامبي بك، وعليها مشرع يدعى «غابة شامبي»، وكان بها تجار كبار مثل: أبو عموري، وكوجك علي، وغطاس وغيرهم، يتَّجرون بسن الفيل، وكان شيخ المشرع يدعى الشيخ الحداد، وقد أحسن استقبال غوردون ومن معه. ورست البواخر هناك، وحفر الجند خندقًا، وأنشأ مركزًا، وعيَّن اليوزباشي مصطفى فتحي مع بلكه مأمورًا «لشامبي بك»، وأمره بمعاملة الأهالي بالرفق وبمنع تجارة الرقيق، وأبلغ الأهالي أنهم أصبحوا تابعين للحكومة الخديوية، ثم سافر إلى الرجاف مارًّا بمحطة بور، التي كان بها ٤٠٠ من العساكر المسلحة المأجورة للتجار، وقد أعلنهم غوردون بأنهم أصبحوا تابعين للحكومة الخديوية، ثم أنشأ مديرية بور، وعيَّن الضابط السوداني آدم عامر أفندي، الذي كان من رجال السير صمويل بيكر «بيكر باشا»، وكيلًا للمديرية. ثم سار غوردون إلى جبل الرجاف وغندكرو، واستقبلهم المدير رءوف بك «باشا»، وقد شكا رءوف بك إلى غوردون من كثرة حوادث القبائل وفتنها.

[٢] السودان بين يدي غوردون وكتشنر — إبراهيم فوزي باشا.

[٣] المشرع: أماكن للتجارة على شكل مربع من عروق الأشجار، يقيم فيها التاجر أو وكيله ومعه حراس مسلحون للدفاع ولجلب الرقيق، وقد دفع الخديوي إسماعيل تعويضات لأصحاب المشارع ليتخلوا عنها.

فقال له غوردون: «إن السبب في ذلك هو سوء إدارتك، وأنه لا داعي لبقاء كل هذه الجنود كلها معك، ويكفي خمسون رجلًا»، وفي الحال أمر غوردون أن يحضر مشايخ القرى ونظار القبائل، وخاطبهم غوردون بكلام ليِّن، ووزَّع عليهم الكساوي الحمراء والسيوف البيضاء ففرحوا، وترك بينهم خمسين شخصًا، وقال لهم: إن الخمسين جنديًّا قد تركتهم لحراسة علم الحكومة الخديوية، ولإظهار سلطتها، وأنتم المسئولون عن كل مايحدث، فقالوا: «إننا عبيد أفندينا والحكومة الخديوية، ونحن لا نقوم في وجهها ما دمنا نُعامَل بالعدل ولا يقع علينا ظلم.» ثم عزل غوردون رءوف بك وعيَّن مكانه القائمقام الطيب عبد الله بك، وكان بكباشي أول الآلاي، وهو رجل سوداني من قبائل العبيد، ثم نقل الطيب عبد الله بك مديرًا إلى اللادو، وعبد الله أغا الدنسوي، وهو من ضباط الجهادية السود، مديرًا للرجاف.

واستمر غوردون ومعه ٦٠٠ جندي من العرب والسودانيين والمصريين إلى شلال «مقى»، وقد تعرضوا إلى هجوم الأهالي، الذين دقوا الطبول وصاحت الأبواق وهجموا بالنبال والنشاب السامة، وبالنيران، ولكن العساكر هزمتهم، ووصل غوردون إلى بحيرة نيانزا، وأقام شهرين في اللادو، وعاد إلى الخرطوم. وقد نظم غوردون ديوانًا لخط الاستواء في الخرطوم منفصلًا عن حكمدارية السودان، ثم عاد من الخرطوم إلى خط الاستواء، ونال إبراهيم فوزي رتبة صوغول أغاصي «ملازم أول»، ووصل غوردون إلى جبل «اللادو» و«ماقنقوا»، ووزع غوردون الهدايا، وجرد حملة إلى جهة مرولي وفتحها، وأعلن أنه حاكم قد جاء باسم الحكومة المصرية لتعميم المدنية وفتح البلاد للتجارة، وطلب إلى الملك أمتيسة الخضوع، فأرسل الملك إليه رسولًا يبلغه أن الملك «أمتيسة» قوي، وقوته أكبر من قوة الحكومة المصرية، وقال الرسول لغوردون: «إنَّا رضوان بحالتنا، ولم نشكُ إليكم شيئًا، ونحن في غنى عن مدنيتكم التي تحرمنا نعيمنا واستقلالنا الذي نتمتع به.»

غير أن غوردون جنح للسلم وطمأن أمتيسة، وخضع أمتيسة وقَبِل إنشاء محطة عسكرية في مرولي، وكان الملك أمتيسة يلبس القباطي الحريرية من صنع زنجبار، وعلى رأسه عمامة كأهل مكة، وفي رجليه الجوارب والنعال الحرائر، وقد أظهر أمتيسة خضوعه للحكومة، وقد طلب غوردون من مصر إرسال عربة لركوب الملك أمتيسة

وإهدائها له، وهي العربة التي استولى عليها عبد الله التعايشي فيما بعد، ويعد «أمتيسة» أقوى حكام الجنوب.

ثم دعا غوردون الملك أمتيسة للدخول في الإسلام، وأرسل إليه اثنين من العلماء، واثنين من الحلَّاقين لعملية الختان، وعند وصولهم كان مع الملك أمتيسة أربعة من المبعوثين البروتستانت وصلوا من الزنجبار، ولما علم أمتيسة أن غوردون دينه مسيحي بروتستانتي، وظن أن المبعوثين من ناحية غوردون، أهمل الفقيهين والحلاقين حتى كاد الجوع يقتلهم فعادوا.

وكان الملك أمتيسة منافقًا عنده علمان: المصري والإنجليزي، فإذا حضر إليه مصري قال إنني تابع للحكومة المصرية، ورفع العلم المصري على داره، وإن كان الزائر إنجليزيًّا رفع العلم الإنجليزي، وقال إنني خاضع لسلطة الإنجليز، وأخيرًا رفع العلم الإنجليزي. وقد ترك غوردون مديرية «مرولي»، وعدَّها آخر الحدود، وعين القائمقام محمد إبراهيم بك — وهو من مواليد السودان وشهرته «ابن جمعية» — مديرًا لها.

ثم غادر غوردون إلى مركز اللادو، واستقبله الأهالي فرحين مغتبطين، فقد تخلصوا من سلطة التجار أصحاب الكبابين «الشركات» المستبدين، وقد علم غوردون عندما وصل إلى اللادو بأنه في «اللاتوكة» التي تبعد عن غندكرو مسير ١٢ يومًا — زرائبُ[٤] السيد أحمد العقاد والتجار الآخرين — يضايقها العبيد وحاصروها، فأرسل غوردون حملة بقيادة الصاغ محمد أغا عبد الكافي — وأصله من ضباط الجهادية السود — فأنقذهم، وقد أسس غوردون نقطًا عسكرية منها: سوباط، والناصر، وشمبا، ومكركة، وبور، واللاتوكة، واللادو، والرجاف، والدفلاي، وفاتيكو، وفويرة، ولابوري، وبحر الجبل، ومرولي، وترك فيها ٦٤٠ عسكريًّا سودانيًّا و١٥٠ جنديًّا مصريًّا و٦٥٠ من الباشبوزق الدناقلة والجعليين. وصحب غوردون الكولونيل لونج الأمريكي والدكتور أمين وجيسي الإيطالي والكولونيل بروت وابن لينان باشا.

[٤] الزريبة: فضاء مسوَّر به مساكن، وتودع به السلع والأمتعة والخيل والماشية، وقد أدى فتح محمد علي للسودان إلى كثرة ورود التجار السوريين واللبنانيين، ومن أسيوط والقاهرة، وتوغلهم في الجنوب الذي لم يكن قد فتح، وإنشائهم زرائب ومشارع، وإنشائهم قوات وطنية مسلحة لحماية تجارتهم.

تاريخ حياة غوردون

ولد غوردون في مدينة ولوتش بإنجلترا سنة ١٨٣٣، وانتظم في الجندية سنة ١٨٥٢، وهو من أسرة اشتهرت بالجندية، وكان أبوه فريقًا في المدفعية الإنجليزية، وقد اشترك مع الجيش الإنجليزي في حصار «سيبتسبول» سنة ١٨٥٥، وفي سنة ١٨٦٠ سافر إلى الصين واشترك في الجيش الصيني، ونال من سلطان الصين لقب صاري عسكر، وفي سنة ١٨٦٥ عاد إلى الجيش الإنجليزي، فرقِّي فيه إلى رتبة كولونيل، وبقي هناك حتى عيِّن مديرًا لمديرية خط الاستواء، وهذه صورة الأمر العالي الذي أصدره الخديوي إسماعيل باشا بتاريخ ٢ محرم سنة ١٢٩١ هجرية، الموافق ١٩ فبراير سنة ١٨٧٤ ميلادية، نمرة ٩١ سايرة:

> إنه بحسب المشهور فيكم من اللياقة والأهلية قد عيَّناكم مأمورًا على جهات خط الاستواء التابعة للحكومة، وصار فرز هذه الجهة من تبعية حكمدارية السودان، وصارت قائمة بنفسها غير تابعة للحكمدارية، إنما كافة لوازماتها التي يقتضي الحال لتداركها من طرف الحكمدارية هذه يجري تداركها بمعرفة الحكمدار، وصرف ثمنها من طرفه مقابلة محاسبة المالية بذلك. كما أمرنا الحكمدار المولى إليه بأمرنا الصادر له في تاريخه، ومرسول لكم، طي هذا لتوصيله إليه عن يدكم
>
> وبما أن أمور التجارة في ذاك الطرف هي واحدة، يقتضي أن الذي يتحصَّل عليه من تلك الجهات من أنواع التجارة بعد صرف كفاية مرتبات العساكر والتعيينات ترسلوه إلى حكمدار السودان؛ لقبوله من أصل ما يصرفه في أثمان اللوازمات التي تطلبوها منه، وعند وصولكم الآن لتلك الجهات واختباركم أحوالها، تجروا ترتيبها بحسبما يتراءى لكم وتستحسنوه، سواء كان بإجعال مدير يتعيَّن، أو إجعال أقسام أو نحو ذلك، مما يتوصل به انتظام الجهات المذكورة واستعدادها مع معاملة أهاليها بالرفق، ولين الجانب، والتأليف، والمراعاة لما فيه عماريتهم، وترغيبهم وتشويقهم على

العمارية، ودخولهم في سلك الإنسانية شيئًا فشيئًا، وهكذا مما يلزم، أجروه على حسب التعليمات التي أعطيت لكم بالفرنساوي.

وها هو موجود هناك رءوف بك قومندان العساكر الموجودة بذاك الطرف، وتحرر أمرٌ من طرفنا ومرسول طيه لتوصيله له بمعرفتكم، وأمرناه به أن يكون هو والعساكر تحت أمركم فيما يجب إجراؤه في صالح المصلحة، ولو أن المومى إليه ومن معه من العساكر صار لهم مدة زائدة في تلك الجهات، وذلك منظور في إرسال خلافهم من هذا الطرف لتغييرهم، لكنه في مسافة إرسال البدل يكون المومى إليه والعساكر منقادين لأوامركم حسب أصول قوانين الجهادية، وعلى هذا وما هو منظور لنا فيكم من حسن الغيرة والأهلية مؤملين الاستحصال على ما فيه عمارية جهات خط الاستواء المحكي عنها، وراحة أهاليها، وحسن توطينهم، وتأليفهم على الدخول في سلك الإنسانية شيئًا فشيئًا كما هو مطلوبنا.

حاشية

إنه بعد توجُّهكم ووصولكم ذلك الطرف تعملوا الترتيب اللازم عن مصاريف تلك الجهة بحسبما يلزم لها من الخدمة والعساكر، وكل ما يلزم تداركه وإرساله من جهات الحكمدارية على حسب الترتيب المذكور فاطلبوه من الحكمدارية، وتعينوا له الأوقات والمواعيد اللازم تدارك وإرسال اللوازمات المذكورة فيها، بحيث إذا كانت الإيرادات — على فرض — لا تكفي المصروفات فالحكمدار يرسل لكم كلما تطلبوه، ويحاسب ديوان المالية بذلك يكون معلوم.

استقالة غوردون باشا

وبقي غوردون حتى سنة ١٨٧٦، فاستقال من منصبه وعاد إلى مصر، ومنها إلى إنجلترا، تاركًا الكولونيل بروت من أركان حربه وكيلًا على خط الاستواء، ثم خلفه أمين بك، واسمه الأصلي «إدوارد شنيتزر» الألماني ببروسيا، وحصل على دكتور في الطب.

غوردون حكمدار السودان

بعد أن استقال غوردون وعاد إلى إنجلترا، ما لبث أن عيَّنه إسماعيل باشا — بتوصية الحكومة الإنجليزية — حكمدار عامًّا للسودان سنة ١٨٧٧، وقد بقي في هذا المنصب حتى سنة ١٨٧٩، وقد أصدر الخديوي إسماعيل باشا أمرًا عاليًا في ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧ «بالولاية لغوردون باشا على جميع بلاد السودان المصرية مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر وهرر، ومع منحه السلطة العسكرية والمدنية، وإعطائه سلطانًا على القتل والعفو، ومنع دخول أحد إلى السودان إلا بإذنه وولجه منع تجارة الرقيق، وتحديد التخوم بين السودان والحبشة»، وكان غوردون كثير الاهتمام بمنع تجارة الرقيق، وبجعل العاج احتكارًا للحكومة.

على أن مهمة غوردون باشا كانت شاقة، خصوصًا لأن تجارة الرقيق ومحصول العاج كانتا في أيدي كبار التجار الأقوياء. قال نعوم شقير بك في كتابه «تاريخ السودان» إن «غوردون لم يلبث أن رأى خطارة المركز الذي تولاه وتعذُّر النجاح؛ نظرًا لعدم تيسر الأيدي اللازمة للعمل، واتساع أطراف السودان، ومشقة السفر في بلاده برًّا وبحرًا، مع قلة الجيوش اللازمة لحمايته بعد أن ذهب قسم منها لمساعدة الدولة العلية في حرب الروس، ونهك الباقي حرب الحبشة، فقضى غوردون في السودان سنتين ونيفًا وهو يتنقل من مكان إلى مكان، تارة بالبر وتارة بالبحر، متممًا كل ما أمكنه من الإصلاح، حتى أعياه التعب، وقاومته السياسة فاضطر إلى الاستعفاء»، وقال شاييه لونج بك: «إن أمر غوردون باحتكار الحكومة محصول العاج قد أثار تجار السودان على الحكومة، وهؤلاء التجار كانوا سادات السودان الحقيقيين، فكان هذا العمل النواة الأولى للثورة.»

وقد استعان غوردون باشا في إدارة السودان بفريق من الأجانب، فعيَّن مسيداليا بك الإيطالي مديرًا للفاشر «دارفور»، وجيسي باشا الإيطالي مديرًا لبحر الغزال، وفردريك روسي قنصل ألمانيا في الخرطوم مديرًا لدارفور، وشارل ريجوليه الفرنسي مديرًا لداره، وإميلياني مديرًا لكبكبيه، والدكتور زوربخين مفتشًا للصحة، والضابط سلاتين «النمساوي» مفتشًا للمالية — وقد عرف فيما بعد باسم سلاتين باشا — وجيكلار باشا النمساوي مديرًا عامًّا لمنع تجارة الرقيق.

وعين إبراهيم فوزي بك «باشا» مديرًا لخط الاستواء بدلًا من الكولونيل بروت الأمريكي، ثم أقاله وعيَّن الدكتور «شنتزر الألماني»، وهو الذي عرف — بعدئذ — باسم أمين باشا.

وقد وقعت في عهد غوردون باشا ثورات داخلية، من ذلك: ثورة السلطان هارون الرشيد ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل، بايع أهالي دارفور هارون المذكور سلطانًا في أوائل سنة ١٨٧٧، وجرَّدت الحكومة المصرية عليه حملات عسكرية تمكَّنت بعد وقائع كثيرة من قتله.

وثار سليمان بن الزبير باشا في بحر الغزال سنة ١٨٧٧؛ انتقامًا لإبعاد أبيه الزبير باشا من السودان إلى مصر، فأرسل غوردون حملة عسكرية بقيادة جيسي باشا هزمت سليمان وقتلته في يولية سنة ١٨٧٩.

وثار «صباحي» أحد قواد جيش الزبير في ٤٠٠ شخص، وأغار على الأبضية في كردفان، وقتل مأمورها وفر إلى جبال النوبة، فعلم به غوردون وهو ذاهب إلى دارفور في المرة الثانية في مارس سنة ١٨٧٩، فأرسل من الأبيض نفرًا من الجنود طاردته وأسرته، وحكم عليه بالإعدام في مجلس عسكري.

وقد شُغل غوردون باشا بين سنة ١٨٧٧ و١٨٧٩ بتحديد التخوم بين السودان والحبشة، وذهب إلى مصوع لعقد اتفاق مع ملك الحبشة، ولكنه لم يتمكن، وفي ٢٥ يونية سنة ١٨٧٩، الموافق ٦ رجب سنة ١٢٩٦، أقيل إسماعيل باشا من منصب الخديوي، وولي ابنه محمد توفيق باشا، ثم استقال غوردون باشا من منصبه في أواخر سنة ١٨٧٩.

(٣) فتوح إسماعيل

وقد ضم إسماعيل باشا لمصر نواحي البحيرات الكبرى حتى منابع النيل وبحر الغزال وجهات خط الاستواء وساحل البحر الأحمر إلى رأس غردفوي ووضع الأوغندة تحت حماية مصر، ونزل له الباب العالي عن سواكن وزيلع وملحقاتهما، كما حصل منه على لقب خديوي مصر والنوبة ودارفور وكردفان وسنار.

وقد عني فرمان سنة ١٨٤١ بذكر النوبة ودارفور وكردفان وملحقاتها؛ أي: السودان حتى منطقة البحيرات الكبري، وأيد فرمان سنة ١٨٧٩ وفرمان سنة ١٨٩٢ الفرمانات السالفة، ووافقت الدول عليها جميعًا على تباينها.[٥]

---

٥ قاموس القضاء والإدارة — لجلاد.

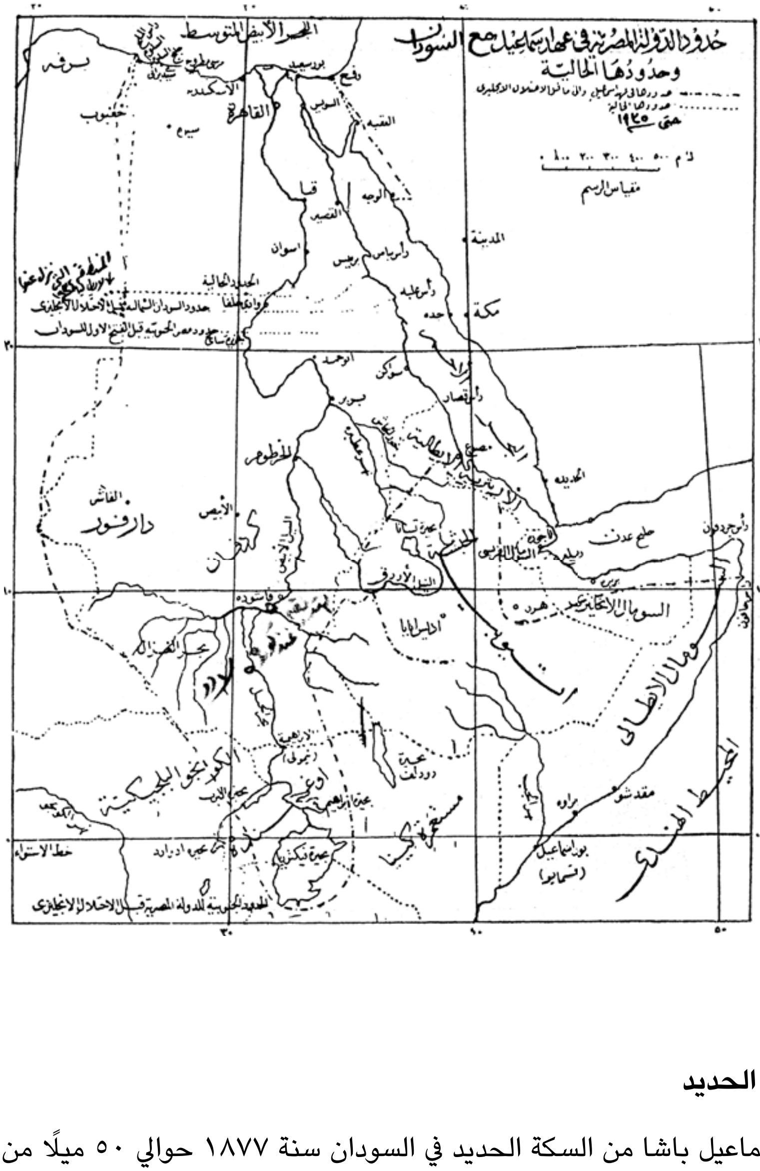

السكة الحديد

ومدَّ إسماعيل باشا من السكة الحديد في السودان سنة ١٨٧٧ حوالي ٥٠ ميلًا من حلفا، نفقتها ٤٠٠ ألف جنيه، ومهد الطريق إلى ٤٧ كيلومترًا، لم يتمكن من إنشائها خطًّا حديديًّا.

الفصل السادس عشر

بعثات الكشف عن السودان ومنابع النيل

بالرغم من غزو المصريين والعرب للسودان، وبالرغم مما كان بين مصر والسودان والحبشة من علاقات تبدأ من التاريخ القديم المعروف، ظلت مناطق كثيرة في السودان — كما كانت هناك مناطق كثيرة أخرى في إفريقيا — من المجاهل؛ ولذلك قامت بعثات للكشف عن مجاهل السودان ومنابع النيل، ويرجع الفضل في إيفاد هذه البعثات إلى محمد علي الكبير مؤسس الأسرة العلوية المالكة، وإلى الخديوي إسماعيل باشا والد جلالة الملك فؤاد، وإلى بعض الهيئات في إنجلترا وأمريكا. على أننا رأينا من المؤرخين إجماعًا على أن الفضل الأكبر يرجع إلى أمراء الأسرة العلوية، فقد صحب الفتوحات المصرية في عهدي محمد علي وإسماعيل، كشفٌ عن أراض كانت مجهولة، كما أنهم بذلوا المال والمساعدات إلى بعض الأوربيين من محبي الاستطلاع والتنقيب والكشف عن المجاهل.

(١) في حملة إسماعيل باشا بن محمد علي باشا الذي قتل في شندى

استصحب إسماعيل باشا بن محمد علي باشا في قيادته للحملة المصرية في عهد أبيه لفتح السودان بعض العلماء من الفرنسيين، ومنهم مسيو فردريك كايو الذي وضع كتابًا عن السودان، واسمه «رحلة في مروى والنيل الأبيض وفازوغلي» في خمسة أجزاء.

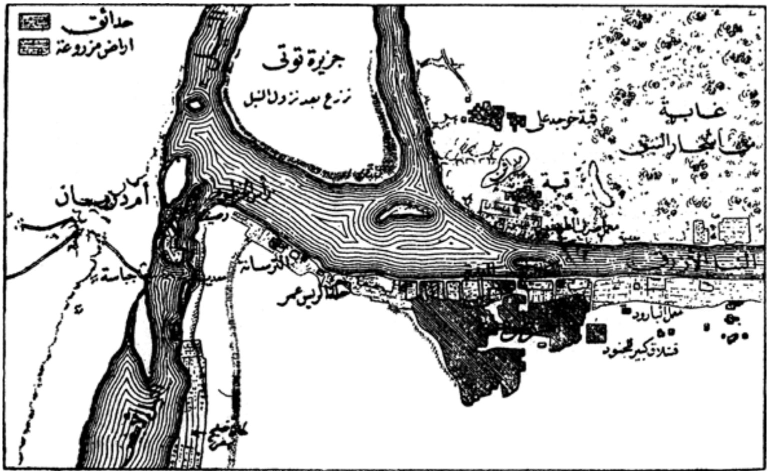

تخطيط مدينة الخرطوم عند إنشائها لأول مرة في عهد محمد علي سنة ١٨٢٢ (انظر الفصل الثاني عشر من هذا الجزء).

(٢) رحلة هاي وهوشت سنة ١٨٢٤

وقد وصلا إلى ما يلي رأس الخرطوم جنوبًا.

(٣) رحلة لينان باشا سنة ١٨٢٧

رحل مسيو لينان دي بلفون — الذي عرف فيما بعد باسم لينان باشا — في النيل إلى ما يلي الخرطوم.

(٤) رحلة إبراهيم كاشف

نزل في النيل الأبيض إلى بلاد الشلك والدنكا، قريبًا من بحر الغزال.

(٥) رحلة محمد علي باشا إلى السودان

سافر محمد علي باشا الكبير إلى السودان في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٣٨؛ ليتفقد الإدارة المصرية به، وليبحث عن معادنه ومنتجاته، فوصل إلى مناجم الذهب في دنقلة، واجتاز صحراء بيوضة، ووصل إلى الخرطوم يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٣٨ وأقام بها ٢٢ يومًا، ثم زار سنار فجبال فازوغلي؛ للبحث عن مناجم الذهب، ثم عاد إلى الخرطوم وأقام بها أيامًا قليلة، ومنها عاد إلى مصر عن طريق صحراء النوبة، من أبي حمد إلى وادي حلفا، فوصل إلى القاهرة في ١٥ مارس سنة ١٨٣٩، وقضى في رحلته خمسة أشهر، وكان يصحبه فيها لفيف من المهندسين والعلماء الباحثين، مثل: مسيو ليففر، ومسيو د. أرنود، ومسيو لمبرت.

(٥-١) رحلات البكباشي سليم قبطان

لمناسبة رحلة محمد علي باشا إلى السودان — متقدمة الذكر، رأى أن يعهد إلى البكباشي سليم قبطان بالقيام برحلات لكشف منابع النيل الأبيض، ووضع تحت تصرفه قوة من الجنود وسفنًا مسلحة، وقد وصل سليم قبطان إلى بلدة «العيس» جنوبي الخرطوم، وكان معه أربعمائة جندي، وكان سفره من الخرطوم يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨٣٩، وعرج في رحلته على نهر سوباط، أحد روافد النيل، وعاد إلى الخرطوم بعد أن قضى في رحلته ١٢٥ يومًا، وقد وضع رسالة بالفرنسية قدمت إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية في باريس، ونالت إعجابها ونشرت في مجلتها.

الرحلة الثانية لسليم قبطان

سافر البكباشي سليم قبطان يوم ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٤٠ من الخرطوم، ومعه قائد القوة البرية سليمان الكاشف، والمهندسان الفرنسيان د. أرنود وسابا تييه، والرحالة الألمان فيرن ومسيو تيبوه، الذي كان يتسمَّى باسم إبراهيم أفندي، والذي صحبه في الرحلة الأولى، وسارت البعثة ومعها قوة عسكرية في النيل الأبيض جنوبي بلدة العيس، ووصلت يوم ٢٥ يناير سنة ١٨٤١ إلى جزيرة «جونكر» الواقعة على الخط الخامس من خطوط العرض، وتقع «جونكر» تجاه «غندكرو» التي تبعد عن «الخرطوم» ١٠٨٠ ميلًا جنوبًا، فهي قريبة من البحيرات التي ينبع النيل منها، وقد صارت وقتًا ما عاصمة

لمديرية خط الاستواء في عهد الخديوي إسماعيل، وقد حالت الجنادل والشلالات دون تقدُّم السفن التي حملت البعثة، فعادت إلى الخرطوم في ١٨ أبريل سنة ١٨٤١، وقد نشرت مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية عدد نوفمبر سنة ١٨٤٢ رسالة عن هذه الرحلة.

الرحلة الثالثة بقيادة سليم قبطان

قامت من الخرطوم يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٤١ ومعها قوة عسكرية، وواصلت السير في النيل الأبيض محاولة كشف الأراضي الواقعة جنوبي جزيرة «جونكر» إلى البحيرات التي ينبع النيل منها، ولكنها لم تستطع التقدم جنوبي «جونكر».

(٦) في عهد سعيد باشا

أوفدت الجمعية الجغرافية الإنجليزية الرحالتين الإنجليزيين «أسبيك» و«جرانت» لكشف منابع النيل الأبيض، فسافرا عن طريق زنجبار، وكشفا بحيرة «أكروي» ومنبع النيل فيها في ٢٨ يولية سنة ١٨٦٢، وسمياها باسم بحيرة «فيكتوريا». «وفيكتوريا» هي الملكة فيكتوريا ملكة الإنجليز يومئذ.

(٦-١) رحلة السير صمويل بيكر الإنجليزي

وقد عُرف في عهد إسماعيل باسم «بيكر باشا»، إذ عينه مديرًا لمديرية خط الاستواء، وكان ذا لحية، سافر من تلقاء نفسه ومعه زوجه لكشف منابع النيل الأبيض، وسلك في ذلك طريق السفر من الخرطوم، فوصل في ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ إلى «غوندكرو»، حيث التقى بالرحالتين «سبيك» و«جرانت»، وأعلماه كشفهما، وأبلغاه أن هناك بحيرة علما بوجودها من الأهالي، فسافر إليها وكشفها في ١٤ مارس سنة ١٨٦٤، وكان أول كاشف لها، وسماها بحيرة «ألبرت»، وهو اسم الأمير «ألبرت» زوج الملكة «فيكتوريا»، وعاد إلى الخرطوم في ٣ مايو سنة ١٨٦٥، ومنها إلى بربر، فثغر سواكن حيث أبحر منها إلى إنجلترا.

(٧) في عهد إسماعيل

(٧-١) رحلة السير صمويل بيكر الثانية

بقي «صمويل بيكر» خمس سنوات تقريبًا في إنجلترا بعد رحلته الأولى إلى مصر في معية الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا إذ ذاك — ملكها إدوارد السابع فيما بعد — الذي لبى دعوة الخديوي إسماعيل لحضور حفلات افتتاح قناة السويس، وقد رغب الأمير إدوارد إلى الخديوي إسماعيل في مطاردة تجار الرقيق في السودان، فوافق الخديوي على ذلك، وأنفذ في سنة ١٨٦٩ سير صمويل بيكر ومعه حملة مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل، وأنعم عليه برتبة فريق، وعينه مديرًا لمديرية خط الاستواء براتب قدره عشرة آلاف جنيه في السنة لمدة أربع سنوات، وعاونه إسماعيل بالمال والسلاح والسفن التي نُقلت أجزاؤها على الإبل في صحراء النوبة.

أما بيكر باشا فقد أبحر من السويس إلى سواكن، ومنها على ظهور الإبل إلى بربر، ومنها على باخرة نيلية إلى الخرطوم، حيث سافر منها يوم ٨ فبراير سنة ١٨٧٠ في حملة أقلَّتها ثلاثون مركبًا شراعية كبيرة، تقدمتها باخرتان، قاصدة خط الاستواء بقيادة بيكر باشا، الذي رست سفينته عند محطة أسماها «التوفيقية»، باسم الأمير محمد توفيق بن الخديوي إسماعيل، وهي تقع جنوبي فاشودة وقريبًا من ملتقى نهر السوباط بالنيل، وبعد أشهر سار جنوبًا حتى بلغ «غوندكرو»، في ١٥ أبريل سنة ١٨٧١، ورفع عليها العلم المصري يوم ٢٦ مايو في حفلة عسكرية حضرها ألف ومائتا جندي تتقدمهم الموسيقى. وقد أسمى بيكر باشا «غوندكرو» «الإسماعيلية»، باسم الخديوي إسماعيل، وجعلها عاصمة مديرية خط الاستواء، وفي ٢٢ يناير سنة ١٨٧٢ سار في النيل الأبيض، وأسس نقطًا عسكرية وحصونًا وبلادًا، منها «الإبراهيمية» تذكارًا لإبراهيم باشا ابن محمد باشا، وفتح مملكة «أونيورو» المتاخمة لبحيرة «ألبرت» شرقًا، واحتل عاصمتها «ماسندي»، وسلم ملكها المدعو «كابريقة» للحكومة المصرية، ثم انقض عليها ولكنه هُزم، وخلعه بيكر باشا وعيَّن مكانه منافسه المدعو «ريونجا» ملكًا خاضعًا للخديوي إسماعيل، ثم وصلت رسل «أمتيسة» ملك أوغندة المجاورة لمملكة «أونيورو»، الواقعة

صمويل بيكر باشا مدير خط الاستواء في عهد إسماعيل وحوله أركان حربه، وهم: القائمقام عبد القادر بك حلمي، فالمهندس هيجنبوتام Higginbotham، ثم الملازم بيكر.

شمالي بحيرة فيكتوريا وغربيها، وأعلنت بيكر باشا بخضوع «أمتيسة» لخديوي مصر، وفتح الطريق بين أعالي النيل وزنجبار على شاطئ المحيط الهندي.

وعاد بيكر باشا إلى «غندكرو» في أبريل سنة ١٨٧٣ بعد أن انتهت مدة خدمته المحددة بأربع سنوات، وبلغت نفقات الحملة ٨٠٠ ألف جنيه، دفعتها خزينة مصر التي كان العسر مشتدًّا بها، وحل رءوف بك — الذي عرف فيما بعد باسم رءوف باشا

حكمدار السودان — محل بيكر باشا، وأنعم الخديوي على القائمقام عبد القادر حلمي بك برتبة الميرالاي، الذي عرف فيما بعد برتبة عبد القادر حلمي باشا.

(٧-٢) حملة غوردون باشا

سافر الكولونيل غوردون — الذي منحه الخديوي إسماعيل رتبة فريق في الجيش المصري — إلى مديرية خط الاستواء، فأبحر إلى سواكن، ومنها إلى النيل، حتى وصلت الحملة إلى محطة «سوباط»، ومنها إلى «غندكرو»، ثم سار إلى بحيرة «ألبرت» في سفن بخارية، وأنشأ نقطًا عسكرية.

(٧-٣) بعثة الميرالاي بودري بك الأمريكي

كان أحد ضباط أركان حرب الجيش المصري، سافر ومعه ضباط مصريون، وجاب الجهات التي بين النيل والبحر الأحمر، من القاهرة والسويس شمالًا إلى قنا والقصير جنوبًا، وكشفوا طرق المواصلات ومناجم المعادن والمحاجر في تلك الجهات.

سنة ١٨٧٣، أبحر الميرالاي «بودري» بك إلى برنيس «برنيقة» القديمة على البحر الأحمر «غربي رأس بناس»، ولحق به «كولوستن» الأميرالاي الأميركي بالجيش المصري، وخططا الجهة بين «برنيس» و«بربر» على النيل.

سنة ١٨٧٤، كشف الميرالاي شاييه لونج بك Chaillé Long Bey بحيرة «إبراهيم»، ومعظم النيل المعروف بنيل فيكتوريا، وحقق أن نيل فيكتوريا يصب في بحيرة ألبرت.

(٨) بعثات ضباط الأركان حرب

أوفد الخديوي إسماعيل ثلاث بعثات مؤلفة من ضباط الأركان حرب في الجيش المصري لكشف «كوردوفان» و«دارفور»، وكانت البعثة الأولى برياسة الميرالاي بودري بك، وكان من أعضائها القائمقام ميزون والملازمون: محمود صبري، ومحمد سامي، وسعيد نصر، وخليل حلمي، والدكتور محمد أمين، وقد كشفت طرق المواصلات بين النيل وحفرة النحاس، وحققت ٢٢ موقعًا فلكيًّا، ورسمت خريطة.

(٨-١) البعثة الثانية برياسة الميرالاي كولوستون بك

كان من أعضائها الميرالاي الأمريكي بروت، والصاغ أحمد حمدي، والملازمون: عمر رشدي «باشا»، ومحمد ماهر «باشا»، ويوسف حلمي، وخليل فوزي، والدكتور بيفوند Pfond، وقد كشفت البعثة جهات كوردوفان وحققت موقعها ومدنها وطرق المواصلات فيها ووضعت خريطة وأمضت البعثتان الأولى والثانية ثلاث سنوات.

(٨-٢) البعثة الثالثة برياسة المهندس الأمريكي ميتشل Michel

وكان يصحبه الضابط عبد الفتاح فتحي. كشفت البعثة مناجم للذهب في الحمامة شرقي قنا، وعرجت على ثغور البحر الأحمر وخليج عدن، كالقصير ومصوع وتاجورة وزيلع، وتغلغلت في الداخل، وعادت إلى مصوع، وكشفت الجهات الشرقية من الحبشة.

ورسم أرنست لينان دي بلفون «ابن لينان باشا» الطريق بين غندكرو ودوباجا عاصمة أوغنده، وقد قُتل وهو عائد من مهمته، وعلى ضوء بياناته وضع العلامة جورج شونفرت خريطة عن تلك الجهات.

ورسم البكباشي محمد عزت، أحد ضباط حملة منزنجر باشا على الحبشة، خريطة الجهات الواقعة بين تاجورة وبحيرة «أوسا» بالحبشة.

ورسم محمد مختار بك «باشا» وعبد الله بك فوزي «باشا» خريطة بلاد هرر، ورسم الأول خريطة المدينة، ووضع خريطة أخرى لرأس «جردوفون» «جردفوي» وموقع الفنار الذي أزمع إسماعيل إنشاءه في تلك الجهة.

ورسم ضباط أركان حرب نادي باشا الجهات الواقعة بين هرر وزيلع.

ووضع القائمقام عبد الرزاق نظمي بك خريطة بربرة وملحقاتها، وكشف حملة الصومال التي أنفذها إسماعيل سنة ١٨٧٥ سواحل البنادر الواقعة على المحيط الهندي، وجهاتها قسمايو «بور إسماعيل»، ونهر الجوبا، وهي الجهات التي قصدت إليها الحملة.

وفي سنة ١٨٧٧، جاب الميرالاي ميزون Mason بك بحيرة «ألبرت»، وأتمَّ الكشف الذي بدأه فيها السير صمويل بيكر، ووضع لها خريطة دقيقة.

وأنفذ الخديوي سنة ١٨٧٧ بعثة برئاسة المستر برتون؛ للبحث عن المعادن التي بجهات «مدين» في جزيرة العرب.

وحقق ضباط الأركان حرب برئاسة البكباشي عبد الله بك فوزي «باشا» حدود الحبشة الشمالية، والطرق بين مصوع والخرطوم، ورسموا خريطتها.

وحقق جيسي باشا مواقع بحر الغزال.

وجاب الميرالاي محمد مختار بك «باشا» نواحي السودان الشرقي حين كان رئيسًا لأركان حرب السودان سنة ١٨٨٠، يصحبه من ضباط الأركان حرب خليل بك فوزي، والملازمان محمد خير الله وعلي خيري، وله مبحث مسهب في تخطيط أبو حراز، والقضارف «أبو سن»، والقلابات، وطومات، وأميديب، وغيرها من مدن السودان الشرقي.

وكشف أمين باشا مدير خط الاستواء نهر السمليكي الواصل بين بحيرة «إدوارد» وبحيرة «ألبرت».

ورسم ضباط أركان حرب الجيش المصري سنة ١٨٧٧ خريطة مفصلة لإفريقيا، وهي أدق خريطة عرفت إلى ذلك الحين، واشترك في رسمها كل من الميرالاي «لوكت»، والقائمقام محمد مختار «باشا» بك، والصاغ عبد الله فوزي بك، وعبد الرازق نظمي بك، والضباط: محمود صبري «باشا»، وأحمد فائق، ومصطفى كامل، وأحمد فهمي، وحسن حارس «باشا»، وحسن صفوت، وإبراهيم حلمي، ومحمد جودت، ومحمد خير الله، ويوسف ضيا «باشا»، وعلي حيدر، وأحمد رشيد، وهذه الخريطة مودعة ضمن محفوظات الجمعية الجغرافية الملكية.

وذكر الجنرال أستون باشا رئيس أركان حرب الجيش المصري في عهد إسماعيل «أن الجهات التي جابها ضباط الأركان حرب وحققوها، ورسموا مواقعها، تبلغ في اتساع مداها مجموع مساحة فرنسا وألمانيا والنمسا والمجر بحدودها القديمة، وهذا يدلك على عظم الفتوحات والتحقيقات التي تمت على أيديهم.

(٩) آثار السودان

أهدى المرحوم السلطان حسين كامل سنة ١٨٩٩ إلى المتحف المصري أثرًا وجده عظمته في مزرعته بإيتاي البارود، وهذا الأثر حجر جرانيتي أزرق ارتفاعه متران تقريبًا، ومؤرَّخ في اليوم الثالث عشر من شهر مسري للسنة الأولى من حكم الملك «نقطانب الثاني» آخر فراعنة مصر، وكان شمالي السودان في عهده تابعًا لمصر.

وقد توالت البعثات العلمية الأثرية في السودان، فنقَّبت بعثة الولايات المتحدة من سنة ١٩١٩ إلى ١٩٢٢ عن آثار جبل «برقل» بجوار «نبته»، وعن الأهرام في «مروى»، وكشف «كايو» الأثري الفرنسي بعض أهرام على الشاطئ الشرقي للنيل في المكان المعروف الآن بجزيرة «مروى»، ونقَّب الأثري الإنجليزي «هوسكنس» والأثري الألماني «ليبسيوس»، ثم الأثري الإنجليزي «جارنستانج» والأثري «جريفس» عن آثار «مروى».[1]

(١-٩) الخط السوداني

وقد دلت الآثار على أنه كان «لمروى» خط خاص، فحصه الأثري الإنجليزي «جريفث»، وقال عنه إن السودانيين قد اخترعوه ووصلوا إليه بعد معرفتهم الخط اليوناني في عهد البطالسة في مصر، والخط العربي من بلاد الحبشة، واستمر الخط السوداني مستعملًا حتى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد، وقد اختُرِع منه نوع للمكاتبات الرسمية، وقد تبين أن الخط السوداني ملائم للغة السودانية والنطق بها، وبعد سنة ٥٠٠ ميلادية بدأ استعمال الخط اليوناني، وقد وجدت آثار يونانية في «مروى»؛ منها: رأس تمثال لإله العقل، وكأس من الزجاج الملون، ومسرجة برونزية، وأواني برونزية، وتواريخها من سنة ٤٥٠ق.م، إلى القرن الثاني بعد الميلاد.

[1] ينطق بها أحيانًا «مروة».

الفصل السابع عشر

حكمدارو السودان

ننشر فيما يلي بيانًا رسميًّا عن حكمداري عموم السودان، من ١٣ يونية سنة ١٨٢١ إلى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥، مأخوذًا من دار المحفوظات بالقلعة، كما نقله حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون، ولكن يظهر أن هذا البيان غير دقيق؛ لأنه أدخل مديرين في عداد الحكمدارين، كما أنه عبَّر عن أسمائهم ببعض اصطلاحات تركية، ومضت فترات لم يكن بها حكمدارون، وها هي أسماؤهم كما وردت في البيان:

(١) إسماعيل باشا بن محمد علي باشا: ١٣ يونية سنة ١٨٢١ إلى ٢٠ فبراير سنة ١٨٢٣.

(٢) محمد بك الدفتردار: من ٢٠ فبراير سنة ١٨٢٣–١٤ يونية سنة ١٨٢٤.

(٣) جركسي ميرالاي أول عثمان بك: ١٣ ديسمبر سنة ١٨٢٤–١١ مايو سنة ١٨٢٥.

(٤) جركسي علي خورشيد أغا باشا: ٣١ أغسطس سنة ١٨٢٦–١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٨.

(٥) جركسي أحمد باشا: ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٨–٢٥ أكتوبر سنة ١٨٤٣.

(٦) قولة لي منكلي أحمد باشا: ٧ مارس سنة ١٨٤٥–١٣ ديسمبر سنة ١٨٤٥.

(٧) أستانة لي خالد باشا: ١٣ ديسمبر سنة ١٨٤٥–٥ نوفمبر سنة ١٨٤٩.

(٨) جركس لطيف باشا: ١١ يونية سنة ١٨٤٩–١٣ يناير سنة ١٨٥٢.

(٩) جركس رستم باشا: ١٣ يناير سنة ١٨٥٢–٢٧ مايو سنة ١٨٥٢.

(١٠) إسماعيل حقي باشا «أبو جبل»: ٣ يولية سنة ١٨٥٢–١٩ أبريل سنة ١٨٥٣.

(١١) جزائرلي سليم باشا: ٢٣ أبريل سنة ١٨٥٣–٢١ يولية سنة ١٨٥٤.

(١٢) أرنبود علي سري باشا: ٢١ يولية سنة ١٨٥٤–٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٤.

(١٣) جركس علي باشا: ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٤–٢٣ نوفمبر سنة ١٨٥٥.

(١٤) البرنس عبد الحليم باشا: ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٥٥–٢٨ ديسمبر سنة ١٨٥٦.
(١٥) جركس علي باشا: ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٥٦–٢٧ يناير سنة ١٨٥٧.
(١٦) جركس موسى حمدي بك «باشا»: ٧ مايو سنة ١٨٦٢–١٨ يونية سنة ١٨٦٥.
(١٧) جركس جعفر صادق باشا: ١٨ يونية سنة ١٨٦٥–٨ يناير سنة ١٨٦٦.
(١٨) جعفر مظهر باشا: ٨ يناير سنة ١٨٦٦–٣٠ سبتمبر سنة ١٨٧١.
(١٩) إسماعيل أيوب باشا: أول ديسمبر سنة ١٨٧٣–١٦ فبراير سنة ١٨٧٧.
(٢٠) غوردون باشا: ١٧ فبراير سنة ١٨٧٧–يناير ١٨٨٠.
(٢١) محمد رءوف باشا: ٢١ يناير سنة ١٨٨٠–٢١ فبراير سنة ١٨٨٢.
(٢٢) عبد القادر حلمي باشا: ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ أول يونية سنة ١٨٨٣.
(٢٣) علاء الدين باشا: ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣–٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٣.
(٢٤) غوردون باشا: أول نوفمبر سنة ١٨٨٣–٢٦ يناير سنة ١٨٨٥.

وتدخل مدة علاء الدين باشا في مدة عبد القادر حلمي باشا؛ فإن عبد القادر باشا كان في مدته ناظرًا لنظارة جديدة سميت «نظارة عموم السودان»، وكان حكمدار عامًّا له، وقائدًا لجيوشه في الوقت ذاته، وألغيت النظارة في ٢٠ يناير سنة ١٨٨٣، وأبقي عبد القادر في السودان لإخماد ثورته لا بصفته حكمدار له، مع إعادة منصب الحكمدارية وحده وتعيين علاء الدين باشا فيه، فبقي عبد القادر باشا كقائد للحملة على المهدي، وقد انتصر في واقعة التبنة على المهديين في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٣.

بيانات عن حكمداري السودان

وننشر فيما يلي البيانات غير الرسمية عن حكمداري السودان، وقد كانوا من أصل تركي أسوة بكبار ضباط الجيش المصري والوزراء أنفسهم، وأصبحوا ضباطًا مصريين في الجيش المصري:

الميرالاي عثمان بك: جعل الخرطوم مركزًا للحكومة، وفي عهده فشا الجدرى، وكان حاكمًا مستبدًّا.

محو بك سنة ١٨٢٥–١٨٢٦: ولم يرد اسمه في سجل دار المحفوظات، وربما كان مديرًا للخرطوم ونائبًا للحكمدار، وقد كان عادلًا رحيمًا، بنى ثكنة بالخرطوم، واحتفر في الصحراء آبارًا تُعرف للآن باسم آبار محو بك، وفي الخرطوم شجرة عرفت باسمه، وفي حديقة محو بك وجدت مصر الشجيرة الأولى للقطن في مصر.

خورشيد باشا: كان حسن السيرة والإدارة، وعمَّر البلاد، وأدخل البناء بالطوب والأخشاب والألواح، ونظَّم الدواوين وأنشأ مسجدًا بالخرطوم ومسجدًا في سنار، واستقدم زرَّاعًا مصريين لتعليم الأهالي الزراعة.

ووسَّع فتح السودان فاحتل القلابات، وأنشأ بها حامية، وأخضع جبال فلي، وغزا قبائل الشلك وسيدرات.

أحمد أبو ودان باشا: واصل سياسة سلفه خورشيد باشا في تنظيم الإدارة والتعمير، وجلب من مصر الحيوانات الأليفة والنباتات، ونشطت الصناعة في ترسانة الخرطوم، وفُتح في عهده إقليم التاكا «كسلا»، وعمم المواصلات، وفي عهده زار محمد علي السودان.

أحمد المنسكلي باشا سنة ١٨٤٤–١٨٤٥م، و١٢٥٩–١٢٦١هـ: خلف ودان باشا، وقد عاد أهل «التاكا» في عهده إلى الثورة، وفشا ظلم الموظفين، وقد أدَّب العصاة وعاونه الأرباب محمد دفع الله، والشيخ أحمد أبو سن كبير الشكرية، والشيخ عبد القادر.

خالد باشا: في عهده انحرفت صحة محمد علي باشا وخلفه إبراهيم باشا، ثم مات فخلفه عباس باشا الأول.

عبد اللطيف باشا: أنشأ مدرسة الخرطوم الابتدائية، وعين رفاعة بك ناظرًا لها، وأدَّب تكارنة القلابات.

رستم باشا: توفي ودفن في الخرطوم.

إسماعيل حقي «أبو جبل» باشا: حكم بين ١٢٦٨و١٢٦٩هـ، ١٨٥٢ و١٨٥٥م وعاد لمصر.

سليم باشا: عاد إلى مصر بعد سنة وثلاثة أشهر.

علي سري باشا الأرنؤوطي ١٢٧٠–١٢٧١هـ و١٨٥٤م: في عهده مات عباس الأول وتولى سعيد باشا.

علي شركس باشا ١٢٧١–١٢٧٣هـ و١٨٥٥–١٨٥٧م: في عهده زار سعيد باشا السودان، وكان قد فكَّر في إخلائه، فالتمس الأهالي استمرار الحكم المصري؛ خشية عودة الفوضى إلى السودان، وقال العمد: نحن عبيد أفندينا، فأجاب ملتمسهم ونظَّم البريد على الهجن عن طريق كورسكا، وأعلن انتهاء تجارة الرقيق، وأعفاهم من الضرائب، ونظَّم المديريات، وعزل سعيد شركس باشا لاستبداده.

أراكيل بك: يظهر أنه لم يُعيَن حكمدار؛ لأنه لم يرد اسمه في سجل المحفوظات، وهو «أرمني كان مديرًا للخرطوم»، وقد تذمر أهالي الشكرية من تعيين نصراني عليهم، فقال للزعماء: إذا كان تعييني لا يرضيكم فأنا أترك البلاد، فأعجبوا بلهجته وعادوا للسلام.

حسن سلامة بك الشركسي: اسم ورد في كتاب تاريخ السودان لشقير بك، ولم يرد في سجل دار المحفوظات، ويقول الكتاب إنه كان تقيًّا نزيهًا، ولكنه سيئ الإدارة، ثم عزل.

محمد راسخ بك: وقد أعاد سعيد باشا في آخر عهده النظام الذي كان ألغاه، فعادت المديريات تتبع الخرطوم بدلًا من الداخلية بالقاهرة مباشرة.

الفريق موسى حمدي باشا: كان حسن الإدارة، وافر العدل، وقمع الثورات، ووصل الجند في عهده إلى ٣٠ ألف، وتوفي بالخرطوم ودفن بها.

جعفر الصادق باشا: قمع ثورة كسلا، وفتحت مصر في عهده فاشودة، وكان آدم بك السوداني هو الذي أخمد الثورة.

جعفر مظهر باشا: في عهده أنعم الخديوي إسماعيل على آدم بك بالبشوية، وأصبح قائدًا للجيش، وتخلت تركيا عن سواكن ومصوع لمصر نظير جزية قدرها ١٦٠٠٠ جنيه.

وعرف مظهر باشا بالعدل والنزاهة والتقوى وتقريب علماء السودان، وكان واسع الكرم، وقد أحبه السودانيون حبًّا لا يزالون يذكرونه، وقد عُيِّن في سبتمبر سنة ١٨٧١ عضوًا بمجلس الأحكام فترك منصبه في السودان.

ممتاز باشا: لم يرد اسمه في سجل المحفوظات، كان من فرسان الجيش المصري، علَّم الأهالي زراعة القطن، ولكنه كان ظالمًا ومرتشيًا، فحقق الخديوي إسماعيل معه، وسُجن بالخرطوم ومات به.

إسماعيل أيوب باشا ١٢٨٩–١٢٩٢هـ و١٨٧٣–١٨٧٧م: كان حسن السيرة والإدارة، وفي عهده فتحت سلطنة دارفور على يد الزبير رحمت باشا، وضُمت إلى مصر، كما ضُمت زيلع وبربر وسلطنة هرر، ووسَّع أيوب باشا زراعة القطن، وأنشأ مَحْلَجين ومعملًا للنسيج، وراجت التجارة واستتب الأمن، وأنشئت محطات عسكرية من الخرطوم إلى دارفور ووادّاي، وفي بربر وسواكن، وأنشأ مكاتب كثيرة للبريد.

وقد قسَّم السودان إلى مديريات، كل مدير مسئول عن مديريته مستقلًّا عن الخرطوم، وكان يوسف بك مديرًا على فاشودة، وحسين الخليفة «باشا» على بربر.

محمد رءوف باشا: أرسلت الحكومة إليه كتابًا تبين فيه مهمته في تنظيم مالية السودان وحساباته وتنظيم الإدارة والجند ومنع تجارة الرقيق، وقد أطفأ ثورة الصومال، وفي عهده ظهر محمد أحمد المهدي بدعوته.

وقد أصدرت الجمعية الوطنية المصرية السودانية بالخرطوم منشورًا عنوانه: «كنا نحسبك رءوفًا، فرأيناك خروفًا»، وقد نسب إليه بعض المؤرخين.[١] أنه في بداية ظهور المهدي في جزيرة أبا أرسل فصيلتين «بلوكين» من الجنود النظامية تحت إمرة ضابطين إلى جزيرة أبا، وأسرَّ إلى كل منهما أنه قائد الحملة، مع تفهيم أبي السعود العقاد بك معاون الحكمدارية في الوقت نفسه أنه القائد الأعلى لكليهما، الأمر الذي دعا إلى تنازع الرياسة فالفشل، وكانت هزيمة هذه الحملة أولى الهزائم التي لحقت بالجيش المصري في تاريخ الثورة المهدية.

وقد عقد رءوف باشا مجلسًا استشاريًّا من خاصة أهل الخرطوم، فقال له الشيخ شاكر الرئيس، مفتي السودان يومئذ: «يحسن بمولاي الحكمدار أن يتولى القيادة بنفسه؛ ليستأصل الشر من جذوره، ويقضي على الثورة في مهدها قبل أن تستفحل»، فرد عليه قائلًا: «خسئت أيها الشيخ! أتريد أن ترمل زوجي وتيتم أطفالي»، وقد عاد رءوف باشا إلى مصر، وبقي فيها حتى رأس المجلس العسكري العالي الذي انعقد لمحاكمة عرابي وحكم عليه بالإعدام ثم أبدل الحكم بالنفي.

وقد صدر أمر عالٍ بجعل إدارة عموم السودان، وفيها: شرقي السودان ومحافظة سواحل البحر الأحمر وهرر وزيلع وبربرة ونجرة، حكمدارية واحدة، وفي ٢ أبريل سنة ١٨٨٢ قسَّم السودان إلى أربعة أقسام:

(١) حكمدارية إقليم غرب السودان، وعاصمتها الفاشر، وتشمل دارفور وكردفان وشكا وبحر الغزال ودنقلة.

(٢) حكمدارية إقليم وسط السودان، وعاصمتها الخرطوم، وتشمل مديريات الخرطوم وسنار وبربر وفاشودة وخط الاستواء.

---

[١] تاريخ السودان — نعوم شقير.

(٣) حكمدارية إقليم شرقي السودان، وتشمل التاكا وملحقاتها، ومحافظتي سواكن ومصوع إلى باب المندب.

(٤) حكمدارية عموم هرر وملحقاتها، عاصمتها هرر، وبها محافظتا زيلع وبربرة، وقد أنشئت إدارة خاصة للسودان بالقاهرة تابعة لمجلس النظار، ثم في عهد الثورة صارت تابعة لوزارة الحربية.

عبد القادر حلمي باشا ١٢٩٩–١٣٠٠هـ ١٨٨٢ و١٨٨٣ ميلادية: كان عبد القادر حلمي باشا الحكمدار — الذي ولي حكمدارية السودان بعد رءوف باشا — ضابطًا كفؤًا حازمًا شجاعًا، وقد قبض على ناصية الحال، وأمن الخرطوم والجزيرة بعد أن أوشكتا على السقوط، حتى كان المهديون يدعون: «اللهم يا قوي يا قادر، اكفنا عبد القادر.»

طلب عبد القادر باشا من الحكومة المصرية أن ترسل إليه ١٥ ألف جندي، ولكنها لم تلبِّ طلبه، واتهم بالجنوح للاستقلال، فأقصي من منصبه وعين علاء الدين باشا بدلًا منه، وأرسلت إليه ١٢٩٠٠ من فلول الجيش العرابي، بقيادة هكس باشا.

علاء الدين باشا ١٣٠٠هـ/١٨٨٣م: وقد خلف عبد القادر حلمي باشا، وكانت الثورة المهدية في ازدياد مستمر.

غوردون باشا: خلف علاء الدين باشا — ولنا كلام طويل عنه في باب الثورة المهدية.

الفصل الثامن عشر

في عهد الحكم المصري

الموظفون السودانيون

تولى كثير من السودانيين المناصب الكبيرة في السودان

كان الزبير باشا، وسليمان الزبير بك، وإدريس أبتر بك، ويوسف الشلالي باشا — على التوالي — مديرين من قبل الحكومة المصرية على بحر الغزال، وكان يوسف الشلالي باشا، وبساطي بك، مديرين لسنار، وإلياس أم برير باشا مديرًا لكردفان، وحسين خليفة باشا مديرًا لبربر، والطيب عبد الله بك مديرًا لفاشودة، ومحمد خالد زقل بك مديرًا لدارة، والنور عنقرة بك مديرًا لكبكبية، والسعيد حسين بك، وآدم عامر بك مديرين بمديريات دارفور، وأحمد أبو سن باشا، ومحمود أحمداني بك، وأحمد جلاب بك مديرين بالتعاقب للخرطوم.

وكان محمد الجزولي بك وكيلًا لمديرية الخرطوم، وأحمد مكوار بك وكيلًا لمديرية سنار، وعمر العمرابي بك وكيلًا لمديرية بربر، وعلي عمارة أبو سن بك رئيس مجلس الاستئناف، ومحمد خوجلي بك قاضيًا للخرطوم، والفكي «الفقيه» الشيخ الأمين الضرير شيخًا للإسلام، والبيكوات أبو بكر الجركوك، والخليفة ود[1] أرباب، ومحمد عبد الرحمن ود البشير، وإدريس النور، وعبد الرحمن بان النقا، والفضل إبراهيم، وغيرهم، أعضاء مجلس الاستئناف، وبساطي المحس بك باشكاتبًا لمديرية الخرطوم، والعوضي المرضي

[1] ود: حقيقتها «ولد»، ولكن في السودان ينطقونها «ود» كأهل الصعيد.

بك باشكاتبًا لمديرية كسلا، وحسن الشريف أفندي معاونًا لمديرية بربر، ومحمد النصري أقدر أفندي معاونًا لمديرية بحر الغزال.

ومن القواد العظام: ألماظ باشا، وآدم باشا، وفرج الله باشا، وفرج الزيني باشا، ويوسف شلالي باشا، وصالح المك باشا، والسعيد حسين باشا، وحسن إبراهيم باشا، ومحمد علي حسين باشا، وخشم الموسى باشا، والنور محمد بك، وسرور بهجت بك، ونجيب بطراكي بك، ومحمد السيد بك، وسليم مطر بك، والنور عنقرة بك، وفرج الله عزازي بك، وغيرهم.

أعيان السودان في عهد الحكم المصري

وقد منحت الحكومة المصرية أعيان السودان وكبار تجاره الرتب والنياشين، بل لقد قيل إن ما منح إليهم زاد على العدد الذى منح إلى أعيان مصر نفسها: ومن أعيان السودان الذين نالوا رتبًا ونياشين: عبد القادر ود الزين باشا شيخ مشايخ الخرطوم وسنار، ومحمد إمام باشا الشهير بالخبير، وأحمد أبو سن باشا عمدة الشكرية، وابنه عوض الكريم باشا، ومحمد زيد باشا، وبشير ود عقيد عميد الجعليين، وإدريس ود عدلان بك زعيم الفونج، وأحمد أبو حسن بك عمدة قبيلة الحمدة، وعلي البخيت بك ناظر بني عامر، وعبد القادر أيلة بك عمدة الحلانقة، ومحمد موسى بك زعيم الهدندوة، وأحمد دفع الله بك عين أعيان كردفان، وكيكوم بك ملك الشلوك، وعلي عوض الكريم أبو سن بك، وحسن أم كادوك بك عمدة البرنو، وبشارى ود بكير بك عمدة بني هلبة، والأرباب ود دفع الله بك، وعلي الخبير بك، وإبراهيم البرديني بك، وقناوي أبو عموري بك، وصالح الخليفة بك.

وصف الحكم المصري

كان السودانيون المثقفون يسمون الحكم المصري منذ عهد محمد علي حتى الثورة المهدية «بالفتح الأول»، وكانت عامتهم تسميه «الحكومة التركية القديمة» أو «تركيا القديمة»، وسمى عامتهم الحكم بعد استعادة السودان «الحكومة التركية الثانية» أو «تركيا الثانية»، وكانت العامة في عهد الرخاء تحت ظل الحكم المصري يعبرون عنه بقولهم: «الترك لبسونا القميص وعلمونا الحديث»، ويسمون المصريين والأتراك

المتمصرين: «ود الريف»، وفي عهد المهدي والخليفة التعايشي عُدَّ المصريون والإنجليز والإفرنج والأتراك وسائر المسيحيين واليهود، أى: كل من لم يؤمن بالدعوة المهدية: «كفارًا».

التجار المشهورون في عهد الحكم المصري

المرحوم حبيب لطف الله «باشا» – السيد محمد باشات – المرحوم الحاج سعد الله حلابة – رضوان القرى – محمد الحبابي – الحاج محمد الحلو – نعوم سكر – عبد الغني التازي – محمود السيوفي باشا وأحمد باشا السيوفي – السيد أحمد العقاد – حسن موسى العقاد – وموسى العقاد والده – علي عموري – وفرج الله الموصلي – والخواجة غطاس – والخواجة الزق – وأمبرواز – وجيليو، وغيرهم.

الفصل التاسع عشر

الحكم المصري في السودان

(١) المباني المصرية في السودان

أنشأت مصر بين فتح محمد علي وإلى قيام الثورة المهدية جميع المنشآت؛ من مباني فخمة ومعسكرات ومصالح أميرية ومساجد ومدارس، وساعدت الأهالي على بناء دورهم بالطوب والأخشاب بدل اتخاذها من اللبِن والغاب وجلود الحيوان، وأدخلت زراعة القطن، وأنشأت المطبعة الأميرية، وفتحت السدود النيلية للملاحة صعدًا إلى أعالي النيل، ومدَّت أول سكة حديدية عرفها السودان، تكلف إنشاء خمسين ميلًا منها حوالي ٤٥٠ ألف جنيه، وأنشأت ترسانة كبرى تصنع البواخر النيلية والمراكب وإصلاحها، وبني فيها وابورات بوردين، وتل حوين، والتوفيقية، والمنصورة، والفاشر، والإسماعيلية، وعباس، وشبين، والمسلمية، والحسينية، ونيانزا، ومحمد علي، والزبير، والسلطان، والخديوي، وغيرها.

وقد ثبت أن نفقات السودان كانت تربو على إيراداته في عهد الحكم المصري، وكان يتراوح ما تنفقه مصر بين المليون والثلاثة ملايين جنيه في السنة.

(٢) شهادة الأجانب للحكم المصري في السودان

قال سير صمويل بيكر: «يستطيع السائح الأوربي أن يزور المناطق البعيدة في السودان من غير أن يخشى على نفسه أكثر ما يخشاه مَن يتنزه بعد الغروب في حدائق هايد بارك بلندن.»

وقال أيضًا: «إن مصر وحدها هي التي تستطيع نشر الحضارة في إفريقيا النيلية وإنشاء حكومة نظامية»، وقال رودولف سلاطين باشا في كتابه النار والسيف: «السودان

المصري يحكمه الآن الخليفة عبد الله التعايشي، وقد كانت السنوات العشر من حكم المهديين كافية لنشر العبودية في نواحيه، ومن الحق أن نقول إن السودان قد ظل سبعين سنة ونيفًا منذ عهد محمد علي مستقلًّا بالحكم المصري، مفتوحًا للحضارة والمدنية، والمتاجر المصرية والأوربية تزدهر في عواصمه، والدول الأجنبية توفد قناصلها إلى الخرطوم، والسائحون على اختلاف أجناسهم يجوبون البلاد دون أن يلقوا ممانعة، وانتظمت طرق المواصلات والتلغرافات والبريد، وتؤدى الشعائر الدينية في المساجد والكنائس بالحرية، وتعمل مدارس البعثات بجانب مدارس الحكومة، وبالرغم من تعدد القبائل وما بينها من العداوة، فإن حزم الحكومة كان كافيًا لاستتباب الأمن في كل البلاد.»

(٣) في مذكرات القباني عن الحكم المصري

نقتطف من مذكرات السيد محمود القباني ما يلي:

«إن الحكومة كانت تبذل المعونة لساكني الخرطوم، حتى إنها لم تقف عند حدِّ منحهم الأراضي بلا ثمن، بل كانت تعاوِن بمنح أخشاب سقوف العمارات، حتى كانت سنة ١٢٧٤هـ، وفشت الأوبئة، فمن حمَّى «أم سبعة» إلى الهواء الأصفر «كوليرا». وقد هجر الخرطوم كثير من سكانها، وقد عد في ذلك الزمن أنه مناخ موبوء؛ لِمَا كان يكتنفه من نواحي الجنوب والشرق من مستنقعات وبرك تتعفن فيها المياه.

أما الكوليرا فقد انتقلت إليها مع المتاجر الواردة من الهند على ثغر سواكن، الذي كان خلوًا من نظم الكورنتينات، وهو إذ ذاك تابع لولاية الحجاز العثمانية، وكان جلَّ ما يرد إلى السودان من المنسوجات هنديًّا علاوة على الطيوب من عطور وعطارة وأسرة الساج وأسرة الحق «وهو خشب ملون بألوان حمراء وصفراء براقة جذابة، وكذا يصنع من هذا الصنف أوعية لحفظ العطور اليابسة ولتزيين المنازل، وما زالت باقية حتى هذا الحين باسم حُقٍّ، وقد أصبحت هذه الصناعة محلية تعلمها صناع البلاد من أهالي «جدة» وعلى كل فقد تضاءلت إلى حد بعيد الرغبة في التوسع باقتنائها.

وقد بذلت الحكومة مجهودات لا يستهان بها في ردم المستنقعات، وفتح مجاري لتصريف مياه السيول التي كانت تنحط على المدينة، وقد أدركنا هذا المجرى وموقعه في الساحة الواقعة جنوب سراي الحقانية، ثم ينحني إلى جهة الشمال فيصب في النيل الأزرق، وقد نظمت المحاجر الصحية في سواكن بعد ذلك، فلم تنتقل أوبئة البحر الأحمر إلى داخلية البلاد، فتراجع عمران المدينة.

ومنذ نشأتنا وجدنا مدينة زاخرة بالعمران، وبنايات بالآجر «الطوب الأحمر»، والحجارة المنضدة، وكانت تستخرج من حفر في الشاطئ الغربي بأم درمان، كما أن القمائن التي تشوي اللبن كانت في الضاحية الشرقية البراري والجريفات، وأكثر المنازل كانت دورين، وأقلها الدور الأرضي، والحكومة تشدد في تعميق الأسس وعرض الجدران، وأقل ما يسمح به في عرض الجدار ذراع معماري ونصف ذراع «نحو متر وعشرين سانتي»، وقد ارتفعت أسعار الأراضي التي على شاطئ النيل أولًا؛ إذ كانت مرغوبة لغرس البساتين لسد حاجيات سكان المدينة من فاكهة وخضراوات ونخيل وأعناب تؤتي أكلها في العام مرتين: واحدة في الشتاء، وأخرى في الصيف، فكان سكان الخرطوم يأكلون العنب شتاء وصيفًا من النوع الأحمر أكثر، والقليل من الأبيض.

ولما كثر عدد الأجانب من سراة الأوربيين رغبوا في تشييد دورهم على شاطئ النهر، فبذلوا أثمانًا عالية لأصحاب البساتين، بلغت قيمة المتر الواحد من جنيهين إلى ثلاثة، وممن فاز بقطعة كبيرة على شاطئ النهر وعلى بعد خطوات من مباني الحكومة من الناحية الغربية الخواجة جورجي تنسيادي، فشاد عليها قصرًا بالآجر، وكحلة الجير، كان له منظر خلاب، وبأسفله حانوت مستطيل مملوء بأصناف المشروبات الأوربية والبقالة، وبجانبه «بار وقهوة كبرى».

ومحل تنسيادي أكبر محل لبيع البقالة والمشروبات الأوربية، ويوجد في المدينة ما هو دونه، وكذا يوجد في الخرطوم محلات لبيع الملابس الأوربية الجاهزة من جميع أصناف الأجواخ والأصواف والأتيال، على النحو الذي كان وما يزال بمصر.

وفي الخرطوم — منذ نشأتها — قناصل للدول، كانت لهم امتيازاتهم كما في مصر،[1] وقد أدركنا أقدم قنصل هو الهر هنزل قنصل دولة النمسا والمجر، وقد قُتل يوم سقوط الخرطوم وعمره في العقد التاسع، وقد قيل إنه جاء الخرطوم وهو مريض، فشفي من مرضه ولم يعد إلى بلاده، ومع وجود جالية نمسوية أصلية ومتناسلة هنا فإن مهمة الهر هنزل كانت لرعاية مصالح الإرسالية الإفريقية الكاثوليكية، التي تفرعت منها فروع وصلت إلى جبال النوبة بكردفان، وشادت معابد بها ومراكز للدعاية، وقد تعهدت الإمبراطورية الهابسبورجية بحماية هذه الإرسالية في مصر والسودان، ولم تزُل

[1] ألغيت الامتيازات بعد استعادة السودان سنة ١٨٩٩.

هذه الحماية إلا بعد الحرب العظمى وزوال الإمبراطورية النمسوية، وتحويل هذه المهمة إلى إيطاليا.

وقد فاز ألبير ماركويت — رئيس شركة فرنسية كبرى كانت تتجر في الصمغ والعاج وريش النعام، وتستورد البضائع الفرنسية — بابتياع بستان علي بك خلوصي، وبناء قصور في شماله مجزأة إلى مساكن «شقق»، وقد شيدت بالحجارة المتسقة المنضدة، وموقعها في سراي صاحب السيادة السر السيد علي الميرغني الحالية والشارع الواقع شرقها، وآخرون شادوا مباني في الجهة الشرقية، ومنهم الدكتور جورجي بك مفتش صحة عموم السودان المتوفى في حملة هكس باشا.

وبالرغم من ارتفاع ثمن أراضي الشاطئ — كما تقدم — فإن الحكومة ما زالت على نهج المعاونة في سبيل تعمير المدينة، فقد كانت حتى آخر أيامها تبيع الأراضي في الحي الجنوبي العربي المسمى «سلامة الباشا»، والحي المقابل له من الشرق «فرق النوبة» بسعر قرش صاغ واحد للمتر.

وقد قدر سكان الخرطوم إذ ذاك بأكثر من مائتي ألف نسمة، لا يقل عدد الجواري والغلمان في هذا التقدير عن ٥٠ إلى ٦٠ ألفًا، ويقدر عدد العنصر المصري خاصة بنحو ٧٠ ألفًا، ونحو ٣ آلاف من عناصر أخرى كالأوربيين أو المغاربة والسوريين والأتراك.

وفي تقرير المرحوم عبد القادر حلمي باشا حكمدار السودان في سنة ١٨٨٣، أن عدد التجار في السودان كله من المصريين وغيرهم من الأجانب يبلغ ثلاثين ألفًا، منهم نحو ألفين من الأوربيين، جلُّهم من الإغريق الذين كان لهم قنصل في الخرطوم يدعى «لونديدي»، يعد من كبار تجار المدينة وذوي الرأسمال الذي لا يقل عن ٥٠ ألفًا من الجنيهات.

وكان في الخرطوم تجار لأعقابهم الآن ثروات عظيمة في مصر وسوريا، ذُكروا في تاريخ السودان للمرحوم نعوم بك شقير، ومن أشهرهم: أسرة حبيب باشا لطف الله؛ إذ كان أخوه الخواجة خليل لطف الله يدير تجارة كبرى في الخرطوم، حتى توفي بها قبل أن أرى الدنيا، وكانت تركته تحت إشراف قنصل روسيا، ومن جملتها نحو ألف قنطار من العاج كانت موضوعة في منزل أحيط بخفراء من جنود الضابطة، فتوصل لص كبير إلى سقف المكان فنقبه ولم يترك فيه نابًا واحدًا من أنياب الفيلة التي تبلغ الألف قنطار، ولما فتحوا المحل ألفوه خاويًا على عروشه، إذ أعاد اللص السقف المنقوب كأنه هو، فقامت قيامة التحقيق، وكان مع والدي؛ لأنه المعين لتصفية التركة، وكان المحل

مختومًا بخاتمه وأختام القنصلية ومأمور التركات ومأمور الضابطة ومدير الخرطوم، والمحققون متخبطون لا يدرون ما يفعلون.

وراجت إشاعات بأن اللصوص هم الجن، وأرعدت وأبرقت قنصلية روسيا، وأمطرت نظارة الداخلية الحكمدارية بوابل البرقيات ونسبة الإهمال وفقدان الأمن بعاصمة السودان، وبعد بضعة وعشرين ليلة جاء إلى أخي «الفقيه خوجلي الخراط» صاحب ورشة كبيرة لخرط العاج والأبنوس بالخرطوم، يخبره أن جارية من البغايا جاءته بقطعة من العاج تبلغ ٥٠ رطلًا ليشتريها بقيمة لا تربو على عُشر ثمنها، وأنه يظن أنها من العاج المسروق، وقد أبقاها بمنزله ليحضر لها المال، فأسرع أخي واستيقن أنها من السرقة، واعترفت له الجارية بأن في منزل فلانة دانقة «غرفة» مملوءة إلى السقف، وهي لفلان خليل ربة البيت، وهو موجود في المنزل.

فأشعرت السلطة في الحال، وضبط السارق والسرقة، ولم يفقد منها غير القطعة التي عرضت على الخراط، وهي أول عرض للبيع، وقد حكم على اللص بالسجن والأشغال الشاقة ١٥ سنة في ليمان فاشودة، وقد اعترف بتفاصيل جرأته ومهارته؛ حيث توصل إلى سقف الغرفة ونقبه، وظل ينقل القطع مدة أربعة شهور رويدًا رويدًا، وقد بيعت هذه الصفقة بعد ذلك بأربعين ألف جنيه إلى جماعة من التجار سافروا بها إلى بمباي، وعادوا بثمنها منسوجات حريرية وقطنية وعطور هندية بيعت في أسواق الخرطوم والمسلمية والأبيض بأرباح طيبة، وكونت رأسماليات في هذه البلد، كما نمت وبوركت في أيدي آل لطف الله بمصر.

ويجدر بي أن أذكر أن في الخرطوم مطبعة أميرية حجرية لا تزال باقية في متحف مخلَّفات العصر الماضي، وفي المطبعة معمل لصناعة الورق يقوم بحاجة الحكومة من ورق ودفاتر وأوراق التمغة التي كان لها رواج عظيم؛ إذ لا تُسمع الشكاوى ولا تعتبر المعاملات المدنية والتجارية إلا إذا كانت محررة على أوراق التمغة المتفاوتة في قيمتها. وأمثلة مكتوباتها: «سند تمغة من مبلغ كذا إلى مبلغ كذا». وكان في الخرطوم ورشة لتجهيز ملابس الجيش من الدمور، والأحذية من جلود البلاد، ولا يستورد من لوازم الجيش من مصر غير الطرابيش، وكان الضباط يلبسون ملابس الجوخ أو الدمور، وكان الحكمدار هو الحاكم العام، وله وكيل مستديم يليه غالبًا في الرتبة والأهمية، والحكمدار على الدوام من السلك العسكري من رتبة الفريق؛ لأنه القائد العام للجيش، وقد خرمت هذه القاعدة في الزمن الأخير بإسناد منصب الحكمدار إلى المرحوم علاء

الدين باشا؛ لسد باب الاختلافات التي اتسعت بين الفريق عبد القادر حلمي باشا الحكمدار والجنرال هكس باشا، إذ أقيل عبد القادر حلمي باشا وجيء بالفريق سليمان نيازي باشا باسم قائم مقام الحكمدار، فاختلف أيضًا مع هكس باشا فأقيل كسلفه، وجيء بعلاء الدين باشا، فكان من نتائج ذلك تسيير الحملة ومهلكها المعلوم. وكانت الأوضاع كما هي في مصر، فكانت المكاتبات بالعناوين التركية، مثال ذلك: «سودان حكمداري سعاد تلو أفندم حضر تلري»، والاصطلاحات التركية كانت شائعة ومفهومة.

وقد عيَّن ساكن الجنان محمد علي المرحوم الشيخ أحمد السلاوي قاضيًا لعموم السودان، وألزم الحكمدار خورشيد باشا أن لا يقطع أمرًا دون مشاورته ومعه آخرون من أعيان البلاد، وكان نظر القضايا والحكم فيها مدنيًّا وجنائيًّا من اختصاص المحكمة الشرعية إذا كانت كبرى، وأما الصغرى فينظرها مأمور ضبطية الخرطوم ومعه مفتي الضبطية إلى يوم سقوط الخرطوم.

وبعد ذلك أنشئت المجالس تبعًا لمصر، فكان في الخرطوم — كما في كل مديرية — «مجلس محلي» للحكم في القضايا المدنية والجنائية الكبرى، وآخر رئيس لمجلس الخرطوم المحلي المرحوم محمد بك بدوي، والد توفيق محمد بدوي أفندي وأخيه نيازي أفندي، وقد توفي قتيلًا يوم سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥. وفي الخرطوم «مجلس استئناف» تستأنف له جميع الأحكام الصادرة من مجالس السودان المحلية، ويجوز الطعن في أحكام مجلس الاستئناف بتقديم الطعن إلى مجلس الأحكام بمصر، وإليه تُرسل جميع أوراق المجلسين، فيُصدِر حكمه نهائيًّا بعد فحص الأوراق والاطلاع على وجوه الطعن من الطاعن، وكان رئيس مجلس الاستئناف في العهد المتقدم «الأميرالاي إسماعيل أيوب بك» الذي صار فيما بعد الفريق إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان، ولكل واحد من هذه المجالس المحلية «مفتي»، وللاستئناف «مفتي» عيَّنته نظارة الحقانية المصرية منذ أنشأته، وقد استوطن الخرطوم وما زال في وظيفته حتى مات قتيلًا يوم سقوط الخرطوم سنة ١٨٨٥، وهو الشيخ شاكر حسن الريس من أسرة الريس المعروفة في غزة هاشم بفلسطين، كما أن آخر رئيس لمجلس الاستئناف هو المرحوم حسن عبد المنعم بك، والد الوجيه الشيخ أحمد حسن عبد المنعم وأخويه، وهناك كثيرون من موظفي هذه الهيئات ما زالوا على قيد الحياة.

إن مصالح الحكومة في الخرطوم متعددة، وأماكنها متدانية مواقعها، وأعظم تلك البنايات هي بنايات الحكمدارية، ما عدا «السراي» التي لم تكن ديوانًا، بل هي دار

سكنى أسرة الحكمدار، وفي العهد الأخير تحوَّلت ثلاثة أجزائها إلى دواوين حكومية؛ فعل ذلك المرحوم غوردون باشا سنة ١٨٨٤، إذ اكتفى هو بالجناح الأعلى لمكتبه ومعاونيه، وشغل الدور الأرضي كله بمصلحة (مالية السودان).

ديوان الحكمدارية مبني بحجارة بيضاء جميلة منحوتة، ذات منظر يضارع أعظم مباني القاهرة، ومرتفع سطحه عن سطح الأرض بأكثر من ثلاثة أمتار، وله نوافذ شمالية تطل على النهر، والشاطئ مرصوف بالحجارة، وقد غُرست حول النوافذ أشجار باسقة، ومدخل إيوان جلوس الحكمدار من الجهة الجنوبية بثلاثة أبواب كبيرة جدًّا، يجلس القواصة الأتراك على دكتين؛ شرقية وغربية، بسراويلهم المقصبة وأرديتهم القصيرة «سلطة» وسيوفهم الكبيرة المحنوفة، هذه الأبواب الثلاثة هي التي يدخل العموم منها لمقابلة الحكمدار، وفي شرق هذا الإيوان رواق مستطيل، فيه غرف من الجانبين، وله باب شرقي يدخل منه الحكمدار من وإلى السراي، والغرف التي بجانب هذا المدخل إحداها «مكتبة لحفظ الكتب» «كتبخانة» ومكاتب لموظفي القلمين الإفرنكي والتركي، وأوراق هاتين القلمين.

وأذكر أن هذه المكتبة نُثِرت وبُعثرت كتبها النفيسة وأوراقها الكثيرة على شاطئ النهر، وهي عامرة بكل كتاب طبعته المطبعة الأميرية من حين وجودها، وقد علمت أن لكل عاصمة من عواصم المديريات مثل هذه المكتبة تُرسَل من القاهرة رسميًّا، وقد اغتنم كل من رأوا تلك الكتب المبعثرة ممَّن يعرفون قيمتها بحمل ما عثروا عليه، وقد حملت أنا بدوري ما استطعت حمله قبل أن تُلقى في النهر وتضرم فيها النيران. ومن أنفس ما ظفرت بين الأوراق كيسٌ فيه أوراق كل سنة قد كتب باللغتين العربية والتركية، مبتدئ من اليوم الذي غادرت فيه حملة الأمير إسماعيل باشا القاهرة، وكيف ودَّعها ساكن الجنان محمد علي الكبير في سنة ١٢٣٥، وترى في كراسة سنة ١٢٣٦هـ حديث اجتياز الحملة من الشاطئ الأيسر إلى الخرطوم إلى فتح سنار، وفي كراسة سنة ١٣٠١هـ حصار الخرطوم، وكراسة سنة ١٣٠٢هـ محتوية على بقية الحصار، وبديهي أن يوم سقوط الخرطوم لم يُذكر، وفي سني حكم غوردون باشا الأولى قد كُتب التاريخ باللغتين العربية والفرنسية، وفي المدة الأخيرة اقتصر على اللغة العربية، والظاهر أن لغوردون يومية بالإنكليزية علاوة على مذكراته، كما اطلعت على كثير من الوثائق الرسمية وأكثر البرقيات مكتوبة بالشفرة «الأرقام»، وبعد أن ظلت تلك الأوراق مبعثرة ذهبت طعمة للنار أو لقاع النهر.

ولقد كان من سياسة غوردون باشا الأخيرة في فبراير سنة ١٨٨٤ أنه أحرق دفاتر الأموال المتأخرة جميعها في يوم مشهود في رحبة الحكمدارية.

أعود بعد هذا إلى تخطيط دار الحكومة بعد أن تكلمت عن غرفة الحكمدار والمكاتب الشرقية والباب الشرقي المسمى «باب السر»، فهناك جناح غربي فيه غرفة «وكيل الحكمدار» والأقلام العربية، وقد أدركنا، لأول إدراكنا، وكيل الحكمدارية ججلر باشا، وهو ألماني بروسي، ورئيس الأقلام هو المغفور له العم محمد أفندي الحاج، والد الأخ جيلاني محمد الحاج أحد قضاة محكمة الخرطوم الأهلية الآن، وابن عم المرحوم الوجيه الحاج المرضي الخضر عمدة الخرطوم الأسبق، وعين أعيان القبيلة التي هي أقدم ساكني الخرطوم منذ قرون، توفي المرحوم الحاج محمد أفندي الحاج يوم سقوط الخرطوم قتيلًا، رحمة الله عليه وعلى من ماتوا معه.

ويقابل بناء الحكمدارية بناء مديرية الخرطوم، وهو منزوٍ إلى جهة الغرب، وأقل ارتفاعًا من بناء الحكمدارية الذي يسامته من الجنوب دهليز مستطيل وبوابة جنوبية كبيرة مزخرفة يتوصل إليها من فرندة ذات أعمدة شاهقة يجلس فيها ذوو الأشغال من الأهلين، وكثير ما هم، والغرف التي بجانبي الدهليز معدَّة لسكنى البلك النظامي وضابطه، المنوط بهم حراسة السراي ودور الحكومة أسبوعيًّا، ثم هنا مصلحة التلغراف وخزانة الحكومة، ثم الدفترخانة في الجناح الشرقي والزاوية الشرقية الجنوبية، يجمع هاته المصالح حوش واحد متسع تُقام فيه الحفلات الرسمية على نحو ما يُقام في القاهرة الاحتفال بالمعراج الشريف، والاحتفال بنصف شعبان، وبعده لليلة القدر على النحو الذي تقام به في القاهرة بشهود الحضرة الخديوية، وهي احتفالات دينية يتحتم المحافظة عليها؛ إنفاذًا لوصايا ولي الأمر، إذ تُختم بالدعاء لذاته الكريمة، وينفق عليها من الحكومة، وكان غوردون باشا في زمن حكمه من أشد الناس محافظة عليها، حتى في أيام الحصار، وكذا كان يحتفل ليلًا بعيدي ميلاد وجلوس سمو الخديوي احتفالًا دينيًّا ليليًّا، علاوة على حفلات النهار من الاستعراضات والتشريفات.

وفي شرق الفرندة الغربية مصلَّاة مرتفعة عن الأرض بنحو ٨٠ س، مبلطة أرضها بحجارة كأنها البلاط البلدي في مصر، وفي غربها نحو ٥٠ حنفية تستقي من النيل، وبجانب هذه المصلاة منبر عالٍ «هو الموجود في متحف بيت الخليفة بأم درمان»، فإذا حانت دقيقة زوال الشمس سمع الناس «الله أكبر» من فوق المنبر بصوت جمع بين

الجهر والرخامة من فم العم «المرحوم الشيخ حسين المؤذن، الذي مات قتيلًا يوم سقوط الخرطوم عن عمر يناهز التسعين خريفًا»، وقد وقف دولاب الأشغال، وهرع الناس إلى المصلاة، وأغلقت أبواب ديوان الحكمدار إلى السراي ومثله وكيله، فهما اللذان يتناولان الغذاء في داريهما، أما مدير الخرطوم وسائر رؤساء المصالح فإنهم يتناولون غذاءهم في ذات المصالح، وقد شهدتُ المدير ووكيله والباشكاتب يأكلون معًا، ولكل واحد منهم مائدته ذات الألوان المتعددة.

ومن المظاهر التي تستحق الذكر موائد الموظفين الأقباط في أيام الصيامين، الصغير السمكي والكبير اللاروحي، فإن زملاءهم الموظفين المسلمين يستطيبون الألوان الكثيرة المطبوخة بالزيت طبخًا في منتهى الإتقان والجودة، لا سيما «الطعمية» المتقنة بالتوابل، وكانوا يسمونها «القريصة»، والخبز الشمسي الذي لم أرَ له مثيلًا في أيام الكهرباء وأخواتها. ومع انخفاض الأسعار وقيمة إردب القمح من ٢٥ قرشًا إلى ٣٠ قرشًا، فإن نفقات الطعام على أعمامنا الأقباط — يومئذ — لا يستهان بمقاديرها، فأقل ما يجتمع حول مائدة أحدهم العشرةُ من الزملاء، سوى ما يُتحف به الجيران في بيوتهم، كل على حسب سعته، ويلحق بهذا ما كنَّا نراه في بيوتنا كل ليلة من مشاركة الأعمام والإخوان الأقباط لآبائنا وإخواننا في فطور رمضان، والتفنن في أنواع أطعمته لإخوانهم المسلمين، ولا غرابة، فإن أهالي الخرطوم مع كثرة عددهم واختلاف أجناسهم بين مصريين وأتراك وجعليين ومحس ودناقلة و… بل أجناس أخرى من سوريين ومغاربة، حتى الأجناس الأوربية، كانوا على أحسن ما يُتصور من إخلاص الود لبعضهم ومتانة الروابط بينهم، ولقد كان شعار قوميتنا الخرطومية: «إذا أطعمتَ فأَشبِع»، أي إن المائدة التي يجلس حولها عشرة تشبع العشرين إذا لم أقل الثلاثين.

عودٌ إلى الموظفين، فإنهم تناولوا طعامهم وهم جلوس على الأرض المفروشة بالبروش حتى يؤذنهم العم الشيخ حسين بصلاة العصر لأول وقته، وبعد أدائها يستأنفون أعمالهم، ولا يبارحون دواوينهم إلا قبل غروب الشمس بساعة وربع ساعة، وهذا شأن جميع مصالح الحكومة، إلا أنه لا يوجد مؤذن ومنبر إلا في الحكمدارية، وليس هذا الأذان وإقامة الصلاة خاصًّا بوقتي الظهر والعصر، اللذين يحضرهما موظفو المصالح سالفة الذكر، بل هو مستديم للأوقات الخمسة ما عدا ظهر يوم الجمعة، وذلك احتذاء لمثل ما هو متبع في سراي عابدين أو رأس التين المقر الرسمي للجناب العالي الخديوي، وقد جرى الرسم بهذا كله من عهد ساكن الجنان محمد علي الكبير.

وقد ذكرت فيما تقدم من الذكريات أن الحكمدار نائب الحضرة الخديوية في السودان يجري الرسم في معاملته وفق ما يجب للذات الخديوية بدون إخلال.

ولقد كان الطيب الذكر غوردون باشا من أدق الحكام في المحافظة على رسوم هذه النيابة، وللذكرى والتاريخ أدوِّن أن الاحتفال بالمولد النبوي كان يجري في الخرطوم بالصفة الرسمية التي تجري في القاهرة: لكل مصلحة سرادق، وتقام الزينات وتطلق نيران المدافع، وكان آخر حفل به في ليلة ١٢ ربيع أول سنة ١٣٠٢، أي قبل مقتل غوردون وسقوط الخرطوم ببضع وعشرين ليلة، فأقيم الاحتفال في فناء الحكمدارية وزُيِّن بالرايات والفوانيس، ودعي العلماء والكبراء، وجلس غوردون باشا في صدر الحفل ببذلة التشريفة الكبرى في وسط الحاضرين، واعتلى المنبر المغفور له العلامة السيد حسين المجدي «باشخوجة المدرسة الأميرية» وتلا القصة الشريفة، وبخور العودة يتصاعد من المجمرة الفضية المذهَّبة المرصودة لمثل هذه الحفلات. وقد رأيت غوردون باشا يرفع رأسه والعقال القصبي اللامع فوق كوفيته الناصعة البياض، وإذا تضاءل دخان البخور أسرع إلى المبخرة المرحوم اللواء موسى شوقي باشا مدير الخرطوم لإصلاحه، فلما انتهت التلاوة أُطلقت المدافع من بطارية السراي، ومن طوابي باب المسلمية والمقرن وتوتي وراسخ بك في البر الشرقي، وقد جلس إلى المائدة ومعه المرحومان الشيخ الأمين الضرير شيخ علماء السودان، والسيد حسين المجدي سالف الذكر، وجماعة من العلماء، ولم يُطِل الجلوس، بل قام متفقِّدًا القصاع التي وضعت على الأرض للفقراء، وقد قسَّم بيده حلوى المِلَبس على الأولاد الممتازين، ومرَّ بنا وبجانبي صديقي الأخ المرحوم بقطر عبد المسيح غطاس أفندي ونفح كل واحد منَّا شيئًا من الملبس بعد أن خاطبنا «قباني غطاس»، وكانت هذه الليلة المباركة خاتمة ليالي الاحتفالات التاريخية في الخرطوم؛ فقد سقطت في صبيحة اليوم التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٠٢هـ ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥.

ومما يستحق الذكر مناظر المتنزِّهين حول المدينة من الشرق والغرب والجنوب والشمال، وفي الزوارق، وإن كانت قليلة فإنها تمثل منظر التنزه في زوارق البوسفور في إستانبول كما يقول الأتراك والأوربيون الذين شاهدوها هناك، واحتذوا مثالها هنا، فإنك ترى المتنزِّهين في أرض الإرباض ركبانًا على الخيول المختلفة في آلتها، فهذا آلته وسرجه تركي، وبجانبه آخر بآلة وسرج سوداني أو إفرنكي، والكل في غاية الفخامة من «رشمات» فضية مطلية بالذهب. واختلاف أزياء المتنزِّهين له منظره البديع، فهذا يلبس

زيًّا إفرنجيًّا أنيقًا مع الطربوش، وبجانبه آخر يلبس الزي القديم «السراويل والشبكن»، أما الطربوش المضلع فهو الزي الرسمي لجند الباشبوزق على اختلاف أجناسهم، وكنا نرى قساوسة الإرسالية الكاثوليكية بأثوابهم الكهنوتية وغطاء رءوسهم «الطربوش»، وكانوا قبل زماننا يتعمَّمون كقساوسة الأقباط، والميزة بينهما أن القبطي بقفطان وجبة أو زعبوط، وهم بثوبهم الطويل المزرر. وقد رأيت في كنيسة الكاثوليك تمثالًا نصفيًّا من الرخام، صنع إحياءً لذكرى المونسنيور الأرشمندريت «إنياسيو كنوبلخير» الألماني الذي أسس الكنيسة، لابسًا قفطانًا وفرجية وعمامة.

وبالجملة أن الأزياء في الخرطوم كانت معرضًا محتويًا لأزياء أهل الأرض كلهم تقريبًا، ومن بين المعممين ترى العمائم المتباينة، من مصرية وصعيدية إلى سودانية إلى سورية إلى هندية إلى بخارية أو تركية، وكذا القبع واللحى الإفرنجية، وكثير منهم كانوا يحلقون لحاهم من أسفل الحنك، فيسميهم الناس أبو «دقنين».

ومن مشاهد النزهة التي تجري في الخرطوم في أغلب أيام الأسبوع «لعبة الجريد»، التي يقوم بها أجناد الباشبوزق الأتراك والمغاربة والشايقية والأهالي، وهي تمثل مبارزات الحروب والترامي بالسهام، وفي الأغلب يحضرها الحكمدار والكبراء وقناصل الدولة، ولستُ بناسٍ حلقات «الحاوي» المشعوذ والألعاب المدهشة من فنون السينما. وفي مرة وفد إلى الخرطوم «حاوٍ» شهدنا أنه قطع شابًّا إربًا إلى عشرين قطعة، والدم قد ملأ الأرض، فصرخت أنا وأترابي وأغمي على بعضنا، ثم تمثَّل لأعيننا أن الدماء والأجزاء المقطعة تتحرك وتقترب من بعضها حتى استوت شخصًا سالمًا بجلابيته الزرقاء وطربوشه قبل أن يذبح ويقطع إربًا! ومن مناظر الشعوذة التي كنا نراها كل يوم: «رجلٌ من ساكني الخرطوم قصير القامة، ضخم الجثة، كبير الوجه، ضخم الرأس، يبلغ شعره منكبيه، يحمل مسمارًا غليظًا مستطيلًا، على رأسه حلقات حديدية لا يقل وزنها مع المسمار عن عشرين رطلًا، يغرس هذا المسمار في عينه حتى تراه لامعًا شبرًا في قفاه وقد سالت الدماء، ثم يستله ولا أثر للدم ولا ضرر بالعين»، هكذا يعيده دواليك، وقد يضعه في صدره وقلبه وبطنه حتى صارت شعوذته هذه مألوفة لدينا، وأصبحنا لا نلتفت لنظرها ولا يدهشنا منظرها، وكذلك شأن المشعوذين الذين يدخلون من أفواه الدواب ويخرجون من أدبارها.

ولاستيفاء تخطيط الحكمدارية أذكر بناء حجريًّا متينًا، عريض الجدران في طول شاهق، حصن منيع كأنه في داخله أروقة، يسمَّى «طوبخانة»، أي: محل المدافع، كان

نظام الجيش قبل سنة ١٢٨١هجرية — التي وقعت في إبَّانها ثورة الآلاي الرابع السوداني في كسله — أن لكل آلاي طوبجية وفرسانًا تتبعه من ذات فصيلته، وقد رأى سمو الخديوي إسماعيل من وقائع تلك الثورة فصل قوة الطوبجية من جميع الألوية، وبقرب نظر الحكمدار، وأن يكون جندها من المصريين، وضباطها إن لم يكونوا أتراكًا فمن المصريين، وأحسب أن هذا الإجراء متبع حتى الآن في الجيش المصري. وبهذا صارت وظيفة قومندان الطوبجية منفصلة عن قيادة الجيش العامة، تخضع لأمر القائد الأعلى الحكمدار بالنيابة عن الحضرة الفخمية الخديوية، وآخِر من ولي هذه الوظيفة العم المرحوم الأميرالاي محمد بك العتباني، الذي قُتل يوم سقوط الخرطوم في مركز وظيفته بخط الدفاع الغربي من باب المسلمية، وسبحان مقدِّر الأمور وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين!

ليست أنظمة الماضي التي أذكرها اليوم قريبة المشابهة بما هو تحت نظر قصار النظر اليوم، فقد ذكرت هيئة ديوان الحكمدارية وأبوابه الثلاثة، والحكمدار يجلس في حده الشمالي ووجهه إلى ناحية هذه الأبواب، ومن الميسور على كل شاكٍ أن يواجهه ويسلِّمه عريضته يدًا بيد، فيأخذ في تلاوتها ثم يوقِّع عليها بالقلم الأحمر هكذا: «يتحرَّر إلى كذا بإجراء كيت وكيت»، ويسلمها لصاحبها قائلًا هكذا: «ودِّيها إلى فلان أفندي أو فلان بك»؛ يعني الكاتب المختص بهذا. ويكون قوَّاصان وقوفًا بجانب الشاكي بسيوفهما، فيخرجان معه، فإذا كان عارفًا بمحل الكاتب تركاه يذهب وحده ويعودان إلى الجلوس مع رفاقهم، وإن كان جاهلًا بمكانه رافقه أحدهم حتى يسلمه إلى فلان أفندي أو فلان بك، الذي يكتب على ظاهر العريضة ما أمر به الحكمدار، ثم يعود الشاكي نفسه إلى الحكمدار فيوقِّع ما كتب بخاتمه ويسلِّمه إلى المشتكى، الذي يحمله بيده إلى الجهة أو الشخص الذي كتب إليه. فهل في ما ذُكر مشابهة بمجريات العهد الحالي؟ أوليس هذا مطابقًا لما كان متبعًا في الحكومات الإسلامية من أقدم عصورها؟ فليتدبر العقلاء وليقيسوا عليه إذا كانوا على علم بالقياس قبل أن ينتقدوا، فإن سكان الخرطوم لرسوخ أقدامهم في المدنية واتصالهم بالقاهرة، يمثلون هيئة رقابة على أعمال الموظفين حتى الحكمدار، وهم الذين شكوا المرحوم ممتاز باشا إلى الأعتاب الخديوية فأُوقف عن العمل، وحُبس في مسكنه، وأرسل الخديوي قومسيونًا برئاسة خالد باشا لتحقيق ما نسب إليه، فتوفي إلى رحمة ربه قبل الانتهاء من التحقيق.

وفي عهد قريب من بداية القلاقل وظهور المهدية عُزل أحد الباشوات الكبار، وكان برتبة فريق وقائد عام الجنود وقائمقام الحكمدار غوردون باشا في غضون تجوله في

السودان؛ لِمَا نُسب إليه من ظواهر معاقرة الخمور، وتهيئة مجالس المنادمة والطرب، ومخادنة خليلة، اشتهرت به يومئذ، وقد أبرق إلى سمو الخديوي بالشكوى من ذلك العمَّان المرحومان محمود بك محيي الدين، وحسن بك عبد المنعم، وأيد شكواهما قنصلا إيطاليا واليونان.

وبالجملة أن سكان الخرطوم هيئة قوية معروفة أفرادها لدى الأعتاب الخديوية، يرفعون إليها شكاويهم عن كل اعوجاج، حين يفزع إليهم أعيان البلاد من كل الأقاليم ليتوسطوا في إنصاف المظلومين، وإجراء العدل، ووضع الأمور في نصابها، وقد سمعتُ بوقوع محاكمات لمديري المديريات، فقد كان علي بك الكردي مدير فاشودة قد اعتدى بالضرب بالفلقة والكرباج على منقريوس أفندي أبو دوس باشكاتب مديرية فاشودة، ولما اتصل الخبر بأعيان الخرطوم شكوا للخديوي رأسًا، فجيء به محبوسًا رهن التحقيق والمحاكمة، وولي بدله المرحوم يوسف بك كردة، وما زال علي بك الكردي في الخرطوم حتى أرضى الشاكين بدفع تعويض لصاحبهم المجني عليه وانتهت القضية صلحًا، ولكن الخديوي توقَّف عن المصادقة على الصلح حتى وقعت كارثة مقتل يوسف بك كردة في واقعة ثورة الشلك فرؤي العفو عن علي بك الكردي وإعادته إلى فاشودة لتأديب الثوار والأخذ بالثأر، وقد نجح في هذا الصدد أكبر نجاح، ولم تقم قلاقل وثورات بعدها؛ إذ انتزع الملك «كاتكير» الثائر، وقامت بعده أسرة «كيكون» الذي صار الملك «كيكون بك»، وقد قتل في إحدى الوقائع التي وقعت بين الحكومة والمهدية في قدير.

ونظير هذه القصة ما هو من أسرار التاريخ المجهولة، أن المرحوم راشد بك أيمن مدير فاشودة اعتدى أيضًا بالضرب على الأخ المرحوم عثمان أفندي فريد باشكاتب مديرية فاشودة، وحالما اتصل الخبر بأعيان الخرطوم رفعوا شكوى إلى الخديوي توفيق (رحمة الله عليه)، وأرسلوا الملابس الملوثة بالدماء، فأيقن راشد بك أيمن بأنه لا محالة سائر إلى ما صار إليه علي بك الكردي من الحبس والتحقيق في الخرطوم، وقد اتصل به نبأ وصول المهدي إلى قدير، فألقى القبض على عثمان أفندي فريد المجني عليه، وأودعه السجن بعد أن خاطبه بأنه سيتقدم بالحملة على المهدي، فإما أن ينتصر وينال عفو الخديوي عن جريمته، وإما أن يموت فلا يُعاقب على جريمته بأيدي أهل الخرطوم من رؤساء وأعضاء المجالس التي تحقق معه وتحاكمه، وهكذا تقدم وكان من هلاكه ما لسنا بصدد الكلام عنه. ونظائر هذه الوقائع أكثر من أن أتصدى لتدوينها، وإنما أُثبِت هذه الوقائع ليتدبَّر الذين يهرفون بما لا يعرفون، وليعلموا أن اليوم غير الأمس،

فلا يحكمون على تلك الأيام بالموازين المنطقية الحالية بعد أن تغيَّرت البلاد ومن عليها. وهل علموا أن سكان السودان كانوا في سنة ١٨٨١، ١٣ مليونًا ونصف مليون، وسكان مصر لا يبلغ عددهم سبعة الملايين، وقال السير رجنلد ونجت باشا السردار والحاكم العام في سنة ١٩٠٠ «إن سكان السودان أقل من أربعة ملايين، أي إنهم نقصوا خمسة وسبعين في المائة في مدى ١٩ سنة، ولكنهم اليوم على وشك أن يستعيضوا كل ما فقدوه من النفوس التي انتقصت منهم.»

(٤) الإرساليات العلمية من الخرطوم إلى مصر

كان أكثر الوظائف الفنية في الخرطوم يتربَّع على سنامها متخرِّجون في مدرسة الخرطوم أولًا، ثم أُرسلوا إلى مصر لإتمام دروسهم، وهم كثيرون جدًّا من مهندسين ومسَّاحين وغيرهم، هنا أعرض لذكر واحد منهم، هو الأخ المرحوم إسماعيل صديق أفندي خاطر، وكيل إدارة بوستة السودان، أُنفذ إلى مصر مع أخيه المرحوم مصطفى أفندي خاطر نظير كثيرين على نفقة الحكومة، وكان إسماعيل على جانب كبير من الاضطلاع بهذه المهمة التي لا يخفى ما كانت عليه من خطورة وتعقيد؛ إذ كان النقل بالجمال والسفن، وكان مدير البوستة إسرائيلي إيطالي يدعى «جاكمو أمبروزو»، جاء الخرطوم منذ عهد بعيد رئيسًا لشركة إيطالية كبرى، كانت تتجر في حاصلات السودان من العاج وريش النعام، الذي كان إذ ذاك في الذروة، من علو سعره يكاد يكون ذهبًا، ويقرب منه شأن العاج والصمغ، فعيَّنته الحكومة مديرًا للبوستة، ولكن المدير فعلًا هو أخونا المرحوم إسماعيل صديق خاطر، يشغل وظيفته، باللغة العربية والإفرنسية معًا، ورؤساء سائر المصالح من مواليد الخرطوم؛ سواء أكانوا مصريين أم أتراك أم سودانيين، على السواء.

(٥) في الإرساليات المصرية

مدرسة الإرسالية البروسيانية قد تخرَّج فيها عدد قليل من أبناء الخرطوم غير المسلمين، إذ لم يتخرَّج فيها من أبناء المسلمين غير أخوي المرحومين محمد درويش القباني وأحمد القباني، ومن نوابغ الذين تخرجوا في هذه المدرسة المثري الشهير الذي استوطن مدينة أسوان، حيث هاجر إليها في سنة ١٨٤٤ المرحوم بطرس بك سركيس وكيل قنصلاتو إنكلترا في أسوان، وكان على جانب من الذكاء والحصافة، ولد بالخرطوم من والد أرمني الجنس وأم سودانية.

أخبرني في أسوان الميرالاي محمد ماهر بك وكيل محافظة أسوان «صار فيما بعد محمد ماهر باشا محافظ القاهرة»، والد صاحب المعالي علي ماهر باشا، وأصحاب السعادة إخوته العظماء، أنه جاء الخرطوم برتبة ملازم أول أركان حرب حملة الفريق السير صمويل بيكر باشا؛ لاكتشاف منابع النيل، وأن الخديوي إسماعيل أمر بتشكيل مصلحة خاصة في الخرطوم باسم «وكالة مأمورية خط الاستواء»، ولهذه المصلحة ترسانة خاصة آثارها باقية في «المقرن»، وأنه — أي: ماهر باشا — استصدر أمرًا من السير صمويل بيكر بتعيين وظائف جميع موظفي هذه المصلحة، ومن جملتهم أسند وظيفة «أمين مهمات هذه المصلحة وجميع أدواتها» إلى أخي محمد درويش أفندي القباني، وأسند منصب الوكيل إلى موسيو فردريك روسيه البروسي قنصل دولة روسيا في الخرطوم. وبالإيجاز: أن هذه المصلحة ظلت قائمة تخضع لمصر مباشرة حتى خلف غوردون باشا بيكر باشا، ثم سمي غوردون باشا حكمدار عموم السودان وسواحل البحر الأحمر، فألغى اسم إدارة النيل الأبيض وسميت «ترسانة الخرطوم»، وحولت إلى الموضع الذي بقيت فيه إلى سقوط الخرطوم في محل قسم الأشغال شرق السراي. وقد أدركتُ كثيرًا من موظفي هذه المصلحة، منهم: العم المرحوم على أفندي حسين باشكاتب تلك المصلحة، وابنه المرحوم مصطفى أفندي علي حسين الموظف بمصلحة الوابورات في الحكومة الحالية، والمرحوم البلولة أفندي محمد الحسن من كبار رؤساء الأقلام في تلك المصلحة ومحاسب المصلحة القضائية في هذه الحكومة— رحمة الله عليهم.

فكاهة

فكاهة تاريخية: أخبرني بها العم الأستاذ المرحوم الشيخ السلاوي من أعلام كتَّاب عصره، وابن قاضي قضاة السودان العلامة المرحوم الشيخ أحمد السلاوي، أنه كان أحد كتَّاب الحكمدارية في سنة ١٢٧٨هـ إلى ١٢٧٩هـ لعهد المرحوم راسخ بك، وكان كبير الكتَّاب إذ ذاك المرحوم قسم السيد أفندي، ويليه المرحوم محمد أفندي الحاج، فدخلتْ عليه عجوز جعلية، وقدَّمت له عريضة تظلُّم في مسائل أطيان زراعية، وكان منتشيًا تشمُّ منه رائحة الشراب، فاهتم بشكوى العجوز، واستدعى قسم السيد أفندي مستفهمًا عما تمَّ في شكاويها السالفة، فأجابه بما أوهن حجة العجوز، فالتفتت إليه مخاطبة: «خَفِ الله يا قسم السيد، هو «أي: الحاكم» سكران وأنت تقترش عليه»، فقال راسخ بك: «صدقت خالتي؛ أنا سكران وأنت تقترش عليَّ يا قسم السيد»، اسمعي

يا خالتي، إن محمد أفندي الحاج «مورود» محموم، وقسم السيد إذا قلت له اشرح عريضتك يقترش فيها، فخذي عريضتك واذهبي إلى منزل محمد أفندي الحاج، وقولي له سلامتك، واعرفي يومه الذي يجي فيه للديوان، وتعالي أخليه يشرح لك عريضتك «يكتب عليها»؛ يقول: «إدوا خالتي أطيانها أو جيبوا قضيتها أنا ذاتي أشوفها»، وضرب بيمينه على صدره، فودَّعته العجوز، فاتخذها لهجة بينه وبين قسم السيد أفندي مرارًا وتكرارًا كل يوم: «خف الله يا قسم السيد، أنا سكران وأنت تقترش علي.» هكذا كان الاتصال وثيقًا بين الحكام والمحكومين، يضاف إلى ذلك التزاوج، فإن المواليد أكثر من أن أحصيهم: آباؤهم مصريون وأتراك وأكراد ومغاربة وسوريون وأوربيون، وأمهاتهم عربيات وسودانيات، وفي هذا العهد يوجد كثيرون من بني قبائل السودان لا يشك من رآهم أنهم مصريون؛ لِمَا غلب عليهم من لون أمهاتهم، وإذا شاء الباحث اللبيب أن يعترض بالإشارة السطحية، والحكم بالنتائج الأخيرة، فإنه يستطيع دراسة كل ما يتطلبه بحثه الإنصافي المنشود، وإنما بدل من أن يقول لنا إن ليس من الميسور في طريق السلامة خوض تلك المواضيع بعد أن اكتنفتها ظلمات مدهشة ودوافع حائلة يقترش علينا كما يقترش العم المرحوم.

وتـغـافـل عـن أمـور إنـه لا يفز بالحمد إلا من غفل

ا.هـ.

(٦) تفاصيل عن الحكم المصري وإدارته

ذكرنا فيما تقدَّم أن زيلع وبربرة وهرر والصومال قد فُتحت في عهد إسماعيل، وضُمت إلى مصر في سنة ١٨٧٥.

وزيلع وبربرة من بلاد الصومال الشمالية على خليج عدن،[٢] وأهم مدنها ثغور زيلع، وهي ميناء سلطنة هرر على خليج عدن، ومركز تجاري للبُن وسن الفيل والجلود وريش النعام والصمغ العربي والمر، ومن زيلع بلدة «جبرت» التي كانت منشأ آل

[٢] معجم البلدان — لياقوت، جزء ٢ ص١٠٦، وجزء ٤ ص٤٢٥.

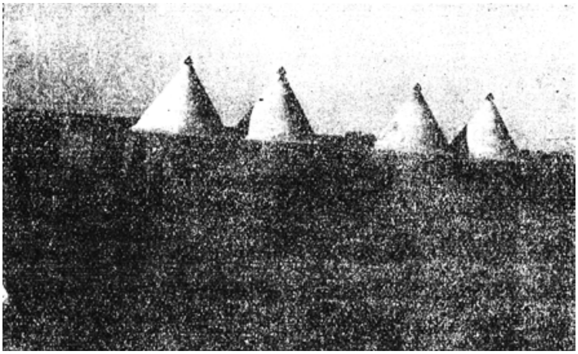

التكلات أو القطاطي التي يسكنها الفقراء والعمال، وهي غرف من الطين أو الحجارة سقوفها مخروطية.

سوق سودانية قروية لبيع الحاجيات المنزلية.

الجبرتي، الذين ظهر منهم المرحوم الشيخ عبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري المشهور في آخر عهد المماليك، وعصر نابليون، وعهد محمد علي.

سلطنة هرر

فتح الخديوي إسماعيل سلطنة هرر لأهمية موقعها، ولأنها مرتبطة بالسودان، فأرسل فرقة من الجيش المصري بقيادة محمد رءوف باشا في سبتمبر سنة ١٨٧٥ فتحت «هرر» عاصمة السلطنة، وضُمت إلى مصر في أكتوبر سنة ١٨٧٥.

هرر تقع شرقي الحبشة وغربي زيلع، ويبلغ عدد سكانها نحو مليوني نسمة، وهي من البلاد الزراعية، وأهم حاصلاتها البن والقمح والذرة والفول والعدس والموز والفاكهة والقصب والقطن، وأهم صادراتها البن والصمغ وريش النعام والزعفران والمر والزبد والجلود، وتستورد من الخارج المنسوجات والنحاس والزجاج … إلخ، ومدينة «هرر» واقعة على بعد ٢٣٢ ميلًا من زيلع، ويقطنها ٣٥ ألف نسمة، وسكانها على جانب من الحضارة.

وقد أنشأت الجنود المصرية فيها دارًا للحكومة، ومسجدًا جديدًا، وشيَّدت أربع ثكنات لإقامة الجند، ومنازل كثيرة للموظفين، ولم يسخر أحد من الأهلين في إقامة هذه المباني، وجعل رءوف باشا حاكمًا عامًّا لهرر، وعين أميرها السابق محمد عبد الشكور محافظًا لعاصمتها، الذي لم يلبث أن قُتل.

وخلف رضوان باشا محافظ بربرة رءوف باشا الذي أقاله غوردون باشا حين عين حاكمًا عامًّا للسودان، وأعاده إلى مصر، وخلفه سنة ١٨٨٠ محمد نادي باشا، الذي وجَّه عنايته إلى استتباب الأمن وتحصين المدينة، وفي سنة ١٨٨٢ عين علي رضا باشا خلفًا لنادي باشا، وظل الحكم مستقرًّا في تلك البلاد إلى أن أُكرهت حكومة مصر على إخلاء السودان وملحقاته، وانسحبت القوات المصرية سنة ١٨٨٥، وكان مجموع المصريين الذين انسحبوا من هرر ٨٥٧١ من الجنود والموظفين ورجال البوليس والعمال، والنساء والأطفال من عائلات الجند والموظفين.

وقد أغار عليها ملك الحبشة وضمها إلى أملاكه، وما زالت تابعة لها إلى اليوم.

فتح الصومال

فتح الخديوي إسماعيل بقية بلاد الصومال، فأرسل حملة سنة ١٨٧٥ بقيادة الأميرال ماكيلوب باشا فتحت رأس «حافون» جنوبي رأس جردفون «جردفوي»، وبلدة «براوة» الواقعة شرقي نهر الجوبا «الجب»، وبلدة «قسمايو» «بور إسماعيل» الواقعة على مصب «الجب»، وانسحبت الحملة من الجوبا في يناير سنة ١٨٧٦، وعادت إلى مصر.

وقد عقدت الحكومة الإنجليزية مع مصر معاهدة في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧، وقَّع عليها شريف باشا وزير خارجية مصر بالنيابة عن الحكومة المصرية، والمستر «فيفيان» قنصل إنجلترا العام بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية، أقرت الحكومة الإنجليزية في هذه المعاهدة سلطة الحكومة المصرية في سواحل الصومال الشمالية.

واعترفت مصر بأن تبقى «بربرة» و«وبولهار» ثغرين حرين، وأن لا تعطى فيهما أي امتياز أو احتكار لأحد ما، ولا تأذن بإجراء أي عمل يعطل حركة التجارة فيهما، وأن لا تأخذ رسومًا على الواردات أكثر من ٥٪، ولا تزيد الرسوم الجمركية على واحد في المائة من ثغور «تاجورة» و«زيلع» وسائر سواحل بلاد الصومال التابعة لها، وأن تعامل مصر رعايا إنجلترا وسفنها في تلك الجهات معاملة دولة ممتازة، وتعهَّد الخديوي بأن لا ينزل عن أي جزء من هذه البلاد إلى أي دولة أجنبية.

ورخَّصت مصر للحكومة الإنجليزية تعيين مأموري قنصليات في جميع الثغور والبلاد الواقعة على سواحل البلاد المذكورة، على أنه لا يجوز لها تعيين مأموري قنصليات من أهالي البلاد أو من أهالي البلاد المجاورة لها.

التقسيم الإداري

أدخل على التقسيم الإداري في عهد إسماعيل تعديلات قضى بها التوسع في الفتح، وضم بلاد جديدة إلى السودان، فصار مؤلَّفًا من المديريات والمحافظات الآتية:

مديرية الخرطوم وعاصمتها الخرطوم، ومديرية سنار وفازوغلي وعاصمتها سنار، ومديرية بربر وعاصمتها بربر، ومديرية دنقلة وعاصمتها دنقلة، ومديرية كسلا أو التاكة وعاصمتها كسلا، ومديرية فاشودة وعاصمتها فاشودة، ومديرية كردفان وعاصمتها الأبيض. وانقسمت «دارفور» إلى ثلاث مديريات: «الفاشر وعاصمتها الفاشر، ودارة وعاصمتها دارة، وكبكبية وعاصمتها كبكبية»، ثم مديرية بحر الغزال وعاصمتها ديم الزبير، ومديرية خط الاستواء وعاصمتها الإسماعيلية «غندكرو»، ثم نقلت العاصمة إلى اللادو فالى ودلاي، وكانت مقسمة إلى المأموريات التالية: لاتوكا، وبو، ومكركة، ومنبوتو، وودلاي، وفويرة.

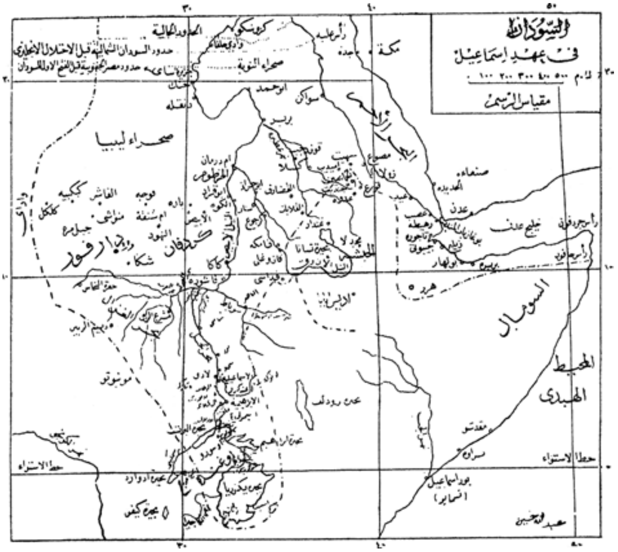

المحافظات

محافظة سواكن وعاصمتها سواكن، ومحافظة مصوع وعاصمتها مصوع، وحكمدارية هرر وعاصمتها هرر، ومحافظة زيلع وعاصمتها زيلع، ومحافظة بربرة وعاصمتها بربرة.

(٧) نظرة إجمالية

الجيش المصري في السودان

بلغ عدد جنود الجيش المصري في السودان، في عهد إسماعيل، نحو ٣٠ ألف مقاتل.

استتباب الأمن

كان الأمن، بوجه عام، مستتبًا في أثناء حكم إسماعيل كما سبق بيان ذلك.

الزراعة

وكانت الزراعة في عهده منتشرة؛ خصوصًا القطن في السودان الشرقي، فقد أنشئت أسواق في كسلا والقضارف «أبو سن» والقلابات، وزرع الدخان، وأنشأ أمين بك «باشا» حقولًا للتجارب الزراعية بجوار «الرجاف».[3]

طرق المواصلات

من أهم الطرق التي كانت تسلكها القوافل أو السفن في عهد الحكم المصري:[4]

(١) من الخرطوم إلى الأبيض عاصمة كردفان ١٢ مرحلة بسير القوافل.

(٢) من الخرطوم إلى الفاشر عاصمة دارفور ٣٢ مرحلة بسير القوافل.

(٣) من الخرطوم إلى غندكرو «الإسماعيلية» بطريق النيل، والمسافة بينهما بالبواخر في ثمانية عشر يومًا.

(٤) من الخرطوم إلى قوز رجب على نهر عطبرة — ست مراحل.

(٥) من الخرطوم إلى دنقلة ٨ مراحل.

(٦) من الخرطوم إلى أبو حراز فالقضارف، والمسافة بينهما في ثلاثة أيام بالبواخر، ثم خمسة أيام أخرى على ظهور الإبل.

(٧) من الخرطوم إلى قوز رجب فكسلا في ثمانية أيام بالإبل.

(٨) من القضارف إلى القلابات في أربعة أيام على ظهور الإبل.

(٩) من القضارف إلى «الجيرة» في يوم ونصف يوم على الإبل.

---

[3] انظر مجلة الجمعية الجغرافية عدد فبراير سنة ١٨٨١ ص٣٢.

[4] انظر تقرير الكولونيل ستيوارت المنشور بالكتاب الأزرق الإنجليزي عن مصر سنة ١٨٨٣ «ج١١ ص٨»، واستيوارت كان في مهمة سرية من قِبل دولته لكشف حالة السودان «وعلى مقتضى تقريره قررت إخلاء السودان على يد غوردون».

(١٠) من القضارف إلى كسلا في خمسة أيام بالإبل.
(١١) من قوز رجب إلى سواكن في أحد عشر يومًا على ظهور الإبل.
(١٢) من مصوع إلى سنهيت «عاصمة البوغوس» في خمسة أيام على الإبل.
(١٣) من سنهيت إلى كسلا في سبعة أيام على الجمال.
(١٤) من غندكرو إلى الدفلاي سيرًا على الأقدام في تسعة أيام.
(١٥) من غندكرو إلى منبوتو في ٣٤ يومًا سيرًا على الأقدام.
(١٦) من غندكرو إلى فويرة في ١٨ يومًا سيرا على الأقدام.
(١٧) من غندكرو إلى لاتوكا في سبعة أيام سيرًا على الأقدام.
(١٨) من غندكرو إلى مكركا في سبعة أيام سيرًا على الأقدام.
(١٩) من الفاشر إلى أسيوط في أربعين يومًا على ظهور الإبل.

المواصلات النيلية

نُسفت الصخور، وأُصلح مجرى النيل في شلال «عبكة» جنوبي وادي حلفا، فأصبح صالحًا للملاحة النيلية ومرور السفن الشراعية والبواخر، وأُصلحت ترسانة الخرطوم التي أنشأها محمد علي الكبير.

الملاحة البحرية والفنارات

وأنشئ أيضًا في عهد إسماعيل فنار في ميناء «بربرة» على خليج عدن، وبني بها أيضًا رصيف لإيواء السفن بمرفئها.[٥]

[٥] كتاب عصر إسماعيل، الجزء الأول، للرافعي بك.

مشروع السكة الحديدية

وأنفق الخديوي إسماعيل نحو ٤٠٠ ألف جنيه، وقيل ٤٥٠ ألف، لمد خط حديدي على طول النيل من وادي حلفا إلى «حنك»، ومُدَّ من الخط نحو ٥٧ كيلومترًا، وقيل ٥٠ كيلو فقط من وادي حلفا.

المدارس

أنشئت في السودان في عهد الخديوي إسماعيل بعض المدارس لتثقيف الأهالي، وعهد بالتدريس فيها إلى المتخرجين في مدرسة الخرطوم التي أنشأها عباس الأول.

التجارة

أنشئ في السودان في عهد الخديوي إسماعيل بيوت تجارية لها أهميتها، وبلغ عدد البيوت التجارية المملوكة للمصريين في السودان ثلاثة آلاف بيت، والمملوكة للأوربيين ألف بيت، وبلغت واردات السودان في السنة مليونين من الجنيهات، وصادراته نحو أحد عشر مليونًا ونصف مليون من الجنيهات.[٦]

البريد

أنشأ موتشي بك مدير مصلحة البريد المصرية مكاتب كثيرة وإدارة للبريد في الخرطوم سنة ١٨٧٣؛ بناء على أمر الخديوي إسماعيل، وهذه المكاتب في بلاد: الخرطوم، ودنقلة، وبربر، وكسلا، وسنار، والمسلمية، والقضارف، وفازوغلي، وكرجوع، وفاشودة، والأبيض، والفاشر، وقد أدت هذه المكاتب مهمتها، إلى أن سقطت الخرطوم سنة ١٨٨٥.

[٦] راجع البيان المقدم من التجار الوطنيين والأجانب في مصر احتجاجًا على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤، فقد أوضحوا فيه أن إخلاءه يؤدي إلى بوار متاجرهم فيه «كوشري — المركز الدولي لمصر والسودان ص٢٨٦.»

التلغرافات

وبلغت الخطوط التلغرافية التي أنشئت حتى سنة ١٨٧٠، ٢١١٠ كيلومترات، وبلغ عدد المكاتب التلغرافية في مدن السودان ٢١ مكتبًا حتى سنة ١٨٧٧، وقد ظلت قائمة حتى الثورة المهدية، وإليك بيان الخطوط التلغرافية والمدن التي وصلت بينها:[٧]

(١) مصر – دنقلة – بربر – الخرطوم.
(٢) الخرطوم – أبو قراد – الأبيض – فوجه.
(٣) الخرطوم – أبو حراز – المسلمية – سنار – فازوغلي.
(٤) المسلمية – الكو.
(٥) أبو حراز – القضارف – كسلة – سنهيت – مصوع.
(٦) كسلة – قوز رجب «على نهر عطبرة» – بربر.
(٧) سواكن – كسلة.
(٨) القضارف – دوكة «جنوبي القضارف» – القلابات.
(٩) القضارف – الجيرة «بالقرب من حدود الحبشة.»

ميزانية السودان

كانت ميزانية السودان سنة ١٨٧٨ على النحو الآتي:[٨]

- ٣٢٧٠٠٠ جنيه دين السودان.
- ٥٧٩٠٠٠ جنيه إيرادات الحكومة.
- ٥٦١٠٠٠ جنيه مصروفاتها.
- ٧٢٠٠٠ جنيه العجز.

[٧] راجع تقرير الكولونيل استيوارت عن السودان المنشور في الكتاب الأزرق الإنجليزي عن مصر سنة ١٨٨٣ ج١١ ص٨.

[٨] راجع رسائل غوردون باشا ص٢٨١.

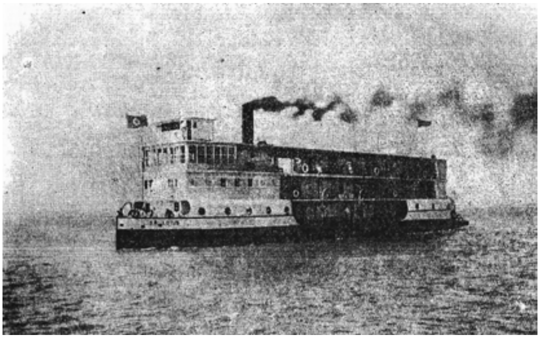

إحدى البواخر التي تنقل الركاب بين وادي حلفا والشلال.

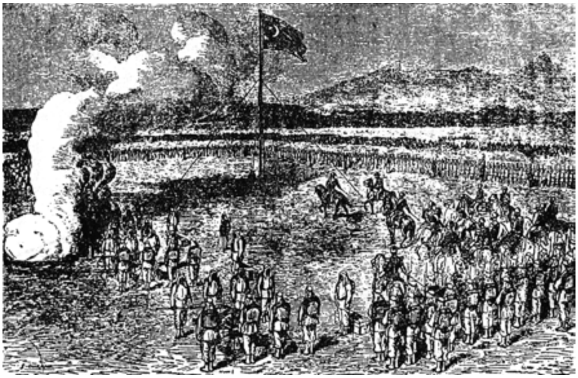

حفلة رفع العلم المصري على غندكرو (الإسماعيلية) إعلانًا بضمها إلى أملاك مصر (٢٦ مايو سنة ١٨٧١).

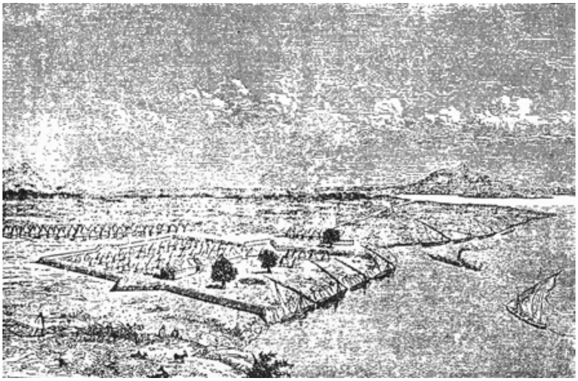

المعسكر المصري في غندكرو (الإسماعيلية) سنة ١٨٧٢.

ربونجا ملك أونيورو يصافح بيكر باشا، والجنود المصرية مصطفة لاستقباله بقيادة القائمقام عبد القادر بك حلمي سنة ١٨٧٢.

الفصل العشرون

النزاع بين مصر والحبشة

بعد أن ضم الخديوي إسماعيل محافظتي سواكن ومصوع إلى مصر، قرر أن يصل بين مصوع وكسلة بخط حديدي، حيث يمرُّ هذا الخط بسنهيت «كِرن» — بكسر الكاف — ليسهل بذلك سبيل المواصلات بين السودان والبحر الأحمر، وكان يعد البلاد الواقعة بين البلدين؛ خاصة مدينة «سنهيت»، أرضًا مصرية منذ أن فتحها محمد علي الكبير، ولكن النجاشي «تيودروس» ملك الحبشة عارض الخديوي وادعى أن «سنهيت» أرض حبشية، ومن ثمَّ قام الخلاف بينهما.

وفي سنة ١٨٦٧، شجر خلاف بين الحبشة والإنجليز، فقد اعتقل الملك «تيودروس» المستر كامرون قنصل إنجلترا، وبعض التجار الإنجليز، فغضبت الحكومة الإنجليزية وطالبت بإطلاق سراح المعتقلين، ولكن النجاشي رفض إجابة طلبها، ولما اشتد الخلاف بين الدولتين أرسل الخديوي إلى النجاشي كتابًا بتاريخ جمادى الأخرى سنة ١٢٨٤، الموافق سبتمبر سنة ١٨٦٧، طلب إليه حسم النزاع، وإطلاق سراح المعتقلين، وإرسالهم إلى مصوع، وحذره من عاقبة إصراره على اعتقالهم، وبأنه في حالة نشوب حرب بين الإنجليز وبينه لا يمنع الإنجليز من اجتياز الأراضي المصرية لمهاجمته.

فأصر النجاشي على الرفض، فأرسلت إنجلترا حملة عسكرية بقيادة اللورد نابييه، وأمر الخديوي عبد القادر باشا الطوبجي — محافظ مصوع وقتئذ — بمعاونة الجيش الإنجليزي في نزوله إلى البر، وبأن يكون الأسطول المصري تحت أمره.

وقد احتل الإنجليز مدينة «مجدلا» شمالي أديس أبابا، وانتهت الحرب بفوزهم، وقتل النجاشي تيودروس، وعاد الإنجليز إلى بلادهم، وآلَ بعد ذلك عرش الحبشة إلى الملك «يوحنا».

حملات الجيش المصري على الحبشة

وقد رغب الخديوي في توسيع أملاك مصر من جهة الحبشة؛ لأن حدود الحبشة مرتبطة بحدود السودان، ولأن بها منابع النيل الأزرق وغيره، فجرَّد لذلك ثلاث حملات:

(١) حملة أرندروب[١] بك: أرسل أرندروب بك رسالة إلى الملك يوحنا يطلب إليه فيها جعل نهر الجاش حدًّا فاصلًا بين الحبشة ومصر، فلم يعبأ بالرسالة، وسجن الرسولين اللذين أوفدهما إليه أرندروب بك، فزحفت الحملة إلى مصوع، وكانت مؤلفة من ٣٢٠٠ مقاتل،[٢] ومعهم بطاريتان من المدافع، واستولت على «المحاسين» الواقعة جنوبي سنهيت، وتقدمت الحملة المصرية لتسبق الأحباش إلى الهجوم على «جونديت»، فحشد الملك يوحنا جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل، وفي يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٥ اشتبك الجيشان في «جونديت»، وحمي وطيس القتال، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش المصري، وقتل معظم رجاله، وكان من بين القتلى أرندروب بك، وأراكيل بك نوبار محافظ مصوع، وعادت فلول الجيش إلى مصوع.

(٢) حملة منزنجر[٣] باشا: تولى منزنجر باشا قيادة الحملة الثانية، أقلع على رأس قوة صغيرة من الجنود يصحبه الرأس «بورو» الذي كان على خلاف مع الملك يوحنا، تاركًا معظم الجند في «تاجورة»، ونزل في رأس «جيلاجيفو» الذي يبعد عن تاجورة غربًا بخمسة عشر ميلًا، ثم قصد بحيرة «أوسا» الواقعة في الجنوب الشرقي من الحبشة، فوصل إليها يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٥، وانتهت ليلة ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥ بهزيمة

---

[١] هو من ضباط الأركان حرب، أصله دانمركي — راجع عصر إسماعيل للرافعي بك ج١ ص١٥٣.

[٢] إحصاء المسيو سوتزارا Suzzara قنصل النمسا العام في مصر على عهد إسماعيل في تقريره عن حرب الحبشة، وقد نشر هذا التقرير في مجلة مصر Revue d´Egypte جلياردو بك، عدد مارس وإبريل ومايو سنة ١٨٩٦ ص٦٢٦ و٦٧٣ و٧٣٧ وراجع عصر إسماعيل للرافعي بك ج١ ص١٥٣.

[٣] هو رجل سويسري الجنس، جاء مصر ثم جاب أنحاء السودان والحبشة، وأقام في مصوع منذ سنة ١٨٦٠، وتزوج بسيدة حبشية من أهالي البوغوس، ثم شغل منصب قنصل فرنسا في ذلك الثغر. انظر مجلة الجمعية الجغرافية، عدد ١ س١ «نوفمبر سنة ١٨٧٥ فبراير سنة ١٨٧٦» ص١٢١ عن ترجمة منزنجر باشا، بقلم المسيو دوريك.

الحملة المصرية، وقُتل منزنجر باشا وزوجته ومعظم رجاله، وعادت فلول الحملة إلى زيلع بقيادة البكباشي محمد أفندي عزت، وكان عدد الباقي منهم ١٥٠ مقاتلًا.[٤]

(٣) حملة راتب باشا: لغسل الإهانة التي لحقت مصر، جرد الخديوي إسماعيل جيشًا كبيرًا على الحبشة كان مؤلفًا من نحو خمسة عشر ألف مقاتل، بقيادة السردار راتب باشا ومعه الجنرال لونج باشا — من القواد الأمريكيين في الجيش المصري — رئيسًا لأركان حرب الحملة، والأمير حسن باشا أحد أنجال الخديوي، وتطوع في الحملة من الأطباء المصريين الدكتور محمد علي باشا البقلي الذي قُتل فيها، والدكتور محمد بك بدر، وغيرهم، فزحف الجيش المصري إلى بلدة «قورع»، وأخذ في إقامة الاستحكامات، ولم يقوَ الأحباش على مهاجمة قوة من الجيش المصري كانت تحتل «قياخور»؛ للاستحكامات المنيعة التي أقامتها القوة المصرية.

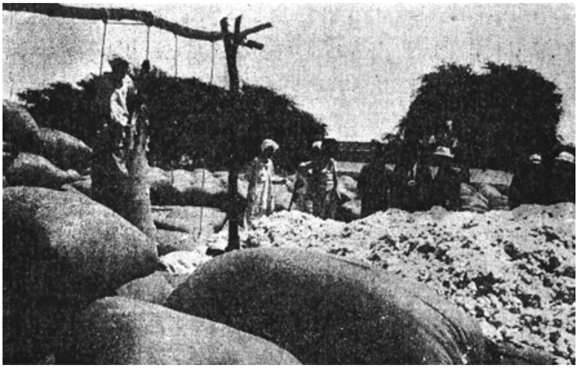

تعبئة القطن في الأكياس من الحقول.

ونشبت معركة كبيرة في «قورع» يوم ٧ مارس سنة ١٨٧٦ انتهت بهزيمة الجيش المصري، وأُسر من المصريين نحو ٢٥٠، وكان ضمن الأسرى المصريين محمد رفعت

[٤] كتاب عصر إسماعيل للرافعي بك، الجزء الأول ص١٥٤.

بك رئيس القلم التركي بديوان الجهادية، الذي سعى في عقد الصلح مع الملك يوحنا، على أن تنسحب الجنود المصرية من أرض الحبشة ويرد الملك يوحنا الأسرى إلى مصر، ويفتح طريق التجارة بين مصوع والحبشة، وقد نجحت مساعيه وعقد الصلح، وبقيت سنهيت من أملاك مصر.

الفصل الحادي والعشرون

تجارة الرقيق ومنعها

اشتهرت إفريقيا والسودان بالاتجار في الأرقاء، باختطاف الزنوج والعبيد وبيعهم، وكان من أسباب الثورة المهدية منع تجارة الرقيق، وقد رأينا أن نعقد هذا الفصل للكلام على تجارة الرقيق ومنعها.

لغة: الرِّقُّ — بالكسر — العبودية، وهو مصدر، رَقَّ الشخص يرِقُّ — من باب ضرب — فهو رقيق، ويتعدى بالحركة وبالهمزة، فيقال: رققته أرقه من باب قتل، وأرققته فهو مرقوق ومرقٌّ، وأمة مرقوقة ومرقَّة، قاله ابن السكيت، ويطلق الرقيق على الذكر والأنثى، وجمعه أرقاء، مثل: شحيح وأشحاء، وقد يطلق على الجمع أيضًا، فيقال: عبيد رقيق، وليس في الرقيق صدقة، أي: في عبيد الخدمة.

شرعًا: الرق:[1] ذلٌ ركَّبه الله على بعض عباده جزاءَ عزوفهم عن طاعته، والرق الشرعي لا يترتب إلا عن أسر شرعي.

والأسر الشرعي هو الذي يحصل في أثناء حرب، وفي دار حرب مع القوم الكافرين، والحرب لا تكون حربًا شرعية إلا إذا أمر بها الإمام جهادًا في سبيل دين الله، يشترط لشرعيته أن تسبقه دعوة الكفار إلى الإسلام أو الجزية، فإذا أبى القوم الكافرون الإسلام أو دفع الجزية قاتلهم المسلمون، فإذا قهروهم ضربوا الجزية على جماجمهم، والخراج على أراضيهم.

وورد في «كتاب السير» للسرخسي، في الجزء العاشر منه، صحيفة ٣٠: «وإذا غزا الجيش أرضًا لم تبلغهم الدعوة لا يحل لهم أن يقاتلوهم حتى يدعوهم إلى الإسلام؛

[1] انظر الجريدة القضائية سنة أولى، الأعداد ٨، ٩ عزيز خانكي بك.

ليعرفوا أنهم على ماذا يقاتَلون»، وهو معنى حديث ابن عباس (رضي الله عنه): «ما غزا رسول الله ﷺ قومًا حتى دعاهم إلى الإسلام، ولو قاتلوهم بغير دعوة كانوا آثمين في ذلك ...» إلى أن قال حكاية عن شرط استباحة رقاب الكفار وأموالهم: «ولكن شرط الإباحة تقديم الدعوة، فبدونه لا يثبت»، وإذا ظهر عسكر المسلمين على بلد القوم الكافرين، ودخلوها بإذن الإمام، وغنموا من العدو ماله ورجاله، كان لهم تملُّكها واقتسامها بإذن الإمام، وإن دخلوها بغير إذن الإمام عُدَّ ما يغتنمونه من رجال ومال اختلاسًا، وعُدَّ الآخذون متلصصين، وعُدَّ فعلهم خطفًا. ورد في «المبسوط» لشمس الدين السرخسي، في الجزء العاشر، صحيفة ٣٢: «لسنا نسلِّم أن سبب الملك نفس الأخذ، بل هو قهرٌ يحصل به إعلاء كلمة الله (تعالى)؛ ولهذا كان المصاب غنيمة بخمس، وهذا القهر لا يتم بنفس الأخذ، ولا يقهر الملاك، بل بقهر جميع أهل دار الحرب ...»

ويحتِّم الفقهاء على الإمام الافتتاح بالدعوة إلى الإسلام، ولا يجوِّزون القتال قبل الدعوة؛ لأن القتال ما فرض إلا بعد الدعوة إلى الإسلام، والدعوة دعوتان: دعوة بالبنان وهي القتال، ودعوة بالبيان وهي اللسان. والثانية أهون من الأولى؛ لأن في القتال مخاطرة الروح والنفس والمال، وليس في دعوة التبليغ شيء من ذلك، فإذا احتمل حصول المقصود بأهون الدعوتين لزم الافتتاح بها، وفي هذا من الحكمة ما فيه؛ لاحتمال أن يسلم الكفرة قبل القتال، فإن أسلموا كفَّ المسلمون عنهم القتال، وإن قبلوا عقد الذمة كان لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين «راجع ص١٠٠ من فصل السير، الجزء السابع من كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، تأليف الإمام علاء الدين أبي بكر مسعود الكاساني».

قال الفقهاء: إن الكافر إذا أسلم وهاجر إلينا ثم ظهر المسلمون على الدار فأولاده الصغار يُحكم بإسلامهم تبعًا لأبيهم، ولا يسترقُّون؛ لأن الإسلام يمنع إنشاء الرق، وورد في «المبسوط» أيضًا «في الجزء العاشر ص٦٦»: «وإذا أسلم الحربي في دار الحرب، ثم ظهر المسلمون على تلك الدار، تُرك له ما في يده من ماله ورقيقه وولده الصغار؛ لأن أولاده الصغار صاروا مسلمين بإسلامه فلا يسترقون ...» وبهذا المعنى أيضًا «الكاساني في كتاب بدائع الصنائع» حيث قال في صفحة١٠٠: «وأما أولاده الصغار فيُحكم بإسلامهم تبعًا لأبيهم ولا يسترقون؛ لأن الإسلام يمنع إنشاء الرق».

يضاف إلى هذا أن من شرائط ثبوت الولاء أن لا يكون الأب عربيًّا؛ لأنه إذا كان الأب عربيًّا فلا ولاء عليه لأحد مطلقًا، حتى إن الفقهاء نصوا على أنه إن كان الأب عجميًّا فلا ولاء عليه لقوم الأب «راجع صفحة ٤٣٦ من كتاب مجمع الأنهر الجزء الثاني».

على أن الولاء لا يثبت على فرع العتيق إلا بشرط أن يكون أبوه حر الأصل، لا ولاء عليه لأحد، فمن كان أبوه كذلك؛ سواء أكانت أمه حرة الأصل أم عتيقة، فلا ولاء عليه لأحد باتفاق الأئمة الأربعة.

واشترط الإمامان أبو حنيفة وأحمد — رحمهما الله — أن لا تكون الأم حرة الأصل، فإن كان الأب عتيقًا والأم حرة الأصل فلا ولاء لمعتق الأب عندهما؛ تغليبًا لجانب الحرية، ولفظ «حر الأصل» يستعمله الفقهاء في معنيين؛ «أحدهما»: من لم يجرِ على نفسه رقٌّ، وأن تولد من معتقة، «والثاني»: من ليس في أصله رقٌّ أصلًا، والمراد هنا المعنى الأول. كذا في مجمع الأنهر، الجزء الثاني، ص٤٢٥.

يضاف إلى هذه الشروط شرط آخر، ألا وهو أن يموت العتيق قبل المعتَق، «فلو مات المعتِق قبل عبده لا ينتقل الولاء لعصبته. راجع ص٩١ من كتاب أحكام إرث الوارث للعلامة أبي بكر بن عبد الرحمن بن محمد بن الشيخ شهاب الدين.»

وعلى مدعي الرق والعتق أن يُثبت إذن:

(١) أن العتيق كان كافرًا، وكان في دار حرب، وكان بالغًا رشيدًا، لا صغيرًا غير مكلف وقت أسره.

(٢) أن يبيِّن مسقط رأسه، ويعين القوم الذي كان يمتُّ الأسير إليهم، والواقعة التي أُسر فيها، وتاريخها وموقعها، وفي أي تاريخ أسلم، وهل أسلم وهو في دار الحرب أو أسلم بعد انتقاله إلى دار الإسلام؟

(٣) أن إمام المسلمين بدأ دعوته هو وقومه إلى الإسلام أو دفع الجزية فرفضوا، فحارب مع قومه عساكر المسلمين فوقع في أسرهم.

(٤) أن عسكر المسلمين دخلوا بلد القوم الكافرين بإذن الإمام.

(٥) أن الأسير ما كان عربيًّا، وما كان حر الأصل، وأن أم المتوفى ما كانت حرة الأصل.

(٦) إثبات العتق بتقديم ورقة العتق.

(٧) إثبات أن العتيق مات قبل معتقه.

(٨) إثبات أن المعتِق حفظ لنفسه في ورقة العتق حق الولاء على رقيقه.

وإليك بيان بعض الأحوال التي فيها استرقاق وليس فيها رق بالمعنى الشرعي، وأحوال فيها رق وليس فيها ولاء، وأحوال فيها رق وولاء وليس فيها إرث:

(١) لو أعتق حربي في دار الحرب عبده فلا ولاء عليه، فهذا عتق حاصل بالفعل، ولكنه لا يوجب الولاء.

(٢) أسر مسلمًا واسترقه ثم أشهد بأنه أعتقه، مثل هذا الإعتاق لا يوجب الولاء؛ لأن الرق باطل في أصله، إذ الحرية المتأكدة بالإسلام لا يجوز إبطالها بالرق. قال الإمام محمد — رحمه الله — وإذا أسلم أهل مدينة من مدائن أهل الحرب قبل ظهور المسلمين عليهم كانوا أحرارًا، لا سبيل عليهم، ولا على أولادهم ونسائهم، ولا على أموالهم، ويوضع على أراضيهم العشر دون الخراج، وكذلك إذا صاروا ذمة قبل الظهور عليهم «ص١٦٠ من الجزء الثاني من كتاب الفتاوى العالمكيرية.»

(٣) وَادَعَ مسلم دار الحرب على أن يؤدي أهل الحرب كل سنة مائة رأس إلى المسلمين، فإن كان هذه المائة من أنفسهم وأهاليهم وذراريهم لا يصح ذلك؛ لأنهم وأولادهم بأجمعهم دخلوا تحت الأمان، فلا يجوز استرقاقهم وتملكهم «ص١٩ من الجزء الأول من كتاب الفتاوى الأنقروية.»

(٤) دخل مسلم دار حرب بغير إذن الإمام واختطف صبيًا واسترقه ثم أعتقه، فلا ولاء؛ لأن الاسترقاق هنا ليس في الحقيقة والواقع إلا استخدامًا قهريًّا.

(٥) استرق رجل عربيًّا ثم أعتقه، فلا ولاء؛ لأن العربي لا يجوز استرقاقه.

(٦) استرق رجل مسلمًا مولودًا من أبوين حرين ثم أعتقه، فلا ولاء؛ لأن الإسلام يمنع إنشاء الرق.

(٧) الأصل في اللقيط أن يكون حرًّا. فلو استرقه رجل ثم أعتقه فلا ولاء له عليه؛ لأن الحرية مانعة لصفة المملوكية والرق، الولاء هنا معدوم، ومجرد الإشهاد بالإعتاق لا يوجب الولاء.

(٨) جليب باعه نخاس — ولو مجلوبًا من غير دار الإسلام — ثم أعتقه سيده فلا ولاء؛ لأن حالة الجليب كانت حالة استخدام قهري لا حالة رق شرعي؛ الولاء شرعًا عصوبة، فهل العصوبة تحصل من مثل هذا الاستخدام القهري؟ لا قائل بذلك أبدًا.

(٩) إذا أعتق حربي عبده الحربي في دار الحرب لم يصِر بذلك مولى له، حتى لو خرجا مسلمين إلى دار الإسلام لا ولاء له، وهذا قول أبي حنيفة والإمام محمد

— رحمهما الله — لأنه لا يعتق عندهما بكلام الإعتاق، وإنما يعتق بالتخلية، والعتق بالتخلية لا يوجِب الولاء.[٢]

(١) تاريخ الرق

الرق قديم في العالم، فمنذ أبعد العصور كان الغزاة يجمعون الأسرى ويوزعونها على القواد والأقوياء كما توزع الغنائم، وكانت تتألف العصابات المسلحة للسطو على البلاد وأخذ الرقيق، حصل هذا في أوربا وآسيا وإفريقيا؛ ولذا كان هناك الرقيق الأبيض والرقيق الأسود، وكان الرقيق يستخدم في الخدمة المنزلية والزراعة والأعمال القاسية، كما يختار النساء الجميلات للزواج أو للمتاع.

والمماليك من الجراكسة والأكراد والقوقازيين نوع من الأرقاء، ويوجد الرق عادة في البلاد البعيدة عن المدنية، وحيث يعيش الناس متنابذين، وحيث يسود الفقر والجهل.

وإذا كانت تجارة الرقيق ممنوعة اليوم بالمعاهدات، وبتقدم الفكرة الإنسانية، فإنه لا يزال العالم يرزح تحت الرق. فيوجد رق وتجارة رقيق في الحبشة، وتوجد عصابات قوية بالمال، تُخضِع الفتيات وتتجر بأعراضهن، وتنفذ أوامرها بالتهديد والوعيد إلى جانب الوعود البراقة.

كان سكان إفريقيا الأصليين من الزنوج والعبيد، فلما هاجر إليها الآسيويون ثم الأوربيون نزلوا عند سواحل البحار، وتوغلوا في الداخل عند شواطئ الأنهار، فكان الزنوج يفزعون من هذه الغزوات، ويعتصمون بالجبال، ويفرون من الغزاة في الغالب؛ والغزاة أوفر مدنية وذكاء وعلمًا ومالًا ودينًا، وكان بين الزنوج من يبيع أولاده بسبب الفقر.

أما في السودان، فالغزاة من الفراعنة ثم من العرب، ملكوا الرقيق، على اعتبار أنه من أسرى الحرب، وأن الدين الإسلامي يسمح به.

وفي الرسوم المنقوشة على جدران المعابد المصرية الفرعونية يُشاهد المصريون مقيِّدين أسرى السودانيين.

---

[٢] الفتاوى العالمكيرية ج٥ ص٣٤.

اجتماع قبائل الزنوج «الشلك» ومعهم حرابهم ودروعهم وطبولهم.

وقد اشترك في الاستيلاء على الرقيق بعد العرب، الأتراكُ الذين كانوا يرسلون الرقيق والخصيان إلى إستانبول، وإلى الحريم في قصور السلاطين والأمراء والوزراء والقواد والحاشية السلطانية، بل شوهد الرقيق الأسود في قصور فيينا وموسكو في القرون السابقة.

وكان لتجار الرقيق جيوش من العبيد؛ لأنه يستحيل البقاء في المراكز التجارية من غير القوات المسلحة، وكان للرقيق أسواق في الأبيض وفاشودة والقضارف والقلابات والخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار وكلار وشندى وبربر، وكان الرقيق يُرسل إلى الحجاز ومصر.

(٢) الخصيان

ومن الرقيق الخصيان، وهم الغلمان العبيد، تُحفر الحفرة ويوضعون فيها جماعات بعد إزالة أعضائهم التناسلية بحديد محمي، وهي عملية قاسية ووحشية يموت بها أكثر من سبعين في المائة من الغلمان، ويعانون من جرائها آلامًا محزنة، ومن الخصيان أولئك الأغوات[٣] في قصور الملوك والأمراء والعظماء، يؤمنون على خدمة «الحريم» لانتفاء شبهة التعرض للأعراض عنهم.

وقد جاء في كتاب «تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان» تحت عنوان: «فصل في الخصيان المعروفين في مصر بالطواشية» ما يلي:

> ولما كانت ملوك السودان أكثر الناس للنساء جمعًا وأبذلهم في ذلك وسعًا، كان يوجد عند الملك من الخصيان عدد كثير وجمٌّ غفير، فيوجد عند سلطان دار الفور نحو الألف أو أكثر، وعليهم ملك منهم، وهم له كالعساكر، وهو الذي يرتِّب في بيت السلطان ما يلزم منهم للحراسة، ويبقي عنده ما زاد إلى وقت الحاجة. والخصيان مكرمون عند الأكابر؛ خصوصًا في دار الفور، فإن لهم فيها سطوة، وأي سطوة! والكلمة النافذة والقوة ومقام ومقال وحال لا يماثله حال، حتى إن لهم هناك منصبين جليلين لا يتولاهما غير خصي؛ أحدهما: منصب الأبوة، والثاني منصب الباب، وأقول إن منصب الباب غير مختص بدار الفور، بل في تونس، وفي قسطنطينية كذلك، وأصل الخصيان الذين في دارفور من بلدروكا، يخصونهم هناك ويأتون بهم إلى دارفور.

[٣] لفظ «أغا» تركية معناها «السيد»، اصطلح الأكراد الأقدمون على إطلاقها على الأميين من الخدم ونحوهم، ويقصد بها لقب احترام، تقابل عندهم «أفندي» التي تطلق على العارفين بالقراءة والكتابة؛ كالموظفين، وقد أطلقت في مصر على العبيد الخصيان في القصور، والباش أغا هو رئيس الأغوات «رئيس الخدم».

طريقة الخصي

ثم قال:

> يوتى بمن يُراد الفعل به فيضبط ضبطًا جيدًا، وتمسك المذاكير «أعضاء التناسل عند الذكور» وتستأصل بموسٍ حادٍّ، ويوضع في ثقب مجرى البول أنبوبة صغيرة من صفيح؛ لئلا ينسد، ويكون قد سخن السمن على النار تسخينًا جيدًا حتى غلي، ثم يكوى به محل القطع، وبعد أن يكون محل القطع جرحًا حديديًّا ينقلب جرحًا ناريًّا، ثم يداوى بالتغيير عليه بالتفتيك والأربطة، حتى يشفى أو يموت، ولا يشفى منه إلا القليل.
>
> فإن قيل إن في هذا تعذيبًا للحيوان الناطق، وقطعًا للتناسل المأمور بكثرته شرعًا، فهو حرام؟ قلت نعم، قد صرَّح غير واحد من العلماء بحرمته؛ خصوصًا جلال الدين السيوطي — رحمه الله — فإنه صرَّح بالتحريم في كتابه الذي ألفه في حرمة خدمة الخصيان لضريح سيد ولد عدنان، لكن الحرمة على الفاعل، وإنما يخصي الخصيان قوم من المجوس، ويأتون بهم إلى بلاد الإسلام فيبيعونهم ويهادون بهم، ولا يخصى على يد المسلمين منهم إلا القليل النادر، وأما استخدامهم بعد الخصي فلا ضرر فيه، بل فيه ثواب عظيم؛ لأنهم لو لم يستخدموا لحصل لهم الضرر من وجهين؛ الأول: مما وقع عليهم من الخصي الموجب لفقده اللذة العظيمة وقطع التناسل، والثاني: من ضيق المعيشة.

وقد تألَّفت في لندن جمعية سنة ١٧٨٧ للدعوة لمنع الاتجار بالرقيق، وانتشرت الجمعيات في أوربا لهذا الغرض، وأقنعت الحكومات بأن تتدخل لمنع تجارة الرقيق، وعقد مؤتمر بروكسل في ٢ يوليو سنة ١٨٩٠.

وقد كان لمصر جهود موفقة احتملت في سبيلها تضحيات من المال والجند، وفقد السودان نفسه لمنع تجارة الرقيق في السودان، فأعلن محمد علي باشا عند زيارته للسودان سنة ١٨٣٩م إبطال تجارة الرقيق، وحذا حذوه محمد سعيد باشا في زيارته للسودان سنة ١٨٥٨م، أما إسماعيل باشا فكان اهتمامه بمنع الاتجار بالرقيق يفوق الجهود السابقة، منذ ولي حكم مصر سنة ١٨٦٣م، فصادر ٧٠ مركبًا محملة بالرقيق بين كاكا وفاشودة، ودعا ملك الشلوك إلى الخرطوم فسلَّمه رقيق بلاده، وسجن التجار،

وأفرج عنهم بعد تعهدهم بعدم العودة إلى تجارة الرقيق، ولقد كان منع تجارة الرقيق من أسباب الثورة المهدية ونجاحها.

محمد بك الملك من سلالة ملوك أرقو.

ومن أهم الوثائق التي عقدتها حكومة مصر الوفاقُ الذي أمضته مع بريطانيا العظمى بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٥، وهو الوفاق الذي تلاه الأمران العاليان الصادران في يوم ٢١ يناير سنة ١٨٩٦، وفي الأول جعلت الحكومة المصرية جلب الأرقاء جناية من الجنايات الكبرى التي يعاقب عليها بالإعدام، ثم توسَّعت فعدَّت مجرد إحراز الرقيق لأجل بيعه جناية يعاقب عليها بالأشغال الشاقة من ثلاث سنوات إلى سبع سنوات، وجعلت مجرد بيع أو شراء الرقيق أو المقايضة عليه جناية يعاقب عليها بالأشغال الشاقة من خمس سنوات إلى عشرة، كما أنها عدَّت رؤساء العائلات الذين يدخلون رقيقًا في منازلهم مجرمين، وعدَّت كذلك من منع معتوقًا من التمتع

بتمام حريته، أو من التصرف بشخصه مجرمًا يعاقب بالحبس، وغير ذلك من الأحكام الصارمة. وفي الأمر العالي الثاني أحالت المجرمين على محكمة الاستئناف الأهلية المشكَّلة من خمسة قضاة؛ لمحاكمتهم على ما يرتكبونه من الجنح والجنايات الخاصة بالرق والاسترقاق.

جميع المعاتيق في مصر كانوا أناسًا اختطفهم النخاسون[٤] خطفًا، وباعوهم كالسلع في الأسواق، ثم تداولتهم الأيدي بيعًا وشراء، فانتقلوا من شخص إلى شخص، ومن أسرة إلى أسرة، ومن بلد إلى بلد، إلى أن استقر بهم الحال عند شخص رأف بهم فحرَّر لهم «ورقة عتق»، على اعتبار أن الشخص مملوك له حقًّا، تنطبق عليه شروط الرق المقررة في الشرع، وما هو في الحقيقة إلا حرٌّ مقيَّد الحرية فقط، لا مالكية ولا مملوكية، لا في نظر الشرع ولا في نظر القانون، فيسرع هذا السجين المسكين إلى قبول العتق رجاء الخلاص من ربقة الذل والهوان، فإذا ما توفاه الله سارع معتقه أو أولاد معتقه إلى أمواله مطاولين أيديهم للاستئثار بها، مزاحمين أو حارمين الورثة الشرعيين الذين هم من ذوي قرابة المتوفى، وأحق بأمواله منهم.

جاء في كتاب «تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل» للأستاذ إلياس الأيوبي:

> فلما آل العرش إلى «إسماعيل» وصمَّم هذا العاهل — كما قلنا — على إدخال بلاده بصراحة في مضمار المدنية الغربية، وطَّن نفسه على إبطال الرق توطينه إياها على إلغاء العونة والسخرة.
>
> وكانت النخاسة إذ ذاك في أشدها، بالرغم من مقاومة محمد علي وسعيد لها، وبالرغم من عمل الحكومة المصرية على تقليل توريد الأرقاء نيلًا، وإبطالها أسواق الرقيق الرسمية بمصر والإسكندرية وطنطا، وغيرها من البنادر.
>
> فالبحَّارة في جهات النيل الأبيض، والنخَّاسة في جبال النوبة وجبال فازوغلي وفي جهات كردفان الجنوبية، كانوا لا يفتأون عاكفين على صيد السود بقوة السلاح كأنهم وحوش برية، وسبيهم والسير بهم إلى الأسواق

[٤] نخس الدابة ينخسها غرزها بعود فهاجت، والنِّخاسة — بكسر النون: بيع الدواب والرقيق.

في الأبيض وفاشودة والقلابات؛ حيث كان الجلَّابون يشترونهم منهم، وبعد أن يبيعوا أقلهم قيمة في أسواق الخرطوم والمسلمية وود مدني وسنار والقضارف وكسلا وبربر وشندى، ينزلون بأقواهم وأجملهم الى مصر؛ إما عن طريق النيل، في مراكب يرفعون عليها رايات دول عربية ليحتموا بها، وإما عن طريق الصحراء إلى أسيوط، حيث كان يوجد معمل للخصي يديره قسوس من الأقباط حازوا في أنهم من أمهر الناس في إجراء ذلك العمل الفظيع شهرة شائنة، وينسلُّون منها سرًّا إلى مصر والإسكندرية وأهم بنادر القطر، ويعرضون بضائعهم البشرية على الراغبين فيها، إما باطلاع الحكومة وموافقتها الصامتة، وإما خفية وخلسة بمساعدة شركاء لهم معلومين.

وكان ثمن الولد الأسود، أو البنت السوداء التي من عمره، ما بين عشرة جنيهات واثني عشر جنيهًا، وثمن الصبي الحبشي ما بين ٢٠ و٣٠ إلى ٩٠ جنيهًا و١٠٠ جنيه، وثمن البنت الحبشية التي سنُّها ما بين الثانية عشرة والسابعة أو الثامنة عشرة من ٧٠ جنيهًا إلى ١٠٠، وكان ثمن الرقيقات التي سبق استخدامهن أرخص من غيرهن، إلا إذا كنَّ صاحبات حِرَف؛ كأن تكن طاهيات أو ما شاكل ذلك، فإنهن في مثل هذه الحال كنَّ يُبعن بثمن أعلى.

وأما الخصيان فكانوا أعلى ثمنًا من الجميع؛ لندرتهم، والسبب في ندرتهم قلة نجاح عملية الخصي، وموت تسعين في المائة من الذين كانت تُعمل لهم.

وكان يوافي جلابو الرقيق الأبيض والأسود إلى تلك الأسواق، والفرق بين الرقيقين جسيم جدًّا؛ لأن الرقيق الأبيض كان اختياريًّا، وأما الأسود فكان مجلوبًا قسرًا. وكان ثمن الجارية البيضاء يختلف بين ٢٠٠ و٥٠٠ جنيه، ويتراوح أحيانًا تبعًا لجمال الجارية المبيعة ما بين ٨٠٠ جنيه و١٠٠٠ جنيه.

وكان الراغبون في الشراء كثيرون؛ إما لسد فراغ أحدثه الموت في عدد الأرقاء الموجودين في بيوتهم، والموت كان كثير الزيارة للأرقاء، وأغلب ما كانت أعمارهم قصيرة. وإما للمغالاة في مظاهر الأبهة والترف، فقد كانت توجد بيوت غاصة بالمئات من الجواري، ولا يعرف أربابُها منهنَّ إلا القليلات، فيُقبِلون أفرادًا أفرادًا على محلات الجلابين، ويشترون من يطيب لهم من الرقيق المعروض، وهم أبعد من أن يفتكروا حتى — ولا في المنام — بالفظائع والآثام والجرائم التي ارتُكبت في سبيل تموين بيوتهم، وسد حاجة معيشتهم

> القومية، وأبعد من أن يفتكروا بأن النخاسة كانت تنتزع سنويًّا أكثر من خمسين ألف أسود من حقولهم ورباعهم ومراعيهم، فلا يبقى منهم حيًّا كل سنة بعد المشقات يقاسونها سوى عشرة في المائة، وأن النخاسين كانوا حتى بعد وصول الرقيق لمصر يحتقرون حياة أولئك البؤساء إلى درجة أن اثنين منهم تخاصما مرة على ملكية بنت سوداء، فطعنها أحدهما بخنجر لكيلا يأخذها خصمه.

إلى أن قال:

> وكان الجلابون يتحاشون بيع رقيق إلى أوربيين، ولا يقدِمون على ذلك إلا بحيطة كبرى؛ لعلمهم بأن معظم الإفرنج ميَّالون إلى إظهار نقمتهم على تجارتهم البشرية، أو التظاهر بها؛ رغبة منهم في وقوفهم موقف ذي الشعور الرقيق والإحساس الشفيق.
>
> فما مضت على تبوُّؤ إسماعيل عرش أبيه وجده بضعة أشهر إلا وأصدر أوامره المشددة إلى موسى حمدي باشا، المعين من قبله حاكمًا عامًّا على السودان، بتعقب تجار الرقيق وقطع دابرهم، فألقى موسى باشا في تلك السنة عينها — وهي سنة ١٨٦٣— القبض على سبعين مركبًا مشحونة بالأرقاء بين كاكا وفاشودة، وأتي بالمسبيين إلى الخرطوم، ثم أحضر ملك «الشلك» من فاشودة فسلَّمه الرقيق الذي أُخذ من بلاده، ورجعه بالهدايا إليها، ووزع الباقين على التجار والموظفين لتربيتهم. وأما النخاسون فإنه زجَّهم في السجن، ولم يخرجهم منه حتى تعهدوا بعدم العودة إلى مثل تلك التجارة — وعود عرقوبية باطلة.

(٣) قرصان البحر

كان قرصان البحر يأسرون البواخر بمن فيها، فيختارون البنات والأولاد والسيدات ويأسرونهم، ثم يبيعونهم في أسواق لشبونة عاصمة البرتغال، وفي أسواق أشبيلية ببلاد الأندلس. ولما كثرت فظائع القرصنة النخاسية، وعلا صراخ الناس من القسوة التي كان القرصان والنخاسون والجلابون يعاملون بها أسراهم، ثار برلمان إنجلترا، وطلب

من الحكومة أن تتدخل في الأمر، وتمنع أعمال القرصنة والنخاسة في العالم بأسره. فاتفقت إنجلترا مع جميع الدول؛ دولة دولة، على إبطال الرق من عموم العالم، وبدأت هي فأصدرت بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٣٣ مرسومًا أقرَّه مجلس النواب ومجلس الشيوخ، ووافق عليه الملك، أبطل فيه الرق من جميع المستعمرات التابعة لها، وكان فيها — وقتئذ — ٨٠٠٠٠٠ رقيق، فأعتقتهم كلهم، ودفعت من خزينتها مبلغ ٢٠٠٠٠٠٠٠ جنيهًا إلى الملَّاك والنخاسين والجلابين بصفة تعويض، ثم اقتدت فرنسا بها فأصدرت مرسومين بتاريخ ١٨ يولية سنة ١٨٤٥ و٢٧ أبريل سنة ١٨٤٨، بهما أطلقت حرية ٢٥٠٠٠٠ رقيق، ودفعت لمواليهم ٥٠٠٠٠٠٠ جنيه بصفة تعويض. وقد ظهر للِّجان التي نيط بها فحص حالة الأرقاء الذين أطلقت لهم الحرية أن معظمهم باعهم آباؤهم وأمهاتهم بيع السلع مُكرهين؛ بسبب ما انتابهم من فقر وجوع، فكانوا يتخلَّصون منهم بهذه الطريقة الهمجية. ومن لشبونة وإشبيلية كان هؤلاء الأرقاء ينتقلون مع مشتريهم إلى بلاد الشرق في تركيا وفي الأناضول وفي مصر وفي غيرها من البلدان.[٥]

(٤) الرقيق في أمريكا

ولم يخلص العالم المتمدين نفسه حتى اليوم من تجارة الرقيق في صورة من الصور؛ ففي أبريل سنة ١٩٣٥ نشرت الصحف الأمريكية حكاية فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، تسكن في غرفة حقيرة ليس فيها من الأثاث ما يستر أرضها، والفتاة صفراء اللون منحلة القوى من جراء الولادة، وبجانبها طبيب يحمل على يديه قطعة لحم هي ثمرة تهوُّرها وانخداعها بالجنس القوي، فلما وقع بصرها على ما يحمله الطبيب قالت له بصوت يدل على الاستنكار: «أبعده عني»، فتعجَّب الطبيب لانتفاء عاطفة الأمومة من قلب تلك الوالدة، وقال لها: إنه طفل جميل ثقله عشرة أرطال.

ولكنها لم تعبأ بما قاله، بل ألحَّت عليه في إخفاء ذلك البرهان القبيح على عارها، وكان ذلك ما يتوقعه الطبيب ويريده؛ لعلمه بالربح المالي الذي أصبح الآن حلالًا له بعد

[٥] جاء في تقرير لجنة مكافحة تجارة الرقيق الأبيض في عصبة الأمم، أن التجار لا يزالون يمارسونها بأوربا وأمريكا، ولهم مندوبون في المحطات والموانئ بإغواء الفتيات بجعلهن كواكب، وقد يتناول الواحدة أكثر من ٢٠ تاجرًا.

أن أنكرت الوالدة الشقية طفلها فهو يبيعه في سوق الأطفال بعشرة دولارات الرطل، وبأكثر من ذلك أحيانًا. وهكذا أخذه وعاد إليها مرارًا ليقويها ويعيدها إلى حالة الصحة، فقابلت جميل صنعه في العناية بها بدون أجرة بجميل الثناء، ولم يخطر لها ببالٍ أنه سيبيع طفلها بما يزيد على أجرته أضعافًا!

ولا يستغربنَّ القارئ هذا؛ فإن سعر كل رطل من الأطفال في الجانب الغربي من الولايات المتحدة بأمريكا يتراوح بين خمسة دولارات وعشرة دولارات، أما في شرقيها فمختلف؛ إذ يفوز بالطفل من سوق المزاد صاحب الدفعة الكبرى، والراغبون في الحصول على اللقطاء كثيرو العدد، وكلهم من الذين حُرموا نعمة الأولاد، وهي تجارة جديدة نتجت عن الضيق الحالي الذي يحمل الفتيات اللواتي عدمنَ المال والأعمال، على التهور بدافع الحاجة، وبإغراء الطائشين من الفتيان.

وفي ملاجئ اللقطاء جداول تحتوي على مئات الأسماء، وفي بعض الأحيان ألوف الأسماء التي يريد أصحابها تبني الأطفال، وكثيرًا ما يقلُّ الإنتاج عن الاستهلاك، فيؤدي إلى ارتفاع الأثمان، وذلك هو الباعث على ابتداع سوق الأطفال، وفي بعض الأحيان يُباع الطفل قبل أن يخرج إلى العالم؛ لأن أكثرية أمهات الأطفال غير الشرعيين من الفتيات اللواتي تحت سن العشرين، وهن يسارعن إلى إبلاغ الأطباء أمر وقوعهن في هذه الورطة قبل الأجل المضروب، وهو بدوره يدبِّر المشتري من جداول الطالبين.

وأول ما عرف الناس بسوق الأطفال كان عندما أماطت إحدى الموظفات في جمعية الرفق بالأطفال اللثام عنها في هليوود، فقالت في مقالة نشرتها: إن الضحايا هنَّ على الغالب فتيات في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر، والفتاة التي يشدِّد عليها الطبيب بدفع أجرته في الحال تسلم معه بأخذ الطفل للتبني إذا كان يسدِّد ما يطلب له منها، وهو يبيعه بثمن يماثل أجرته ويزيد.

وقد جرت العادة التي هي بنت الاختبار، أن الزوجين اللذين يشتريان الطفل يحتفظان به بضعة أشهر قبل المفاوضة في أمر تبنيه رسميًّا؛ وذلك للحيلولة دون قيام الحكومة بالتحقيق الواجب، فبعد انقضاء هذه المدة يتعذَّر على الحكومة إيجاد برهان على عدم شرعية ولادة الطفل، وتضيع الحقيقة بين اختفاء الأم وشهادة الطبيب ومال الرشوة.

وتوجد مثل هذه السوق في مدينة نيويورك، تُباع فيها الأطفال بسعر معلوم أو بالمزاد. وقد أسفر سعي جمعية الرفق بالأطفال لاستئصال هذا الشر عن خيبة؛ لأنها

تعجز عن تأييد دعاويها على الشخص الذي احتكر هذه التجارة الغريبة، فهو في كل دعوى أقيمت عليه يدَّعي أنه قد حصل على الأطفال بطرائق مجهولة كتبرعات لمعهده.

وقد نشرت إحدى الصحف الأمريكية بهذه المناسبة مقالًا هامًّا عن تجارة الرقيق، بقلم رحالة جاب أسواق الرقيق في إفريقيا وآسيا، وقد جاء في هذا المقال أن هناك خمس عشرة دولة على الأقل لا تستطيع القضاء على النخاسة في بلادها، وأكثر هذه الدول تتمتع بعضوية جمعية الأمم: هناك جمهورية ليبريا — مثلًا — فهي تساهم في جمعية الأمم منذ إنشائها، ومع ذلك تضمَّن تقرير لجنة التحقيق الدولية التي تألَّفت منذ عدة أعوام لدراسة مسألة النخاسة «تجارة الرقيق» اتهامًا خطيرًا لحكومة ليبريا بأنها ترسل جنودها لاقتناص الرجال والنساء، وتسخيرهم في حقول الكاكاو البرتغالية في «ساو نوميه» و«فرناندوبو»، وأن استبعاد حكومة ليبريا للزنوج بهذه الصفة أصبح موردًا عاديًّا من موارد إيراداتها.

أما الحبشة، فيقدَّر عدد العبيد الأرقاء فيها بمليونين، ولكن النجاشي يبذل جهود الجبابرة للقضاء على هذه التجارة المقيتة، وقد أنشأ وزارة خاصة لمكافحة النخاسة، أسندها إلى «ليكاماكواس مانجشا» وزير الحبشة المفوض سابقًا في روما. كما أنشأ للغرض نفسه لجنة برياسة سمو ولي عهده. وقد أعتق النجاشي المئات من عبيده، وأقطعهم الأراضي الزراعية، ولكن المشكلة الكبرى هي في كيفية تدبير عمل منتِج لباقي العبيد إذا حُرِّروا جميعًا.

وكانت الهند كذلك من أفضل أسواق العبيد، وفي سنة ١٩٢٤ أعتق مهراجا بيبال ٥٧ ألفًا من العبيد، وأعتقت الحكومة البريطانية ١٨٥ ألف عبد في تنجانيقا.

ولكن تجار الرقيق لا يزالون يواصلون عملهم بنشاط، فهم يُغيرون على القرى والقبائل في الحبشة والصومال وكنيا، ويقتلون الشيوخ ويختطفون النساء والأولاد، وينقلونهم بالسفن إلى بلاد العرب عن طريق البحر الأحمر، وذلك على الرغم من وجود بواخر إنجليزية وإيطالية وفرنسية مهمتها مطاردة النخاسة واستئصال شأفتها.

والعبيد الذين يُباعون في بلاد العرب يعاملون من المسلمين أفضل معاملة، فلا يُستعبدون ولا يُرهقون، وساداتهم يستخدمونهم في الزراعة أو نقل الماء، ويحسنون إليهم، ويسهرون على سعادتهم، ويزوجونهم.

الفصل الثاني والعشرون

الثورة المهدية

تمهيد

قبل أن ندخل في تفاصيل الثورة المهدية وأسبابها، نرى لزامًا علينا أن نقول كلمة في الثورات عامة: فالثورة هي الغضبة على حالة كريهة، وهو العصيان على الأمر الواقع، والتمرد على القيود القائمة.

ويثور الإنسان كما تثور فئة قليلة، وقد يثور شعب بأسره، ولكن ثورة المرء الفرد قد تجيء وليدة الساعة، يفزع من شيء ويكرهه ويغضب عليه، فيحاول أن يزيله من سبيله وأن يتخطاه، فإذا اشتد الغضب، وغلا المرجل، وأصبحت الحالة القائمة لا تطاق، خرج الإنسان عن إرادته وهدوئه، وهاج وماج كما يهيج البحر، وكما يفور الماء المغلي ويحطم الغطاء.

والعادة أن ثورة الجماعات وغضبة الأمم تكون وليدة السنين والحوادث، وأن لها أسباب قديمة وغير مباشرة، فلا يمكن أن تقع ثورة جماعة أو أمة في حدِّ الزمن الذي تقع فيه ثورة الفرد الأحد، ومن ثمَّ كان للثورات أسباب بعيدة وكثيرة ومتجمعة. والثورات في حاجة إلى القادة والزعماء، وإلا كانت ضعيفة أو امتنع ظهورها. فليس هناك ثورة عامة في العالم إلا ولها زعماء وقادة، كما لها دعاة منفِّرون ومبشِّرون: منفِّرون من الحالة القائمة، ومبشِّرون بالحالة المنشودة الحسنة التي تحل محلها، وتتعدد الثورات؛ فهناك ثورات دينية يطلب فيها دفع الاعتداء على الدين أو مذهب فيه أو للدعاية له، وثورات سياسية داخلية من المحكومين ضد الحاكمين، أو من الحاكمين ضد المحكومين، وثورات خارجية، وهي الحروب التي تقع بين الأمم والحكومات.

وتؤثر في الثورات عوامل كثيرة: التجانس، واللغة، والدين، والوطنية، والعلم، والعدل، والاستعداد الحربي، وحالة العدو من قوة أو ضعف، وحالة الجيران، والحالة

الاقتصادية من رخاء أو فقر، والحالة العالمية، فإذا توافرت لشعب ثائر وحدة وطنية وجنسية ودينية، وظفر بقسط وافٍ من التعليم والتهذيب، وكان استعداده الحربي المعنوي والمادي كاملًا، وكان عدوه أضعف منه، وكانت له قيادة محترمة مخلصة، كان النجاح حليف هذا الشعب الثائر، وإذا حُرم هذه العوامل، كان النصر بعيدًا أو محالًا؛ فنجاح الثورات رهين بتوافر هذه العوامل؛ قليلًا أو كثيرًا.

وقد نظرنا في تاريخ الثورات العامة فألفينا لها سببًا جامعًا — أوليًّا في كل منها — وهو الشعور بالظلم والاستعداد لمقاومته، لا يكفي أن يوجد ظلم، بل يجب أن يوجد مظلومون يشعرون بأنهم مظلومون، ولا يكفي أن يشعروا بأنهم مظلومون، فقد يكونون متواكلين يقولون «هذا أمر الله»، أو «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أو «نحن ضعفاء وعدونا قوي»، بل يجب أن يكونوا مستعدين لمكافحة الظلم ومنافحة الظالمين بافتداء النفس وبذل النفيس.

وقد استُعير لفظ «الثورة» للحركات الإنشائية والنهضات الأدبية والعلمية والنسوية، على أساس أن طلاب الإصلاح والتجديد والانقلاب ينهضون لهدم القائم من أساليب الأدب وقواعد العلم وحياة المرأة؛ لإقامة أدب جديد له مناحيه وأساليبه وألوانه وفلسفته، أو قواعد علمية جديدة، أو الاعتراف للمرأة بحقوق وإنكار حالتها من العبودية للرجل.

وفي هذه الثورات المستعارة يوجد أيضًا شعور بالظلم؛ شعور بأن من الظلم أن يظل كل من الأدب والعلم والمرأة راسفًا في قيود التقليد والأساليب العاجزة.

أسباب الثورة المهدية

(١) **الظلم:** ظلم الكثيرين من الحكام للأهالي؛ بفرض الضرائب التي لم يحتملوها، والرشوة، وبألوان التعذيب.

(٢) **الشعور بالظلم والتمرد على الظالمين:** قيام الأعيان والفقهاء وأحاديث المجتمعات بالأنحاء على هذا الظلم، والتشاور في كيفية مكافحته.

(٣) **منع تجارة الرقيق:** كان الاتجار بالرقيق في يد الأقوياء، وكان الملوك والحكام والأعيان وأرباب الأمر والعمد ورؤساء العشائر، يستخدمون الأرقاء في منازلهم وكجند لهم، فحرمان التجار من مكاسبهم والكبراء من شيء يعدونه من ضروريات حياتهم، أدَّى إلى الغضب والانتقاض على الذين منعوا بيع الرقيق، وعدَّ هذا المنع ظلمًا؛ لأنهم شعروا بأنهم فقدوا ركنًا أساسيًّا في بناء حياتهم.

(٤) **احتكار الحكومة العاج:** وهو مادة تجارية أساسية في السودان، وقد حصل هذا الاحتكار في عهد غوردون.

(٥) **تعدد القبائل والعشائر في السودان ومنازعاتها:** وهي حالة توجب ثورات مستمرة، وتجعل الحاكم يستعين ببعض القبائل ضد البعض الآخر، فتثور القبائل المحرومة من تأييد الحكومة على الحكومة التي تؤازر القبائل الخصيمة.

(٦) **حب الاستقلال:** لقد كانت هناك قبائل وبلاد متمتعة بالاستقلال، فحرمها الحكم المصري منه، كما حدث في سلطنة دارفور، ومملكة شندى على عهد الملك نمر ومملكة أمتيسة. وإذعان هؤلاء الملوك وممالكهم للحكومة كان رضوخًا للقوة العسكرية المنظمة.

(٧) **العقيدة الدينية الفطرية:** لم يكن يجمع قبائل السودان المتنازعة إلا جامعة الدين الإسلامي، وكان المظلومون يعتقدون أن الله — سبحانه وتعالى — لا يرضى عن استمرار الظلم، ولا يرضى عن الظالمين، وأنه لا بد مرسِل إلى المظلومين رجلًا تقيًّا مهيبًا لينقذهم من الظالمين، وقد تواترت الأخبار المنقولة من بعض الكتب الدينية والمتداولة من أحاديث العامة أن هناك رجلًا عظيمًا يُدعى «المهدي المنتظر» يرسله الله — سبحانه وتعالى — في آخر الزمان لإنقاذ الأمة المحمدية والبشر كافة من الظلم؛ ولذلك كان زعماء الثورات السودانية قبل «محمد أحمد المهدي» أو بعده في حاجة إلى ادِّعاء المهدية؛ حتى يتفق ذلك مع المتواتر والمعتقد والمنتظر.

لقد رأيت الذين عالجوا الثورة المهدية من الأجانب والمصريين قد تحاملوا عليها، وجسَّموا فظائعها، وأنكروا على الثورة قيامها.

وفي رأيى أن هؤلاء المؤرخين جميعًا قد أخطأوا التوفيق، وأفسد تفكيرهم ما وقع عليهم من مظالم، أو لأن الثورات كانت قريبة العهد منهم.

في جميع الثورات تحدث فظائع، وتنهك حرمات، ويحصل خراب وظلم أو حرمان لبعض الأفراد أو الطوائف.

لقد كان قيام الثورة المهدية معاصرًا لقيام الثورة العرابية، وقد قامت الثورة العرابية ضد ظلم فريق من الحكام الأتراك «الجراكسة» للمصريين، وقامت الثورة المهدية لتدفع ظلم هؤلاء الحكام في السودان. فمن هذه الناحية تشبه الثورة المهدية الثورة العرابية.

وتشبه الثورة المهدية الثورة الوهابية في نجد؛ لأن كلًّا من الثورتين قد اصطبغ بالصبغة الدينية، وهو الرجوع بالإسلام إلى الفطرة وتجريده من البدع، ولو أن الثورة

المهدية وجدت رجالًا أكفاء بعيدي النظر عملوا على توطيد الحكم بعد نجاحها، لظل السودان مستقلًّا، بل لأمكن للثورة المهدية أن تجتاح مصر؛ حيث كانت ضعيفة معسرة ومحتلة بالجيش الإنجليزي، وأن تضم مصر إلى السودان، وأن تنجح غزوة ابن النجوي لمصر، كما نجح ابن السعود في ضم الحجاز إلى نجد، وقد أشبهت الثورة المهدية ما حدث في الجزيرة العربية عقب الرسالة المحمدية والدعوة الإسلامية، من توحيد كلمة القبائل المتنافرة تحت شعار واحد، ففي الثورة المهدية شعار المهدية، وفي الدعوة الإسلامية الرسالة النبوية.

على هذه الصورة يجب أن تفهم الثورة المهدية، أما التحامل عليها والنيل من زعيمها السيد محمد أحمد المهدي، والاكتفاء بتضخيم الفظائع وتعداد المظالم، فليس من الإنصاف التاريخي في شيء. يجب علينا أن نعالج الثورة المهدية كما نعالج الثورة العرابية والثورات العامة الأخرى.

أسباب نجاح الثورة المهدية

نجحت الثورة المهدية:

(١) لشخصية زعيمها السيد محمد أحمد المهدي، فقد كان فقيهًا تقيًّا نزيهًا، وصاحب عقيدة تتحول الجبال ولا يتحول عنها، وكان لها أنصار كثيرون من ذوي العقيدة والتفاني.

(٢) لأن المهدي أعلن أنه «المهدي المنتظر»، وكان السودانيون ينتظرون من قديم ظهور هذا المهدي المنقذ.

(٣) ظلم الحكام وضعفهم: ما اقترفه بعض الحكام والموظفين من مظالم، مع ضعفهم.

(٤) ضعف الحاميات المصرية بالنسبة لاتساع السودان، وبسبب الثورة العرابية وضعف الحكومة المصرية أمام رعاياها وأمام الأجانب.

(٥) اضطراب حالة الحكم في مصر ونظمه، فكلما ضعفت آلة الحكم في مصر ظهر ذلك في السودان، ونفوذ مصر ضعيف الآن في السودان؛ لأن النفوذ الوطني ضعيف في توجيه الحكم الآن في مصر نفسها، وليس معقولًا أن تكون الحكومة المصرية ضعيفة أمام الاحتلال ثم يكون نفوذها غير ضعيف في السودان، وهذا الضعف حالة ظهرت منذ الاحتلال.

(٦) عسر الحكومة المصرية وتقليلها — أخيرًا — الأموال التي كانت تغدقها في بناء مدنية السودان، تلك المدنية التي لا تقوم إلا بأموال خارجية تنفق على السودان، وإلا عاد إلى بداوته.

(٧) تردد الحكومة المصرية في مكافحة الثورة.

(٨) دسائس فريق من الأجانب والنفعيين لتأليب السودانيين على المصريين.

(٩) اتجاه الإنجليز إلى إخلاء السودان من الجيش المصري؛ لا سيما بعد احتلالهم مصر وضعف الجيش المصري.

أسباب فشل الثورة المهدية بعد نجاحها

(١) وفاة المهدي في السنة الثانية بعد سقوط الخرطوم.

(٢) الخلاف بين الخليفة عبد الله التعايشي والخليفتين شريف وابن الحلو.

(٣) سعي التعايشي لإقامة ملك ومملكة، وتقريب التعايشيين ومحاباتهم على غيرهم.

(٤) وقوف حركة التجارة وانتشار الأوبئة والمجاعات.

(٥) اختلاف القبائل مع ضعف القيادة وجهلها.

(٦) المظالم والفظائع التي ارتُكبت من بعض أنصار المهدية.

(٧) موت الملايين بسبب الأوبئة والأمراض.

(٨) عدم رضا العالم الإسلامي وخليفة المسلمين عن الحركة المهدية وتعاليمها، وإنكارهم على صاحبها أنه «المهدي المنتظر».

(٩) إعادة تنظيم الجيش المصري وأسلحته، وحسن قيادته ونشاط قلم مخابراته.

الفصل الثالث والعشرون

شريف باشا والسودان

المشهور والمحقَّق أن المغفور له محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار[1] حتى سنة ١٨٨٤ قد طُلب إليه إخلاء السودان وجلاء الجيش المصري عنه، وقد أبى قبول هذا الطلب، واستقال محتجًّا، ولا تزال استقالته وصيغتها مرجع الكتَّاب الذين يكتبون عن السودان، ومفخرة للوطنيين المصريين الذين يرون استمرار ارتباط السودان بمصر، وأن النيل قد وحَّد بين مصر والسودان.

وليس هذا الموقف الوطني التاريخي لشريف باشا هو الموقف الوطني الوحيد المشرف، بل إن للمترجَم له مواقف وطنية رائعة؛ ولذا نرى لزامًا علينا أن نترجم حياة هذا الرجل العظيم.

ولد الفقيد «محمد شريف باشا» بالقاهرة في نوفمبر سنة ١٨٢٦؛ أي في أثناء حكم محمد علي، وفي إبَّان نهضته وفتوحه، وشريف باشا هو ابن حضرة صاحب السماحة

[1] منذ إنشاء أول وزارة مصرية برياسة نوبار باشا في أغسطس سنة ١٨٧٨، وفي عهد الخديوي إسماعيل، كان يطلق على الوزير اسم «الناظر»، وعلى الوزارة اسم «النظارة»، فكان يقال: نظارة الأشغال، ونظارة المالية، وهكذا، ويطلق على مجلس الوزراء اسم «مجلس النظار»، ولما تبوأ المرحوم السلطان حسين كامل الأول عرش مصر سنة ١٩١٤ سميت النظارة باسم الوزارة، والناظر باسم الوزير، على أنه قد بقيت الألفاظ القديمة في كثير من اللوائح والقوانين النافذة للآن.

محمد شريف باشا.

محمد شريف أفندي قاضي قضاة مصر[٢] وقتئذ، وكان تركيًّا، وبعد انقضاء مدة قاضي القضاة عاد إلى إستانبول «الأستانة» ومعه ابنه المترجم له، الذي كان — يومئذ — طفلًا رضيعًا، وبعد سنوات حضر سماحة قاضي القضاة إلى مصر في طريقه إلى الحجاز، وكان معه نجله، الذي رآه محمد علي ونصح لوالده بأن يترك ابنه في القاهرة ليتلقى العلوم في مدارسها، فدخل مدرسة الخانكا، وهي المدرسة الحربية التي أنشأها محمد علي سنة ١٨٢٦، وكان من تلاميذها بعض أنجاله وأحفاده. وفي سنة ١٨٤٤ سلك شريف باشا في البعثة العلمية الخامسة التي كان فيها الأميران حسين وعبد الحليم من أنجال محمد علي، وحفيداه الأميران الخديوي إسماعيل والأمير أحمد رفعت، ثم علي مبارك باشا، وانتظم شريف في سلك مدرسة سان سير Saint Cyr في فرنسا، ومنها إلى مدرسة تطبيق العلوم الحربية، والتحق بالجيش الفرنسي ونال رتبه يوزباشي أركان

[٢] كان للسلطنة التركية العثمانية «الباب العالي» حتى سنة ١٩١٤، حيث أُعلنت الحرب الكبرى، وضربت الحماية البريطانية على مصر، وعدت تركيا أنها قد فقدت سيادتها عليها، كان للسلطنة حق تعيين قوميسير عالٍ «مندوب سام» وقاضي قضاة مصر الشرعيين، وهما تركيان.

حرب، وعاد شريف إلى مصر سنة ١٧٤٩ في عهد عباس باشا الأول، والتحق بالجيش المصري برتبة «يوزباشي أركان حرب»، وعيِّن ياورًا للقائد سليمان باشا الفرنساوي «الكولونيل سيف»،[٣] ثم ترك الجيش وعيِّن سكرتيرًا للأمير عبد الحليم في دائرته سنة ١٨٥٣، وبقي فيها حتى توفي عباس باشا الأول وخلفه سعيد باشا، فأعاد شريفًا إلى السلك العسكري، ومنحه رتبة أميرالاي الحرس الخصوصي، وبعد سنتين رقِّي إلى رتبة لواء، فأصبح «باشا» وقائدًا لآلاي المشاة وآلاي الحرس الخصوصي، وقد تزوج من كريمة الجنرال سليمان باشا «الفرنساوي»، وقد أسمى العامة شريفًا، شريف باشا الفرنساوي بسبب هذه المصاهرة.

ثم عيَّنه سعيد باشا وزيرًا للخارجية سنة ١٨٥٧ حتى سنة ١٨٦٣؛ حيث خلف إسماعيل باشا سعيد باشا، وعيَّن المترجم له وزيرًا للداخلية والخارجية، ولما سافر إسماعيل باشا سنة ١٨٦٥ عيِّن «شريف» قائمقام، وفي سنة ١٨٦٧ عين رئيسًا للمجلس الخصوصي، الذي كان يشبه في سلطته «اختصاص مجلس الوزراء»، وكان يضم الوزراء وبشوات آخرين.

ولما أنشئت لجنة التحقيق الأوربية التي ألَّفتها إنجلترا وفرنسا للبحث في ديون مصر وحالتها المالية على عهد إسماعيل، كان «شريف» وزيرًا للحقانية والخارجية، وطلبت اللجنة إلى شريف أن يحضر أمامها لتسمع أقواله، فأبى، ووقعت أزمة أدت إلى استقالته.

ولَمَّا اشتدت النزعة الدستورية في مصر تطلعت الأنظار إلى شريف باشا ليرأس الوزارة الوطنية الدستورية، فكلفه إسماعيل باشا بتأليف الوزارة على أساس اللائحة الوطنية، فألَّفها في أبريل سنة ١٨٧٩، وأقصى منها الوزيرين الأوربيين للمالية والأشغال «وزير إنجليزي للمالية ووزير فرنسي للأشغال»، كانا في عهد وزارتي نوبار وتوفيق باشا، وأقرَّ شريف مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس شورى النواب، فشريف من مؤسسي النظام الدستوري في مصر، والعاملين على توطيد قواعده، إن لم يكن هو المؤسس الأول الحقيقي، وفي وزارته الثالثة سنة ١٨٨١ أنشأ مجلس النواب على المبادئ الدستورية العصرية.

[٣] كان الكولونيل سيف ضابطًا فرنسيًّا استقدمه محمد علي لتدريب الجيش المصري على الفنون الحربية، وقد أسلم وأصبح اسمه سليمان باشا الفرنساوي، وهو جد جلالة الملكة نازلي.

ولما خُلِع إسماعيل وخلفه توفيق باشا على عرش مصر، استقالت وزارة شريف باشا اتباعًا للتقاليد التي تقضي باستقالة الوزارة عقب وفاة ولي الأمر أو باعتزاله الملك؛ لأنها تستمد التعيين منه، ولا بد من تكليف جديد من ولي الأمر الجديد، وقد كلَّف الخديوي توفيق باشا شريف باشا بإعادة تأليف الوزارة، فألَّفها مع الاحتفاظ بوزارتي الداخلية والخارجية لنفسه، وكان أعضاؤها: إسماعيل أيوب باشا للمالية، وعلي غالب باشا للحربية، ومحمود سامي البارودي باشا للمعارف والأوقاف، ومصطفى فهمي باشا[٤] للأشغال، ومراد حلمي باشا للحقانية.

الخديوي محمد توفيق باشا ١٨٧٩–١٨٩٢.

وقد استقالت وزارة شريف باشا في أغسطس سنة ١٨٧٩؛ لعدم موافقة الخديوي توفيق على تأليف مجلس النواب، ولم يعيِّن الخديوي وزارة محلها، بل عيَّن وزراء في النظارات «الوزارات» برياسة الخديوي مباشرة، وبدون رئيس لهم، على أنه في سبتمبر

[٤] صار — بعدئذ — رئيسًا للوزارة، وهو والد حضرة صاحبة العصمة أم المصريين السيدة صفية هانم زغلول، أرملة المغفور له سعد زغلول باشا الرئيس الأول للوفد المصري.

سنة ١٨٧٩ عهد الخديوي توفيق إلى رياض باشا بتأليف وزارة برياسته، واشتد سخط البلاد على حرمانها من تأليف مجلس النواب وعقده، وظهرت الحركة العرابية بزعامة المرحوم أحمد عرابي باشا، ورأس الجند في ميدان عابدين يوم الجمعة ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١، وطلب من الخديوي عزل رياض باشا وتأليف مجلس النواب، فاضطر الخديوي للعودة إلى تكليف شريف باشا بتأليف الوزارة للمرة الثالثة؛ لتهدئة الحركة، فكان شريف رئيسًا للوزارة ووزيرًا للداخلية، وكان محمود سامي البارودي وزيرًا للحربية، وحيدر باشا للمالية، وإسماعيل أيوب باشا للأشغال، ومصطفى فهمي باشا للخارجية، ومحمد زكي باشا للمعارف والأوقاف، وعين المشرِّع المعروف محمد قدري باشا للحقانية.

وألقى شريف باشا خطابًا في زعماء الجيش المهنئين له فقال:

> في علمكم ما قاله الأقدمون: «آفة الرئاسة ضعف السياسة، ولا حكومة إلا بقوة، ولا قوة إلا بانقياد الجنود انقيادًا تامًّا، وامتثالهم امتثالًا مطلقًا.
>
> كل حكومة عليها فرائض وواجبات، من أهمها صيانة الوطن، وحفظ الأمن العمومي فيه، وهذا وذاك لا يتأتيان إلا بإطاعة رجالها العسكريين، فتردُّدي أولًا في قبول الرئاسة ما كان إلا تجافيًا عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال، ويزيد معها الإشكال، فأكون عرضة للملامة بين إخواني في الوطن وبين الأجانب، وحيث أغاثتنا الألطاف الإلهية وحصل عندي اليقين بانقيادكم، فقد زال الاضطراب من القلوب، ورتبتُ الهيئة الجديدة من رجال ذوي عفة واستقامة، فأوصيكم بملاحظة الدقة في الضبط والربط؛ لأنهما من أخص شئون العسكرية، وأساس قواها، واعرفوا أنكم مقلَّدون أشرف وظيفة وطنية، فقوموا بأداء واجباتها الشريفة وعليَّ القيام بأداء كل ما يزيدكم فخرًا وسؤددًا، وفَّقنا الله وإياكم …

وقد برَّ شريف بعهده، فتألَّف مجلس شورى النواب سنة ١٨٨١، ثم استقال شريف في ٣ فبراير سنة ١٨٨٢ إثر خلاف سياسي، وخلفه البارودي باشا، ثم استقال وخلفه راغب باشا الذي ضرب الأسطولُ الإنجليزي في عهده مدينة الإسكندرية بالمدافع يوم ١١ يولية سنة ١٨٨٢، واستقالت وزارة راغب باشا وخلفتها وزارة برياسة شريف باشا في أغسطس سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال الإنجليزي وفشل الثورة العرابية، ثم ما

لبثت الحركة المهدية أن استفحلت في السودان لظهور محمد أحمد المهدي، وقد رغبت الحكومة الإنجليزية إلى الحكومة المصرية إخلاء السودان فقدَّم الاستقالة الآتية:

(١) استقالة شريف باشا التاريخية

رغبنا في نشر نص استقالة شريف باشا، تلك الاستقالة التاريخية المشهورة، ولكننا لم نجد نصًّا واحدًا لهذه الاستقالة.

(١-١) الوقائع المصرية

فقد أشارت الوقائع المصرية في عددها الصادر بتاريخ ١٢ يناير سنة ١٨٨٤ إلى الاستقالة من غير نشر نصها، فقالت:

> استعفت هيئة النظار التي كان يرأسها دولتلو شريف باشا فقُبِل استعفاؤها، وكلَّف الجناب الخديوي المعظَّم صاحبَ الدولة نوبار باشا بتأليف نظارة جديدة تحت رئاسته فقَبِل ذلك، وانتخَبَ لها من رجال الحكومة المصرية من يُعتمد عليهم في مهام الأعمال، ورفع أسماء حضراتهم للجناب الخديوي المعظَّم فصدر أمره العالي بتعيين كل منهم في النظارة التي انتُخب لها، أدام الله توفيق الجميع لما فيه خير البلاد وصلاح العباد.

(١-٢) رواية جريدة الأهرام

وقالت جريدة الأهرام في العدد الصادر في ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ عن أسباب الاستقالة ما يلي:

> أما الأسباب التي حملت حضرات النظار على الاستعفاء فهي أن حكومة مصر ترى أنه من الممكن المحافظة على أملاكها السودانية بواسطة خمسة عشر ألف جندي ليس إلا، وأن الحملة التي أرسلتها أولًا مع ما سيتبعها كافية لإدراك الغاية، وأن التخلي عن السودان مضرٌّ بمصلحة مصر سياسيًّا وتجاريًّا، وفي حال تخلي مصر عن السودان تُقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة في القطر،

ولا ترى الحكومة لزومًا لترك الخرطوم وسواها من المدن الخاضعة، والتي لم يحصل فيها شيء من الهيجان، وحاميتها قادرة على حفظها وصونها. وإن حكومة مصر لا يمكنها أن تقبل مطلقًا بتلغراف اللورد غرانفيل القائل بوجوب «قبول كل نصيحة إنكليزية بدون تردد، وأن كل ناظر لا يكون مشربه إنكليزيًّا لا يلزم وجوده في النظارة»؛ فهذا مناقض لنص الدكريتو الخديوي الصادر في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨، القائل بأن الوزارة مسئولة أمام الجناب الخديوي ليس إلا، وبناء عليه، فلا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه الوزارة الإنكليزية، وهذه هي الأسباب التي حملت الوزارة على الاستقالة، فقدمت استعفاءها إلى الجناب الخديوي كما قدمنا أولًا.[٥]

(٣-١) نص الاستقالة في كتاب سرهنك باشا

ورد بذيل الصفحة ٤٢١ ج٢ من كتاب حقائق الأخبار لسرهنك باشا، بعد الديباجة:

> قد اقترحت علينا دولة ملكة إنكلترة المعظمة أن نخلي السودان، وليس لنا حق في فعل ذلك؛ لأن هذه الولايات من مستملكات الدولة العلية التي فوضت وقايتها إلى عهدتنا، وقد طلبت دولة الملكة[٦] أيضًا أن نقتدي بنصائحها بدون مذاكرة فيها، فلا يخفى أن هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة في ١٨ من شهر أغسطس سنة ١٨٧٨م، التي نُصَّ فيها على أن الخديوي يجري أحكام البلاد باشتراكه مع النظار، فبناء على ذلك نضطر هنا إلى أن نطلب من مقامكم العالي أن تقبلوا استعفاءنا لأنه لا يمكن لنا — والحالة هذه — أن ندير البلاد على أصول شورية.
>
> التواقيع

[٥] الأهرام في ١٥ يناير سنة ١٨٨٤.

[٦] الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا يومئذ.

تعليق: تاريخ ١٨ أغسطس الوارد في هذا النص قد صحِّح في كتاب «البعثات العلمية» لحضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون بـ ٢٨ أغسطس؛ لأنه هو التاريخ الذي صدرت فيه النظامات الشورية المنوَّه عنها بالنصِّ المذكور.

(١-٤) استقالة شريف باشا كما وردت بكتاب مذكراتي في نصف قرن ص٢٦٦ تأليف أحمد شفيق باشا

إن الأسباب التي حملت النظار على الاستعفاء هي أن حكومة مصر ترى أنه من الممكن المحافظة على أملاكها السودانية التي بيدها الآن بواسطة ١٠ آلاف جندي، وأن التخلي عن السودان مضرٌّ بمصلحة مصر سياسيًّا وتجاريًّا، وفي حال تخلي مصر عن السودان تُقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة بالقطر، ولا ترى الحكومة لزومًا لترك الخرطوم وسواها الخاضعة والتي لم يحصل فيها هياج، وحاميتها قادرة على حفظها وصونها.

وإن حكومة مصر لا تقبل مطلقًا تلغراف اللورد غرانفيل، القائل بوجوب قبول كل نصيحة إنجليزية بدون تردد، ما دام جيش الاحتلال موجودًا في مصر لأن كل ناظر لا يكون مشربه إنجليزيًّا لا يلزم وجوده في النظارة، فهذا مناقض لنص الدكريتو الخديوي الصادر في ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٨، القائل بأن النظارة مسئولة أمام الخديوي ليس إلا، وبناء عليه، لا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه إنجلترا.

تعليق: ذكر صاحب كتاب «مذكراتي في نصف قرن» أن هذه الاستقالة رفعها شريف باشا للخديوي توفيق في ٨ أبريل سنة ١٨٨٤، وهو خطأ بيِّن؛ لأن وزارة نوبار التي خلفتها كانت في ١٠ يناير سنة ١٨٨٤، فلعل الصواب في التاريخ المذكور ٨ يناير سنة ١٨٨٤.

ويظهر أن تعدد الروايات قد نشأ من أن الاستقالة كُتبت بالفرنسية أولًا كما جرت العادة يومئذ في الشئون السياسية الهامة، وأن اختلاف الصيغ وقع في الترجمة بتصرف أو من غير تصرف، أو وقع بسبب تدخُّل في صيغة الاستقالة.

مرض شريف باشا

وقد مرض شريف باشا بعد ذلك، وذهب للاستشفاء في الخارج، وتوفي في أبريل سنة ١٨٨٧ في جراتز بالنمسا.

وقد وصفت جريدة الأهرام «في عددها الصادر سنة ١٨٨٧» جنازة الفقيد عند وصولها إلى الإسكندرية ونقلها من المنشية إلى باب الترسانة، وفي القاهرة، وقد أُغلقت المحال التجارية وسارت الألوف وراء النعش، وكان الجميع آسفين على فقد الأمة هذا الخادم الأمين؛ فلقد كان الفقيد واسع الذكاء والاطلاع، بعيد النظر، شديد التوافي لأصدقائه، نزيهًا عفيف اليد والقلم واللسان، محبًّا للدستور والحرية، مبغضًا لتدخل الأجانب، شديد الاعتزاز بكرامته، مستقل الرأي، وكان جميل الطلعة طويل القامة مشرق الوجه، وكان عظيمًا في غير صلف، كبيرًا في غير عنف.

وقد أعقب شريف باشا ولدًا وبنتين، أما ابنه فهو محمد شريف باشا الذي كان وكيلًا لوزارة الخارجية، ولمنع الالتباس بين الأب وابنه اصطلح الناس على تسمية الأب باسم شريف باشا الكبير، وأما كريمتاه فقد تزوجت إحداهن من محرم شاهين باشا، والثانية من المرحوم عبد الرحيم صبري باشا، والد حضرة صاحبة الجلالة الملكة نازلي، وصاحبي السعادة حسين صبري باشا محافظ الإسكندرية وشريف صبري بك وكيل الخارجية، صهر المغفور له عدلي يكن باشا.

استقالة شريف باشا المودعة مجلس الوزراء

كانت استقالة دولة المرحوم محمد شريف باشا موضع اهتمامنا ومحل تدقيقنا، وقد عرف القراء فيما تقدَّم أنه ليست هناك صيغة واحدة لهذه الاستقالة، فنقلنا رواياتٍ أربعَ عن الاستقالة، وأخيرًا اتجهنا إلى نص الاستقالة التي أودعت مجلس الوزراء، ولكننا علمنا أنه ليس بديوان المجلس نصٌّ رسمي موقَّع عليه، وإنما هناك ورقة باللغة الفرنسية، غفل من التوقيع، وليس يُدرى أهو نص الاستقالة أم كتاب خاص رفعه شريف باشا إلى الخديوي توفيق باشا مع نص الاستقالة الرسمية، ونحن نؤثر ترجمة ما في الوثيقة المحفوظة بمجلس الوزراء فيما يلي:

يا صاحب السمو

تعلمون سموكم الأسباب التي من أجلها كان من رأي زملائي ورأيي أن نبذل جميع جهودنا للمحافظة على النيل الأعلى حتى الخرطوم وشاملة لها، وقد عددنا هذه المحافظة لا غنى عنها لسلامة مصر وأمنها، وقد فكرنا في الوصول إلى هذه النتيجة، وأن ننزل عند الحاجة عن السودان الشرقي مع شواطئ البحر الأحمر إلى الباب العالي، وأن نخصص جميع القوات الموجودة للنيل.

ولكن هذه الأسباب لم تظهر كافية لحكومة صاحبة الجلالة البريطانية، التي أصرَّت على وجوب إخلائنا لوادي النيل كله، على أن لا نحتفظ إلا لغاية أسوان أو وادي حلفا، كآخر حدٍّ جنوبي، وفضلًا عن ذلك، فإنه — كما كان لي الشرف أن أبلغ سموكم في المجلس — قد تلا علي السير بارنج تلغرافًا من اللورد غرانفيل بموجبه، كلفه بإبلاغي بأنه ما دام احتلال الجنود البريطانية الوقتي لمصر قائمًا، فإنه يجب تنفيذ النصائح الصادرة من حكومة جلالة الملكة في كل مسألة هامة، وأن كل وزير لا يعمل طبقًا للنصيحة يجب عليه أن يستقيل.

ولما كنَّا نرى أن مدلول هذه الرسالة يتعارض مع استقلال حكومتكم، بمعنى أن من شأنه أن يشلَّ المسئولية الوزارية أمام سموكم، ويعدل شروط الحكم كما أنشأها المرسوم الصادر بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨.

ولَمَّا كنَّا نعتقد أننا لا نستطيع — والحالة هذه — أن نحتفظ بمناصبنا التي ندين بها إلى ثقة سموكم السامية، فقد رفعنا استقالتنا جميعًا بين يدي سموكم.

٧ يناير سنة ١٨٨٤

(٢) نوبار باشا والسودان

وقد خلف نوبار باشا.[٧] شريف باشا في تأليف الوزارة، وقد قبل نوبار ما لم يقبله شريف من قبل، وهو إخلاء السودان من الجيش المصري، وكانت وزارة نوبار مذ ذاك

[٧] نوبار باشا أرمني الأصل، كان أول رئيس للوزارة المصرية عند إنشائها سنة ١٨٧٨.

أول وزارة مصرية تألَّفت على أساس الإذعان للمشورة البريطانية، وقد ندب غوردون باشا للسفر إلى السودان للمرة الثالثة؛ لتنظيم إخلاء السودان، ولكنه فشل في مهمته، وقُتل في الخرطوم في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥.

كان نوبار باشا رسول الخديوي إسماعيل في أوربا وتركيا؛ لزيادة نفوذ الخديوي بالفرمانات التركية الشاهانية المتوالية، وأخيرًا فاوض نوبار الدول في إنشاء المحاكم المختلطة، وأسفرت المفاوضات عن إنشائها باتفاق مع مصر سنة ١٨٧٥، لا يزال نافذًا حتى اليوم، وإن كان أصبح غير متفق مع نهضة مصر الاستقلالية والدستورية وكثرة كفايات بنيها.

نوبار باشا.

الفصل الرابع والعشرون

عودة غوردون باشا إلى السودان

بعد استقالة وزارة شريف باشا خلفتها وزارة نوبار باشا، وقبلت إخلاء السودان من الجنود المصرية؛ أي: أذعنت للمشورة البريطانية التي قضت بهذا الإخلاء، وقضت بإعادة تعيين غوردون باشا للمرة الثالثة.[١] كان يومئذ في لندن حكمدارًا عامًّا للسودان.

فحضر غوردون إلى القاهرة، حيث استقبل بمحطتها استقبالًا رسميًّا حضره رجال التشريفات الخديوية وكبار الضباط الإنجليز والمصريين، وقبل حضوره تبادل التلغرافات مع السير أفلن بارنج «اللورد كرومر» معتمد الدولة البريطانية في مصر، كما قابل رجال الحكومة البريطانية، وقد أرسل غوردون قبل مبارحته لندن تعليمات إلى وزارة الحربية لاتباعها في سفر من يرافقه.

وبعد وصوله قابل اللورد كرومر[٢] والخديوي توفيق ورئيس الوزراء «نوبار باشا» والوزراء «النظار».

كان وصول غوردون يوم ٢٦ ربيع أول سنة ١٣٠١هـ، وسافر في الساعة التاسعة من مساء يوم ٢٨ ربيع أول «فبراير سنة ١٨٨٤» بقطار خاص استقله من محطة بولاق الدكرور، وقد ازدحمت المحطة بالمودِّعين، وعلى رأسهم نوبار باشا رئيس الوزارة والوزراء، وقنصل إنجلترا الجنرال، وقائد الجيش.

---

[١] راجع الفصل الخامس عشر من هذا الجزء.

[٢] كان الممثل البريطاني في مصر قبل الاحتلال لقبه قنصل إنجلترا العام، وبعد الاحتلال بقي له هذا اللقب مع اسم المعتمد، وبعد إعلان الحماية سمي نائب جلالة ملك إنجلترا، وبعد ذلك سمي المندوب السامي البريطاني إلى اليوم، وفي مشروع المعاهدة: سفير Ambassador.

تمثال غوردون في مدينة الخرطوم ويرى فؤاد أباظة بك عند قاعدته في فبراير سنة ١٩٣٥.

ويقال إن عبد القادر حلمي باشا حكمدار السودان السابق أبلغ غوردون سوء الحالة في السودان، واستفحال أمر المهدي، ووجوب إرسال جيش من ألف جندي؛ لأن غوردون لم يسافر معه جيش، وكانت خطته ترمي إلى ملاينة المهدي بالوعود والهدايا، وبالاعتراف به حاكمًا على كردفان، كما كانت تلك سياسته عند فتح جنوب السودان «انظر الفصل الخامس عشر من هذا الجزء.»

وقد رافق اللواء إبراهيم فوزي باشا — الذي ورد ذكره في الفصل الخامس عشر من هذا الجزء — غوردون باشا في سفره بناء على طلبه قبل وصوله إلى القاهرة؛ لأنه رأى فيه جنديًّا كفؤًا ومساعدًا قديرًا؛ لسابق خدمته بالسودان والحكم فيه، وقد ردت

الحكومة إلى فوزي باشا رتبه ونياشينه العسكرية بعد أن نُزِعت منه لانضمامه إلى عرابي باشا.

وفي الساعة العاشرة مساء غادر القطار محطة بولاق الدكرور قاصدًا إلى أسيوط بين هتاف المودِّعين، وفي صباح اليوم التالي وصل غوردون إلى أسيوط، واستقل منها باخرة نيلية إلى أسوان، حيث استقبل لفيفًا من المبشِّرين والقسس الكاثوليك الهاربين من السودان، وقد أبلغوا غوردون سوء الحال والخطر.

وسافر من أسوان إلى الشلال، حيث استقل باخرة إلى كروسكو فوصل إليها بعد يومين، وكانت بها المعدات من جمال وغيرها حاضرة، وعين فوزي باشا قومندان للحملة، وكان مع غوردون الكولونيل استيوارت[٣] والجنرال جراهم، وقد عيَّن الأول وكيلًا لغوردون، وعاد جراهم من كروسكو.

وفي كروسكو أرسل غوردون إلى المهدي كتابًا ومعه هدية من الملابس، وفحوى الكتاب أن غوردون يعترف بالمهدي سلطانًا على السودان الغربي كله، وملكًا مطلقًا على كردفان ودارفور، وأن حكومة جلالة الملكة فيكتوريا — ملكة إنجلترا يومئذ — قد عينت غوردون حكمدار للسودان، ووافقت الحكومة الخديوية على ذلك، وأنه يرغب في توثيق العلاقات بين سلطنة المهدي وبينه، وإعادة المواصلات، ووقف إراقة الدماء. وأرسل غوردون تلغرافًا إلى حكمدارية السودان بالخرطوم باستقبال رسل المهدي إذا وصلوا، بإطلاق المدافع وإقامة الزينات، وجعل التلغراف تحت تصرفهم لمخاطبة غوردون، وأرسل تلغرافًا آخر بإعفاء الأهالي من الضرائب المتأخرة، وبفصل حسين سري باشا من وكالة حكمدارية السودان، وتعيين الكولونيل دي كوتلجف بدلًا منه، وكان مقيمًا في الخرطوم منذ سنة بمهمة سرية، وبتعيين عوض الكريم أبي سن زعيم قبائل الشكرية مديرًا للخرطوم.

وبعد السفر على الإبل أربعة أيام وصل غوردون ومن معه إلى آبار المرات، وبعد أيام وصلوا إلى أبي حمد، وهي أول حدود مديرية بربر، وأول حدود دنقلة، وسكانها يسمون الرباطاب والمناصير من الجعليين، وألقى غوردون خطابًا في أبي حمد بحضور

[٣] وضع استيوارت تقريرًا عن حالة السودان وحدوده، وعلى أساسه قررت الحكومة الإنجليزية إخلاءه، وقال استيوارت: «إن المصريين الذين لا يصلحون لحكم الدلتا، كيف يصلحون لحكم السودان — الكتاب الأزرق الإنجليزي عن السودان».

عبد القادر باشا حلمي حكمدار عموم السودان «انظر الفصل السابع عشر من هذا الجزء».

حسين خليفة باشا مدير بربر والأعيان، أبلغهم تجاوز الحكومة عن المتأخر من الضرائب، وعن ضرائب ثلاث سنوات في المستقبل، وإحراق الدفاتر القديمة، ووعدهم بتخفيض الضرائب بعد مضي ثلاث السنوات، وحذَّرهم من تصديق دعوة المهدي. فقالوا نحن مؤيِّدون للحكومة الخديوية إلى النهاية؛ كل ذلك لكفالة ولائهم له وللحكومة.

وأرسل غوردون تلغرافًا إلى اللورد كرومر يبشِّره بنجاح مهمته، وشهد لعبة الددلوكة، ثم سافر إلى بربر واستقبله القناصل والموظفون والأعيان، فوصفوا له حرج الموقف وضرورة وجود جيش لصد قوة المهدي الكبيرة، فطلب إليهم الاطمئنان والخلود إلى السكينة.

وعند السبلوكة تقدم أشخاص على جيادهم وقالوا: «نحن مظلومون يا أفندينا»، ولَحَظَ فوزي باشا أن وراءهم كمينًا من مائة فارس، وحذر غوردون من رسو الباخرة عند بلدة «السبلوكة»؛ لأنه ليس بالباخرة إلا ٢٥ شخصًا، فغضب غوردون وقال لفوزي:

يظهر أنك انغمست في ترف القاهرة ونسيت شجاعتك! ورست الباخرة فأطلق عليها الكمين النار، فقال غوردون لفوزي: الحق معك يا فوزي، وأنا المخطئ.[٤]

ووصلت الباخرة بعد أيام إلى أم درمان، حيث كان بها نقطة من الجنود، ثم وصلت الباخرة إلى الخرطوم، حيث رست في «المقرن»، وهي نقطة اجتماع النيلين الأبيض والأزرق، فأدت الجنود التحية العسكرية، وتفقَّد غوردون الحصون، وكان الجنود صفوفًا والأهالي واقفين.

نزل غوردون بسراي الحكمدارية، ووقف عند السلاملك وسلم ورقة إلى الشيخ حسين المجدي رئيس أساتذة المدرسة الأميرية، فقرأ فرمان التولية: «الأمر العالي الخديوي بتعيين غوردون حكمدار»، وأملى عليه الخطبة التالية:

> يا أهالي السودان عمومًا، إن الجناب الخديوي يسلم عليكم؛ صغيرًا وكبيرًا، أحرارًا وعبيدًا، إناثًا وذكورًا، وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى وإمبراطورة الهند، وإنكم لا تجهلون شفقتي عليكم ومحبتي لكم، وقد ساءني ما سمعته عنكم، حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم، وسفكت دماؤكم، ومُنعتم من تأدية فريضة الحج التي هي من أركان الإسلام وزيارة قبر النبي (عليه السلام)، وقد أساء هذا الحال كلًّا من جلالة الملكة وسمو الخديوي المعظم، فانتُدبتُ من قِبل حكومة جلالة الملكة لأكون واليًا على السودان، ومرخصًا فوق العادة، وقد صار فصل السودان عن مصر فصلًا تامًّا، وفوِّض إليَّ الحكم المطلق، وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدي بفحوى مأموريتي، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربي برمته، على شرط أن لا يمد يده لغيره. هذا وقد ألغيت جميع الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق، وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣، وقد تجاوزت أيضًا عن ضرائب ثلاث سنوات منذ أول سنة ١٨٨٤، وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات، وأمرت بإطلاق سراح جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناياتهم، وعزمت منذ الآن أن لا يكون أعضاء حكومتي إلا من الوطنيين، حيث إنني أود تشكيل حكومة

[٤] ص٢٧٢ السودان بين يدي غوردون وكتشنر، تأليف اللواء إبراهيم فوزي باشا.

وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه، وقد عيَّنت عوض الكريم أبا سن مديرًا للخرطوم، وأحسنت عليه برتبة الباشوية، ولي الأمل بأن العلائق ستُفتح بيني وبين سلطان الغرب «المهدي» وثيقة العرى، وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وإتلافها، وسحب الجنود؛ لتلتفتوا إلى عمران بلادكم وحرث أراضيكم وإنماء تجارتكم، ومني عليكم السلام.

وكان أهل الخرطوم يسمعون هذه الخطبة والدموع تنهمر من مآقيهم؛ لأنهم أيقنوا الهلاك؛ إذ إن المهدي، بعد أن أصبح قويًّا ظافرًا، لا يمكن أن يقبل ذلك، وأنه لا بد زاحف على الخرطوم.

ثم استقبل غوردون العلماء فأبلغوه أن إتلاف الحصون نكبة؛ لأن المهدي لن يلتفت إلى كلامك، فعدل غوردون عن تخريب الحصون.

وعلى أثر ذلك، هجر المدينة كثير من الناس إلى مصر، واستقال موظفون كثيرون؛ ومنهم الكولونيل دي كوتلجف، ويقول فوزي باشا في كتابه السودانيين بين يدي غوردون وكتشنر «انظر الفصل التاسع والعشرون من هذا الجزء»: «وقد تعجبت من إصرار غوردون على رأيه الأول بعد أن رأى الخطر الذي أحدق بحياته مرتين في الطريق وعلم إجماع الآراء على عدم نجاحه».

وقد زار عبد القادر ابن أم مريوم — وهو فقيه من القرى المحيطة بمدينة الخرطوم — «غوردون» فرحَّب به وأعطاه ٣٠٠ ريال، ثم عاد عبد القادر إلى قريته، وأرسل كتابًا إلى «غوردون» ينصحه بالتسليم هو ومن معه من الموظفين للمهدي.

(١) قبيلة الشكرية وزعيمها أبو سن

قبيلة الشكرية — أو قبائلها — قبائل رحالة تسكن شرقي النيل الأزرق في صحراء ريرة، بين عطبرة والنيل الأزرق، وماشيتها من الإبل والبقر كثيرة، وعددها — يومئذ — ٥٠٠ ألف نسمة، وكان أحمد أبو سن باشا مديرًا للخرطوم، وزعيمًا للشكرية، وقبل وفاته قدم إلى القاهرة وأهدى إلى الخديوي إسماعيل هدايا كثيرة وتوفي بها، وخلفه ابنه عوض الكريم أبو سن في زعامة الشكرية.

وقد ظلت الشكرية وزعيمها وآله على ولاءٍ صادقٍ وتفانٍ مدهشٍ للحكومة المصرية في أثناء الثورة المهدية، وقد حرَّض المهدي عليها قبيلة البطاحين القوية، والتي بها قطاع طريق، وقد اضطرت الشكرية عند حصار المهديين لكسلا أن تكتب للمهدي بالخضوع.

ولما وصل كتاب غوردون مع رسول خاص إلى عوض الكريم أبي سن باشا بتعيينه مديرًا للخرطوم، سأل الرسول: هل حضر مع غوردون جنود؟ فقال الرسول: لا، ولكنهم سيجيئون، فحثا عوض الكريم التراب على رأسه وقال: يا ضيعة الأمل! ثم كتب إلى غوردون بحرج موقف أبي سن واعتذاره عن قبول المنصب، وأن بقاءه في مكانه أنفع؛ لمنع مغادرة البطاحين إلى بربر.

(٢) كتاب المهدي إلى غوردون ردًّا على كتابه

وأرسل المهدي إلى غوردون كتابًا ردًّا على كتابه، وهذا نص كتاب المهدي:

> الحمد لله الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد، فمِن العبد المفتقِر إلى الله المهدي بن عبد الله إلى عزيز بريطانيا والخديوية غوردون باشا، قد وصلنا جوابك، وفهمنا ما فيه، وإنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين، وفتح الطرق لزيارة قبر النبي — عليه الصلاة والسلام — واتصال المودة فيما بيننا وبينكم، وحل المسيحية من النصارى والمسلمانيين، وأن تجعلني سلطانًا على كردفان، فأقول، والأمر لله، إني قد دعوت العباد إلى صلاحهم وما يقرِّبهم من ربهم، وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء، ويعملوا ما يصلحهم في آخرتهم.
>
> وقد كتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا «بآبا» بدعايته إلى الحق، وبأن مهديتي من الله ورسوله، ولست في ذلك بمتحيِّل ولا مريد مُلكًا ولا جاهًا ولا مالًا، وإنما أنا عبد أُحب المسكنة والمساكين، وأكره الفخر وتعزيز السلاطين، ونبوَّهم عن الحق المبين، لِمَا جُبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين، وهذا هو الذي صدَّهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم، فأخذوا الفاني وتركوا الباقي، واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات، ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله، ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغنِ عنهم ذلك شيئًا، وندموا على قدر الذي تمتعوا به، فأيدني الله بالمهدية الكبرى لدلالتهم إلى الله تعالى، وليتركوا العز الفاني والنعيم الفاني إلى العز الدائم الأبدي في دار النعيم المقيم، ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة، ويظن أنه ساعٍ في رضى الله، ويكون له نصيب في الآخرة.

وقد قال المسيح — عليه السلام: يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا، فلا تتخذوها قرارًا، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور، فكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها، ويكون له في الآخرة شأن، فأَنِبْ إلى الله الباقي، واخضع لجلاله، واطلب عز الآخرة، ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لملكها وعزها، وكيف من يكون على خلاف طريق النبي ﷺ، يفتح باب زيارة قبره، ولم يكن النبي ﷺ ممن يرغب زيارة الكلاب، كما ورد أن الدنيا جيفة وطلَّابها كلاب، ولم يكن يرغب مَن عَبَدَ غير الله، ونسي الله، وأعرض عن كلامه، وطلب متاع الحياة الفانية.

فإن كنت شفيقًا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلِّصها من سخط خالقها، وقوِّمها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ، الذي أحيا ما اندرس من ملل الأنبياء المرسلين، وأتى مصدقًا لِمَا بين يديه من الكتب؛ فجميع الأنبياء (عليهم السلام) لو حضروه لما سلكوا غير ملته، وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته، ومن حضر بعثته ومن بعدهم لا يُقبل منه دين غير دينه، فطهِّر نفسك أولًا بالدخول في ملته، ثم أشفق على أمته بسلوك سنته، فعند هذا تكون الشفيق، ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ❁ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾. وإننا قد امتثلنا أمر الله، فما نتخذ وليًّا إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا، حيث إن الله يقول هم الغالبون، فلا غلبة لغيرهم.

فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام، وأَنَبْتَ إلى الله ورسوله، واخترت الآخرة، نتخذك وليًّا وتكون من إخواننا، وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله، وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الآيات، فاستحق الوعد والبشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ❁ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا

أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ الآية، فبعد هذا تتصل المحبة والمودة فيما بيننا وبينك، وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل، وتكون قد اتبعت، باتباع نبينا محمد ﷺ، عيسى وجميع الرسل والنبيين، وحزت الخير الأبدي، وإلا حيث علمت أن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله، والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله، فاعلم أن حزب الله واصل إليك، ومزيل لك عما شاركت به خالقك، فادعيت ملك عباده وأرضه، مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين.

وأما المسلمانيون[٥] والمسيحيون الذين دعوت إلى إطلاقهم إليك، فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد، كما أريده لك ولكافة عباد الله، فلا أبعدهم من جنتهم إلى محنتهم، فإن الله قد أيدني رحمة للعباد؛ لأنقذهم من الهلاك الذي هم واقعون فيه، لولا رحمة الله بظهوري فيهم، واعلم أن المهدي المنتظر خليفة رسول الله ﷺ، فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها، ولا في مال الدنيا ولا زخرفها، وإنما أنا عبد الله دالٌّ على الله وإلى ما عنده، فمن كان سعيدًا أجابني واتبعني، ومن كان شقيًّا أعرض عن دلالتي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبد.

وقد أيدني الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه، وقد بشرني النبي ﷺ أن جميع من يلقاني بعداوة يخذله الله ويهزمه، ولو كان الثقلين الأنس والجن، فلا تغترَّ فتهلك كما هلك إخوانك، فافهم وسلِّم تسلم.

وأما الهدية التي أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كما كتبنا لك أنَّا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها، وإنما هي قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب، فها هي مرسولة إليك مع ما نرغبه من اللبس لنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدي، ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام، كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين،

[٥] تعبير قصد به الأجانب الذين تظاهروا بالإسلام وبالإيمان بالمهدية.

وتعلمُ ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى — عليه السلام — وحوارييه، وقد قال: «كبيت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدي»، فتعلمُ بذلك أن من خالفه من الأحبار والرهبان وجميع من يدعي اتباعه ليسوا محقِّين، وإنما غرَّتهم الحياة الفانية والأمتعة الآيلة، إلى أن تكون جيفة وعذرة، ثم عدمًا محضًا، فتكون حسرة وندمًا عند فراقها؛ لما فوَّتته من اكتساب خيرات الدوام. ثم إن مثل هديتك عندنا كثير، ولكن أعرضنا عنه طلبًا لما عند الله، وأقول في ذلك كما قال سليمان — عليه السلام — لبلقيس وقومها: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، واعلم أنك إذا أتيتنا مسلمًا نربِّيك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها، ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيرًا وصلاحًا للمسلمين، ولَّيناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير «دارة» سابقًا، فإنه لمَّا أتانا ورأى الحق وفرح بلقائنا غاية، وندم على ما فات مما صنعه من عمره الفاني، واطمأن قلبه بالله واختار الآخرة ووثق بالله، ولَّيناه على دارفور، وقد كتب لنا قبل ذلك «عبد القادر سلاطين»[٦] بالتسليم فأكرمناه، وإلى الآن نريد كمال تربيته، وهو الآن في خير كثير.

وكذلك السيد جمعة الذي كان مدير الفاشر، الآن أرسلنا إلى محمد خالد المذكور يأتي به إلينا لكمال التربية والإرشاد، وبلغنا حسن إسلام «الدمتري سجادة»، وصدق اتباعه لنا وإنابته للآخرة، وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور، وقد أذعنوا لله كباقي سلاطين دارفور، وسلموا جميعًا أمرهم إلينا في حب الله ورسوله، فحسن تسليمهم واتباعهم لنا، وكذلك «المك آدم» بك[٧] جبال تقلى الآن، أتي مهاجرًا لما رأى الحق، وحسن اتباعه وصدقه، وقد أكرمناه، وهو معنا الآن بخير كثير، وهلم جرًّا.

---

[٦] عبد القادر سلاطين هو رودولف سلاتين باشا، نمسوي، ومدير دارفور، أذعن للمهدية، وتظاهر بالإسلام فأسمي «عبد القادر»، ثم هرب في عهد التعايشي.

[٧] مك من ملك، وفي السودان؛ خاصة القديم والجنوبي، يكثرون من تسمية نظار القبائل والعمد بالمك يعني «ملك»، وبقيت لفظ «مك» من بنية أسماء الأشخاص، وتشير فقط إلى كبير الأسرة عندما كان يسمى مك.

فكل سعيد لا بد أن يتصل بنا من جميع أقطار الأرض، ومن أبى لا بد أن يخذله الله ويعذبه في الآخرة، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ مرارًا، وليكن معلومًا عندك يا حضرة الباشا أن جميع الذين قُتلوا على يدي قد أنذرتهم أولًا إنذارًا بليغًا، وها هو واصل إليك إنذار ولد الشلال بعد مخاطبته لي وإنذار هكس، بأجوبة عديدة للعامة، وجواب مخصوص له ولأكابر جيشه، وقد أرسلنا إلى باشة الأبيض[٨] بجواب فقتل رسلنا، وبعد أن وقع في يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة؛ ليتدرج إلى الصدق مع الله، ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتدي بنا، ويصدق مع الله، فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس، فلم يصدق، ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه، حتى أخذته نيته فمات، ومع ذلك، لأجل مبايعته ومجالسته معي إياما، قد أتانا خبرٌ بعد موته أنه عفي عنه في الآخرة، فصار من السعداء، والعبد إذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود، ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها، بل إنما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة. ونيتي بالعباد سعادتهم في آخرتهم الأبدية، وإزالة الهلاك عنهم من الله؛ ولذلك لاطفت جميع الأكابر وأهل الدولة بالقول والفعل؛ ليعرفوا ما عند الله فيرغبوا فيه ويتركوا الخسيس الفاني، وهكذا جميع من وقع في قبضتنا من الأكابر من أهل الدولة والحكام، ما عملنا معه إلا الخير والإكرام، فمن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف، والسلام — جماد أول سنة ١٣٠١.

وبعد هذا البيان، فإن اهتديت وسلَّمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والآخرة، وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك، وإلا هلكت، فكان عليك إثمك ومثل آثام جميع من اتبعك، وإن كان لك حسن نور في العقل تعلم أني خليفة رسول الله ﷺ، فلا تتهمني فيما أسوق به إلى الله والدار الآخرة، ولا تسمع عليَّ قول الظالمين الحساد، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى إلا أن يتم نوره، وقد قال ﷺ: «من شك في نصرة المهدي، فليقرأ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾،

[٨] هو محمد سعيد باشا، مدير كردفان وعاصمتها الأبيض.

ولزيادة الشفقة عليكم لزمت التحشية بهذا، والهادي هو الله، وكثرة البيان لا تهدي. هدانا الله والعباد إلى الصواب، آمين.

وأرسل المهدي مع الكاتب السابق الكتاب التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم «وبعد»، فمِن عَبْد ربِّه الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى غوردون باشا، باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه، وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى، الذين لا يبالون بما فات من المشتهيات طلبًا لعالي الدرجات، وهي جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة، فإن أنبتَ إلى الله وطلبت ما عنده فلا يصعب عليك أن تلبس ذلك، وتتوجه لدائم حظك، وها هو الرسول الذي أتى منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت، والسلام.

صورة ما كتبه المهدي على ظهر المظروف الذي أرسل إلى غوردون: «سألتك بحق الله ونبيه عيسى — عليه السلام — أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف، وقد أبلغني محمد سعيد المسلماني، الذي يسمَّى جورجو إسلامبوليه، أن رجلًا يسمَّى السيد أفندي نعيم الأجزائي له معرفة بلغتكم وبالخط العربي، وما دام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما في هذا الظرف جميعه حرفيًّا على يد المذكور، أو من هو مثله، وقد سألتك السؤال المذكور لما ذكرته والسلام ا.هـ.

وقدم على غوردون رسولان مع رسوله، يحملان الكتب والهدية التي هي جبة مرقعة وسراويل وعمامة، كلها من نوع قماش اسمه «الدمور» يصنع في السودان.

ولما وصل الرسولان إلى الخرطوم أشهرا سيفيهما، فأمرهما ضابط باب الحصن بإغمادهما فلم يطيعاه، فأمر غوردون بالمحافظة عليهما حتى يصلا إلى السراي، وهاج أهل الخرطوم عليهما — وهم الصبيان والرعاع — برجمهما بالحجارة فمنعوا، ولمَّا دخلا على غوردون قالا له: «السلام على من اتبع الهدى»، وسلماه الكتب والهدية، ولما رأى الهدية غضب وركلها برجليه، وقال: «غوديم»، ثم اطلع على الكتب وأبقى الرسولين عند حاجب السراي ريثما كتب للمهدي كتابًا قال فيه: «إنني أدعوك إلى السلم وأنت

تدعوني إلى الحرب، وأدعوك إلى حقن الدماء وأنت لا تميل إلا إلى سفكها، فأقول لك الآن لا بد من قهرك وكبح جماح طغيانك، ومهما يكن عندك من الأتباع فلا بد أن ترضخ صاغرًا أو تهلك حيال قوتي الحكومة الخديوية والدولة الإنكليزية»، ومنذ ذلك تغيَّرت سياسة غوردون، فأصبح يرى وجوب إخضاع الثوار والمهدي.

وعاد الرسولان إلى المهدي واشتغل غوردون بمخابرة مصر ولوندرة بالتلغرافات.

سياسة المهدي من كتبه

ويؤخذ من كتب المهدي — فيما تقدم — مايلي:

(١) أن الدعوة المهدية دعوة دينية إسلامية عامة، للأمم كافة، من مسلمة ومسيحية وغيرها، وأنها ليست بدعوة لإقامة حكم واحتلال بلاد فقط.

(٢) أن المهدي قد «حاول» محاكاة كتب النبي ﷺ وخلفائه في الدعوة إلى الإسلام.

(٣) أن المهدي له نصيب من الذكاء السياسي في محاولته إقناع غوردون بالحجج ليؤمن بالمهدية، وأنه يجنح إلى التهديد مرة، وإلى الترغيب مرة أخرى.

(٣) رأي الخديوي توفيق في مهمة غوردون

والظاهر أن الخديوي كان مرتابًا في نجاح مهمة غوردون بالطريقة السلمية التي كان متمسكًا بها؛ ولذلك صرح الخديوي للبارون دي مالورتي بما يأتي — وقد نشر البارون التصريح في الصحف الإنجليزية الكبيرة كما يأتي:

> لم يكن في استطاعتي أن أبدي دليلًا على حسن مقاصدي بأحسن من تعيين غوردون باشا حكمدار عامًّا للسودان، ومنحه كل السلطة في عمل ما يراه ضروريًّا لإصابة الغرض الذي ترمي إليه حكومتي وحكومة جلالة الملكة، حتى إني قلَّدته نفس السلطة المخولة لي، وتركت له الحكم على الحالة الراهنة، ولا ريب في أن ما يستطيع إتيانه من الأعمال أحسن ما يكون. وقد قبلت سلفًا ما يمكن أن يقترحه من الوسائل إلى ذلك؛ إذ ما يراه حسنًا من التصرفات يكون إلزاميًّا بالنسبة إلينا، ثم إني بعد أن جعلت عظيم ثقتي بهذه الكيفية في هذا الباشا لم أشترط عليه إلا شرطًا واحدًا، وهو أن يبذل عنايته فيما فيه

> طمأنينة العناصر المتمدنة من أوربيين ومصريين، وها قد أصبح الآن الرئيس المفوض، يرافقه حسن آمالي في هذه المأمورية التي هي من الخطارة والأهمية بمكان، فإن قلبي يذوب عندما أفكر في الألوف المؤلفة من رعاياي المخلصين الذين تكفي غلطة منه لهلاكهم. وإني لا أشك في أنه سيبذل كل ما في وسعه لحقن دماء أكثرهم على الأقل، فإن نجح — بعون الله — في إخلاء الخرطوم وأهم مواني السودان الشرقي، فله الشكر مدى الدهر على رعيَّتي التي ترتعد فرائصها من توقُّع ما يُخشى حصوله بعد حين. أما قولي لك إنه ينجح في مأموريته فهو من قبيل المجازفة مني في الكلام كثيرًا؛ فإن أمامه قوات أكثر منه عددًا وأهوالًا، غير أنَّا نرجو الخير، وأما هو فيمكنه أن يعتمد على أصدق مساعدة، وأسرع معونة مني أنا وحكومتي، بقدر ما تصل إليه يد الإمكان.

على أن غوردون لم يكن جاهلًا بكنه تلك النية، ولهذا كان يرسل التلغرافات تترى، ويدوِّن المذكرات ليقنع قومه بالعدول عن سياسة الإخلاء، وليجعل التاريخ حكمًا بينه وبين قومه؛ لاعتقاده أن تلغرافاته ومذكراته لا بد أن تُنشر على الجمهور، ويطلع عليها العالم أجمع، وهم لا بد أن يحكموا له لا عليه.

وقد تحققت أمنيته حيث نشرت الحكومة البريطانية تلك المذكرات والتلغرافات في كتبها الزرقاء، وكان لها من الأهمية فوق ما كان يتمناه صاحبها، وقد دارت مباحث كثيرة بشأنها في أندية إنجلترا وبرلمانها ومجلس لورداتها، وأهم هاته التصريحات ما فاه به مستر غلادستون في مجلس العموم حيث قال «إن حكومة جلالة الملكة تأخذ على عاتقها مسئولية المأمورية التي ألقيت مقاليدها إلى غوردون أدبيًّا وسياسيًّا وأنها ستعمل كل ما في وسعها للوصول إلى نتيجة مرضية».

ثم فاه غلادستون أيضًا بتصريح أوضح من هذا، حيث قال: «إن مهمة غوردون هي إخلاء السودان وإنقاذ موظفي الحكومة».

ثم قال: «إن ثقتنا به عظيمة، ولسنا مبالغين في شيء من روايتنا، وإننا عقدنا النية على أن لا نفاجئه بعمل دون استشارته وأخذ رأيه.»

وأرسل غوردون تلغرافًا في أول مارس سنة ١٨٨٤ إلى السير بارنج[٩] جاء فيه ما يأتي:

[٩] السير أفلن بارنج هو الذي أصبح اسمه «اللورد كرومر».

لم أزل أعتقد كمال الاعتقاد أن إخلاء السودان ممكن، لكن أقول لك إنه من المستحيل إجلاء المستخدمين المصريين عن الخرطوم إذا لم تساعدني الحكومة في الطريق الذي أوضحته لها.

فأجابه السير بارنج بتاريخ ٢ مارس بالرسالة الآتية:

قد وصل إليَّ إحدى عشر الرسالة التلغرافية المرسلة إلي في أربعة الأيام الأخيرة بخصوص مسائل السياسة العامة، وإني شديد الرغبة في مساعدتك بكل طريقة، لكني لم أتمكن من معرفة ما ترغبه للآن، وأرى أن أحسن طريقة هي أن تلخص المسألة جيدًا وتخبرني تلغرافيًّا بما تستصوبه.

فأجابه غوردون تلغرافيًّا بما يلي:[١٠]

يجب على الحكومة مساعدتي، وأن إجابة مطالبي ضربة لازب.

وإليك تلغراف السير بارنج إلى اللورد غرانفيل بتاريخ ٤ مارس، حيث قال ما يأتي:

إن الجنرال غوردون والسير استيوارت يلحَّان بوجوب فتح الطريق بين سواكن وبربر لنجاح مأموريتهما الحاضرة، أما أنا فلا يمكنني تعضيد ما جاء بتلغراف استيوارت من إرسال فرقة من الخيالة الإنكليزية أو الهندية إلى سواكن.

وأرسل السير بارنج إلى اللورد غرانفيل الرسالة الآتية أيضًا:

أتشرَّف بأن أخبر سعادتكم أن الجنرال غوردون كتب إلي تلغرافيًّا بأننا لو أرسلنا مائة جندي إلى أسوان ووادي حلفا يأمَن من كل خطر، ويكون في حالة اطمئنان؛ كالسواح المسافرين في النيل، وينتج منها تحويل صغير، أما أنا فلا أريد مطلقًا أن أخاطر بحياة فرقة صغيرة مؤلفة من مائة جندي فقط.

[١٠] راجع رسائل غوردون والكتاب الأزرق الإنجليزي عن السودان.

الجنرال غرانفيل باشا الذي عيِّن في سنة ١٨٨٥ سردار للجيش المصري خلفًا للجنرال وود باشا الذي استقال، وهو غير اللورد غرانفيل الوزير.

وكان قصد غوردون من هذه الرسائل مع السير بارنج أن يكون التاريخ حكمًا بينه وبين حكومته الإنجليزية كما قدمنا؛ ولذا بعث بتلغرافات قبل وصوله إلى الخرطوم فحواها أن الاضطرابات أقل مما كان يظن، وأنه يرى أن لا مندوحة له عن تمحيص حكومة جلالة الملكة النصح بتسكين الاضطراب في السودان الشرقي، وتقوية خطوط الاتصال بين بربر وشواطئ البحر الأحمر من جهة، وبين حدود مصر من جهة أخرى، وحاول إقناع السير بارنج بأن السودان مفتقر الافتقار كله إلى إشراف الحكومة الخديوية عليه، بما لها من حقوق السيادة، وسأله إبدال الفرمان الذي كان يحمله بآخر يحتِّم على السودان وجوب الخضوع إلى مصر، فذهبت مساعيه كلها أدراج الرياح.

وكان غوردون يرى — بعد فشل سياسة الملاينة — أن وقوع السودان في قبضة المهدي سيكون خطرًا على مصر، وأن احتلال إنكلترا لوادي النيل يحتِّم عليها العمل عاجلًا لإبعاد الأخطار عن البلاد التي احتلوها؛ بحجة توطيد دعائم الأمن والراحة في أرجائها.

وجاء ضمن نصائحه أن حكومة جلالة الملكة ستضطر يومًا لمناجزة المهدي وكبح جماح طغيانه، وسوف تتكبد من الضحايا ما يبلغ عشرة أضعاف ما تتكبده الآن لو عملت بمشورته وقبلت نصيحته، فلم يلتفت السير بارنج إلى شيء من ذلك كله، بل أصر على إنفاذ ما رسمه ساسة قومه، غير مكترث لشيء من الضحايا التي يتكبدها سكان السودان عمومًا، وسكان الخرطوم خصوصًا، وأخيرًا لِمَا تعرض له غوردون نفسه من هلاك محقق.

(٤) اللواء إبراهيم فوزي باشا

كان المرحوم اللواء إبراهيم فوزي باشا مع غوردون في فتوحاته الجنوبية، وعاونه على إصلاحاته حتى استتب الأمن في هذه الجهات الاستوائية المتنائية، مما عاد إلى السودان بتأمين مواصلاته بعد أن فتك بالنخاسين، وكانوا أصحاب النفوذ والسلطان، فأخضعهم لسيطرة الحكومة.[١١]

ولد إبراهيم فوزي بالقاهرة، ودخل المدرسة الحربية في عهد إسماعيل، وبعد تخرُّجه أُلحِق بالخدمة في حكمدارية السودان، وكان حكمدارها إسماعيل باشا أيوب، ولما وصل غوردون إلى الخرطوم لأول مرة — وكان معيَّنًا مديرًا مستقلًّا للمقاطعات الاستوائية — طلب من الحكمدارية انتخاب بعض الضباط ليعاونوه في مهمته، فامتنع أكثرهم عن قبول الخدمة معه؛ لبعد الشُّقَّة، وعذاب السفر، ومكافحة الأقوام المتوحشة التي يقصد غوردون إخضاعها، ولكن الضابط إبراهيم فوزي أظهر رغبته في مصاحبة غوردون لخدمة بلاده، فشكر له غوردون هذه الرغبة، وفوَّض له أمر فرز الجنود وتدريبها.

وبعد أن تم إعداد البواخر لسفر الحملة ولَّاه قيادتها، فسافرت البواخر عابرة النيل الأبيض، فبحر الزراف، فبحر الجبل، إلى أن وصلت إلى البحيرات الكبرى، وهو في

[١١] محمود ذو الفقار الكاشف.

خلال هذه الرحلة الشاقة يقودهم من نصر إلى نصر، مقاومًا الزنوج وتجار الرقيق، إلى أن تم لغوردون بسط النفوذ المصري على جميع الجهات الاستوائية، فكافأه على بطولته بأن عيَّنه مديرًا لبحر الغزال، ثم مديرًا للمقاطعات الاستوائية الجديدة، وبسبب وشاية قَبِلها غوردون فُصل من وظيفته، ولَمَّا تحقَّق غوردون من كذب هذه الوشاية التمس من الخديوي إسماعيل إعادته إلى الخدمة.

المرحوم اللواء إبراهيم فوزي باشا.

ولما وقعت الثورة العرابية كان المترجم له قائدًا للفرقة التي عسكرت في أبي قير لمقاومة نزول الإنكليز، ثم حوكم مع رفاقه الذين والوا العرابيين، فحُكم عليه بالتجريد

من رتبته وألقابه ونياشينه التي نالها بالمتاعب والمشاق واقتحام الأهوال في فتوحات خط الاستواء.

البارون السير اللواء رودلف فون سلاطين باشا. كان ضابطًا نمسويًّا، وعيَّنه غوردون مفتشًا للمالية بالسودان، ثم رقِّي مديرًا لدارفور، حيث أُسر وتظاهر بقبول الإسلام والمهدية، وسمِّي عبد القادر، ثم هرب، وبعد إعادة السودان أصبح مفتشًا عامًّا حتى سنة ١٩١٤، فلم يعد من النمسا بسبب الحرب، ثم مات سنة ١٩٣٢، بعد أن زار السودان بعد الحرب، وكان محل ثقة ونجت باشا.

ولما ندبت وزارة نوبار «غوردون» لإخلاء السودان أرسل برقية عند إبحاره إلى وود باشا، سردار الجيش المصري، بضرورة مرافقة الضابط إبراهيم فوزي له في هذه المهمة الخطيرة، ولمَّا وصل إلى القاهرة التمس من الخديوي توفيق العفو عنه، فرُدَّت إليه رتبه ونياشينه، وصحب غوردون إلى الخرطوم، وتولى قيادة حاميتها، وانتصر على

الدراويش في وقائع كثيرة؛ أهمها واقعة الحلفاية، التي جرح فيها جرحًا بليغًا، وظل مع غوردون إلى أن سقطت المدينة في ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥، فأسره الدراويش وعذبوه تعذيبًا، وتزوج وهو في الأسر، وبقي يقاسي آلام الأسر والسجن أربعة عشر عامًا، إلى أن أنقذه اللورد كتشنر في سبتمبر سنة ١٨٩٨.

ولإبراهيم فوزي باشا كتاب تاريخي في جزءين اسمه: «السودان بين يدي غوردون وكتشنر».

الفصل الخامس والعشرون

مسألة المهدي المنتظر

من الأخبار المتواترة في البلاد الإسلامية أنه يظهر في آخر الزمان رجل عظيم يسمى «المهدي»، ينقذ الأمة الإسلامية والعالم من الفوضى التي نشبت أظفارها، ومن المجاعات والظلم.

وأورد المعتقدون في ظهور المهدي أحاديث نبوية، وقال خصومهم إنها أحاديث موضوعة.

المهدي المنتظر والأحاديث النبوية الواردة بشأنه

كتب ابن خلدون في مقدمته ص٢٦٠ تحت عنوان «الفصل الثاني والخمسون»:

> أعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت، يؤيِّد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمَّى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال، أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.
>
> ويحتجون في هذا الباب بأحاديث خرَّجها الأئمة، وتكلَّم فيها المنكرون لذلك، وربما عارضوها ببعض الأخبار، وللمتصوفة المتأخرين في أمر هذا الفاطمي طريقة أخرى، ونوع من الاستدلال، وربما يعتمدون في ذلك على الكشف الذي هو أصل طرائقهم، ونحن الآن نذكر هنا الأحاديث الواردة في هذا الشأن، وما للمنكرين فيها من المطاعن، وما لهم في إنكارها من المستند،

ثم نتبعه بذكر كلام المتصوفة ورأيهم؛ ليتبين لك الصحيح من ذلك إن شاء الله تعالى.

فنقول: إن جماعة من الأئمة خرَّجوا أحاديث المهدي، منهم: الترمذي وأبو داود والبزار وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبو يعلى الموصلي، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة مثل: علي وابن عباس وابن عمر وطلحة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وأم حبيبة وأم سلمة وثوبان وقرة بن إياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحرث بن جزء، بأسانيد ربما يعرض لها المنكرون كما نذكره، إلا أن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدَّم على التعديل، فإذا وجدنا طعنًا في بعض رجال الأسانيد بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأي، تطرَّق ذلك إلى صحة الحديث، وأوهن منها، ولا تقولنَّ مثل ذلك ربما يتطرق إلى رجال الصحيحين؛ فإن الإجماع قد اتصل في الأمة على تلقيهما بالقبول والعمل بما فيهما، وفي الإجماع أعظم حماية وأحسن دفع، وليس غير الصحيحين بمثابتهما في ذلك، فقد تجد مجالًا للكلام في أسانيدها بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك.

ولقد توغل أبو بكر بن أبي خيثمة على ما نقل السهيلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي، فقال مالك بن أنس، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذَّب بالمهدي فقد كفر، ومن كذَّب بالدجال فقد كفر»، وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فيما أحسب، وحسبُك هذا غلوًّا، والله أعلم بصحة طريقه إلى مالك بن أنس، على أن أبا بكر الإسكاف عندهم متهم وضَّاع.

أما الترمذي، فخرَّج هو وأبو داود بسنديهما إلى ابن عباس من طريق عاصم بن أبي النجود، أحد القراء السبعة، إلى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوَّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلًا مني أو من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي»، هذا لفظ أبي داود، وسكت عليه، وقال في رسالته المشهورة إن ما سكتَ عليه في كتابه صالح، ولفظ الترمذي: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي»، وفي لفظ آخر: «حتى يلي رجل من أهل بيتي»، وكلاهما حديث حسن صحيح، ورواه أيضًا من طريق

موقوفًا على أبي هريرة، وقال الحاكم: رواه الثوري وشعبة وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عاصم قال: وطُرق عاصم عن زر عن عبد الله كلها صحيحة على ما أَصَّلتُه من الاحتجاج بأخبار عاصم؛ إذ هو إمام من أئمة المسلمين. انتهى.

إلا أن عاصمًا قال فيه أحمد بن حنبل: كان رجلًا صالحًا قارئًا للقرآن، خيرًا ثقة، والأعمش أحفظ منه، وكان شعبة يختار الأعمش عليه في تثبيت الحديث، وقال العجلي: كان يختلف في زر وأبي وائل، يشير بذلك إلى ضعف روايته عنهما، وقال محمد بن سعد: كان ثقة، إلا أنه كثير الخطأ في حديثه، وقال يعقوب بن سفيان: في حديثه اضطراب، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلت لأبي إن أبا زرعة يقول: عاصم ثقة، فقال: ليس محله هذا، وقد تكلم فيه ابن علية فقال: كل من اسمه عاصم سيئ الحفظ، وقال: أبو حاتم: محله عندي محل الصدق صالح الحديث، ولم يكن بذلك الحافظ، واختلف فيه قول النسائي، وقال ابن حراش: في حديثه نكرة، وقال أبو جعفر العقيلي: لم يكن فيه إلا سوء الحفظ، وقال الدارقطني: في حفظه شيء، وقال يحيى القطان: ما وجدت رجلًا اسمه عاصم إلا وجدته رديء الحفظ، وقال أيضًا: سمعت شعبة يقول: حدثنا عاصم بن أبي النجود وفي الناس ما فيها، وقال الذهبي: ثبتٌ في القراءة، وهو في الحديث دون التثبت صدوق فهم، وهو حسن الحديث، وإن احتج أحد بأن الشيخين أخرجا له فنقول: أخرجا له مقرونًا بغيره لا أصلًا، والله أعلم.

وخرَّج أبو داود في الباب عن علي — رضي الله عنه — من رواية قطن بن خليفة، وإن وثَّقه أحمد ويحيى القطان وابن معين والنسائي وغيرهم، إلا أن العجلي قال: حسن الحديث، وفيه تشيُّع قليل، وقال ابن معين مرة: ثقة شيعي، وقال أحمد بن عبد الله بن يونس: كنا نمرُّ على قطن وهو مطروح لا نكتب عنه، وقال مرة: كنت أمر به وأدعه مثل الكلب، وقال الدارقطني: لا يُحتج به، وقال أبو بكر بن عياش: ما تركت الرواية عنه إلا لسوء مذهبه، وقال الجارجاني: زائغ غير ثقة. انتهى.

وخرَّج أبو داود أيضًا بسنده إلى علي — رضي الله عنه — عن مروان بن المغيرة، عن عمر بن أبي قيس، عن شعيب بن أبي خالد، عن أبي إسحق

النسفي قال: قال علي — ونظر إلى ابنه الحسن: إن ابني هذا سيدكما، سماه رسول الله ﷺ، سيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم، يشبهه في الخُلُق ولا يشبهه في الخَلْق، يملأ الأرض عدلًا. وقال هرون: حدثنا عمر بن أبي قيس، عن مطرف بن طريف، عن أبي الحسن، عن هلال بن عمر، سمعت عليًّا يقول: قال النبي ﷺ: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحرث، على مقدمته رجل يقال له منصور، يوطئ — أو يمكِّن — لآل محمد كما مكَّنت قريش لرسول الله ﷺ، وجب على كل مؤمن نصره — أو قال إجابته»، سكت أبو داود عليه. وقال في موضع آخر في هرون: هو من ولد الشيعة، وقال السليماني: فيه نظر، وقال داود في عمر بن أبي قيس: لا بأس به، في حديثه خطأ، وقال الذهبي: صدوق له أوهام، وأما أبو إسحق الشيعي، وإن خرَّج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه اختلط آخر عمره، وروايته عن علي منقطعة، وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة. أما السند الثاني، فأبو الحسن فيه، وهلال بن عمر مجهولان، ولم يعرف أبو الحسن إلا من رواية مطرف بن طريف عنه. انتهى.

وخرَّج أبو داود أيضًا عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من ولد فاطمة»، ولفظ الحاكم: سمعت رسول الله ﷺ يذكر المهدي فقال: «نعم، هو حق، ومن بني فاطمة»، ولم يتكلم عليه بتصحيح ولا غيره، وقد ضعفه أبو جعفر العقيلي وقال: لا يتابع علي بن نفيل عليه، ولا يعرف إلا به.

وخرَّج أبو داود أيضًا عن أم سلمة من رواية صالح أبي الخليل، عن صاحب له، عن أم سلمة، قال: «يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هاربًا إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيُخرجونه وهو كارهٌ، فيبايعونه بين الركن والمقام، فيبعث إن بعث من الشام فيخسف بهم البيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس ذلك أتاه أبدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش أخواله كلب، فيبعث إليهم بعثًا فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، فيقسِّم المال، ويعمل في الناس بسنة نبيهم ﷺ، ويلقي الإسلام بجرانه على الأرض، فيلبث سبع سنين — وقال بعضهم تسع سنين».

ثم رواه أبو داود من رواية أبي الخليل عن عبد الله بن الحرث، عن أم سلمة، فتبيَّن بذلك المبهم في الإسناد الأول ورجاله رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز، وقد يقال إنه من رواية قتادة عن أبي الخليل، وقتادة مدلس وقد عنعنه، والمدلس لا يُقبل من حديثه إلا ما صرح فيه بالسماع، مع أن الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي، نعم ذكره أبو داود في أبوابه، وخرَّج أبو داود أيضًا، وتابعه الحاكم عن أبي سعيد الخدري، قال: قال: رسول الله ﷺ: «المهدي مني، أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا، يملك سبع سنين». هذا لفظ أبي داود وسكت عليه، ولفظ الحاكم المهدي: «منَّا أهل البيت، أشم الأنف، أقنى أجلى، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يعيش هكذا — وبسط يساره وأصبعين من يمينه، السبابة والإبهام، وعقد ثلاثة»، قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ا.هـ.

وعمران القطان مختلف في الاحتجاج به، إنما أخرج له البخاري استشهادًا لا أصلًا، وكان يحيى القطان لا يحدِّث عنه، وقال يحيى بن معين: ليس بالقوي، وقال مرة: ليس بشيء، وقال أحمد بن حنبل: أرجو أن يكون صالح الحديث، وقال يزيد بن زريع: كان حروريًّا، وكان يرى السيف على أهل القبلة، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو عبيد الأجري: سألت أبا داود عنه فقال من أصحاب الحسن، وما سمعت إلا خيرًا، وسمعته مرة أخرى ذكره فقال ضعيف، أفتى في أيام إبراهيم بن عبد الله بن حسن بفتوى شديدة فيها سفك الدماء.

وخرَّج الترمذي وابن ماجة والحاكم عن أبي سعيد الخدري، من طريق زيد العمي، عن أبي الصديق التاجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: خشينا أن يكون بعض شيء حدث، فسألنا نبي الله ﷺ فقال: «إن في أمتي المهدي، يخرج ويعيش خمسًا أو سبعًا أو تسعًا — زيدٌ الشَّاك، قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: «سنين»، قال: فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي، أعطني، قال: «فيحثو له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»، هذا لفظ الترمذي، وقال: حديث حسن.

وقد روي من غير وجه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، ولفظ ابن ماجه والحاكم: «يكون في أمتي المهدي، إن قصر فسبع وإلا فتسع، فتنعم أمتي فيه

نعمة لم ينعموا بمثلها قط؛ تؤتي الأرض أكلها ولا يدخر منه شيء، والمال يومئذ كدوس، فيقوم الرجل فيقول: يا مهدي، أعطني، فيقول: خذ.» انتهى.

وزيد العمي وإن قال فيه الدار قطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين إنه صالح، وزاد أحمد إنه وفوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى، إلا أنه قال فيه أبو حاتم: ضعيف، يكتب حديثه وهو ضعيف، وقال الجرجاني: متماسك، وقال أبو زرعة، ليس بقوي، واهي الحديث ضعيف، وقال أبو حاتم: ليس بذلك، وقد حدث عنه شعبة، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه ومن يروي عنهم ضعفاء، على أن شعبة قد روى عنه، ولعل شعبة لم يروِ عن أضعف منه، وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسيرًا لما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في آخر أمتي خليفة يحثو المال حثيًا، لا يعده عدًّا»، ومن حديث أبي سعيد قال: «من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيًا»، ومن طريق أخرى عنهما قال: «يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده.» انتهى.

وأحاديث لم يقع فيها ذكر المهدي، ولا دليل يقوم على أنه هو المراد منها، ورواه الحاكم أيضًا من طريق عوف الأعرابي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تُملأ الأرض جورًا وظلمًا وعدوانًا، ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وعدوانًا»، وقال فيه الحاكم: هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ورواه الحاكم أيضًا من طريق سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحًا، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعًا أو ثمانيًا — يعني حججًا»، وقال فيه: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من السنة، لكن ذكره ابن حبان في الثقات، ولم يرد أن أحدًا تكلم فيه، ثم رواه الحاكم أيضًا من طريق أسد بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن مطر الوراق وأبي هرون العبدي، عن أبي الصديق الناجي، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال: «تُملأ الأرض جورًا وظلمًا فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعًا أو تسعًا، فيملأ الأرض عدلًا وقسطًا

كما ملئت جورًا وظلمًا»، وقال الحاكم فيه: حديث صحيح على شرط مسلم، وإنما جعله على شرط مسلم لأنه أخرج عن حماد بن سلمة، وعن شيخه مطر الوراق، وأما شيخه الآخر وهو أبو هرون العبدي فلم يخرج له، وهو ضعيف جدًّا متهم بالكذب، ولا حاجة إلى بسط أقوال الأئمة في تضعيفه.

وأما الراوي له عن حماد بن سلمة فهو أسد بن موسى، ويلقَّب أسد السنة، وإن قال البخاري: مشهور الحديث، واستشهد به في صحيحه، واحتج به أبو داود والنسائي، إلا أنه قال مرة أخرى: ثقة لو لم يصنف كان خيرًا له، وقال فيه محمد بن حزم: منكر الحديث، ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من أمتي يقول بسنتي، ينزِّل الله — عز وجل — له القطر من السماء، وتُخرج الأرض بركتها، وتُملأ الأرض منه قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يعمل على هذه الأمة سبع سنين، وينزل بيت المقدس»، وقال الطبراني فيه: رواه جماعة عن أبي الصديق، ولم يُدخل أحد منهم بينه وبين أبي سعيد أحدًا، إلا أبا الواصل فإنه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد. انتهى.

وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرِّفه بأكثر مما في هذا الإسناد، من روايته عن أبي سعيد، ورواية أبي الصديق عنه، وقال الذهبي في الميزان: إنه مجهول، لكن ذكره ابن حبان في الثقات، وأما أبو الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم يخرج له أحد من الستة، وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية، وقال فيه: يروي عن أنس، وروى عنه شعبة وعتاب بن بشر.

وخرَّج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن مسعود، من طريق يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم عن علقمة، عن عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم رسول الله ﷺ ذرفت عيناه وتغيَّر لونه، قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئًا نكرهه، فقال: «إنا أهل البيت اختار لنا الله الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريدًا وتطريدًا، حتى يأتي قوم من قِبَل المشرق، معهم رايات

سود، فيسألون الخير فلا يعطونه، فيقاتلون وينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطًا كما ملؤها جورًا، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على الثلج.» انتهى.

وهذا الحديث يُعرف عند المحدثين بحديث الرايات، ويزيد بن أبي زياد راويه قال: فيه شعبة كان رفَّاعًا — يعني يرفع الأحاديث التي لا تُعرف مرفوعة، وقال محمد بن الفضيل: كان من كبار أئمة الشيعة، وقال أحمد بن حنبل: لم يكن بالحافظ، وقال مرة: حديثه ليس بذلك، وقال يحيى بن معين: ضعيف، وقال العجلي: جائز الحديث، وكان بآخره يلقن، وقال أبو زرعة: لين يكتب حديثه ولا يحتج به، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال الجرجاني: سمعتهم يضعفون حديثه، وقال أبو داود: لا أعلم أحدًا ترك حديثه، وغيره أحب إليَّ منه، وقال ابن عدي: هو من شيعة أهل الكوفة، ومع ضعفه يكتب حديثه، وروى له مسلم لكن مقرونًا بغيره.

وبالجملة، فالأكثرون على ضعفه، وقد صرح الأئمة بتضعيف هذا الحديث الذي رواه عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله، وهو حديث الرايات، وقال وكيع بن الجراح فيه: ليس بشيء، وكذلك قال أحمد بن حنبل، وقال أبو قدامة: سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن إبراهيم في الرايات: لو حلف عندي خمسين يمينًا قسامة ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد الله؟ وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء، وقال الذهبي: ليس بصحيح.

وخرَّج ابن ماجه عن علي — رضي الله عنه — من رواية يس العجلي، عن إبراهيم بن محمد ابن الحنفية، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: «المهدي منَّا أهل البيت، يُصلح الله به في ليلة.» ويس العجلي وإن قال فيه ابن معين: ليس به بأس، فقد قال البخاري: فيه نظر، وهذه اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدًّا، وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له، وقال: هو معروف به.

وخرَّج الطبراني في معجمه الأوسط عن علي — رضي الله عنه — أنه قال للنبي ﷺ أَمِنَّا المهدي أم من غيرنا يا رسول الله؟ فقال: «بل منَّا، بِنا يختم الله كما بِنا فتح، وبنا يستنقذون من الشرك، وبنا يؤلف الله بين قلوبهم بعد

عداوة بيِّنة، كما بنا أَلَّف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك»، قال علي: أمؤمنون أم كافرون؟ قال: «مفتون وكافر». انتهى.

وفيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف معروف الحال، وفيه عمر بن جابر الحضرمي، وهو أضعف منه، قال أحمد بن حنبل: روى عن جابر مناكير، وبلغني أنه كان يكذب، وقال النسائي ليس بثقة، وقال: كان ابن لهيعة شيخًا أحمق ضعيف العقل، وكان يقول عليٌّ في السحاب، وكان يجلس معنا فيبصر سحابة فيقول هذا عليٌّ قد مر في السحاب.

وأخرج الطبراني عن علي — رضي الله تعالى عنه — أن رسول الله ﷺ قال: «يكون في آخر الزمان فتنة يحصل الناس فيها كما يحصل الذهب في المعدن، فلا تسبُّوا أهل الشام، ولكن سبُّوا أشرارهم؛ فإن فيهم الأبدال، يوشك أن يرسل على أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم، حتى لو قاتلتهم الثعالب غلبتهم، فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات، المكثر يقول هم خمسة عشر ألفًا، والمقلل يقول هم اثنا عشر ألفًا، وأمارتهم أمت أمت، يلقون سبع رايات تحت كل راية منها رجل يطلب الملك، فيقتلهم الله جميعًا، ويرد الله إلى المسلمين ألفتهم ونعمتهم وقاصيتهم ودانيتهم» ا.هـ.

وفيه عبد الله بن لهيعة، وهو ضعيف معروف الحال، ورواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، في روايته: «ثم يظهر الهاشمي فيرد الله الناس إلى ألفتهم ... إلخ»، وليس في طريقة ابن لهيعة، وهو إسناد صحيح كما ذكر.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن علي — رضي الله عنه — من رواية أبي الطفيل، عن محمد ابن الحنفية قال: كنا عند علي — رضي الله عنه — فسأله رجل عن المهدي، فقال علي: هيهات، ثم عقد بيده سبعًا، فقال: ذلك يخرج في آخر الزمان، إذا قال الرجل الله الله قُتل، ويجمع الله له قومًا قُزَع.[1] كقزع السحاب، يؤلف الله بين قلوبهم، فلا يستوحشون إلى أحد، ولا يفرحون بأحد، دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر، لم يسبقهم الأولون ولا

[1] بضم أوله وفتح الزاي ممنوع من الصرف كأخر ا.هـ.

يدركهم الآخرون، وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، قال أبو الطفيل، قال ابن الحنفية: أتريده؟ قلت: نعم، قال: فإنه يخرج من بين هذين الأخشبين، قلت: لا جرم والله، ولا أدعها حتى أموت، ومات بها — يعني مكة.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. انتهى. وإنما هو على شرط مسلم فقط، فإن فيه عمارًا الذهبي ويونس بن أبي إسحق، ولم يخرج لهما البخاري، وفيه عمرو بن علي العبقري ولم يخرج له البخاري احتجاجًا بل استشهادًا، مع ما ينضم إلى ذلك من تشيُّع عمار الذهبي، وهو وإن وثَّقه أحمد وابن معين وأبو حاتم النسائي وغيرهم فقد قال علي بن المديني عن سفيان: إن بشر بن مروان قطع عرقوبيه، قلت: في أي شيء؟ قال: في التشيع.

وأخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك — رضي الله عنه — في رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر، عن علي بن زياد اليمامي، عن عكرمة بن عمار، عن إسحق بن عبد الله، عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن ولد عبد المطلب، سادات أهل الجنة، أنا وحمزة وعلي وجعفر والحسن والحسين والمهدي» انتهى.

وعكرمة بن عمار وإن أخرج له مسلم فإنما أخرج له متابعة، وقد ضعَّفه بعض ووثقه آخرون، وقال أبو الحاتم الرازي: هو مدلس فلا يقبل إلا أن يصرع بالسماع، وعلي بن زياد قال الذهبي في الميزان: لا ندري من هو، ثم قال: الصواب فيه عبد الله بن زياد؛ وسعد بن عبد الحميد وإن وثَّقه يعقوب بن أبي شيبة وقال فيه يحيى بن معين: ليس به بأس، فقد تكلم فيه الثوري، قالوا: لأنه رآه يفتي في مسائل ويخطئ فيها، وقال ابن حبان: كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به، وقال أحمد بن حنبل: سعد بن عبد الحميد يدعي أنه سمع عرض كتب مالك، والناس ينكرون عليه ذلك، وهو ها هنا ببغداد ولم يحتج فكيف سمعها؟ وجعله الذهبي ممن لم يَقدح فيه كلامُ من تكلم فيه.

وخرَّج الحاكم في مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفًا عليه، قال مجاهد: قال لي ابن عباس: لو لم أسمع أنك من أهل البحث ما

حدَّثتك بهذا الحديث، قال: فقال مجاهد: فإنه في سترك أذكره لمن يكره، قال: فقال ابن عباس: منَّا أهل البحث أربعة: منَّا السفاح، ومنَّا المنذر، ومنَّا المنصور، ومنَّا المهدي، قال: فقال مجاهد: بيِّن لي هؤلاء الأربعة، فقال ابن عباس: أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفا عن عدوه، وأما المنذر أراه قال فإنه يعطي المال الكثير ولا يتعاظم في نفسه، ويمسك القليل من حقه، وأما المنصور فإنه يعطي النصر على عدوه الشطر مما كان يعطي رسول الله ﷺ، ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين، والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر، وأما المهدي فإنه الذي يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا، وتأمن البهائم السباع، وتلقي الأرض أفلاذ كبدها، قال: قلت: وما أفلاذ كبدها؟ قال: أمثال الأسطوانة من الذهب والفضة. ا.هـ. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو من رواية إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر عن أبيه، وإسماعيل ضعيف، وإبراهيم أبوه وإن خرَّج له مسلم فالأكثرون على تضعيفه. ا.هـ.

وأخرج ابن ماجه عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «يقتتل عند كبركم ثلاثة كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق»، ثم قال: لا تقوم نزعة من الدعاء إلى الحق والقيام بالسنة، لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره، وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر، ويعتني بذلك ويكثر تابعه، وأكثر ما يعنون بإصلاح السابلة لَمَّا أن كثر فساد الأعراب فيها؛ لما قدمناه من طبيعة معاشهم، فيأخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا، إلا أن الصبغة الدينية فيهم لم تستحكم؛ لما أن توبة العرب ورجوعهم إلى الدين إنما يقصدون بها الاقتصار عن الغارة والنهب، لا يعقلون في توبتهم، وإقبالهم إلى مناحي الديانة غير ذلك؛ لأنها المعصية التي كانوا عليها قبل المقربة، ومنها توبتهم، فتجد ذلك المنتحل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتداء والاتباع، إنما الإعراض عن النهب والبغي وإفساد السابلة، ثم الإقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم، وشتان بين هذا الآخر في إصلاح الخلق ومن طلب الدنيا، فاتفاقهم ممتنع، لا تستحكم له صبغة في الدين، ولا يكون له نزوع عن الباطل على الجملة، ولا يكثرون، ويختلف

حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه، فإذا هلك انحلَّ أمرهم، وتلاشت عصبيتهم، وقد وقع ذلك بإفريقيا لرجل من كعب من سليم، يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة، ثم من بعده لرجل آخر من بادية رياح، من بطن منهم يعرفون بمسلم، وكان يسمى سعادة، وكان أشد دينًا من الأول وأقوم طريقة في نفسه، ومع ذلك فلم يستتبَّ أمر تابعه كما ذكرناه، حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح، وبعد ذلك ناس بهذه الدعوة يتشبهون بمثل ذلك، ويلبسون فيها، وينتحلون اسم السفة وليسوا عليها إلا الأقل، فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم ا.هـ.

أخبرني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: خرج برباط ماسة لأول المائة الثامنة، وعصر السلطان يوسف بن يعقوب، رجلٌ من منتحلي التصوف يُعرف بالتويزري؛ نسبة إلى توزر مصغَّرًا، وادَّعى أنه الفاطمي المنتظر، واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة، وأعظم أمره وخافه رؤساء المصامد على أمرهم، فدسَّ عليه السكسوي من قتله بياتًا وانحلَّ أمره، وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منهم رجلٌ يُعرف بالعباس، وادَّعى أنه الفاطمي، اتبعه الدهماء من غمارة، ودخل مدينة عنوة وحرق أسواقها، وارتحل إلى بلد المزمة فقُتل بها غيلة ولم يتم أمره، وكثير من هذا النمط.

وأخبرني شيخنا المذكور بغريبة في مثل هذا، وهو أنه صحب في حجه في رباط العباد — وهو مدفن الشيخ أبي مدين في جبل تلمسان المطل عليها — رجلًا من أهل البيت من سكان كربلاء، كان متبوعًا معظَّمًا كثير التلميذ والخادم، قال: وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات في أكثر البلدان، قال: وتأكدت الصحبة بيننا في ذلك الطريق، فانكشف لي أمره، وأنهم إنما جاءوا من موطنهم بكربلاء لطلب هذا الأمر، وانتحال دعوى الفاطمي بالمغرب، فلمَّا عاين دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب حينئذ منازل ترمسان قال لأصحابه: ارجعوا فقد أزرى بنا الغلط، وليس هذا الوقت وقتنا. ويدل هذا القول من هذا الرجل على أنه مستبصر في أن الأمر لا يتم إلا بالعصبية المكافأة لأهل الوقت، فلما علم أنه غريب في ذلك الوطن، ولا شوكة له، وأن عصبية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب، استكان ورجع إلى الحق، وأقصر على

مطامعه، وبقي عليه أن يستيقن أن عصبية الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت، لا سيما في المغرب، إلا أن التعصب لشأنه لم يتركه لهذا القول، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ا.هـ.

مفندو المهدية

وهناك فقهاء قاموا بتفنيد الدعوة المهدية، ومنهم الشيخ محمد الزاكي ود الزاكي، ومحمد الأمين يوسف الهندي، والد الشريف يوسف الهندي، وشاكر الغزي، وقد وضع رسالة في الرد على الدعوة المهدية، وكان مفتيًا لمجلس استئناف السودان، ومحمد نور أحمد، من عمد بارة، والسيد أحمد الأزهري بن الشيخ إسماعيل الولي الكردفاني، شيخ الإسلام في عموم غرب السودان، والشيخ محمد شريف نور الدائم أستاذ المهدي[٢] في التصوف، وصدرت فتوى من علماء الأزهر ومنشور من السلطان عبد الحميد خان الثاني بتفنيد الدعوة المهدية واستهجانها والتحذير منها.

مدعو المهدية

ادعى المهدية كثيرون، ظهروا في بلاد العرب ومراكش والهند وأمريكا وغيرها، ومثالهم: محمد بن عبد الله، الملقب بالنفس الزكية سنة ١٤٥هـ، في عهد الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، الذي قتله بعد أن استفحل أمره، وعبد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق مؤسس الدولة الفاطمية، ومحمد بن عبد الله بن تومرت، المعروف بالمهدي الهرعي، ويكنَّى أبا عبد الله من مراكش، وقد أسس دولة بني عبد المؤمن، والعباس الفاطمي في فاس، والسيد أحمد، على حدود بنجاب بالهند، ومهدي الصومال «الملا» الذي ظهر في بلاد الصومال في آخر القرن الماضي، ومحمد المهدي السنوسي، ومهدي تامة الأول، وهو فقيه من قرية الجميزة ادعى أنه المهدي المنتظر ولكنه قُتل. وظهر دعي آخر اسمه أحمد بن عبد الله من الجميزة وقد قتل، وادعى محمد الأمين في سنة ١٩٠٣ أنه المهدي، وظهر في جبال تقلى، وقد قبض عليه في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٠٣ وشُنق، وقد تبين أنه رحالة من الأفاقين.

وجاء في تقرير الفيكونت كتشنر عن السودان سنة ١٩١٢ ما يلي:

---

[٢] نال البشوية.

جبل قدير — سار الكبتن دار وال بفصيلة من الهجانة من تالودي ليقبض على «فقي»[٣] يسمَّى عكاشة أحمد، ادعى أنه المهدي.

فأبى الفقي التسليم، ودار القتال بين الفريقين، وأسفر عن قتل عكاشة أحمد و١١ من أتباعه، وجرح ضابطين مصريين وصف ضابط.

[٣] الفقي أو الفكي — لهجة في السودان من لفظ «الفقيه».

الفصل السادس والعشرون

محمد أحمد المهدي

ولد «محمد أحمد المهدي».[١] في جزيرة ضرار من أعمال دنقلة، ويسمِّي إبراهيم فوزي باشا هذه الجزيرة باسم جزيرة «الخناق»، الواقعة جنوب مدينة العربي، ويقول نعوم شقير بك في كتابه «تاريخ السودان» إن ولادته كانت سنة ١٢٥٨هـ المقابلة سنة ١٨٤٣م، واسم أبيه عبد الله، واسم أمه زينب، وقبيلته من العرب المتنوِّبة، وقد عرفت في دنقلة بصبرنسى؛ أي قبيلة صبر، وهو جد له، كما عُرفت أيضًا بالأشراف، وقد قال السيد محمد أحمد المهدي عن نسبه ما يلي: محمد المهدي بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف بن علي بن أحمد بن علي بن حسب النبي بن بصر بن النصر بن عبد الكريم بن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن موسى بن أبي العباس بن يونس بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب.

وكان له أخان، محمد وحامد، وكانا يشتغلان مع أبيهما نجارين يصنعان المراكب، وكانت لآل المهدي شهرة في تلك الصناعة، وكانت هذه الصناعة من الصناعات المشهورة الضرورية في السودان مع صناعة الأسلحة.

وقد أجدبت دنقلة وأمحلت الجزيرة المذكورة، فهجرها «عبد الله» والد المهدي ومعه أولاده من دنقلة إلى «كررى» الواقعة شمالي أم درمان بنحو ١٥ ميلًا. وقد توفي عبد الله

[١] خصوم المهدي كانوا يدعونه «المتمهدي»، أي مدعي المهدية وليس بالمهدي الحقيقي.

بعد قليل وترك ابنًا أُسمي عبد الله جنينًا في بطن أمه، وعادة أهل السودان أن يسموا الابن الذي يكون جنينًا عند وفاة أبيه باسم الأب نفسه.

امتاز محمد أحمد المهدي عن إخوته الذين كانوا يشتغلون بصناعة المراكب بكونه مال بالفطرة إلى حفظ القرآن، والتفقه بالعلوم الدينية من التوحيد والفقه والتصوف، وكان معروفًا بالتقشف والزهد، وكان يقال إنه يمتنع عن أكل زاد شيخه الشيخ محمد الخير؛ لأنه كان يجري عليه من الحكومة، قائلًا: إنه مال الظلم، فكان إذا لم يأته الزاد من أهله اصطاد السمك من النيل واكتفى به طعامًا.

وأتقن مبادئ النحو، وكان من أساتذته الشيخ الأمين الصويلح في مسجد ود عيسى بالجزيرة، والشيخ محمد الخير في الغبش تجاه بربر، وقد تتلمذ في التصوف إلى الشيخ محمد شريف نور الدائم، حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمَّانية، وقد برز في التقشف والتصوف على أنداده من تلاميذ الشيخ، وبلغ أمره في ذلك أنه كان يقوم بالاحتطاب والاستقاء والطحن والطبخ لأستاذه، وهو غير مكلف بذلك، وكان كلما وقف للصلاة يبكي حتى يبلل الأرض بدموعه، وإذا جلس أمام شيخه نكَّس رأسه إلا إذا كلَّمه، فيرفع عند ذلك طرفه في أدب وحياء.

ولما رآه شيخه على هذه الحال وأنه سالك طريق المريدين وناهج منهج الصالحين مال إليه وأحبه، وجعله شيخًا وأعطاه راية، وأذن له في الذهاب حيث شاء لإعطاء العهود وتسليك الطريقة، فذهب إلى الخرطوم وتزوج بابنة عم له، وفي سنة ١٢٨٦هـ المقابلة سنة ١٨٧١م رحل مع إخوته إلى جزيرة «أبا»؛ لكثرة أشجارها وتوافر غاباتها بالانتفاع بهذه الأخشاب في صنع المراكب، فأما إخوته فقد باشروا صناعة المراكب، وأما هو فقد بثَّ طريقته، وبنى في جزيرة أبا جامعًا للصلاة وخلوة للتدريس، فاجتمع عليه سكان تلك الجزيرة، وهم: ضغيم وكنانة وغيرهم من عرب البادية، فأخذوا العهد عنه، وتتلمذ الكثيرون له، وفي جملتهم عليٌّ ود الحلو، الذي صار بعد قيام المهدية الخليفة الثاني للمهدي.

وقد ذاع صيت المهدي وكثر أنصاره، وكان يزور أستاذه الشيخ محمد شريف الذي انتقل إلى القاردية بالقرب من جبل أولى، على أن الشيخ محمد شريف لم يلبث أن حقد على تلميذه محمد أحمد المهدي الذي بزَّه شهرة وأنصارًا، خصوصًا بعد أن بدأ المهدي في الإفضاء بالدعوة المهدية إلى تلاميذه، فظهر الشيخ محمد شريف خصيمًا للدعوة المهدية، وكان عونًا للحكومة في مناهضتها وتكذيبها، وتُعزى للشيخ محمد

شريف قصيدة طويلة نظمها بإيعاز عبد القادر باشا حلمي حكمدار السودان يومئذ سنة ١٨٨٢، قصيدة جاء فيها:

لقد جاءني في عام «زع»، لموضع	على جبل السلطان في شاطئ البحر
يروم الصراط المستقيم على يدي	فبايعته عهدًا على النهي والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصًا	وقد لازم الأذكار في السر والجهر
وأفرغ في نهج المحامد جهده	فرقَّيته جهلًا بعاقبة الأمر
فقال أنا المهدي فقلت له استقم	فهذا مقام في الطريق لمن يدري

وفي رواية أخرى أن الشيخ شريف لم يكن خصيمًا للدعوة المهدية في أول الأمر، على اعتبار أنها هداية وإنقاذ للسودان لا على اعتبار أن المهدي هو المهدي المنتظر الذي ورد ذكره في الأحاديث، بل كان يرى الوقت غير ملائم — يومئذ — لظهور الحركة الثورية الاستقلالية.

وكان الشيخ شريف[٢] نفسه يريد في الوقت المناسب أن يتزعَّم حركة دينية استقلالية من غير انتحال المهدية.

على أن المهدي قد تتلمذ لشيخ آخر من شيوخ الطريقة، وهو الشيخ القرشي، الذي كان في الحلاويين بين المسلمية والكاملين، وقد أخذ القرشي طريقة السمانية مباشرة عن مؤسسها الشيخ الطيب، وقال القرشي إلى محمد شريف: «إني رأيت محمد أحمد مستحقًّا، ومنع المستحق ظلم.» وقد استمر محمد أحمد المهدي في ذيوع الاسم وبُعد الصيت، وقد حفر بجزيرة أبا غارًا تحت الأرض، وكان الناس يحضرون إليه؛ إذ كان يتعبد في الغار للتبرك به، وكانت الهدايا تقدم إليه فكان يتعفف عن أخذها ويعطيها للفقراء، وكان يخرج من مكانه مع بعض أصحابه لدعوة الناس إلى طريقته، فسافر إلى دنقلة وسنار، وعلى النيل الأزرق وكردفان، وأخذ نوره يتألق، وكل الناس يتنافسون في التقرب منه، ويسردون على مسامعه ما كانوا يرونه من المظالم والبدع.

وقد وفد عليه عبد الله التعايشي، وعندما رآه وقع مغشيًّا عليه، ولم يفق من غشيته إلا بعد ساعة، ولما أفاق عاد فنظر إلى المهدي فأغمي عليه مرة ثانية، ثم أفاق، ثم قبَّل

[٢] الشيخ محمد شريف «باشا» نور الدائم الذي منحه الخديوي رتبة الميرميران هو أستاذ المهدي، وهو غير الخليفة محمد شريف.

يده باكيًا، فقال له المهدي: من أنت؟ وما شأنك؟ فقال عبد الله: «أنا عبد الله بن محمد تورشين، من قبيلة التعايشة البقارة، وقد سمعت بصلاحك إلى دار الغرب، فجئت لآخذ الطريقة عنك، وكان لي أب صالح من أهل الكشف قال لي قبل وفاته إنك ستقابل المهدي وتكون وزيره، وقد أخبرني بعلامات المهدي وصفاته، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني بها والدي بعينها، فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله، ومن شدة الفرح الذي شملني أصابني الذي رأيته.»

فوجد المهدي أن الذي يقوله عبد الله التعايشي مطابق لاعتقاده، ذلك الاعتقاد بأنه المهدي المنتظر، ومن ثم خرج بأصحابه سائحًا إلى دار الغرب، وقد لبسوا لباس الدراويش، وهو الجبة المرقعة والسبحة والعكاز وإبريق فخار، وكان المهدي يسرُّ دعوته إلى أخصائه وتلاميذه ومشايخ الطرق، ثم أخذ يرسل الكتب مصرحًا بدعوته، وكان يقول: إنني رأيت النبي ﷺ بعيني رأسي يقظة، فأجلسني على كرسيه وقلَّدني سيفه، فغسل قلبي بيده وملأه إيمانًا وحكمًا ومعارف منيعة، وأخبرني بأنني الخليفة الأكبر والمهدي المنتظر، وأن من شك في مهديتي فقد كفر، ومن حاربني خذل في الدارين.

ومن كتبه:[٣]

> بسم الله الرحمن الرحيم، الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبابه في الله، المؤمنين بالله وبكتابه، أما بعد، فلا يخفى تغيُّر الزمن وترك السنن، ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن، بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن لإقامة الدين والسنن، ولا يتوانى عن ذلك عاقل؛ لأن غيرة الإسلام بالمؤمن تجبره، ثم أحبابي كما أراد الله في أزله وقضائه تفضَّل على عبده الذليل بالخلافة الكبرى من الله ورسوله.
>
> وأخبرني سيد الوجود ﷺ بأنني المهدي المنتظر، وخلفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه، مرارًا بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر — عليه السلام — وأيدني الله تعالى بالملائكة المقربين، وبالأولياء والأحياء والميتين، من لدن آدم إلى زماننا هذا، وكذلك المؤمنون من الجن،

[٣] راجع كتاب المناشير — حيث دوِّنت به منشورات المهدي وكتبه.

وفي ساعة الحرب يحضر معهم إمام جيشي سيد الوجود ﷺ بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر — عليه السلام — وأعطاني سيف النصر من حضرته ﷺ، وأُعلمت أنه لا ينصر عليَّ معه أحد ولو كان الثقلين الأنس والجن.

ثم أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن الله جعل لك على المهدية علامة، وهي الخال على الخد الأيمن، وكذلك جعل لي علامة أخرى، تخرج راية من نور، وتكون معي في حالة الحرب، يحملها عزرائيل — عليه السلام — فيثبِّت الله بها أصحابي، وينزل الرعب في قلوب أعدائي، فلا يلقاني أحد بعداوة إلا خذله الله.

ثم قال لي ﷺ: إنك مخلوق من نور عنان قلبي، فمن له سعادة صدَّق بأني المهدي المنتظر، ولكن الله جعل في قلوب الذين يحبون الجاه النفاق فلا يصدِّقون حرصًا على جاههم. قال ﷺ: «حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»، وجاء في الأثر: إذا رأيتم العالِم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم. وجاء في بعض كتبه القديمة: لا تسأل عني عالمًا أسكره حب الدنيا فيصدك عن طريق محبتي، فأولئك قطَّاع الطريق على عبادي.

ولَمَّا حصل لي — يا أحبابي — من الله ورسوله أمر الخلافة الكبرى، أمرني سيد الوجود بالهجرة إلى ماسة بجبل قدير، وأمرني أن أكاتب بها جميع المكلفين أمرًا عامًّا، فكاتبنا بذلك الأمراء ومشايخ الدين، فأنكر الأشقياء وصدَّق الصديقون الذين لا يبالون في ما لقوه في الله من المكروه، وما فاتهم من المحبوب المشتهى، بل هم ناظرون إلى وعده — سبحانه وتعالى — بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وحيث إن الأمر لله، والمهدية أرادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدي بن عبد الله، فيجب بذلك التصديق لإرادة الله.

وقد اجتمع الخَلَف والسَلَف في تفويض العلم لله، فعلمه سبحانه لا يتقيَّد بضبط القوانين، ولا بعلوم المتفنِّنين، بل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ و﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

وقد قال الشيخ محيي الدين العربي في تفسيره على القرآن العظيم: «علم المهدي كعلم الساعة، والساعة لا يُعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله.» وقال الشيخ أحمد بن إدريس: كذَّبت في المهدي أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله، ثم قال: «يخرج من جهة لا يعرفونها، وعلى حال ينكرونه»، وهذا لا يخفي علمكم أن التأليفات الواردة في المهدي منها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك، فيختلف كل منها كما علمت من أنه (يمحو الله ما يشاء) الآية. ومنها الأحاديث، فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع، بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح، والصحيح ينسخ بعضه بعضًا، كما أن الآيات تنسخها الآيات، وحقيقة ذلك على ما هي عليه لا يعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر.

هذا وقد أخبرني سيد الوجود ﷺ بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله، كررها ﷺ ثلاث مرات، وجميع ما أخبرتكم به من خلافتي على المهدية إلى آخره فقد أخبرني به سيد الوجود ﷺ يقظة في حال الصحة، وأنا خالٍ من الموانع الشرعية؛ لا بنوم ولا جذب ولا سُكْر ولا جنون، بل متصف بصفات العقل، أقفو أثر رسول الله ﷺ بالأمر فيما أمر به، والنهي عما نهى عنه.

والهجرة المذكورة في الدين واجبة كتابًا وسنة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وقال ﷺ مَن فرَّ بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبرًا من الأرض، استوجب الجنة، وكان رفيق أبيه خليل الله إبراهيم ونبيه محمد — عليهما الصلاة والسلام — وإلى غير ذلك من الآيات والأحاديث. وإجابة داعي الله واجبة، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾.

فإذا فهمتم ذلك فقد أمرْنا جميع المكلفين بالهجرة إلينا؛ لأجل الجهاد في سبيل الله، أو إلى أقرب بلاد منكم بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ فمن تخلَّف عن ذلك دخل في وعيد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى آخره، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ إلى آخر الآيتين. فإذا فهمتم ذلك فهلمُّوا للجهاد في سبيله، ولا تخافوا من أحد غير

الله؛ لأن خوف المخلوق من غير الله يعدم الإيمان، والعياذ بالله من ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ وقال تعالى: ﴿فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾، لا سيما وقد وعد الله في كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾.

وحيث إن لم تجيبوا داعي الله وتبادروا بإقامة دين الله تلزمكم العقوبة عند الله تعالى؛ لأنكم أدلة الخلق وأزمتها، فمن كان مهتمًا بإيمانه، شفيقًا بدينه، حريصًا على أمر ربه، أجاب الدعوة واجتمع مع من ينصر دينه، وليكن معلومكم أني من نسل رسول الله ﷺ؛ فأبى حَسَنِيٌّ من جهة أبيه وأمه، وأمي كذلك من جهة أمها، وأبوها عباسيٌّ، والعلم لله أن لي نسبة إلى الحسين، وهذه المعاني الحسان تكفي لمن أدركه الله بالإيمان، فلا عبرة لمن يراها ولم يصدق بها، هذا والسلام.

صورة تخيلها بعض الكتاب الإنجليز للمهدي، ولكنها ليست صورته، فليس للمهدي صورة مطلقًا.

الفصل السابع والعشرون

وقائع المهدي وانتصاراته

أرسل المهدي إلى محمد رءوف باشا حكمدار السودان سنة ١٨٨١ كتابًا يبلغه فيه رسالته المهدية، ويدعوه إلى اتباعه، فأوفد رءوف باشا محمد أبو السعود بك من الخرطوم على باخرة إلى أبا، وحاول ثني محمد أحمد المهدي عن دعوته، فلم يقبل،[١] وحينئذ أرسل رءوف باشا بلوكين من الجنود مع أبي السعود بك للقبض على المهدي، ولكن المهدي وأنصاره هزموا هذه القوة، ثم هجر المهدي إلى جبل ماسة المجاور لجبل قدير على المراكب، وهذان الجبلان في الشمال الغربي من فاشودة.

وقد انتصر في طريقه على ملك يسمى المختار، ووصل إلى جبل قدير في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٨ المقابل ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨١، وقد رحَّب به الملك ناصر، وبنى المهدي مسجدًا ومنازل للسكن، وقد هجم راشد بك مدير فاشودة على المهدي وأنصاره في ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١، فانتصر المهدي وقتل راشد بك ومعظم جنوده، وغنم المهدي الأسلحة والمال.

وقد أرسل عبد القادر باشا حلمي الذي عُيِّن حكمدار سنة ١٨٨٢ قوة بقيادة جكلر باشا، الذي أصبح نائبًا للحكمدار بعد عزل محمد رءوف باشا، وقبل وصول عبد القادر باشا حلمي جعل جكلر باشا القوة برياسة يوسف الشلالي باشا ومعه ١٣ بلگًا و١٥٠٠ باشبوزق، وقد انتصر المهدي على يوسف باشا الشلالي عند جبل الجرادة في ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢، وقتل يوسف باشا الشلالي، وعبد الله محمد دفع الله، وعبد الهادي

[١] قيل لو أن رءوف باشا كان حازمًا فألقى القبض على المهدي من أول الأمر لماتت الدعوة المهدية في مهدها.

صبر، وطه الشيقي، واستولى المهدي على الذخائر والأسلحة، فزاد الانتصار في هيبة المهدي وشهرته، والاعتقاد بأنه المهدي المنتظر، والواقع أن الحركة المهدية لو جُردت من ادعاء المهدية لكانت حركة دينية استقلالية، فأخذ الناس يبايعون المهدي على الصورة الآتية:

(١) بيعة المهدي

«بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الوالي الكريم، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم، أما بعد، فقد بايعنا الله ورسوله وبايعناك على توحيد الله، أن لا نشرك به أحدًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نأتي ببهتان، ولا نعصيك في معروف، بايعناك على زهد الدنيا وتركها، والرضا بما عند الله؛ رغبة بما عند الله والدار الآخرة، وعلى أن لا نفر من الجهاد.»

وكانت المبايعة على وجهين:

- الأول باليد؛ بأن يضع المبايع يده في يد المهدي، جاعلًا إبهامه على إبهامه، ثم يقرأ المهدي صورة المبايعة، فيعيدها المبايع بعده، وإن كانوا أكثر من واحد إلى العشرين وضع أحدهم يده في يد المهدي، وألقى الباقون أيديهم فوق يديهما.
- والوجه الثاني المبايعة باللسان؛ وذلك متى زاد المبايعون على العشرين، فيرقى المهدي إلى منبر، أو يعلو جملًا ويقف الناس أمامه ويبايعونه.

وكان المهدي يلبس جبة مرقعة فوق سراويل من الدمور، ويتمنطق بمنطقة من خوص، وعلى رأسه طقية مكية يلف عليها عمامة كبيرة بيضاء مفلجة كعمامة أهل الحجاز، ويسدل لها عدبة على كتفه اليسرى، طولها نصف متر، وعلى عنقه سبحة، وفي رجليه حذاء أو نعلين، وكان المهدي يطلق على رجاله اسم الأنصار، والأصحاب، والأحباب في الله، وكانت الحكومة تسميهم الدراويش والأشقياء!

(٢) حكومة المهدي

وقد كان المهدي يتشبَّه بسيدنا محمد ﷺ في حكمه ومعاملة أصحابه، وقد عين أربعة خلفاء على جيشه؛ الخليفة الأول: عبد الله التعايشي خليفة أبي بكر الصديق، والثاني علي ود حلو من عرب دغيم خليفة عمر بن الخطاب، والخليفة محمد السنوسي الذي لم يقبل أن يكون خليفة عثمان وكذَّب المهدية، والخليفة محمد شريف خليفة علي بن أبي طالب.

وقسَّم جيشه ثلاثة أقسام؛ فكان محمد شريف لأنصار السودان الأوسط، أي: دنقلة وبربر والخرطوم وسنار مع الجلابة وأولاد النيل، ورايتهم حمراء. وعلي ود حلو على عرب دغيم وكنانة، ورايتهم خضراء. و«عبد الله» على السودان الغربي من التعايشة والرزيقات والحمر، وضم إليهم الجهادية وأولاد الريف، ورايتهم سوداء. وقد امتاز الخليفة عبد الله بالأمباية التي يبوق بها لجمع الجيش، وجعله رئيسًا عامًّا على الإدارة والجند، وكان لكل خليفة وكيل على رايته، ودونه أمراء ومقاديم، ولكل أمير راية؛، ومما كان يُكتب على الرايات: «بسم الله الرحمن الرحيم، سطر، لاإله إلا الله، سطر، محمد المهدي خليفة رسول الله، سطر، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام، سطر.»

وكان المهدي يعرض جيوشه كل يوم جمعة صفًّا واحدًا نحو القبلة، ويتفقدهم راكبًا جوادًا أو هجينًا. وأنشأ «بيت المال»، وكان فيه أموال الجند والعشور والزكاة والغنائم والغرامات، وأسند القضاء إلى الشيخ أحمد ود جبارة من علماء الأزهر الذين صحبوه من جزيرة أبا، ولقَّبه بقاضي الإسلام، وجعل دونه قضاة ونوابا، فالقضاة يفصلون في المسائل الشرعية، والنواب في الغنائم والحقوق المتعلقة ببيت المال.

(٣) الترحيب بالمهدي

إعجابًا بظهور المهدي، كان السودانيون يرددون الأقوال التالية، على أنها أمثال أو أغاني أو أناشيد:

> هواي هواي أسير المهدي في قدير، بشائر الخير جاءت لنا، واليوم ظهر مهدينا.
>
> وحاة قولي صواب، خنق قميركم غاب، ألف في التربة، ولا قرش خردة في طلبة ود الريف شين جابه حربه، وكوكاب في جعابه.

(٤) راتب المهدي

كتاب يجمع الدعوات وآيات قرآنية وصلوات على النبي، وشيخ الطريقة يرتب قراءته على تلاميذه صبحًا ومساءً، انفرادًا واجتماعًا.

(٥) كبار الثائرين على الحكم المصري

سليمان الزبير، ثم رابح في بحر الغزال، هرون الرشيد أمير دارفور في دارفور، والصباحي في كردفان.

(٥-١) في كردفان

ظهر للمهدي أنصار في كردفان، منهم المكي ود إبراهيم، وحامد ود السنجق، والمكي إبراهيم، والسماني، والمنة ود إسماعيل شيخ الجوامعة.

كان محمد سعيد باشا مديرًا لكردفان، وقد حصن الأبيض، وكان أحمد بك دفع الله من أعيان تجار الأبيض نصيرًا لسعيد باشا، وكان إلياس باشا أم برير الجعلي النفيعاني خصمًا لدفع الله ونصيرًا للمهدي.

تقدم المهدي في ١٢ رمضان سنة ١٢٩٩هـ ٢٨ يولية سنة ١٨٨٢م من جبل قدير، ونزل في منهل كابا على بعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من الأبيض في ١ سبتمبر سنة ١٨٨٢، وندب اثنين إلى الأبيض لدعوة سعيد باشا والرؤساء والعلماء والتجار للتسليم، وقد أمر سعيد باشا بقتل مندوبي المهدي فقُتلا، ولكن في الليل أخذ الأهالي يفرِّون إلى كابا ويبايعون المهدي، وكان جملة رجال سعيد باشا ستة آلاف، وقد حفروا خندقًا حول الأبيض، وحاصر المهدي الأبيض لمدة أربعة شهور، وغلت الأسعار فبلغ ثمن إردب الذرة ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف ريال، والحمار ٥٠٠ ريال، والفرخة أربعين ريالًا، والبيضة ريالًا، والفار ريالين، ورطل البن ريالين، ورأس السكر خمسين ريالًا.

ووقعت مجاعة، ومرض الجند، وهرب أكثرهم، وسلمت حامية بارة، وقد سلم سعيد باشا والضباط في يوم الجمعة ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ وبايعوا المهدي، وسأل المهدي سعيد باشا عن أمواله المخبأة، وكانت ٧٠٠٠ آلاف جنيه، فأنكرها، وقد قتل سعيد باشا وكبار ضباطه.

ويقول «سلاطين باشا» في كتابه «السيف والنار في السودان» إن الذي حمل المهدي على قتل سعيد باشا ومن معه هو ضبط كتاب أرسلوه إلى عبد القادر باشا حلمي، ولكن رواية أخرى تقول كان قتله انتقاما أراده المهدي لقتل رسوليه.

حملة هكس باشا

وعين علاء الدين باشا حاكمًا للسودان، وكان سليمان نيازي باشا قومندانًا عامًّا، وهكس باشا ضابطًا إنجليزيًّا، وقد تقدم هكس باشا بحملة كبيرة بقيادة نيازي باشا، وصلت إلى الدويم، وتوجهت إلى منهل الشيكان، ووقعت في ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ واقعة شيكان، فقتل قائد الحملة سليمان نيازي باشا وأركان حربها هكس باشا ومن معه، وكانت نكبة ارتعدت لها الفرائص.

وورد في التقرير المرفوع من الأرل كرومر، قنصل دولة إنكلترا الجنرال ووكيلها السياسي في مصر إلى السير إدوار جراي وزير خارجيتها وقتئذ عن المالية والإدارة والحالة العمومية في مصر والسودان سنة ١٩٠٦:

> مضى نحو أربعة وعشرين عامًا على الواقعة التي باد فيها جيش الجنرال هكس، ولا أظن أن أحدًا من الأوربيين زار ميدان الواقعة في خلال هذه المدة، ولكن السير ريجنلد ونجت عرج على المحل في أثناء زيارته لكردفان في الشتاء الماضي، وقد كتب ما يأتي:
>
> زرت ميدان الواقعة التي قَتل فيها الدراويشُ المرحومَ الجنرال هكس باشا، وأفنوا كل جيشه سنة ١٨٨٣، ومن الغريب أن العساكر كانوا في حالة شديدة من العطش، مع وجود بركة كبيرة من المياه على بُعد ميل واحد عنهم، ولكنهم لم يعلموا بها، والمحل واقع على بعد ٣٠ ميلًا جنوبي الأبيض، في وسط غابة كثيرة، ولا أشك في أنه لو كانت النجدة المرسلة لرفع الحصار عن الأبيض أكثر عددًا وأقوى عددًا لكانت لاقت ما لاقته حملة هكس، وإرسال تلك الحملة في أحوال كهذه يعد ضربًا من الجنون، وهو أكبر دليل على أن الحكومة في ذلك الحين لم تكن عالمة بحقيقة الحال، ولم تحسب حسابًا للصعوبات التي لا بد لكل جيش عظيم من ملاقاتها في أثناء مروره ببلاد كهذه.

هكس باشا، كان ضابطًا إنجليزيًّا في الجيش الهندي، تقاعد برتبة كولونيل، ثم عيَّنته الحكومة المصرية رئيسًا لأركان حرب الجيش بالسودان، ووصل إلى الخرطوم في ٧ مارس سنة ١٨٨٣ ومعه فلول جيش عرابي المؤلفة من ٤ آلايات، وكان عدد الحملة ١٢٩٠٠ مقاتل، ومعهم مراسلو التيمس والديلي نيوز والجرافيك والجمال والإبل والحمير والخبراء، وقد قُطعت رأس هكس وفني جيشه واستولى المهدي على ذخائره، وكان انتصارًا عظيمًا للمهدي.

وكان رأي عبد القادر حلمي باشا عدم إرسال الحملة، وترك المهدي في كردفان حتى تفنى قوته بالحصار، ولو نفذ رأيه لتغير الموقف.

وكانت الحكومة الإنجليزية قد أرسلت الكولونيل استيوارت في أواخر سنة ١٨٨٢، وقدم إليها تقريرًا في ٩ فبراير سنة ١٨٨٣ ذكر فيه أن المصريين يعجزون عن حكم السودان وحدهم.

(٥-٢) في دارفور

أخمد «سلاطين» مدير دارة، والنور عنقرة مدير كبكبية ثورة الأمير هرون في دارفور، وعين «سلاطين باشا» مديرًا لدارفور سنة ١٨٨١، وقد ثار في دارفور الشيخ مادبو، وفي أواخر أكتوبر سنة ١٨٨٢ هُزم جيش سلاطين، وأصيب «سلاطين» نفسه برصاصة

في بنصر يده اليمين، وجرح برصاصة في فخذه، وقد عصته حامية بارة، وسرى روح الثورة في جميع بلاد دارفور، وتمرد الجند، وكان محمد خالد زقل مدير دارة من أقارب المهدي، وكان سلاطين يخشاه، وقد دخل سلاطين دارة وحضر محمد خالد زقل العامل على دارفور بجيش عظيم، وسلم سلاطين إليه في ٢٣ ديسمبر سنة،١٨٨٣ وأعلن إسلامه، وبايع المهدي الذي سماه «عبد القادر»، وألزمه باب الخليفة عبد الله التعايشي.

(٥-٣) في بحر الغزال

نشبت الثورة في بحر الغزال من أغسطس سنة ١٨٨٢، وامتدت إلى خط الاستواء، وتقدم الجانقي ومعه الدراويش إلى الزريبة الخارجية عند بحر بيري، وجرد ملتون بك جيشًا، ثم أسلم ومن معه وبايعوا الجانقي في ١٨ أكتوبر سنة ١٨٨٤، وأُسلو إلى أبي سعد، وتقع جنوبي أم درمان، ثم سُجن واحتل كرمه الله بحر الغزال.

عثمان دقنة.

(٥-٤) عثمان دقنة

عيَّن المهدي عثمان دقنة أميرًا على السودان الشرقي، وعثمان دقنة أصله من أكراد ديار بكر الذين حضروا إلى سواكن مع السلطان سليم الفاتح، واختلطوا بالهدندوة، وكان منهم قبيلة الدقناي.

وقد ولد في سواكن، ونشأ بها واشتغل بالتجارة مع السودان والحجاز وبالرقيق، ولما منعت الحكومة تجارة الرقيق ساءت حالته، وسُجن مرة في جدة مع أخيه بسبب اتجارهما بالرقيق، وعندما علم بالدعوة المهدية اعتقد فيها وآمن بها ومات عليها، وكان يعرف العربية كتابة وقراءة، ولغة الهدندوة والبجة، وكان شهمًا شجاعًا مهيبًا.

كان للحكومة حامية في سواكن وحامية في طوكر، وقد فتح عثمان دقنة سنكات في ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٣، وحاصر طوكر، وحاصر سواكن، وسلمت الحاميات.

كان عثمان دقنة معسكِرًا في تماي، وله معسكر في تل هشيم على بعد ٧ أميال من سواكن، ومعسكر في طوكر.

وقد وُجِّهت حملة إنجليزية برياسة الجنرال جراهم إلى سواكن ومعه ١٣ ألف جندي، وقد احتل تل هشيم، واحتل تماي، وقد أخلى عثمان دقنة معسكره متحصنًا في الجبال.

وعمل جراهم على مد سكة الحديد من سواكن إلى بربر، وقد أمرت الحكومة بإخلاء سواكن، وعاد إلى القاهرة في ١٧ مايو سنة ١٨٨٥، وعاد عثمان دقنة إلى تماي.

(٥-٥) قتل غوردون وسقوط الخرطوم

وقد أرسل المهدي كتبًا إلى غوردون للتسليم، وسلمت حامية أم درمان، وحاصر المهدي الخرطوم، وقد جاعت العساكر، وكان غوردون يأمل أن يحضر جيش إنجليزي لإنقاذه، وكان يقضي أكثر الوقت على سطح السراي والمنظار بيده، فيوجهه إلى الشمال، ومضت مدة لم يدفع غوردون نقودًا إلى الجنود، فجمع قرضًا من التجار، وأصدر منشورًا قال فيه:

> إني سبقتُ فأنعمتُ على جميع العساكر والموظفين الملكيين بمرتب ثلاثة أشهر، ثم بمرتب ستة شهور ونصف، ثم بمرتب شهرين، والآن أعود فأثبت إنعامي هذا وأنا في انتظار الإنجليز القادمين لنجدتنا كل يوم، بل كل ساعة، وكلما تأخروا يومًا حسبته لكم شهرًا، وجلالة ملكة الإنجليز ضامنة لقولي هذا.

زاد الجوع، واستمر فرار الجنود من الخرطوم إلى المهدي في أم درمان، وقنع الجنود والسكان بأكل الصمغ والجمار والجيف والجلود.

وكان للخرطوم خندق يمتد من النيل الأزرق إلى النيل الأبيض، ولا يتصل بالنيل الأبيض إلا في الفيضان، وإذا انخفض انحسر عن ثغرة يسهل الدخول منها إلى الخرطوم.

وقد عرف المهدي ضعف الخندق وسوء حالة المدينة، وقد زحف الدراويش يقودهم النجومي، ودخل رجاله من الثغرة، وقتلوا الأورطة المصرية، ثم الأورطة الثانية السودانية، ثم الأورطة السودانية الثالثة والباشبوزق.

وقد قصد محمد نوباوي شيخ بني جرار ومعه عربان إلى سراي الخرطوم، حيث كان غوردون على سطح السراي، ولم يكن معه سوى خادمه محمد إدريس وثلاثة قواسين، وعلى باب السراي ضابط وخفراء قاوموا المهاجمين بالرصاص، وعندئذ كان غوردون واقفًا عند رأس السلم بثيابه العسكرية والسيف عن جنبه، فقال لهم: «أين محمد أحمد؟» فأجابوه بالطعن بالحراب، وكان محمد نوباوي أول طاعن، وقبل أن فاضت روحه أمسكوه من رجليه على السلم إلى أسفل السراي، وقطعوا رأسه وحملوه إلى المهدي في أبي سعد، وكان على مائدة غوردون صحن به بيض مقلي، وعلبة لحم صغيرة فيها شوكة، وبجانبها ملعقة وصحن آخر به قطعة سكر.

وقد أُخذت رأس غوردون إلى النجومي، وأرسلها النجومي إلى الخليفة محمد شريف، فأرسلها إلى المهدي الذي أرسله إلى سلاطين باشا حينما كان مسجونًا ليتحقق أنه رأس غوردون، ثم علقه في المشنقة ثلاثة أيام، وقد فتحت أبواب المدينة وأخذت الغنائم والأسرى، ودخل الدراويش المدينة، وكان إبراهيم باشا فوزي المحافظ بين الأسرى.

(٥-٦) حملة السير تشارلس ولسون

سار السير تشارلس ولسون في الباخرتين بردين وتل حوبن حتى وصل إلى ود حبشي في رأس شلال السبلوكة، واستمر حتى وصل التمانيات، وبات فيها إلى فجر ٢٨ يناير سنة ١٨٨٥، وفي الساعة ١١ صباحًا أطلَّ على الخرطوم، حيث سمع رجلًا ينادي: «الخرطوم سقطت والغوردون مات»، وقد ألقت شارلس جنود المهدي القنابل والرصاص من طابية أم درمان، وطابية المقرن، وقفل راجعًا يحمل نبأ سقوط الخرطوم، وغرق وابور تل حوين، وانتقل رجاله إلى وابور بردين الذي غرق أيضًا، فاضطر السير تشارلس ولسون إلى السير على الأقدام على شاطئ النيل، حيث قابل اللورد شارلس برسفور وعادا إلى القبة مع رجالهما على الباخرة الصافية.

وقد رجعت الحملة الإنجليزية النيلية إلى القاهرة سنة ١٨٨٥.

إخلاء دنقلة

وقد قررت الحكومة إخلاء دنقلة، وأقامت فيها حكومة من الأهالي، ولكنها سقطت بيد المهدية.

في سنار

زحف عامر المكاشف على سنار، وكان بها حسين بك شكري «باشا»، ومعه ١٥٠ جنديًّا ومدفع واحد، وانتصر عامر المكاشف، وعاد عامر إلى غابة الكبوش، وعاد المدير إلى مدينة سنار بفلوله، وهرب عامر المكاشف، وقد استعان جكلر باشا بعوض الكريم أبي سن شيخ مشايخ الشكرية، وهزم الشريف أحمد طه من أنصار المهدي وقتله.

وقد أرسل المهدي من أصحابه أحمد المكاشف والشيخ المضوي وود الصليحابي وفضل الله ودكريف، وقد هزم المكاشف مرتين في الدويم، وحاول حصار سنار، وانتصر عبد القادر باشا حلمي في واقعة الداعي في ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٣، وعين صالح بك المك على الشايقية والأتراك في سنار.

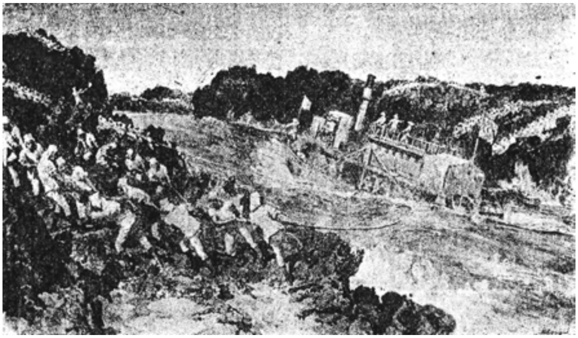

صعود الوابور فوق الشلال الثاني.

في كسلا

تقدَّم الأمير حسين عبد الواحد واحتل القضارف، ودانت له معظم القبائل العربية التي بين العطبرة والنيل، وحاصر الجيرة، وقد طلبت الحكومة المصرية — بعد فوز المهديين — من الملك يوحنا ملك الحبشة أن يساعدها على إنقاذ الحاميات المصرية على حدود الحبشة، وسلم الميرالاي سعيد بك رفعت الأسلحة والذخائر إلى الرأس دهنشوم من أمراء الحبشة، وخرج بالحامية من المتمة في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥، وتوجَّه سعيد بك مع دهنشوم إلى ملك يوحنا لشكره، وعاد سعيد بك من مصوع إلى مصر، واحتل محمد ود أرباب القلابات في ٥ مارس سنة ١٨٨٥.

وسلمت محافظة مصوع إلى الإيطاليين منذ ٦ فبراير سنة ١٨٨٥، وعادت حاميتها إلى مصر، وأخليت أميدوب في ١٠ أبريل سنة ١٨٨٥، وسنهيت في ١٩ أبريل ١٨٨٥ إلى الحبشة، وأخليت هرر وزيلع وبربر سنة ١٨٨٥، وعين في هرر عبد الله محمد عبد الشكور، واستمر حتى بداية سنة ١٨٨٧، حيث غزاها منليك ملك شوه، ثم ملك الحبشة بعد ذلك، وصارت هرر مع الحبشة وزيلع وبربر من المستعمرات الإنجليزية.

وقامت الثورة في كسلا في أغسطس سنة ١٨٨٨، وكان راشد باشا كمال قومندان عسكر شرقي السودان، ثم عاد راشد باشا إلى مصر وعاونوا الحكام المصريين.

وحدثت وقائع كثيرة كانت الحرب سجالًا، وخرج السيد محمد عثمان الميرغني من الخاتمية بكسلا في ٣٠ يونية سنة ١٨٨٤، إلى مصوع، إلى مصر، حيث مات فيها في ١٠ ربيع الآخر سنة ١٣٠٣، ودفن في باب الوزير، ومقامه فيها مشهور، وتولى الخاتمية بعده ابن عمه السيد بكري بن السيد جعفر الميرغني، ولم يبقَ معه إلا أخلاط من الدناقلة والجعليين والحلانقة والبجة، وبنو أسوارًا.

وزحف مصطفى هدل على الخاتمية، وهزم السيد بكري الميرغني، وقد سقطت الخاتمية في ٣ مايو سنة ١٨٨٥ و١٨ رجب سنة ١٣٠٢، وقد حاول قتل السيد البكري الذي ضحى أنصاره بأنفسهم وحموه، وتوجه إلى مصوع فسواكن فمكة، ومات فيها سنة ١٣٠٤هـ، واستولى مصطفى هدل على الخاتمية.

(٦) بعد سقوط الخرطوم

جعل المهدي معسكره في أم درمان في سنة ١٨٨٥، وقام بسك النقود مقلدًا الجنيه المصري والريال الفضي، وشرع في جمع الزكاة والعشور.

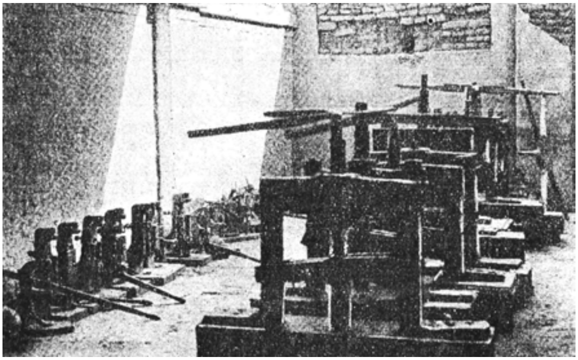

آلات سك النقود التي كانت تستعمل في أثناء الحكم المهدي.

وكان يبتُّ في جميع المسائل الإدارية، وكان له كتَّاب، ثم جعل له أمناء وعاملين أجاز لهم الحكم بالقتل بدون استئذانه.

ولما أقبل رمضان سنة ١٣٠٢ أصدر منشورًا بجعل شهر الصوم فترة راحة، وامتناع عن نظر أحوال الدنيا، والتخصص بالذكر والتذكار.

(٧) عزم المهدي على غزو مصر وكتبه إلى أهلها وإلى الخديوي

أرسل المهدي منشورًا إلى سكان مصر حكامًا وتجارًا وعُمدًا وغيرهم، يبلغهم فيه عزمه على غزو مصر، وأرسل كتابًا إلى سمو الخديوي جاء فيه:

> بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد، فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدي بن عبد الله إلى والي مصر، لا يخفى على مَن نوَّر الله بصيرته وشرح صدره أن الدين الذي يكون المتمسك به ناجيًا عند الله هو دين الإسلام، الذي جاءنا به نبينا محمد ﷺ.

وبعد كلام طويل مملوء بآيات من القرآن والأحاديث، قال:

وقد حررت إليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم؛ شفقة عليك وحرصًا على هدايتك، فأرجو الله أن يشرح صدرك لقبوله، ويدلك على صلاحك ورشادك في الدارين، وها أنا قادم على جهتك بجنود الله عن قريب إن شاء الله تعالى، فإنَّ أمر السودان قد انتهى، فإن بادرتني بالتسليم لأمر المهدية والإنابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية، وأمنت على نفسك ومالك وأرضك، أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك، وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد، فإنما عليك إثمك وإثم من معك، ولا بد من وقوعك في قبضتنا، ولو كنت في بروج مشيدة، وهذا إنذار مني إليك، وفيه الكفاية لمن أدركته العناية، والسلام على من اتبع الهدى.

(٨) المهدي وغزو الشام

أرسل المهدي الحاج عبد الله الكحال من الرهد عاملًا على بلاد الشام، فحضر إلى مصر واشتغل بالتجارة.

(٩) المهدي ومراكش

وأرسل المهدي منشورًا إلى أهل مراكش وإلى السيد محمد الغالي ليكون عاملًا عليها.

(١٠) وفاة المهدي

في يوم الأربعاء ٤ رمضان سنة ١٣٠٢هـ نزلت بالمهدي حمى خبيثة تُعرف في السودان «باب دم»، وعند الأطباء بالالتهاب السحائي الشوكي، وأمر بأن يصلي الخليفة عبد الله التعايشي بالناس يوم الجمعة ٦ رمضان، وأن يخطبهم، ودامت الحمى إلى يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢هـ و٢٢ يونية سنة ١٨٨٥م، وأسلم الروح إلى خالقها عند الضحى، وكان عنده خلفاؤه، وقد حفروا قبره في محل فراشه في منزله، ثم صلى الخليفة عبد الله عليه إمامًا، ودفن عند الظهر، وبايع الناس الخليفة عبد الله التعايشي بعده، وأشيع أن المهدي مات مسمومًا في الطعام، ولكن الإشاعة لم تتحقق.

وقد رثاه الشعراء، فرثاه إبراهيم شريف الدولابي الكردفاني، قال في قصيدة:

كيف التئام فؤادي المفطور ورقوء دمع محاجري المفجور

وختمها بقوله:

صلى الإله على ضريح ضمه أزكى صلاة في المسا وبكور

وقال محمد بن الطاهر المجذوب من قصيدة:

دهتنا دواه يضرس القلب نابها ويوقد في الأحشاء نارًا منابها
ألا أبلغوا عنا ضريح أبي الهدى تحايا إلى الله الكريم انتسابها

(١١) صفات المهدي وعاداته

كان الفقيد طويل القامة، كبير الرأس، عريض الوجه، أسمر اللون، أدعج العينين، أزج الحاجبين، واسع الجبين، أقنى الأنف، رحب الصدر، واسع الفم، عريض الشفتين، عظيم المنكبين، ضخم العظام، واسع الكفين والقدمين، سائل الأطراف، مفلج الأسنان، مشرط الوجنتين، على كل وجنة ثلاث شرائط أفقية، مستدير اللحية واسعها، خفيف الشاربين، وكان يحلق شعر رأسه ويحسن لحيته، وكان كثير الابتسام، وكان يجلس على فروة من الضأن، ويقعد القرفصاء، ويجثو عند الطعام على إحدى ركبتيه، وكان الداخل عليه يخلع نعليه ويتقدم إليه حبوًا حتى يقرب منه فيلمس يده، ويرجع عنه قليلًا ثم يكلمه وهو منكس الرأس، ويخاطبه بقوله يا سيدي، وبعد الفراغ من حديثه ينصرف راجعًا بظهره، وكان دائم الابتسام فلقِّب بأبي فلجة، ووصفه إسماعيل عبد القادر الكردفاني فقال: «إنه سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا فحاش ولا عياب، واسع الصدر، يواسي أصحابه، وفيٌّ لهم، كثير العفو ...»

وقد تزوج بأربع عُرفن بأمهات المؤمنين، أما أولاده من السيدة فاطمة بنت أحمد شرفي فثلاثة: الفاضل ومحمد والبشري، وبنت تسمى زينب، وله من السيدة فاطمة بنت حاج أربع بنات: أم كلثوم تزوجها الخليفة عبد الله، ونور الشام تزوجها الخليفة

علي ود حلو، ثم نفيسة وعائشة، ومن السيدة فاطمة بنت حسين الحجازي ثلاث بنات وولد يسمى الصديق، ومن السيدة مقبولة الدارفورية السيد عبد الرحمن، ومن السيدة مأمونة الحبشية التوأمان الطاهر والطيب، ومن السيدة قبيل الله النوباوية نصر الدين؛ أي كان له عشر بنات وعشرة ذكور، مات منهم ثمانية وعاش علي وعبد الرحمن.

أولاد الخليفة التعايشي: عبد الصمد ويحيى وعمر وإبراهيم وإسماعيل، وهم الصفان الثاني والثالث، والقاعدون القرفصاء أولاد المهدي: الطاهر، ونصر الدين، وعلي، عقب إعادة السودان سنة ١٨٩٩.

وكان المهدي يريد أن يعيد الإسلام إلى فطرته، وكان ينهى عن البدع والترف، ومنع إرخاء الشعور ودهنها بالشحم، وحرم الإسراف في حفلات الزفاف، وخفَّض المهر فجعله عشرة ريالات وثوبًا وقربابًا للبكر، وخمسة ريالات وبدلنين للثيب، وأبطل الرقص والغناء والدلوكة، وحرم خصي العبيد، ومنع البكاء وراء الميت، وأبطل السحر والتعزيم والتمائم، وحرم شرب الدخان والحشيش والخمر، ومنع الألعاب، ووضع راتب المهدي

الذي اشتمل على دعوات وآيات وأحاديث تحفظ وتتلى يوميًّا، ورجم الزاني وجلد الزانية وقطع يد السارق، وساوى بين الغني والفقير، وحرم الألقاب والأوسمة، وجعل الصلاة في جوامع المهدية، وجعل الدين محصورًا في القرآن وراتب المهدي ومنشوراته، وكان يرى أن الجهاد في السودان يوجب التفرغ له وتأجيل الحج.

ولم يتمكن المهدي من إتمام كتاب اسمه المجالس، قصد منه تضمين الأحكام الشرعية.

الشيخ محمد شريف نور الدائم باشا أستاذ المهدي جالسًا، وحوله ابنه وأبناء أخيه.

وكان لأصحاب المهدي مراتب متفاوتة، فالمرتبة الأولى لصحبه قبل إعلان الدعوة المهدية. وهم يقال لهم أبكار المهدي، والمرتبة الثانية أنصار «أبا»، والمرتبة الثالثة أنصار «قدير»؛ أي جبل قدير، والرابعة أنصار كابا، وهناك مراتب أخرى أدنى من ذلك؛ أي أن أنصاره الأوائل مقدمون رتبة على من بعدهم.

وقد صدَّق خاصة السودان وعامته دعوة المهدي، وأن من مات في سبيله كان نصيبه الجنة والحور العين، حتى كانوا يتمنون الموت، ولم يبقَ في السودان إلا قليل من الناس لم يصدقوا الرسالة المهدية، ولكن أكثرهم لم يجرؤ على الجهر بإنكارها.

وقد اهتزت البلاد الإسلامية للدعوة المهدية، وهرع جماعة من مصر والحجاز والهند والمغرب إلى المهدي، وخشي السلطان عبد الحميد خان الثاني التركي عاقبة انتشار الدعوة، فنشر منشورًا سلطانيًّا كذَّب فيه الدعوة المهدية، وأصدر علماء الأزهر فتوى أذاعها مجلس النظار، وأوعز عبد القادر باشا حلمي إلى لفيف من علماء السودان لتكذيب الدعوة، وكان للمهدي خاتم وسيف، وقد تفرَّد بمذهب اجتهادي وحَّد فيه المذاهب الأربعة، أي إن المهدي كان إمامًا مجتهدًا، ومنع زيارة الأضرحة.

الفصل الثامن والعشرون

الخليفة عبد الله التعايشي

منذ وفاة المهدي في يوم الإثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ و٢٢ يونية سنة ١٨٨٥، بايع أهل السودان الخليفة عبد الله التعايشي، وأذاع منشورًا بأن المهدي قد مات.

وكانت سياسة التعايشي المحافظة على شعائر المهدية، وجعل أخاه يعقوب وزيره وقائد جيشه ومدبر أشغاله، وولى أقاربه التعايشة كبار المناصب.

(١) التعايشي وفتح كسلا

وفي يوم الأربعاء ١٦ شوال سنة ١٣٠٢هـ المقابلة ٢٩ يولية سنة ١٨٨٥م سلَّمت حامية كسلا بعدما اشتد عليها الحصار، ومات فيها الكثيرون جوعًا، وكان سقوطها على يد أمناء المهدي الحسين الزهرة، وإدريس عبد الرحيم، وعبد الله حمزة، ومحمد حمزة.

وحضر عثمان دقنة إلى كسلا، وكان المهدي قد مات فأعلن عثمان البيعة للخليفة عبد الله على سطح ديوان مديرية كسلا، قائلًا: إن كنتم تعبدون المهدي فإن المهدي قد مات، وإن كنتم تعبدون الله فالله حي لا يموت. والخليفة عبد الله هو خليفة المهدي القائم بالأمر بعده، فهل أنتم طائعون له متبعون لأمره؟ قالوا جميعًا: نعم، ثم بايعوه باسم الخليفة.

ثم قتل المدير أحمد بك عفت وبعض الموظفين والتجار.

وقد عزل التعايشي بعض القواد، وأخذ يجرد الخليفة شريف، والخليفة ود الحلو من سلطتهما.

وقد وجَّه التعايشي كتبًا إلى خارج السودان؛ من ذلك أنه قد وجَّه كتابًا إلى السلطان عبد الحميد، وإلى سمو الخديوي توفيق باشا، وإلى الملكة فيكتوريا؛ لدعوتهم إلى المهدية،

ثم إلى قبائل نجد والحجاز، وإلى منليك ملك الحبشة، وإلى محمد السنوسي في غرب السودان الأقصى، وإلى سلطان واداي ورابح الزبير.

وقد انتقض بعض الولاة والأمراء على عبد الله التعايشي كما حدث في الأبيض؛ إذ عزل محمود عبد القادر وولى عثمان آدم مكانه.

(٢) في القلابات

احتل محمد ود أرباب القلابات في ٥ مارس سنة ١٨٨٥م.

(٣) على حدود الحبشة

طلبت الحبشة القبض على الحاج علي من قطاع الطريق اللاجئين إلى القلابات، وزحف الرأس عدار على القلابات، وقتل محمد أرباب وجيشه، وأحرق القلابات وعاد بالغنائم إلى الحبشة في أوائل يناير سنة ١٨٨٧م.

وعين الخليفة عبد الله يونسَ الدكيم عاملًا على القلابات، ودعا التعايشي الملك يوحنا ملك الحبشة للإذعان للمهدية، وبعث يونس حملات على الحبشة.

وقد ظهر في القلابات في ديسمبر سنة ١٨٨٧م رجل تكروري يدعى آدم محمد البرقاوي، ادعى أنه نبي الله عيسى، وصدَّق به عشرة من الأمراء، وخمسة من جيش يونس، وكان التعايشي قد عين حمدان أبو عنجة ومعه جيش إلى القلابات، ومنها حاول غزو الحبشة في ٩ يناير سنة ١٨٨٨م، ودخل بلاد دمبيا الحبشية، وعاد إلى القلابات ومعه الغنائم، ثم عاد ثانية لغزو الحبشة في يونية سنة ١٨٨٨م.

وطلب الملك يوحنا إلى حمدان أبي عنجة الصلح؛ لأن الملك كان مشتغلًا بحرب الإيطاليين، ولكنه رفض الصلح وأغلظ في القول، فحشد الملك يوحنا جيشًا من نحو ٢٥٠ ألف مقاتل، ومات في تلك الأثناء أبو عنجة، وخلفه الزاكي طمل، وفي ٩ مارس سنة ١٨٨٩م وصل الملك يوحنا القلابات، وحدثت موقعة انتصر فيها جنود الحبشة في أول الأمر، ثم جُرح الملك يوحنا جرحا مميتًا، وأوقع موته الفشل وانهزم جيشه.

(٤) في سواكن

وجَّه كتشنر باشا محافظ سواكن في ١٧ يناير سنة ١٨٨٨م حملة إلى هندوب، وهزم قوة عثمان دقنة، وقد جرح كتشنر وعاد إلى سواكن، ومنها إلى مصر، وناب عنه الميجر شكسبير.

ووقعت واقعة الجميزة في ٢٠ ديسمبر ١٨٨٨م، وهزمت قوة برياسة السردار غرانفيل باشا، ومعها أورطة إنجليزية، واللواء الثاني بقيادة اللواء هولد سميث باشا، جيشَ عثمان دقنة عند طابيتي الشاطة والجميزة اللتين تحميان آبار الماء لحامية سواكن.

(٥) عند خط الاستواء

ذكر الدكتور محجوب ثابت الخطاب المرسل إلى أمين باشا مدير خط الاستواء من قائد قوة الجيش المصري «سليم بك مطر».

وإليك صورة هذا الخطاب التاريخي المجيد، والصحيفة الخالدة مأخوذة من صورة فوتوغرافية عثرنا عليها في كتاب بعنوان «عشر سنين» بمديرية خط الاستواء، والرجوع منها مع أمين باشا للبكباشي «غيثانو كازاتي» مجلد ٢ صحيفة ٢٠٢ و٢٠٣، نُسخت مع المحافظة على حروفها وأسلوب رسمها:

مدير عموم خط الاستواء سعادتلو محمد أمين باشا حضرتلري

أفندم بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٨٨ حضروا العساكر من محطتي موهي واللابورية ومائة وعشرون نفر من عساكر برنجي أورطة لمركز الأورطة، وفي يوم ٢٤ منه صار تعيين بخيت أغا محمود الملازم ومعه فرق عسكرية إلى اللابورية لكشف أخبار الأشقياء، وفي الساعة ٥ حضر بعض عساكر، وعرفوا على أن الأشقياء قابلوهم بخور الطين، ولغاية الغروب تم وصول الباقي وحضرت مكاتبة من رئيس الأشقياء عمر صالح يرغب التسليم، وأوضحوا فيها مثل حامد بك محمد وعبد الوهاب أفندي طلعت وعلي أغا جابور وسالم أفندي خلاف وحسن أفندي لطفي، وإن لم صار التسليم فتصير المحاربة، ولم عطى لهم الرد فضلًا.

حرق محررهم، وفي يوم ٢٥ منه احطاطه الأشقياء بالحصار، وصاروا يهللوا بمقالة إنهم مهدية، وفي الساعة ١٠ من هذا اليوم وردت منهم مكاتبة أخرى استعجالًا للأولى، وصار رميها بمعرفة العساكر من خارج الحصار، وبالاستفهام من الآدمي الذي أحضرها عن الكيفية عرف على أن القصد التسليم، وفي يوم ٢٩ منه حضروا المذكورين بجوار المحطة، وصاروا يضربوا الأسلحة علينا من الساعة ٣ لغاية الساعة ٩، وفي الحال صار خروج بعض عساكر إليهم، وانتشب الحرب بينهم، وهزموهم وقتلوا منهم ٦٢ نفرًا، بخلاف المجروحين، ولم يحصل لعساكرنا شيء، وفي يوم ٢٧ منه لم يزل حضروا هؤلاء المفسدين، وشاغلوا العساكر بضرب النار، وفي الساعة ١٠ من ليلة يوم الأربع صار ضرب نوبة كبسة، وفي الحال اشتغل ضرب النار من الأشقياء وعساكر الحكومة الخديوية، ولغاية الصبح اشتد الحرب بين الفريقين إلى أن صار إصابة أحمد أغا علي الأسيوطي، وبخيت أغا علي، وسليمان أغا سودان، بالرصاص والسيف من أيادي الأشقياء، بأوجههم وأيديهم، وقليلًا من الصف ضباط والعساكر وفي هذا الأثنى دخلوا من تلك المفسدين داخل المحطة بقصد امتلاكها، وقتلوا محمد أفندي علي النجار القبودان، والأسطى أحمد المهندس، ومرجان مزار ٢ جي ريس الخديوي، وخميس سالم الباش عطشجي، وفرج الله مردة العطشجي، ولما ترآى لجميعنا ذلك صار الاجتهاد في قتل من دخلوا الحصار والمحطاطين به من خارج، وفي الساعة ٢ تقريبًا انقضت المعركة بين الطرفين بانتصار عساكر الحكومة، وهزم عدوهم باقتفاء، وما صار قتله منهم وجد مائتان نفر وعشرة، بخلاف الذي أمكن تعداده والمجروحين الذين وصلوا لمحل إقامتهم، واكتسبنا منهم إحدى عشر بيرق بما فيهم بيرق أميرهم، وبعضًا من الأسلحة الرامنتون والبيادة وجملة سيوف وحراب، وأسر واحد منهم، وارتجعت العساكر في محلاتهم بعد عمل التشريفة اللازمة، وفي يوم الخميس لم حصل شيء بخلاف المشاغلة فقط، وفي ليلة الجمعة الساعة ١ تكامل حضور جماعة فأتوا لهنا، والساعة ٢ حضر أحد الأهالي البيادة المأسورة بطرفهم، وعرف عن قتل أغلبهم، وأن غرضهم الفرار إلى الرجاف، وفي صباح اليوم المذكور حضر أدمي تعلق عدالين أغا شلبي وعرف عن فرارهم ليلًا، وفي الساعة ١ من هذا اليوم حضر واحد عسكري أصله من

ملحوقات ٣ جي بلوك باللابورية، وصادق على قول من سبق حضورهم، وفي الوقت توجهوا العساكر إلى المحل الذي كانوا مقيمين به الأشقياء، فوجدوا جملة نفوس قتلى ومجروحين بخلاف ما سبق تعداده، ونقلوا المجروحين وأحضروا بعض صناديق جبخانة فوارغ، وفي يوم السبت الموافق غرة الجاري الساعة ٦ حضر واحد عسكري أصله كان من توابع المرحوم ريحان أغا إبراهيم، وبمسؤوليته عن الكيفية أوضح أنه محضر معهم من الخرطوم، وأن ما قاله الأشخاص المحضرين منهم المورين عنهم بهذا هو حقيقي، وأن قوة الأشقياء صارت ضعيفة جدًّا، كذا عينا تراجمه لكشف أخبار، وتوجهوا لحد خور عبد العزيز، فوجدوا جملة أجربة داخلها ملبوساتهم وواحد سنكه رامنتون فأحضروهم.

وفي يوم تاريخه الساعة ٥ حضر واحد عسكري يسما فضل المولى من جماعة بوجي من ضمن المأسورين بحركة الرجاف الأخيرة، وعرفوا بأن الأشقياء توجهوا إلى الرجاف مكسورين مجدين السير، والمجروحين الذين كانوا معهم يبلغوا مائة وخمسين نفر، وجاري وفاتهم بالطريق وسيرهم بالعجلة، وكلما مروا على محطة مثل الخور واللابورية جارين حرقها هذا ولإحاطة شريف علم سعادتكم بما قد حصل من عساكر الحكومة وجب ترقيمه بالعرض لسعادتكم أفندم.

في ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٨.

بنده بكباشي ٢ط
خاتم (سليم مطر)

سعادتلو أفندم حضرتلري

أفندم مع ما توضح أن جميع فرسانهم وريساهم وقاضيهم قتلوا في يوم الواقعة.

في تاريخه.

خاتم (سليم مطر)

وقد نشر سليم مطر بك، وهو ضابط بحري، رسالة عن رحلاته في أعداد يولية وأغسطس وسبتمبر من مجلة الجمعية الجغرافية سنة ١٨٤٢، حيث كشف النيل الأبيض.

(٦) الخليفة عبد الله التعايشي

ربع القامة، أسمر اللون، أشيب الشعر، عربي الملامح، خفيف الشاربين واللحية مستديرها، وقد هذَّب لحيته وشاربيه، على وجهه آثار الجدري، أقنى الأنف، وقَّاد الذكاء، قصير الشفتين، تبرز منهما أسنانه، أميل إلى الابتسام، جم النشاط، وعلى الإجمال يشبه المهدي إلا أنه أقصر منه قليلًا، وأقل سمرة، وأضيق جبهة، وأصغر لحية، وكان نحيفًا ثم صار بدينًا.

كان لباسه كالمهدي، أي الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة، والعمامة المفلجة فوق المكاوية، مدلاة منها عذبة على كتفه اليسرى، ويلقي على كتفيه رداء بطرف حرير أزرق، ويتمنطق بمرفعة حول خصره وكتفه اليسرى، ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمامة، بحيث لا يظهر من تحته إلا دائرة وجهه، ويلبس في عنقه سبحة كبيرة، وفي قدميه الخف الأصفر في الحذاء الأصفر، فإذا جلس خلع الحذاء وأبقى الخف وتربع على عنقريب.[١] فوقه فروة من جلد الضأن، وهي التي يصلي عليها.

وكان نظيفًا ويتطيَّب، وعن يساره سيفه، وفي يمينه حربة قصيرة هندوية، ويعرج عرجًا خفيفًا لكسر ساقه عند سقوطه من جواده عند فتح الأبيض، وكان يمشي خلفه غلمان من الحبش، وله أربع زوجات، منهن أم كلثوم بنت المهدي، عدا الجواري.

وبلغ أولاده ٢١ ذكرًا و١١ أنثى، وكان عنده خصيان.

وكان يصلي الفجر في مسجده ويسمع راتب المهدي، ثم يخلع زيه الرسمي ويلبس الشقة، ويتناول الطعام، وهو زبدة بقرية ولبن بقري، وينام إلى الضحى ثم يستيقظ فيتناول طعامًا من عصيدة الدخن مع ملاح التقلية أو أم دقدوقة، وهو ملاح مركب من السمن والشرموط البقري والويكة مع الشطة والملح والبصل، ثم اللحم المنصص.

ثم ينظر في المراسلات، ثم يدخل الحريم حتى الظهر، فيخرج للصلاة في المسجد في محرابه تحت الرواكيب، ثم يصدر الأحكام ما بين توبيخ وسجن ونفي وقتل، ويتناول

[١] العنقريب يسمونه في السودان «عنجريب»؛ سرير من الخشب، أو جزع النخل.

الغداء في داره وهي الكسرة والطبيخ، ثم يصلي العصر في الجامع ويسمع الراتب، ويتفقد الجيش، ويصلي المغرب ثم يتناول العشاء في داره، ويعود لصلاة العشاء في المسجد، ثم يعود إلى داره ويجتمع مع وزيره يعقوب وقاضي الإسلام وشيخ السوق وأمين بيت المال، ويبقى الملازمون جالسين أمام باب داره حتى يتأكدوا من انصراف مجلسه فينصرفون، ثم ينظر مع رئيس خصيانه في نفقات منزله، ثم يدخل مخدعه ويجتمع بزوجاته، ثم ينام حتى الفجر.

ويستأذن الداخل عليه، ويخلع سلاحه وينكس رأسه، ويداه إلى صدره، ثم يقول: السلام عليك يا خليفة المهدي «عم»، فيجيب: وعليك السلام، ويشير عليه بالجلوس فيجلس جاثيًا أو يقبِّل يده، ولا يخرج حتى يأمره بالانصراف.

وكان يولم للجيش وليمة، وكان النساء في عهده يصلين خلف الرجال.

حكومة التعايشي

جعل السودان عمالات ثمان: الجزيرة، وجبال إدريس، وغرب البحر الأبيض، وشات، والبادية الغربية، والبادية الشرقية، وشرق النيل الأكبر، وغرب النيل الكبير، وعمالة الشلك والدنكا «مديرية فاشودة».

ولم يحتل فاشودة وفازوغلي، بل كان يرسل إليها العمال لجلب الحبوب والعبيد على سبيل الجزية.

وكان يطلب إلى عماله المحافظة على الصلوات الخمس، وتلاوة راتب المهدي، والجهاد والطاعة، وإقامة العدل، والبعد عن الفساد.

وبلغ جيشه في أم درمان أكثر من ٥٠ ألف في ستة أقسام: قسم الملازمية القديم وقائده بخيت جاموس النوبي، والملازمية الجديد وقائده شيخ الدين بن الخليفة، والكارة بقيادة إبراهيم الخليل، والراية الزرقاء بقيادة يعقوب أخي الخليفة، والراية الصفراء بقيادة محمد شريف، والراية الخضراء بقيادة الخليفة ود الحلو، وألحق بالجيش قسم الصحراء الشرقية بقيادة عثمان دقنة، وكان عند التعايشي مدافع وذخائر.

وكان يجمع الزكاة والعشور والغنائم، وأهمل الزراعة أولًا، وراجت صناعة الأسلحة، وأبقى الترسانة والمراكب وخط التلغراف بين الترسانة وأم درمان، وأنشأ معملًا للصابون، وضرب النقود من الفضة، وكان التعليم قاصرًا على حفظ القرآن وتفسيره.

وقد أبطل أمناء ونواب المهدي، وحصر القضاء في قاضي الإسلام وأعوانه، وكان رفع الدعوى إليه شفهيًّا عند دخوله المسجد بالنداء عليه: يا خليفة المهدي، إني مظلوم، فيسمع قضية المتظلم ويفصل فيها.

وكان سجنه حوشًا واسعًا مسوَّرًا، في وسطه أكواخ من الحجر والطين، يزدحم فيها المساجين مقيَّدين في أرجلهم، وبالجنزير في أعناقهم، واستعمل المشانق والبربندي «الفلق».

وسياسته الخارجية قامت على دعوة الملوك والأمم إلى المهدية، أو محاربة جيرانه، وقد منع دخول الأجانب.

وكتب إلى منليك إمبراطور الحبشة، سنة ١٣٠٨ هجرية:

> وبعد، فمن عبد ربه خليفة المهدي — عليه السلام — الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق إلى منليك، نعلمك أنَّا قد كنا قبل هذا كاتبناك للدخول في الملة الإسلامية، والانتظام في سلك أتباع المهدية، رحمة بك وشفقة عليك وحبًّا لهدايتك وخوفًا عليك من الموت على ملة الكفار الذين مصيرهم إلى النار وغضب الجبار، وحذرناك عاقبة الخلاف والإعراض، وقد مضت من عهد ذلك مدة، وما أتانا منك رد على المكاتبة التي حررناها إليك، وما علمنا السبب في ذلك. أفما وصلت إليك مكاتبتنا أم وصلت واخترت عدم مجاوبتنا كما حصل من الهالك النفس يوحنا عظيم الحبش؟ فإنَّا قد كاتبناه مرارًا، ودعوناه إلى الإسلام جهارًا، فاستكبر واستنكف حتى أهلكه الله — تعالى — على يد أنصار الدين، هو ومن معه من الوزراء والمشركين، وقطعت رءوسهم وحملت إلينا، فكانت عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين.
>
> وغاية الأمر أنَّا قد ضربنا صفحًا عن جميع ما مضى منك، ومن باب الشفقة عليك حررنا هذا ثانيًا إليك بدعوتك إلى الدخول في ملة الإسلام، والانتظام في سلك أتباع المهدي، والإذعان لحكمنا والعمل بإشارتنا، فإن أجبت داعينا وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وحسن إسلامك والتزمت العمل بإشارتنا، وصرت من ضمن أتباع المهدية القائمين بأوامرها المرضية، فاعلم أنَّا سنقبلك ونجعلك أميرًا من طرفنا على بلادك، وتكون مكرَّمًا لدينا، وإلا فإن أعرضت عن ذلك فذنبك عليك، لكن يلزمك أن تكون

واقفًا على حدودك، ولا تتعدى حدود الإسلام، وإلا فإن تعديت الحدود فلا بد من مناجزتك الحرب، ويكون عليك من الهلاك والدماء مثل ما كان على الهالك يوحنا لما طغى وبغى وتعدى الحدود، وها قد أنذرناكم بهذا، وفيه الكفاية لك. والسلام على من اتبع الهدى. في سنة ١٣٠٨هـ.

وقد رد منليك على التعايشي بتاريخ ١١ يونية سنة ١٨٩٦ بما يلي:

غلب الأسد من طائفة يهوذا منليك الثاني المجعول بإرادة المولى ملك ملوك الأيتيوبية، إلى جناب الخليفة عبد الله بن محمد، بعد مزيد السلام، كيف حالتكم؟ أما أنا فأشكر الله بخير وعافية، وأخبركم أني بعد حصول المحاربة بيننا وبين التليان بناحية مدينة عدوة، غلبتهم بإحسان الباري وعدت إلى مدينتي المحروسة بخير وسلام، وأما باقي الكلام الذي أريد أن أبلغه إياكم، فالرسول الواصل صحبة هذا، وهو الحاج أحمد يخبركم به شفاهًا ودمتم. كتب بمدينة أديس أبابا في سنة ١٨٨٨ حبشية ٢٩ ذي الحجة سنة ١٣١٣هـ/١١ يونية سنة ١٨٩٦م.

وقد أرسل التعايشي إليه خطابًا قال فيه:

إن ما أردته من انعقاد الصلح بيننا وبينكم فليكن بعلمك أننا لا نريد دخول أحد من الأوربيين في أي جهة من جهاتنا الإسلامية، لا بحرفة البيع والشراء ولا بصفة السياحة، وليس بينا وبينهم إلا الحرب، فإن كنت أنت كذلك ومنعت جميع الأوربيين من الدخول في بلدك إلا بالحرب بحيث لا يكن بينك وبينهم إلا بالحرب، وعلى هذا الشرط ينعقد الصلح بيننا وبينكم ٦ ربيع سنة ١٣١٤هـ/ ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦م.

وحمل هذا الكتاب سفير التعايشي محمد عثمان، وقد طلب التعايشي من منليك تأديب ود تور الجوري في جبال فازوغلي؛ لأنه عصاه، فأدبه منليك وملك بلاده.

معاهدة

روى لنا أحد علماء السودان الرواية التالية:

في سنة ١٨٩٧ أُبرمت معاهدة بين منليك وإمبراطور الحبشة وبين الخليفة عبد الله التعايشي، وبمقتضاها نزلت الحبشة عن أراضي حبشية متاخمة للسودان إلى حكومة الخليفة، وقد حدث أن نسخة المعاهدة سُلِّمت إلى المغفور له الشيخ أبي القاسم هاشم شيخ علماء السودان، وكان قبل ذلك كاتم السر للخليفة عبد الله، وسُرقت ورقة المعاهدة من الشيخ أبي القاسم، ولما طلبها الخليفة عبد الله أجابه بأنها مفقودة، وكان ذلك يوم أحد، فأمهله إلى يوم الخميس التالي، وتوعده بالقتل إذا لم يحضرها إليه في اليوم المحدد، فمضى الشيخ أبو القاسم إلى باب، أي «ديوان»، شيخ الدين، وهو الابن الأكبر للخليفة عبد الله، حيث اجتمع أبو القاسم بشقيقه الشيخ الطيب أحمد هاشم، وخرج معه إلى بيته، وأخبره بوعيد الخليفة، واتفقا على الابتهال إلى الله — تعالى — أن يلهمهما أين توجد الورقة المسروقة.

ومضيا في ذكر الله حتى كان مساء يوم الأربعاء، فأغفى الشيخ الطيب، ورأى في غفوته كيف أخذ السارق الورقة، ومن هو، وأن الورقة مودوعة الآن جوف كتاب في دار السارق، فتوجه في الحال إلى ذلك المنزل، واسترد الورقة في غفلة منه، وعاد إلى الشيخ أبي القاسم وسلمها له، وقد تعاهد الشيخ أبو القاسم والشيخ الطيب بعدم البوح باسم السارق؛ خشية أن يصيبه عذاب أليم وهلاك محقق من التعايشي، وتوجه الشيخ أبو القاسم ومعه الورقة في صباح الخميس إلى الخليفة عبد الله ومعه ورقة المعاهدة، وقد حاول الخليفة أن ينتزع منه بيانًا عن كيفية الحصول على الورقة، فأصر الشيخ أبو القاسم على أنه وجدها بين أوراقه الخاصة.

أما السارق فقد أدرك بعد خروج الشيخ الطيب أنه أخذ الورقة من الكتاب وسلمها للشيخ أبي القاسم، فخشي العاقبة وأدناها هلاك محقق من الخليفة، ولبث حائرًا مذعورًا ثلاثة أيام حتى ضمر وهزل، وتوجه إلى الشيخ أبي القاسم وكاشفه بشعوره، وقال له إنه يعرف العاقبة ويريد أن ينزل به المكروه المنتظر حالًا، فأصر الشيخ أبو القاسم على أن الورقة كانت بين أوراقه، وأنه لم يأخذها من دار السارق، فلم يسع السارق — وكان خصمًا منافسًا كائدًا للشيخ أبي القاسم — إلا أن يقرَّ بنبل

فضيلته وكرم أرومته، وأدرك أن إخفاء الحقيقة مقصود به إنقاذه من الهلاك، وقد أوصى الشيخ أبو القاسم أولاده بكتمان اسم السارق أبد الآبدين.

أما الورقة فقد ظلت في دار الشيخ أبي القاسم حتى قبيل استعادة السودان على يد كتشنر باشا في واقعة أم درمان، فأمر الخليفة بإحراقها فأحرقت.

بين التعايشي ومشايخ السودان

عند تولية التعايشي كتب إلى مشايخ السودان كافة بالحضور إلى أم درمان؛ لتجديد البيعة عليه، والتبرك بزيارة قبر المهدي، وقد نكَّل بالممتنعين، مثل: صالح الكباشي وأهله الكبابيش، ومادبو شيخ الرزيقات، وعوض الكريم باشا أبي سن شيخ الشكرية، الذي امتنع أولًا عن إجابة دعوة المهدي، ثم أُحضر بعد سقوط الخرطوم إلى أم درمان وعفا عنه المهدي، ولكن أبا سن لم يجب دعوة الخليفة، فسجنه ومات قهرًا، ونكَّل التعايشي بالشكرية، وقتل محمد البشير علي طه بن جن شيخ الحمدة، وسجن محمود ود زايد شيخ الضباينة، ثم عفا عنه، وشنق إبراهيم ود عدلان أمين بيت المال.

قاضي الإسلام

أحمد ود جبارة أول قاضٍ للإسلام في المهدية، وقُتل في الأبيض، فخلفه ود حلاب، ثم أحمد علي، الذي سجنه التعايشي سنة ١٨٩٤، ومات مسجونًا، وخَلَفَه سليمان الحجاز من بربر، ثم الحسين الزهرة الذي سجن سنة ١٨٩٥.

الأسرى

كان رجال المهدية يسمون المسلمين المصريين الأسرى «أولاد الريف»، والنصارى الذين أسلموا «المسلمانية».

وقد انتفع المهدي وخليفته بمعارف المصريين والمسلمانيين الفنية والحربية والكتابية، مع دوام مراقبتهم والحذر منهم.

مؤامرة

وقع خلاف بين التعايشي والخليفة شريف وأقارب المهدي، وظن التعايشي أنهم يؤلِّبون مؤامرة لاغتياله، فسجن الخليفة محمد شريف مكبلًا بالحديد بعد الحكم عليه من الخليفة ود الحلو والقضاة، ثم توسَّط آل المهدي فأفرج التعايشي عن محمد شريف.

المجاعة

حدثت مجاعة سنة ١٣٠٦ وسنة ١٨٨٨م؛ لعدم نزول مطر كافٍ، ولغارة الجراد، وانتشرت الأمراض على النيل والسودان الشرقي والغربي، ما عدا فاشودة التي أرسلت الحبوب فخففت المجاعة، وأدرك التعايشي أن الاهتمام بالزراعة واجب.

في عهد المهدية

ألغيت الضرائب، وجُمعت الزكاة والعشور والغنائم في بيت المال العام بأم درمان، وأقام التعايشي عاملًا على كل عمالة، ولكل عمالة بيت مال خاص، وللعامل وكيل، ومعه قاضٍ، ونائب قاضٍ، وكتاب.

(٧) غزوة عبد الرحمن النجومي لمصر

كان من خطة المهدي وخليفته عبد الله التعايشي فتح مصر، وقد زاد اهتمام الخليفة بهذا الفتح بعد أن أصبح السودان كله خاضعًا لحكمه، فكاتب رؤساء القبائل والعشائر في الصعيد، واستنفرهم للاشتراك في فتح مصر.

وقبل أن يتقدم الجيش الكبير الذي سار من دنقلة إلى فتح مصر بقيادة عبد الرحمن النجومي، وقعت مناوشات في شمال السودان لتبديد شمل الحاميات المصرية.

جَلَتْ الجنود الإنجليزية التي كانت مشتركة مع الجيش المصري في حماية الحدود من مصر والسودان، واشتغل الجيش المصري وحده بقيادة سرداره غرانفيل باشا بعبء المحافظة على الحدود.

كان عبد الرحمن النجومي عاملًا على دنقلة، وكان «قيدوم» من أهل التعايشي وكيلًا له، وفي سنة ١٨٨٥ خرَّب محمد الخير سكة الحديد بين عكاشة وسرس، ثم

أرسل النجومي مقدمة جيش برياسة النور الكنزي، فخرَّب السكة الحديدية بين سرس وعبكة في نوفمبر سنة ١٨٨٥.

وقد انتصر شرمسيد باشا قومندان حلفا في ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٧ على النور الكنزي في واقعة سرس، ولكن النجومي أرسل عبد الحليم مساعد مع جيش احتل سرس.

وقد أنشأ السردار سنة ١٨٨٥ نقطة من العبابدة المليكاب في آبار المرات برياسة صالح خليفه بك، لتكون في صدر بوغار أبي حمد.

كانت حملة الدراويش في سرس تواصل الغزو، فغزت أرمنة والتوفيقية وطابية خور موسى ودبيرة وسرا الغرب، ثم تقدم النجومي بجيش كبير بلغ نحو ١٥ ألفًا، ومعه النساء، و١٤ مدفعًا والبنادق والرماح والجياد والإبل والغلال والتمر، فوصل معتوقة في ٢٨ يونية سنة ١٨٨٩، وكشف حلفا، حيث قسَّم جيشه إلى ثلاثة أقسام، ووصل قبالة البلينة جنوبي هيكل أبي سمبل.

وحشد السردار غرانفيل باشا الجنود، ووصل إلى البلينة، وكتب النجومي يدعوه إلى التسليم، فأبى وحشد السردار الجيش من أسوان إلى توشكى، وكان رؤساء الجيش ضباطًا إنجليز، بينهم كتشنر باشا وونجت بك «باشا».

وتوشكى بلدة مستطيلة على غربي النيل، على بعد ٦٠ ميلًا من حلفا، وبها نخيل، ومن ورائها سهل رملي تتخلله الآكام والصخور والجبال، التي وصل النجومي بجيشه إليها ولم يبقَ معه عندئذ إلا ٣٣٠٠ من الرجال، و٣٦٠٠ من النساء والغلمان والأتباع.

ووقعت واقعة توشكى، فانتصر الجيش المصري في ٦ الحجة سنة ١٣٠٦هـ، وأُسر ابن النجومي، وتعلَّم في مصر، وأصبح بكباشي بالبوليس المصري بعد انسحاب الجيش سنة ١٩٢٤، وغنم الجيش الأسرى والرايات والحراب، وقد ضُمَّت الأشلاء ووضعت في قبر، ووضع له أثر سجِّلت فيه الواقعة إلى اليوم.

ومُدَّت الحدود حتى سرس، فاحتلتها الأورطة الثالثة عشرة.

وفي أكتوبر سنة ١٨٨٩ أصدرت الحكومة منشورًا إلى أهل السودان تدعوهم إلى نبذ المهدية، ووزَّعته على يد أسرى توشكى، وفيه:

> بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيد المرسلين، وبعد، فلا يخفى عليكم ما كانت عليه بلادكم السودانية أيام الحكومة الخديوية من رغد

العيش وراحة البال، وما آلت إليه حالتها من الضنك والاضمحلال بأسباب الفتنة المهدوية ... إلخ.

(٨) بعد حملة النجومي

بعد هزيمة النجومي، جعل السودانيون «سواردة» أقصى نقطة لهم شمالًا ثلاث سنوات، وقد وقعت مناوشات، منها: غزوة سرس، وسرا الغرب، وقستل، وحمابي، وأمبقول، وبريس، والمرات، حيث قتل فيها صالح بك محمد خليفة، وخلفه أخوه عبد العظيم، وغزوة الشب وأدندان وسرس القديمة، وكانت هذه الغزوات بين سنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٦.

كسلا

وفشل أحمد فضيل في محاولة دخول كسلا بين مارس وأبريل سنة ١٨٩٦، ورده الإيطاليون إلى القضارف.

تقدم الإيطاليون بإذن الحكومة المصرية، ففتحوا كسلا بقيادة الكولونيل بارتياري، وهرب مساعد قيدوم عاملها من قِبَل الخليفة الذي سبق له عزل أميرها حامد علي، ثم خلَّفه أبا قرجة.

غزوة دقنة لطوكر

فشل عثمان دقنة في الاستيلاء على طوكر سنة ١٨٩٦ في واقعتي سدني وفنك.

في أم درمان

ترك رجال المهدية الخرطوم حتى خربت، واهتموا بعمران أم درمان التي تقع تجاهها على النيل الأبيض، وبنوا ديما، كما كانت عادتهم في بناء الديوم — وهي مساكن خارج المدن — وبنى المهدي جامع الصفيح، وبنى الخليفة بجانبه جامعًا متسعًا — وهو حوش عظيم مربع يحيط به سور وله ثمانية أبواب — بغير سقف، ووضع الحجر الأساسي في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٧، وبني بعد ٧٣ يومًا، وكان الأهالي يؤدون الصلوات

الخمس فيه جماعة، ثم بنى قبة المهدي، وبدأ البناء في ٧ نوفمبر سنة ١٨٨٨، وقد وصفها إسماعيل عبد القادر الكردفاني في قصيدة مطلعها:

سمت قبة المهدي مجدًا وسؤددًا ونيطت بها الجوزاء عقدًا منضدا

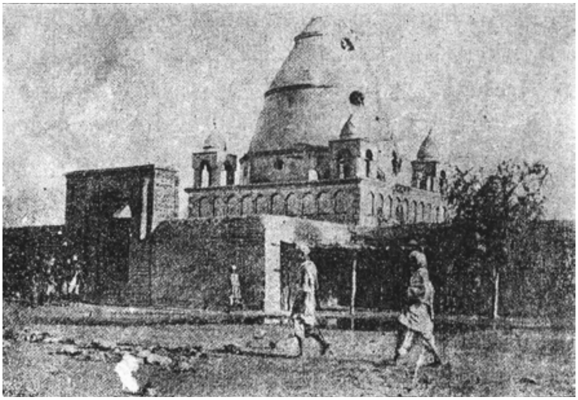

قبة المهدي بعد واقعة أم درمان.

وقد نقش تاريخ القبة على حجر رخام فوق عتبة بابها الجنوبي سنة ١٣٠٦ هجرية.

(٩) المصريون في السودان والثورة المهدية

ذبح أنصار المهدية آلافًا من التجار والمستخدمين المصريين في مدينة الطيارة — أكبر مركز لتجارة الصمغ وريش النعام في مديرية كردفان، وبُقِرت بطون الحبالى، وقذف الأطفال في الجو، وكان الثوار يتلقايونهم على أسنة الرماح، في عهد الفقير المنه زعيم قبائل الجوامع والجمع.

وقد استنكر المهدي هذا العمل، ومات أكثر سكان الأبيض، التي عاش فيها ألوف من المصريين جوعًا في أثناء الحصار ولغلاء الحاجيات — كما تقدم، وقيل إن الناس أكل بعضهم بعضًا، وسبيت الفتيات، وانتحر الكثير منهن ومن أوليائهن.

ونكَّل محمد خالد زقل بك — وكيل مديرية دارة بدارفور، ثم مديرها قبل الثورة المهدية، وابن عم المهدي، الذي أمَّره على دارفور — بالموظفين المصريين، وانتحر الصاغ حمادة أفندي بعد أن ضُرب بالسوط ثلاثة أيام متوالية، وكانت تملأ جروحه بالملح والفلفل لكي يدلَّ على أمواله المخبوءة، ولكنه مات دون أن يفعل مصرًّا على أن المال ماله، وأنه ورثه عن أبيه، وأن المهدي ما كان أخًا له حتى ينازعه تراثه.

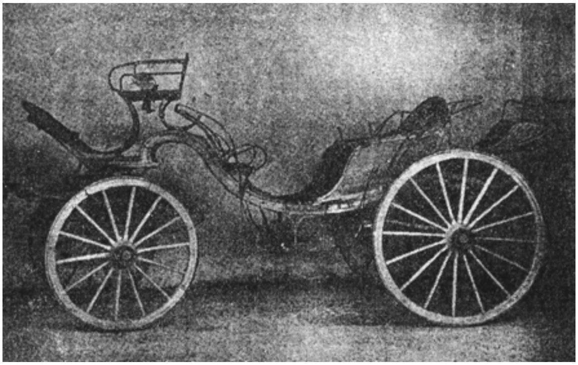

العربة التي كانت عند الخليفة عبد الله التعايشي، وهي من غنائم الخرطوم، ولا تزال في متحف أم درمان.

وذبح أكثر التجار المصريين ووكلائهم في السودان، وسلبت بضائعهم، وكذلك في بربر، وقتل من سكان الخرطوم يوم سقوطها ٢٤ ألفًا، عدا الجيش الذي كان عدده حوالي ثمانية آلاف، وسُبيت ٣٥٠٠٠ فتاة وسيدة، ولم يبقَ من سكان حامية كسلا وأسرهم يوم سقوطها إلا ٤٨٠٠ شخص، في حين أن عددها كان ٥٠ ألفًا، ولم يبقَ من سكان مدينة سنار — وكان يسكنها كثرة من المصريين — غير ثلاثة آلاف شخص يوم سقوطها.

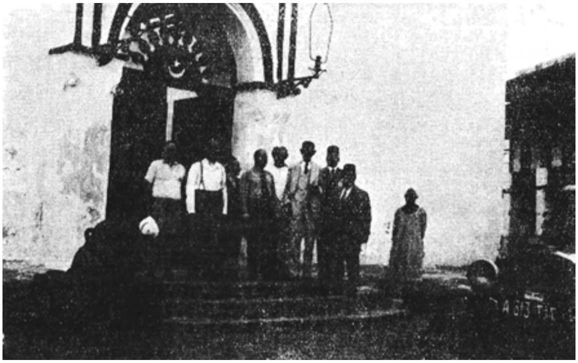

دار محافظة سواكن، وكان بها كتشنر باشا محافظًا لها في عهد الثورة المهدية، ويُرى أمامها لفيف من أعضاء البعثة المصرية في السودان سنة ١٩٣٥.

ومات في سقوط كسلا اللواء أحمد عفت باشا، والسنجق حسن سليمان بك، وأحمد شوقي بك معاون المديرية، وفي سقوط سنار اللواء حسن صادق باشا، والقائمقام حسن عثمان الكريتلي بك، وأحمد مكوار بك وكيل المديرية، وفي سقوط خط الاستواء الأميرالاي سليم مطر بك، والقائمقامان حامد محمد بك، وفضل المولى بك، والبكباشية مرجان وعبد الوهاب طلعت، وعلي جبور، وبخيت وسالم خلاف، وفي الأَسْر صالح الملك باشا، وفرج الله باشا.

وقدَّر غوردون في إحصائه أن عدد المصريين في السودان قبل سقوط الخرطوم كان يبلغ ٢٠٠ ألف، وبعد فاة المهدي أمر الخليفة التعايشي بأن يجتمع المصريون في صعيد واحد، فبلغ عددهم — عندئذ — خمسة آلاف من الرجال، وكان يسميهم «فضلة سيف المهدي».

وقد وقعت مجاعة في عهد التعايشي «١٨٨٨–١٨٨٩»، وفتكت بمئات الألوف من أهل السودان والمصريين فيه.

ومات من الضباط العظام بالجيش المصري، من مصريين وسودانيين، راشد أيمن بك في واقعة راشد بك، ويوسف الشلالي باشا، والقائمقام محمد عثمان بك، والبكباشي حسن رفقي في واقعة الشلالي، والقائمقام علي لطفي بك في واقعة علي لطفي بك، واللواء محمد سعيد باشا، والميرالاي علي شريف بك، والبكباشية محمد الفولي، وباشا حماد

ومحمود حسن، ونظيم، ومحمد يسن بك ناظر قسم كردفان عند سقوط الأبيض، واللواء علاء الدين باشا، واللواء حسين مظهر باشا، والأميرالايات البكوات سليم عوني، والسيد عبد القادر، وحسين فهمي، وعباس وهبي، ورجب صديق، والسنجقات البكوات عبد العزيز يحيى كامل، وخير الدين. «والسنجق رتبة كانت أعلى من رتبة البكباشي، وأقل من رتبة القائمقام، وقد ألغيت»، والدكتور جورجي بك حكيمباشي الحملة المصرية.

منظر لقرية من قرى الشلك.

وفي وقائع دارفور قُتل البكباشية شرف الدين، وعلي الطوبجي، ومحمد فرج، وفي وقائع سنكات وطوكر وسواكن قتل الأميرالاي عبد الرزاق نظمي بك، والقائمقام محمد توفيق المصري بك، والبكباشية محمود خليل، ومحمد فهمي المصري، وكاظم، وفي وقائع حصار الخرطوم وأم درمان وسقوطهما اللواءات محمد علي حسين باشا، وموسى شوقي باشا، وفرج الزيني باشا، والأميراليان بخيت بطراكي بك، ومحمد القباني بك، والقائمقامية البكوات سلطان عبد الله، ومحمد الملك، وعثمان حشمت، وفرج صالح، والسيد أمين، وسرور بهجت، ويوسف عفت، وحسين القباني، وأحمد أبو القاسم، وعبد الله العبد، وعبد القادر حسن، وحسن العقاد، ومصطفى عصمت، ومحمد إسلام، وإبراهيم لبيب، وأحمد عبد الوهاب، والسناجقة البكوات متولي، وعلي، وميتو، وعبد

الهادي، ومحمد كرسي، ومحمد قرضية، ومحمد السنجق، ونصر وبشير خشم الموس، ومحمد نعمان، والبكباشية إبراهيم سودان، ومنصور عبد العال، ومحمد عثمان، وأحمد حماية، ومحمد دسوقي، وحسين محمد، وعلي صقر، وسليمان النشار، وحسن فؤاد، ومن كبار الموظفين محمد حسن باشا مأمور المالية، والشيخ محمد حتيك قاضي القضاة، والشيخ شاكر الرئيس مفتي السودان، وعصمت بك مدير التلغراف، وإبراهيم رشدي بك سكرتير غوردون، وقرياقص القمص بك باشكاتب الخرطوم، ومحمد إبراهيم بك، والشيخ محمد موسى مفتي المحاكم الشرعية، والشيخ محمد السقا شيخ القراء، والشيخ حسين المجدي رئيس أساتذة المدرسة الأميرية بالخرطوم، والسيد فايد شيخ السجادة الأحمدية، وأحمد جلاب بك مدير الخرطوم، ومحمد عطية بك صراف الخزينة.

أمين باشا في خط الاستواء

حضر اثنان أحدهما ينكر الألماني والكبتن كازاتي الإيطالي، لمساعدة أمين بك «باشا» مدير خط الاستواء عند قيام الثورة المهدية، وقد تبرع الرحالة الشهير المستر ستانلي بحملة من مصر إلى زنجبار، إلى الكونغو، إلى بحيرة ألبرت، فوصل إليها في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٧م، وقد التقى استانلي بأمين بك في نسابي في ٢٩ أبريل سنة ١٨٨٨م، وتسلم أمين بك من استانلي أمرًا عاليًا بتوقيع الخديوي توفيق بترقيته إلى رتبة اللواء وترقية ضباطه.

وقد هاجم عمر صالح خط الاستواء سنة ١٨٨٨م، وسجن أمين باشا ثم أفرج عنه.

وقد عاد إلى زنجبار وترك خدمة الحكومة المصرية وقتل.

(١٠) سقوط الخرطوم ورأي الإنجليز في الموقف

خَلُص لنا من مطالعتنا الكثيرة عن موقف الإنجليز في السودان، أن الحكومة الإنجليزية — في لندن — عند الثورة المهدية، لم تتوقع النتائج التي أدت إليها، وأنها افترضت أن انسحاب الحكام والجيش المصري من السودان سيترتب عليه أن ينقسم السودان إلى إمارات أو ممالك وسلطنات صغيرة، كلٌّ منها يدَّعي استقلالًا، ولكن الذي حدث هو أن المهدي انتصر انتصارًا شاملًا، وأصبح السودان في قبضة يده وطوع بنانه ورهن

إشارته، وأضحى المهدي يهدد مصر والبلاد المجاورة، بل يهدد الاستعمار الإنجليزي في إفريقيا.

لم يصل نبأ سقوط الخرطوم إلى مصر والعالم في حينه؛ لانقطاع المواصلات، وقيل إن القاهرة لم تعلم بسقوط الخرطوم إلا بعد شهر منه.

تقرير سير شارلس ولسون[٢]

نشرت جريدة «الأهرام» بعددها الصادر بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٨٥ تقريرًا رفعه السير شارلس ولسن إلى اللورد هرتنتون بواسطة اللورد ولسلي، بحوادث التجريدة التي سيَّرها تحت إمرته إلى الخرطوم، وهذا نص التقرير:

> سيدي، أقلعت بعض السفن من الخرطوم فبلغت قوبات في ٢١ يناير؛ إذ كنا نناوش الثائرين القتال بجوار المطعمة، فتربص ربَّانها فيها ريثما أرفضت المعمعة، ثم جاء إليَّ بين الساعة الثالثة والرابعة فناولني ودائع سلمها له الجنرال غوردون، ففضضت أختامها، وإذا هي كُتب من خطِّه، فقرأتها وصممت في الحال على أن أتوجه إلى الخرطوم لو لم أجد بواعث عديدة حملتني على تأخير ذلك، ولكن لا يخفى محيط علمكم أنني لو سافرت في صبيحة ٢٢ الشهر المذكور، وقطعت المسافة بمعدل ما قطعتها، لَمَا تمكَّنت من الوصول إلى الخرطوم قبل ظهيرة ٢٦ منه، أي بعد سقوطها في أيدي الثائرين بيوم، فإذا ما تبيَّن ذلك أبتدأ الآن بإثبات تلك الأسباب التي دعت إلى تأخيري عن السفر، وهي:
>
> **أولًا:** لضعف قوتنا الناشئ عن كثرة قتلانا وجرحانا، ولأن قاسم الموس ربَّان السفن المذكورة أنبأني بأنه رأى وهو مقبل نحونا القائد فقي مصطفى زاحف بقوة عظيمة نحونا، فاستنبأتُه عن موعد وصولها إلينا، فقال إنها ربما تصل في الغد «أي ٢٢ يناير»، فصرفت يوم ٢١ منه في التهيؤ والاستعداد، ثم سرت في صبيحة اليوم التالي بشرذمة قليلة، فتقدمت بها

[٢] راجع الفصل السابع والعشرون من هذا الجزء.

على ضفة النيل حتى بلغت شندى، كل ذلك لأرى ما إذا كان نبأ الربَّان صحيحًا.

ثانيًا: لأن الجنرال غوردون[٣] ألحَّ في كتابه بأن نتخذ قيادة السفن بأنفسنا، وإلا فنعيدها إليه بعد أن نُنزل منها جميع الباشاوات والبكاوات، وكل رجل كان مصري النزعة أو تركيًّا، فوالحالة هذه اعتمدنا بادئ بدء على تجهيز تلك السفن بالفرقة البحرية، على أن أعباء اللورد شارلس برسفورد وفقدان عدد عظيم من تلك الفرقة حالا دون تتميم خطتنا، فرأينا حالتئذ أن ننتخب من السفن الأربعة الضباط والعساكر السودانية، وننقلها إلى السفينتين اللتين رأينا أن نسير بهما إلى الخرطوم، وهذا ما أعاقني عن تأخير سفري إلى ٢٣ من الشهر المرقوم.

ثالثًا: لأني رأيت السفن في حالة رثَّة، فاقتضى أن أصلحتها بقدر الطاقة، وأعددتها بحيث تقوى على احتمال ضربات المدافع التي توقعت سقوطها علينا متى وصلنا إلى أم درمان، التي وقعت في أيدي الثائرين قبل سقوط الخرطوم بزمن مديد.

تلك هي أهم الأسباب التى دعتني إلى تأخير سفري إلى الخرطوم، فترونَ بعد التروي والفحص أني كنت محقًّا في عدم السفر حالًا، وترون أيضًا أنني لو كنت سافرت في اليوم الذي تناولت فيه كتب الجنرال غوردون لَمَا قدرت على إنقاذ المدينة؛ إذ هي قد سقطت في أيدي الثائرين في ٢٥ يناير.

التوقيع: شارلس ولسون

[٣] كان غوردون لا يثق بالمصريين، وكان يفضل الأوربيين عليهم، وقد ذكر استانلي لين بول «أن غوردون مع صفاته العظيمة، كان سريع الغضب، ولم يكن له حكم هادئ ومتزن على الأشياء، وكان رئيسًا يصعب اتباعه.»

(١١) وثائق رسمية

قالت «الأهرام» أيضًا في عددها الصادر بتاريخ ١٣ يونيو سنة ١٨٨٥ إن الحكومة الإنكليزية نشرت الأوراق البرلمانية التي تحتوي على مكاتبات تبودلت بشأن بعض موانٍ في البحر الأحمر وخليج عدن ومقاطعة هرر، وهذه المكاتبات تشتمل على ١٤٨ رسالة، الأولى من هذه الرسائل بتاريخ غرة يناير سنة ١٨٨٤، وآخرها بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٨٨٥، وملخص هذه الرسائل أن الحامية المصرية كانت في أوائل سنة ١٨٨٤ تحتل المواني والمقاطعة المومى إليها، وقد اقترحت الحكومة المصرية أن تجلي حاميتها عن مقاطعة هرر لتبيُّنها أن الدارعات الإنكليزية كانت تقوى على حماية البحر الأحمر دون هذه المقاطعة؛ لبعدها عن البحر، وخشية هجوم القبائل المجاورة، خصوصًا قبيلة الصومال وملك شوا، فاستشارت الحكومة الإنكليزية في الأمر فأجابتها بالقبول، وقد مارست الحكومة المصرية إجلاء الحملة، وأرسل الماجور هنتر «باشا» رسائل كثيرة تتضمن آراءه في هذا الجلاء الذي كان قائمًا بإنجازه الماجور هيث والمستر بيتون.

هنتر باشا.

وفي أثناء ذلك أبدت الحكومة المصرية ارتياحها إلى التخلي عن المواني الأخرى الواقعة على البحر الأحمر وفي خليج عدن، وعن زيلع وبربرة، وأخذت في سحب جنودها منها، وقد ساعدتها الحكومة في عدن على تتمة ذلك، ثم أرسل إلى الماجور هنتر تعليمات تؤذنه بإبرام عهدات مع القبائل المختلفة.

وفي جملة هذه الأوراق كتابات أخرى واردة إلى الحكومة الإنجليزية من حكومات فرنسا وإيطاليا وتركيا، تحتوي على مخابرات تبودلت في أمر احتلال المواني المذكورة بعد تخلي الحاميات المصرية عنها، وأثبت اللورد فيتز موريس لدى مجلس العموم في ٣ مارس سنة ١٨٨٤ أنه قد بلغ حكومته نبأ يشفُّ عن ابتغاء فرنسا لابوخ، وحينما بلغ المسيو وادنكتون قول اللورد فيتز موريس، بادر فأرسل كتابًا إلى اللورد غرانفيل يدحض فيه هذا النبأ، وبيَّن فيه أن «لابوخ» لم تكن مبتغاة فرنسا، وإنما هي ملك لها من قديم الزمان، فأرسل إليه اللورد رسالة أبدى فيها عدم رغبته في إقامة مناقشات وصعوبات في صدد تملُّك فرنسا لابوخ المذكورة.

وفي خلال تلك السنة حدث أن فرنسا ضربت أعلامها فوق صروح رأس علي وانجر وساغالوا، حتى تاجورة التي اضطرت الحاميات المصرية إلى الجلاء عنها بعلة مضايقة قبيلة الدناقيل «الدناقلة» لها، وفي ١١ يناير من تلك السنة أرسل السير بارنج إلى اللورد غرانفيل كتابًا يذكر له فيه أن قنصل فرنسا في عدن أبلغ المستر بلار أمير اللواء الإنكليزي أن فرنسا وضعت حمايتها على السواحل المتوسطة بين رأس علي حويت خراب.

ويلوح من الأوراق البرلمانية أيضًا أن الحكومة الإنكليزية أرادت بادئ ذي بدء أن تحيل مسألة احتلال سواحل البحر الأحمر إلى الدولة العثمانية، فتحتلها بعد انجلاء الحاميات المصرية عنها، فأرسلت إلى الدولة العثمانية — بواسطة اللورد دوفرين سفير إنجلترا في الأستانة وقتئذ — كتابًا تقترح عليها فيه ذلك، ومضت مدة خمسة عشر يومًا ولم يرِدْ الردُّ، فعاد اللورد غرانفيل فكتب إلى اللورد دوفرين رسالة ذكر فيها أنه قد وقع القرار على ترك مقاطعة هرر، وانجلاء الحامية المصرية عنها، وأن في النية إعادة المصريين من سائر السواحل التي احتلوها إلى الآن، وهي الممتدة من مضيق باب المندب إلى رأس حافون، بما فيه مواني تاجورة وزيلع وبربرة، فإذا شاء الباب العالي أن يوطِّد سيادته السابقة لسيادة مصر على تاجورة وزيلع فالحكومة الإنكليزية تعترف له بهذه السيادة، على شريطة أن يعمل فيها على منع الاتجار بالرقيق، ويتعهَّد بأن لا ينزل أي

قسم منها لأية دولة كانت، ولا يضرب رسومًا على تلك المواني المذكورة في الوفاق المبرم سنة ١٨٧٧ بين الحكومة المصرية وحكومة الملكة.

فأبلغ اللورد دفرين هذه الرسالة إلى الباب العالي، واستحثَّه على الرد، ولمَّا لم يرَ فائدة من حثِّه، أرسل إلى اللورد غرانفيل رسالة قال فيها: «إنني قدمت رسالتكم إلى وزير الخارجية في الأستانة، وأطلعته على فحواها، فوعدني بادئ ذي بدء بالإجابة عنها حالًا، فأعدتُ عليه السؤال يومًا بعد آخر، فكان يماطلني مقدِّمًا لي في كل حين أعذارًا جديدة.»

ومضت على هذه الحال أيام حدث في أثنائها أن أُرسلت عساكر من عدن احتلت هرر، وعزمتْ الحكومة الإيطالية على إرسال تجريدة من قوتها إلى البحر الأحمر، فما كان من الباب العالي — حينئذ — إلا أنه ادَّعى السيادة المطلقة على سواحل البحر الأحمر طرًّا، وبنى ادعاءه على شروط وفاق أُبرم في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧.

وختمت الأوراق البرلمانية المومى إليها برسالة بعثها اللورد غرانفيل إلى السير بارنج في ٦ فبراير، وضمَّنها ما يأتي:

> يرى اللورد كمبرلي أن يعهد تدبير وسياسة الساحل الممتد من رأس حافون إلى زيلع إلى حكومة الهند، فتنظر في جميع مسائلها، وتقضي بها حسبما شاءت ورأت، وأن تمد مراقبتها حتى زيلع نفسها، اللهم إلا إذا لم يقبل الباب العالي إعادة سيادته عليها طبقًا للمطالب التي اقترحتها عليه الحكومة الإنكليزية.
>
> بيد أنه «أي اللورد كمبرلي»، يرى عدم وجود امتداد مسئولية الحكومة الهندية إلى ما وراء زيلع وأن تكون جميع المسائل المتعلقة بالسواحل الواقعة بين زيلع وباب المندب والمرتبطة بأراضي هرر متعلقة بنظارة الخارجية بلندن. أما أنا فصدَّقت على هذه الآراء وسأبعث بها إلى الحكومة الهندية بالتعليمات اللازمة بشأنها.
>
> التوقيع: غرانفيل

ومن بين الأوراق البرلمانية التي نشرتها الحكومة الإنكليزية في ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ رسالة هامة بآراء اللورد ولسلي في الانجلاء عن السودان، وتاريخها ١٦ أبريل سنة ١٨٨٥، جاء فيها ما يلي:

ولا خفاء أن المهدي نال نفوذه بواسطتين اثنتين؛ أولاهما: نجاح رجاله في الحروب، واستيلاؤه على مواقع مهمة كالخرطوم وبربر، وبهذه الواسطة كان تقدمه بطيئًا، واتخذ لنفسه عادة هي أن يقف بعد افتتاحه مدينة ما، هنيهة دون أن يخطو إلى الأمام خطوة. والأخرى: إنفاذه الرسل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر فيبثُّون أخبار نجاحه بين الأهلين، ويحثُّونهم على الجهاد ضد الجميع، وهكذا يبثُّون روح البغضاء والكره للأحوال الحاضرة، ويستميلون القبائل إلى الانحياز للمهدي. وفيما أرى أن هؤلاء الرسل لا يمكن درء مخاطرهم بالوسائط الدفاعية، وليس من وسيلة لملاشاة تأثيراتهم إلا باقتلاع الجرثومة التي يتناولون منها نفوذهم، أي بتبديد شمل المهدي، وشق عصا أعوانه، أجل، إن هؤلاء الرسل هم الذين أثاروا أهالي وادي النيل من حد بربر إلى هندوب، واستمالوهم إلى طاعة المهدي، مع أنه لم يتقدم بنفسه إلى أبعد من أم درمان.

إلى أن قال: «وخلاصة ما ذكر أن محاربة المهدي لا بد أن تقوم قيامتها إن عاجلًا أو آجلا. أما نحن فيمكننا أن نقوم بها الآن ونسحقها، ويمكننا أيضًا أن نضحي بكل ما اكتسبناه من الشرف العسكري بالمشاق والأتعاب، وبكل ما أرقناه من الدماء وبذلناه من الأموال في الحملة الماضية، وأن يذهب أدراج الرياح وتؤجل الحرب الفاصلة إلى بضع سنين، ولكن لا يخفى أن هذه السنين ستكون سني قلاقل واضطراب لمصر، وحملًا ثقيلًا على عسكريتنا، وأن الحرب التي سنقوم بها أخيرًا لا تكون أقل ضنكًا من الحرب التي هي أمامنا في الوقت الحاضر؛ ذلك لعمر الحق كل ما سنكتسبه من سياسة الدفاع عن القطر المصري.

من وزير الخارجية الإنجليزية إلى القنصل فيفيان

في قسم المحفوظات بوزارة الخارجية بإنجلترا وثائق تحمل تعليمات وزارة الخارجية بلندن إلى قنصلها بمصر «فيفيان»، ويتبيَّن منها أنه قدمت شكاوى إلى الحكومة الإنجليزية من جمعية تبشيرية وجمعيات منع الرقيق، وأنه في ٢٩ مارس سنة ١٨٧٧ أرسل وزير الخارجية إلى فيفيان كتابًا، أرسل معه الشكاوى المشار إليها، وسأل

القنصل أن يبلغه هل صحيح ما يقال من أن الخديوي «إسماعيل» يريد ضم أقاليم إفريقيا الوسطى حوالي بحيرة فيكتوريا وبحيرة ألبرت، وقد رد عليه القنصل في ٩ أبريل سنة ١٨٧٧ بمذكرة مسهبة، قال فيها إنه قابل غوردون فأبلغه أن الملك كاباريكا ملك أونيورو قد خضع لمصر، وضُمَّت مملكته إليها على يد «بيكر»، ولكن الملك أمتيسة ضم بعض بلاد أونيورو إلى مملكته، وأن التعليمات الصادرة من مصر إلى غوردون تقضي بأن يصل إلى بحيرة فيكتوريا، ومن رأيه الاعتراف باستقلال أمتيسة ومجيدة هذه البحيرة.

وثائق عن حكم محمد علي في السودان[٤]

في دار المحفوظات بالقلعة، وفي دور المحفوظات الرسمية للحكومات الإنجليزية والفرنسية والتركية وغيرها، وثائق رسمية هامة تتعلق بعهد محمد علي، واهتمامه بإنشاء إمبراطورية إفريقيا تشمل السودان والحبشة وأعالي النيل وطرابلس والغرب والجزائر، فضلًا عمَّا لمحمد علي من توسيع ملكه وزيادة نفوذه في سوريا والأناضول، والاشتراك مع الباب العالي في حرب اليونان وفي الحرب الوهابية.

وقد نشر الدكتور محمد صبري في كتابه «الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي» بالفرنسية طبعة ١٩٣٠ — باريس — جانبًا من هذه الوثائق، ويؤخذ مما نشره من وثائق مصرية، ومما نشرته الجمعية الجغرافية الملكية من وثائق فرنسية، وما نشره دريولت في كتابه «محمد علي ونابليون ١٨٠٧–١٨١٤»، وكتابه «تأليف إمبراطورية محمد علي من البلاد العربية إلى السودان ١٨١٤–١٨٢٣»، ومسيو كايو في كتابه «رحلة إلى مروى»، ومؤلفين آخرين أسماؤهم ومؤلفاتهم مدونة في باب المراجع، أن محمد علي قد أراد أن يتخلص من عساكره الألبانيين والترك، الذين لم يقبلوا النظام العسكري الجديد، فأراد أن ينتفع بهم في فتح السودان وأعالي النيل في إنشاء الإمبراطورية الإفريقية، وفي تجنيد ألوف العبيد، لِمَا عرفوا به من الطاعة والخضوع والإخلاص، وبذلك يوجِد جيشًا نظاميًّا جديدًا مطيعًا، ولم يكن سكان السودان على حالة يستطيعون معها مقاومة الجيش الغازي، وقد طلب «إسماعيل» بن «محمد علي»

[٤] راجع الفصل الثاني عشر من هذا الجزء.

قائد الحملة عن السودان من «الشايقية» أن يسلموا أسلحتهم وجيادهم، وثار نزاع ترتب عليه قطع أذن بعض العصاة، وكان إسماعيل يدفع ٢٥ قرشًا عن كل زوج من الأذن، وأن محمد علي عندما وصلته الأذن المقطوعة المرسلة من ولده «إسماعيل» بادر بإرسال كتاب[٥] إليه يحذره من سلوك هذا المسلك، بعد أن أبلغه وصول كتابه وتسلم أذن الشايقية، وقال محمد علي: «إن الحكومات جميعًا تعلم أنه بالعدل وحده تملك قلوب السكان، وأنه لكسب مملكة ما، يجب استعمال الحكمة واللباقة وحسن السياسة، ولن تستطيع حكومة ما أن تقوم بمهمتها بنجاح بغير العدل، الذي هو شرط لا غنى عنه لتحقيق كل مطلب عظيم، ولقد كان الأفضل لك أن تستعمل اللين في حمل الشايقية على تسليم جيادهم وأسلحتهم بدلًا من إثارة أحقادهم وحملهم على الثورة.»

وقد ألَّف إسماعيل من الشايقية فرقة من السواري بالجيش المصري. وانتفع إسماعيل من المنافسة القائمة بين الوزير عدلان — من وزراء مملكة الفونج — ومنافسه حسن رجب، الذي قتل عدلان، فانضم أنصاره إلى الجيش المصري، الذي احتل مملكة الفونج، وحضر ملكها الملك بادي بنفسه طائعًا أمام الجيش المصري الذي دخل مدينة سنار في ١٢ يونية سنة ١٨٢١، حيث بقي إسماعيل فيها حتى ٥ ديسمبر.

وكان جيش إبراهيم باشا يقصد غزو دارفور والوصول إلى بلاد قبائل الدنكا، واتجه جيش إسماعيل إلى فازوغلي، واستعمل الجيشان طريق النيل الأبيض للوصول إلى غايتهما، وبحث «إسماعيل» عن مناجم ذهب الكماميل، التي كانت تافهة جدًّا، فاتجه جيشه إلى الغرب فتلاقى مع جيش «إبراهيم باشا» الابن الأكبر لمحمد علي، وكان طريقهما النيل الأبيض، وكان قد وصل جيش محمد الدفتردار بك — صهر محمد علي — إلى الدبة في دنقلة، وتابع سيره حتى وصل إلى بارة في كردفان، وانتصر على جيش الملك مسلم مخدوم.

وقد بلغ عدد قرى مديرية حلفاية وسنار ٣٠٠٠، وفازوغلي ١٠٠٠، وكردفان ١٥٠٠، وترك فتح دارفور — يومئذ — لعدم كفاية الجيش، ولاهتمام محمد علي بحرب المورة والثورات في السلطنة العثمانية، فكانت كتب محمد علي إلى «إبراهيم» تطالبه

[٥] كتاب محمد علي إلى إسماعيل بتاريخ ٩ ربيع الثاني ١٢٣٦هـ و١٨٢١م — محفوظات القلعة.

وتلحُّ عليه بإرسال العبيد، وكان انهماك إسماعيل في فازوغلي، ثم سفر «إبراهيم» إلى مصر، والطرق التي كانت تجمع بها الضرائب،[٦] من أسباب فتنة شندى.

وقد ترك انتقام الدفتردار من حادث قتل إسماعيل في شندى ٣٠٠٠٠ من الضحايا.

وثائق عن عهد إسماعيل

يقول بعض السياسيين الإنجليز[٧] إن السياسة الإنجليزية قد أخطأت خطأً كبيرًا بكونها ظلت حتى سنة ١٨٧٥ لا تحرك ساكنًا في إفريقيا، وأن هذا عدم بُعد نظر من رجال الحكومة الإنجليزية.

ولكنا نرى هذا النقد في غير محله؛ لأن الحكومة البريطانية نجحت النجاح الأكبر في إفريقيا، وقد استفادت من سياسة البطء والتدريج التي سارت عليها في تقسيم إفريقيا ووراثة السلطنة العثمانية في بعض أجزائها.[٨]

لقد نهج «إسماعيل» منهج جده «محمد علي» بإحياء فكرة إنشاء إمبراطورية مصرية مستقلة عن تركيا، ولكن «إسماعيل» قد اضطر أمام معارضة أوربا له في توسيع ملكه واستقلاله، أن يعتمد على المال في تحقيق أغراضه البعيدة، بما دفع للسلطان العثماني ووزرائه والصحف من أموال، وبينما كان نشاط محمد علي ممتدًّا في النواحي جميعًا في إفريقيا، وآسيا، والجزيرة العربية وإلى أوربا «حرب المورة»، وجَّه «إسماعيل» نشاطه، أو اضطر إلى توجيهه إلى إفريقيا، إلى شواطئ البحر الأحمر وكشف منابع النيل، والتوسع جنوبًا.

وقد جعل إسماعيل شعاره كلمة «هيرودوت»: «مصر هبة النيل»، وأدرك أن النيل هو «وحدة مصر الجغرافية والاقتصادية والسياسية»، قال «سيلفا هوايت»:[٩] «إن وحدة

[٦] المعروف أن السودانيين لم يألفوا نظام جمع الضرائب السائد في البلاد المتمدينة، وكانوا يعدونها ارهاقًا ماديًّا وقيدًا للحرية.

[٧] راجع كتاب «تقسيم إفريقيا» تأليف سكوت كيلتي Scott Keltie.

[٨] راجع ص٣٧٧ من كتاب «الإمبراطورية المصرية في عصر إسماعيل» بالفرنسية، تأليف الدكتور محمد صبري.

[٩] راجع كتاب «توسيع مصر» بالإنجليزية — طبعة لندن سنة ١٨٩٩، تأليف مستر سيلفا هوايت.

حوض النيل الكاملة يجب أن تكون هي القاعدة السياسية الوطنية التي توجبها الطبيعة وتمليها المعلومات التاريخية.»

ومما سهل حكم محمد علي ثم حكم إسماعيل للسودان أن الإسلام كان منتشرًا في تلك الجهات وحولها. قال بونيفون في كتابه[١٠] الفرنسي: «ليس في وسع إنسان إلا أن يلحظ أن البلاد التي لم تدخلها المحمدية «الإسلام»، فإن الفتشية «الوثنية» تكون هي المنتشرة بعاداتها الوحشية، فتذبح وتبيد عدوها المهزوم، بينما يَقنَع المسلم بأسر عدوه، وباستخدامه في حاجاته ولمسرَّاته، أما المسيحي فإنه يترك الرجل لأرضه ويرد إليه حريته.»

وثائق حول سياسة غوردون

ومن رسائل غوردون[١١] إلى «بارنج»: «أمَّا عن تملُّك الأسرى فإنه حتى ولو أصبحنا سادة للسودان، فإنه لا يمكننا أن نتدخل في تجارة الرقيق، فلقد سبق لي أن قلت إن معاهدة ١٨٧٧ مستحيلة»، قال غوردون هذا عند مهمته الأخيرة سنة ١٨٨٤، في إخلاء السودان، ولكن الحكومة الإنجليزية لم توافق على رأي غوردون في هذا الصدد، فأبلغت قنصلها في مصر «بارنج» بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٨٨ رفضها العدول من محاربة تجارة الرقيق.

ولم يكن مسيو شايي لونج بك راضيًا عن سياسة غوردون، فقال: «إن إدارته كانت على اضطراب يؤسف له، من وجهة اختيار مرءوسيه، ومن وجهة الرجال الذين كان يعهد إليهم بإدارة ماليته؛ فعندما قدم إلى السودان، وجده في سلام وفي رفاهية تامة، ولكنه عندما تركه سنة ١٨٧٩ تركه مدينًا وعلى شفا الثورة ...»

ويؤخذ من الوثائق المودعة دار المحفوظات بإنجلترا في ٢٩ مارس سنة ١٨٨٧ أن غوردون كان يرى ضمان حيدة بحيرة فيكتوريا واستقلال الملك أمتيسة، وأنه لا يعتقد أن مصر ترفض رأي وزارة الخارجية البريطانية في هذا الصدد.

---

[١٠] إفريقيا السياسية Polititique Bonne Fon. L'Afrique.

[١١] راجع وثائق قسم المحفوظات للخارجية الإنجليزية عن مصر في ٣١ مايو سنة ١٨٧٨، و٩ مارس سنة ١٨٨٤.

وثائق حول سياسة الإنجليز

وقد كتب الرحالة الإنجليزي المشهور جرانت Grant — من كاشفي مجاهل إفريقيا ووسطها — في جريدة «التيمس»، بعددها الصادر في ٣٠ يناير سنة ١٨٧٧، كتابًا جاء فيه: «إن السبب الأصلي في عودة غوردون هو ضم بحيرة فيكتوريا نيانزا، وإنني أحتج بكل قوة على احتلال الخديوي لهذه البحيرة؛ فإن هذا الاحتلال سيكون وخزة في المدنية، وسيزيد الصعوبات التي تواجه محاربة تجارة الرقيق.[١٢]

لقد كان جرانت وأنا كاشفي هذه البحيرة، وقد طاف استانلي حولها.»

في سنة ١٨٨٧ أنشأ مستر فرانسيس فوكس «إنجليزي» شركة كشركات الاستعمار الإنجليزية في جنوب إفريقيا والنيجر وإفريقيا الشرقية، ورغب في إنشاء مصانع في الشمال، وفي جنوب سواكن، وإنشاء سكة حديدية بين سواكن وبربر لفتح السودان لتجارة أوربا.

وقد وصفت جريدة «التيمس» في مقال رئيسي لها في ٣ يونية سنة ١٨٨٧ الثروة الطبيعية في السودان، وألقى الماركيز سالسبوري خطابًا في تأييد إنشاء شركة استعمارية أنشأها سير ويليام ماكنسون سنة ١٨٨٥، وجعل دائرة عملها من تجاه جزيرة بمبا إلى شمال زنزبار إلى بحيرة فيكتوريا نيانزا محاذية الحدود المصرية …

وفي الوثائق المصرية المحفوظة بقصر عابدين مذكرة كتبها إلى الخديوي بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٧٦ رئيس أركان حرب الجيش، عن طريق رئيسه الكولونيل ستون باشا، يقول فيها: «إن مركز الجنرال غوردون — طبقًا للكتب الواردة والأخبار التي وصلت من أوربا عن خطط الإنجليز وغيرهم فيما يتعلق بإفريقيا الوسطى — تدل على خطورة، وعلى وجوب العمل السريع، وأن التأخير قد يترتب عليه زوال السيادة المصرية من أقاليم خط الاستواء»، ونصح بأن تكون بحيرة فيكتوريا بحيرة مصرية كما أصبحت بحيرة ألبرت، وبوجوب إخضاع الملك أمتيسة الذي يضم بلادًا إلى مملكته ويجمع الأسلحة، وقال: «إن أعضاء البعثات التبشيرية يسيرون نحو بحيرة فيكتوريا على باخرة، تؤيدهم الكنيسة، ولا ينقصهم المال أو الموظفين اللازمين.»

[١٢] هذا قول غريب من جرانت مع ما هو مشهود من تضحيات مصر في مكافحة تجارة الرقيق.

وجاء على لسان كاباريكا[١٣] ملك أونيورو أن «بين رجال بعثة بيكر رجل يدعى إسماعيل أغا، استعمل هو ومن معه من الجنود ضروبًا من القسوة لا يسع القلم وصفها.»

وثائق عن تطور السياسية البريطانية

عرض الدكتور محمد عوض في رسالته التي وضعها في سنة ١٩٢٦ لمناسبة اجتماع لجنة المؤتمر الإنجليزي — المصري الذي عقد في لندن في تلك السنة، للبحث في شئون مصر السياسية، إلى كتاب أرسله كبير وزراء بريطانيا العظمى اللورد «بالمرستون» في سنة ١٨٥٧ إلى اللورد «كلارفون» وزير خارجيتها، «وكان الوزير الأول المفوض من قِبل بريطانيا العظمى في مؤتمر باريس المنعقد في سنة ١٨٥٦»، يقول فيه:

> نحن لا نريد أن تكون مصر لنا، إنما نريد أن نتعامل تجاريًّا مع مصر، وأن نسوح بها، ولكننا لا نريد حمل عبء الحكم بمصر، فلنسعَ لرقي هذه البلاد «أي مصر وتونس ومراكش» بما يكون لتجارتنا من النفوذ، ولكن لنجتنب شن حرب صليبية للفتح؛ فإن ذلك يستنزل علينا حكم الإجرام في الأمم المتمدينة.

وكان ذلك ردًّا على اقتراح لنابليون الثالث بأن تأخذ كل من فرنسا وسردينيا وبريطانيا ومراكش وتونس ومصر على الترتيب، وهذا يدل على أن سياسة بريطانيا تتغير، أو أن الإنجليز يكتمون سياستهم حتى ينكشف الموقف الغامض.

وفي سنة ١٨٧٥ لما اشترت الحكومة البريطانية أسهم مصر في شركة قناة السويس، ابتدأت الظنون تحوم حول نيَّات بريطانيا، وتوقَّع الناس تدخُّلها في الشئون المصرية إن عاجلًا أو آجلًا، وفي تلك الأثناء جاءت بعثة المستر «كيف» المالية، فأكَّدت الظنون وقوَّت الشبهات بالرغم من تصريح اللورد «دربي» «وزير خارجية بريطانيا آنئذ» بأن إرسال البعثة المالية إلى مصر يجب أن لا يفهم منه أن هناك أية رغبة في التدخل في شئون

[١٣] راجع كتاب أمين أفندي «باشا»، وهو الدكتور شنيتزر الألماني الذي تسمَّى باسم محمد أمين — بتاريخ ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٨ بمحفوظات قصر عابدين.

مصر الداخلية، ولما وضع المستر «كيف» تقريره عن حالة البلاد المالية، ثم جاء بعده المستر غوسن ووضع هو الآخر تقريرًا مثل تقرير صاحبه، كانت نتيجتهما صدور الأمر العالي بتأليف لجنة المراجعة «التحقيق»، فكانت مبدأ المنافسة بين إنجلترا وفرنسا.

ويقال إنه حينما اشترى «دزرائيلي» من إسماعيل باشا أسهم مصر في شركة القناة بمبلغ أربعة ملايين جنيه إسترليني، لم تكن هذه الأسهم تساوي تلك القيمة في ذاك الوقت.

وقد علَّقت جريدة «التيمس» على ذلك بقولها: «إن الجمهور في هذه البلاد «أي إنجلترا» وفي غيرها سينظر فيما يختص بهذا العمل الهام الذي قامت به الحكومة البريطانية إلى مظهره السياسي أكثر مما ينظر إلى مظهره التجاري، تظاهرًا، بل أكثر من تظاهر، أي تصريحًا بنيات وفاتحة لأعمال تجري وفق النيات، فمن المستحيل حينما نفكر في هذا الأمر أن نفرق بين مشتري أسهم قناة السويس وبين مسألة علاقات إنجلترا بمصر في المستقبل، أو المصير المقدور لمصر من الغيوم التي تلقي ظلًّا قاتمًا على الإمبراطورية التركية … فإذا حصل أن وقعت فتنة أو اعتداء من الخارج، أو فساد داخلي يؤدي إلى انهيار الإمبراطورية التركية سياسيًّا وماليًّا، قد يصبح من الضروري اتخاذ التدابير التي تضمن سلامة ذلك الجزء من ممتلكات السلطان الذي نتصل به أقرب اتصال.»

الفصل التاسع والعشرون

المسألة الحبشية وجارات السودان

يجاور السودان بلاد كثيرة، ومن تمام الكلام عن السودان التحدث عن جاراته؛ فيحده شمالًا مصر — وقد تكلمنا عن علاقتها في السودان في أجزاء كتاب «السودان» الثلاثة — ثم طرابلس الغرب، ومن الغرب واداي التي أصبحت الآن وبعد توزيع المستعمرات الألمانية، جزءًا من «إفريقيا الاستوائية الفرنسية»، وفي الجنوب الكونغو البلجيكية، ومستعمرتي أوغندا الإنجليزية وكينيا الإنجليزية، وفي الشرق إريتريا والحبشة.

ولما كانت المسألة الحبشية من أهم حوادث العالم الحالية، والحرب بينها وبين إيطاليا وشيك الوقوع، فقد أسهبنا الكلام عليها.

(١) طرابلس الغرب

مستعمرة إيطالية، وكانت حتى سنة ١٩١٢ ولاية تحت حكم الأتراك، وتقع في أقصى الشمال بين الأمم العربية الشمالية، وتحد من الغرب بتونس، وفي الجنوب بصحراء ليبيا، وفي الشرق بالقطر المصري، وفي الشمال بالبحر الأبيض المتوسط، وقد وافقت بريطانيا على أن تضم جغبوب وواحة الكفرة إلى طرابلس، وقد قبلت الحكومة المصرية ذلك في مقابل تعديل حدودها عند السلوم، وتبلغ المساحة على وجه التقريب حوالي ٥٠٠ ألف ميل مربع، ويختلف السكان اختلافًا نوعيًّا في الأصل، والتعداد في سنة ١٩٢١ بلغ نحو ٥٥٠٠٠٠ (منهم ٢٠ ألف أوربي) في القسم المسمى طرابلس، أما في القسم الآخر برقة، فبلغ العدد ٢٣٥٠٠٠ (منهم ١٠ آلاف أوربي)، وكل جزء له حاكم ومجلس، والقسم الأول عاصمته طرابلس، والقسم الثاني عاصمته بنغازي.

(٢) واداي من إفريقيا الاستوائية الفرنسية

واداي Waday منطقة تقع في إفريقيا الاستوائية الفرنسية، بين بحيرة شاد ودارفور، وكانت سلطنة وطنية قوية، ولكنها لا تزال نصف مستقلة، وهي بين البداوة والحضارة، وبها واحات خصبة؛ حيث تنمو المحاصيل فيها وفي الجنوب الغابات، وعاصمتها أبو شير، وتبلغ مساحة المنطقة حوالي ١٧٠ ألف ميل مربع، وعدد السكان ١٠٠٠٠٠٠ نفس.

(٣) الكنغو البلجيكي

وصفتها الدول الأوربية كدولة حرة في مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥، وهي مستعمرة بلجيكية كبيرة، ومساحتها تبلغ ٩٠٠ ألف ميل مربع، وتقع بين الكونغو الفرنسي في الشمال الغربي وإفريقيا الغربية البرتغالية في الجنوب الغربي، وروديسيا في الجنوب والجنوب الشرقي، وتنجانيقا وأوغندا في الشرق، والسودان المصري الإنجليزي في الشمال الغربي، والشاطئ يمتد نحو ٣٥ ميلًا شمال مصب نهر الكنغو، وتقترب في الشرق من البحيرات: مويرا، تنجانيقا، إدوارد، والإقليم ليس بجبلي، وتتكاثف أشجار المطاط في الغابات السوداء، ويقطنها حيوانات كثيرة غريبة، ويوجد بها الماس والذهب والنحاس والقصدير، والقبائل مختلفة، وفي بقاع عديدة يعيش الأقزام في الغابات، وتتبع إدارتها حكومة بروكسل، ويحكمها الحاكم العام للمستعمرة، كما أن الكنغو البلجيكي أهم منبع تستمد منه مادتي الراديوم والسكريلت، والسكان حوالي ٨ مليون وخمسمائة ألف (منهم ثمانية آلاف من الأجانب).

(٤) أوغندا

تحت الحماية الإنجليزية، وهي في شرق إفريقيا، وتقع على جانبي خط الاستواء، وتحد من الشمال بالسودان، ومن الشرق بمستعمرة كينيا، وفي الجنوب ببحيرة فيكتوريا ومستعمرة تنجانيقا، وفي الغرب بالكونغو، المساحة ٩٨٧٧٦ ميلًا مربعًا، بما في ذلك ١٥٠١٧ ميلًا مربعًا يشمل بحيرات كيوجا وأجزاء من البحيرات: فيكتوريا، إدوارد، ألبرت، وفي الشمال الأرض منبسطة، ما عدا في الوسط، والجو حار جاف، وسكانها ثلاثة ملايين ومائة وخمسون ألفًا، منهم سبعمائة ألف تابعون لأوغندا، وهم مسيحيون

نبهاء، والباقي سودانيون وقبائل أخرى، بينما بعض الأقزام التابعون للكنغو يعيشون بالقرب من نهر السمليكي.

(٥) كينيا

كانت حتى سنة ١٩٢٠ تحت حماية شرق إفريقيا، والآن هي مستعمرة إنجليزية تحت الرعاية الإنجليزية، يحدها أرض الصومال الإيطالي والحبشة وبحيرة رودلف وأوغندا وبحيرة فيكتوريا ومستعمرة تنجانيقا والمحيط الهندي، وتغطي الغابات مساحات شاسعة، فهي نحو ٣٦٠٠ ميل مربع، وتحتوي على بعض أنواع الأخشاب المتينة، ومساحتها ٢٤٥ ألف ميل مربع، ويبلغ عدد السكان نحو مليونين وخمسمائة ألف، بما في ذلك نحو عشرة آلاف أجنبي، و٢٢ ألف هندي، وعشرة آلاف عربي.

(٦) الحبشة والمسألة الحبشية

يطلق عليها اسم سويسرة إفريقيا، وهي من وادي النيل العلوي إلى الجزء الجنوبي الغربي من البحر الأحمر، ممتدة جهة المحيط الهندي، وتقع — بوجه أصح — بين السودان المصري والشاطئ الإيطالي إرتيرا، وقد تكوَّنت مناظرها الجبلية الخلابة نتيجة ثوران بركاني شديد، وتنقسم إلى الأقسام الأساسية الآتية: نياجرا في الشمال، وأمهارا في الوسط، وشوا في الجنوب، وتقع أرض منخفضة جرداء بين الأراضي المرتفعة والبحر الأحمر، تقطنه قبائل مميزة عن الأحباش تمت للمصريين، ومساحتها تبلغ ٣٥٠ ألف ميل مربع، بما في ذلك أرض الصومال الحبشي.

وهي عبارة عن هضبة عظيمة يبلغ ارتفاعها سبعة آلاف قدم، ويكون الانحدار نحو ساحل البحر الأحمر شديدًا، ونحو حوض النيل تدريجيًّا، وتنقسم الأرض إلى ما يشبه الجزائر بواسطة مجاري المياه التي نحتت لنفسها في الصخر إلى عمق كبير يصل إلى أربعة آلاف قدم، وقد تصل قمم الجبال إلى علو ١٥ ألف قدم، وتبلغ درجة حرارة السهول المتوسطة الارتفاع التي تزدحم بالسكان (علو ٥٠٠٠–٨٨٠٠ قدمًا) من ٧٧°–٩٥°، وتنمو فيها النباتات الاستوائية، وفي أثناء فصل الأمطار الذي يقع من أبريل إلى سبتمبر يغطي الثلج قمم الجبال العالية، ولا يذوب هذا الثلج على علو ١٣ ألف قدم، وفي وديان الأنهار وفي الأراضي الغدقة تكون الحرارة والرطوبة مميتة وخانقة، وفي الجهات المنخفضة تجاه البحر الأحمر يصبح الجو حارًّا جافًّا.

خريطة بلاد الحبشة.

ويزرع محصولان أو ثلاثة في بعض الجهات سنويًّا، ومن المحاصيل المهمة: الموز – النخيل – القصب – العنب – البرتقال – الليمون – القطن – النيلة البرية والبن، وتزرع الهضاب العليا القرطم والشعير، ويبلغ سكانها ما بين أربعة وخمسة ملايين بين عناصر مختلفة، وبعضهم يقدر عدد السكان بعشرة ملايين، وليس هناك إحصاء صحيح؛ نظرًا لاتساع المساحة وكثرة القبائل، ويقال إن مسلمي الحبشة هم ثلث سكانها.

(٦-١) أصول السكان

الأحباش من حيث الدم سلالتان، إحداهما زنجية: لأفرادها كل ملامح الزنوج من الشعر المفلفل إلى الأنف الأفطس، وهؤلاء يسكنون الأقاليم الغربية، وهم متأخِّرون يمارسون ضروبًا من القسوة التي تبلغ التوحش، ويزينون أكواخهم بغنائم القتال. والسلالة الثانية سامية: لها شعر سبط، وملامح تقرب جدًّا من الملامح العربية في الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية، وهم متمدنون قد ثقفوا شيئًا غير قليل من الحضارة، وهم يدينون بالإسلام والمسيحية. أما في الأقاليم الغربية فالمسيحية منتشرة بعض الشيء، ولكن معظم السكان لا يزالون في الوثنية، أو هم يؤمنون بالمسيحية مع خلطها بالشعائر الوثنية.

والكنائس كثيرة في الحبشة، وكذلك القسوس، ومع أن الكنيسة الحبشية هي إلى الآن تحت رياسة الكنيسة القبطية فإنها تختلف عنها من حيث إنها تُبنى مستديرة، والقسيس وقت الصلاة لا يختلط بجمهور المصلين كما هي الحال في الكنائس القبطية في مصر، ولا بد أن هذه التقاليد قد ورثها الأحباش عن اليهود؛ لأن المسيحية دخلت الحبشة حوالي سنة ٣٣٠ من اليمن في وقت كانت تلبَّست فيه بالتقاليد اليهودية التي كانت سائدة في اليمن قبل المسيحية، ولقد دارت معارك دموية بين اليهود والمسيحيين يذكرها التاريخ قبل ظهور الإسلام.

والمنازل تُبنى مستديرة أيضًا في الحبشة، وهي أشبه بأكواخ الزنوج منها بالمعنى الذي نفهمه من المنازل، والمنزل يبنى من القصب أو البوص، ويطيَّن من الخارج ومن الداخل، وتزرع حوله الأشجار، ويتسلق على جدرانه الفرع فيكسوه ورقه، وترقد ثماره على سطحه، وأحيانا تبنى مصطبة داخل المنزل يقعد عليها السكان الذين يعيشون مع الدواجن والماشية في مكان واحد، أما الأغنياء فلا تختلف منازلهم إلا من حيث الملابس، فإنهم يشترون الحرير الزاهي، ويقتنون السجاد الإيراني ويطرحونه على الأرض في أي مكان للجلوس، ويزيِّنون جدرانهم من الداخل بجلود الأسود والنمور والسيوف وقرون الوعل.

والأحباش لا يعرفون القرى كما نفهمها في مصر، فإن الحبشي يعيش وحده في حقله مع زوجته وأولاده لا يجاوره آخر، وقد تتكاثر أسرته فتتألف قرية صغيرة بها عشرة منازل — مثلًا — هم أولاده وأحفاده وزوجاتهم. والزراعة الفاشية عندهم هي زراعة أسلافنا قبل نحو ٣٠٠٠ سنة، فإنهم يزرعون الثوم والبصل ويأكلونهما كثيرًا،

وقد تفشَّت بينهم زراعة البطاطا والبطاطس هذه الأيام، أما الفواكه فكثيرة، وأشجارها تبسق وتشتبك حول المنازل.[١]

وقد أخذ الأحباش بكثير من تقاليد الفراعنة، ولا يزال الإمبراطور هيلاسلاسي يكتب اسمه بالهيروغليفية في خرطوش على نحو ما كان يفعل رمسيس أو توت عنخ أمون.

(٦-٢) الأرض والطقس

وقد نشرت جريدة التيمس بحثًا تحت هذا العنوان بقلم الكولونيل س. ل كراست، الذي زار الحبشة لأول مرة وبسط أحوال أراضيها في حالتي الدفاع والهجوم عند القيام بحملة عسكرية في بلاد الحبشة، وقد آثرنا نقل هذا البحث فيما يلي:

> في عصر قديم جدًّا من العصور الجيولوجية اعترى القشرة الأرضية ضعف بين خطي طول ٣٠ و٤٠ شرقًا، ولدينا الآن دليل على التشقق الذي حدث إذ ذاك في بعض المظاهر الطبيعية؛ أهمها الانخفاضات العميقة في البر والبحر (وهي وادي الأردن) الذي يشمل بحيرة لوط والبحر الميت وخليج العقبة وخليج السويس والبحر الأحمر ووادي النيل، الممتد جنوبًا إلى البحيرات الكبرى من بحيرة ألبرت في الشمال إلى نياسا في خط عرض ١٤ درجة جنوبًا.
>
> ومثل هذا الاضطراب الواسع المدى في القشرة الخارجية للأرض يؤثر على الأجزاء المجاورة في كثير أو قليل من العنف، ويحتمل أن يكون هبوط الأرض مسئولًا عن بروز الهضبة الحبشية.
>
> والمساحة التي تأثَّرت أكثر من غيرها مباشرة بهذا التشقق تبلغ حوالي ٧٠٠ ميل من الشمال للجنوب، و٥٠٠ ميل من الشرق للغرب داخل الحدود الحبشية، وهي مساحة تزيد على أربعة أمثال مساحة إنجلترا، وفي الشرق والجنوب الشرقي توجد وديان شاسعة واسعة مفتوحة تتدرَّج في الارتفاع، محرومة من الماء، مغطاة بالحشائش الغليظة التي يبلغ ارتفاعها حوالي خمسة أقدام، وهي تنخفض بالتدريج إلى الشرق والجنوب الشرقي إلى المحيط

[١] راجع البلاغ.

الهندي من رأس جاردفوي إلى قسمايا على مصب نهر بوبا في الصومال الإيطالي، وهذه الأراضي يخترقها ثلاثة أنهر (نذكرها من الجنوب إلى الشمال)، وهي التوبا والويبي شبيلي وتج فافان. ومقطع ويبي معناه المجرى الذي يستمر الماء فيه طول العام، أما (تج) فمعناه المجرى الذي ينحط إلى نهير أثناء فترة الجفاف، ومن هذه الأنهر الثلاثة يرتفع الأولان في جوار بحيرة شالا على مستوى تسعة آلاف قدم، بينما ينبع الأخير من جبل مقدس (كونديودو) وعلوه عشرة آلاف قدم على ثلاثين ميلًا شمالي شرق هرر.

تربة هذه السهول — التي تعرف محليًّا باسم هود — صلصالية لونها شديد الحمرة، تختلف كثافتها من مائة قدم بقرب هارجية في الصومال البريطاني إلى قدم واحد أو قدمين على طول ساحل الصومال الإيطالي أو بنادير، هذه حقيقة يجب أن تظل في الذهن، وذلك أن الإيطاليين إن كانوا يرمون إلى الحصول على أراضٍ غنية ليقطنوها فإن وديان الحبشة قد تجذبهم؛ لأن هذه الأراضي صالحة لزراعة القطن.

بين خط ١٠ شمالًا وخط طول ٤٠ شرقًا وساحل البحر الأحمر يوجد منخفض صغير يعرف باسم دناكل، أو دناجل الشمالية والجنوبية، وعند النهاية الشمالية لهذا الإقليم يقع (وادي الملح) الكبير، أو منخفض دناكل الشمالي، الذي ارتاده ورسم خريطته في سنة ١٩٢٨ المستر نسبت، مع اثنين من الرفاق الإيطاليين، وامتحان مسطحات هذا المنخفض قد أظهر مساحة طولها ١٠٠ ميل من الشمال للجنوب، وخمسين ميلًا من الشرق للغرب، أقصى عمقها (في النهاية الشمالية) ٤٠٠ قدم تحت سطح البحر الأحمر، وهذه هي المساحة الواقعة عند كولولي، حيث توجد مناجم البوتاس الإيطالية.

أما مسألة الطقس فإنها جديرة بالنظر فيها باختصار، فمرتفعات الحبشة تقوم إلى علو ١٢ قدمًا أو أكثر، وتبعًا لهذا فإن الإيتيوبي الحقيقي الذي يكره الحر يرفض أن يعيش في مكان آخر غيرها، أي: على علو يزيد على ثلاثة آلاف قدم، وطقس الهضبة والمرتفعات يقارن بطقس إنجلترا في سبتمبر، إلا في الفترة بين أبريل وسبتمبر حين يكون موسم الأمطار على أشده، وتهب رياح جنوبية غربية شديدة.

وفي زمن الصيف تكون البقاع الحبشية التي على علو ٣٠٠٠ قدم في بعض الأحيان حارة ورطبة حتى تأتي زوبعة عنيفة تخفف عن الناس الحر،

أما الأراضي الواطئة فإنها على العكس من ذلك حارة لا ترتاح إليها النفس، وبالرغم من أن الهواء قد يترطب وقتًا ما بعد المطر، فإن هذا يكون على حين أن نتيجة مطر المناطق الحارة تجعل التربة السطحية موحلة والسير فيها متعبًا.

على أنه مهما يكن من رداءة الطقس في الأراضي الواطئة في الشرق والجنوب الشرقي فإن الطقس في منخفض دناكل أردأ بكثير، فإن الرحالة قد سجلت هناك درجات حرارة فوق ١٥٥ فهرنهيت يومًا بعد يوم، ولا يسع الإنسان إلا أن يبدي إعجابه بالإقدام والمثابرة اللذين تحلى بهما هؤلاء الرجال الذين شقوا طريقهم إلى الشمال، بقدر يسير من الماء، في هواء مملوء بالغبار، ودخان الكبريت يحيط بهم من كل الجهات، بسكان رُحَّل أهم ما يحترفونه الحرب والقتل.

(٦-٣) اللغات الحبشية

أشهر اللغات الحبشية ثلاث:

(١) **اللغة الإيتيوبية القديمة:** وهي لا تستعمل الآن إلا في الكتابة الأدبية.
(٢) **اللغة التجرانية:** وهي لغة الإرتريا وشمال الحبشة، وهي المستعملة الآن.
(٣) **اللغة الأمهرية:** وهي اللغة الرسمية؛ نسبة إلى أمهرا.

وحروف الهجاء الحبشية مأخوذة من لهجات العرب القديمة، مثل: الصابئية والحميرية.

(٦-٤) العادات في الحبشة

يجري ختان الطفل الذكر في يومه السابع أيام الأربعاء والجمعة، والأنثى يجري ختانها بعد ذلك. وإذا كانت الأم مريضة ينبغي أن يبقى طفلها دون ختان حتى شفائها.

وينصَّر الطفل الذكر في اليوم الأربعين، وتنصَّر الطفلة في اليوم الثمانين.

ولا تدفن المرأة في أماكن الرجال، ولا يجوز للرجل أن يشرب البيرة قبل زوجته إذا كانت حاملًا؛ لأنها تتألم باشتياقها للشراب.

وعندما يغيب أحد الآباء عن بلده يختار صديقًا له لحراسة بيته والإشراف على أولاده.

ويوسِّط الخطيب أصدقاءه لدى والد الفتاة ليقبل الزواج، ومعظم الآباء يقاسمون بناتهم نصف مهورهن، وتقام أعراس بها مزامير وتنحر الذبائح.

(٦-٥) المرأة الحبشية

المرأة الحبشية مشهورة بالجمال؛ وخاصة جمال العينين، وبالجاذبية، ولها أنف دقيق، وشفتان غليظتان مستديرتان، وقامة هيفاء، وطالما كانت بيوت أمراء المصريين والحجازيين والأتراك والأعيان مزدانة بالجواري الحبشيات، وطالما تزوجوا منهن.

والمرأة الحبشية مثال الشجاعة والإقدام والتضحية، وهي تشترك في الحرب مع الرجال، وهي وافرة الذكاء، بسيطة الهندام والأثاث.

وفي أديس أبابا جمعية اسمها جمعية نساء إيتيوبيا الوطنية، وقد قامت بمظاهرة وحملت لوحة جاء فيها باللغة الأمهرية: «أيها الشبان، انهضوا ولا تخافوا، ودافعوا عن وطنكم، دافعوا إننا سنموت معكم.»

لا تتزوج المرأة الحبشية إلا بإذن أبيها وإلا كانت ملعونة، وهي تشجع بجاذبيتها الشبان على خطوبتها، وأحيانًا تهرب مع عشيقها.

والمرأة الحبشية تشرب البيرة، وقد يتخذ الرجل الحبشي عشيقة له لمدة سنة — وهي زوجية مؤقتة — وعلى المرأة الحبشية أن تطيع زوجها.

وينتشر البغاء في الحبشة بالرغم من موانع الدين المسيحي، والطلاق كثير، وأكثر بغايا السودان من الحبشيات المهاجرات، وتكثر بينهن الأمراض التناسلية بصورة مخيفة محزنة.

(٦-٦) ممالك الحبشة وإمبراطورها

الحبشة منقسمة إلى ولايات وممالك صغيرة وقبائل متنازعة، وقلما تهدأ الحالة الداخلية في الحبشة، فهناك حروب بين ملوك الحبشة، أو بين بعضهم، أو بين إمبراطورها.

وقد نادى «ساهالاسلاسي» ملك شواه وإيفات والجالا سنة ١٨١٣ بنفسه ملكًا على ملوك الحبشة، وجعل الملك بطريق التوارث في أسرته.

و«ساهالاسلاسي» الذي ولد سنة ١٧٩٥، وعيِّن ملكًا سنة ١٨١٣، ومات سنة ١٨٤٧، وولد له ستة أولاد، كان منهم «هيلا ملا كوت»، الذي ولد سنة ١٨٢٥ ومات سنة ١٨٨٥، وخلفه ابنه منليك الثاني الذي ولد سنة ١٨٤٤، وصار ملكا لشوا سنة ١٨٦٦، وإمبراطورًا سنة ١٨٨٩، ومات سنة ١٩١٣، وتزوج الإمبراطورة تاتو سنة ١٨٨٣ ولم يرزق منها ذكورًا، وقد كان من بناته ثواراجا التي تزوجت الرأس ميكاييل، ورزقت بولد اسمه ليج ياسو سنة ١٨٩٦، وعين إمبراطورًا سنة ١٩١٣ خلفًا للإمبراطور منليك إلى سنة ١٩١٦، ثم قامت ضده فتنة؛ لأن الأحباش المسيحيين قد اتهموه بأنه يمالئ مسلمي الحبشة، ويقربهم ويؤثرهم، وبأنه اعترف بخلافة سلطان تركيا، وحالفه وحالف الألمان وأغضب الحلفاء. وقد أعلن مطران الحبشة حرمانه، وهرب ياسو، ولكنه لم يذعن لقرار المطران، وجمع جيشًا وآزره الرأس ميكاييل حاكم ولاية جايا، وقد خلفته الإمبراطورة زوديتو ابنة منليك الثاني التي ولدت سنة ١٨٧٦، وتوِّجت سنة ١٩١٦، وقد قامت بينها وبين أتباع ياسو والرأس ميكاييل مذبحة عنيفة في ساجال، في أكتوبر سنة ١٩١٩، وأسرت الرأس ميكابيل، وهرب ياسو، وتوجت زوديتو رسميًّا سنة ١٩١٧.

الرأس تفري والإمبراطور هالاسلاسي

ولد الرأس تفري سنة ١٨٨١، وهو ابن الرأس ماكونن بن وازيروتانا أحد أبناء الملك ساهالاسلاسي.

وعين الرأس تفري وصيًّا للعرش مع الإمبراطورة زوديتو التي ماتت سنة ١٩٣٠، حيث توج الرأس تفري إمبراطورا سنة ١٩٣٠ باسم الإمبراطور هالاسلاسي، وقد تزوج سنة ١٩١٢ من الأميرة وازيرو منن، وولدت له سنة ١٩١٢ ماميتي التي ماتت طفلة، ثم أصفا واصين سنة ١٩١٦ وهو ولي العهد الرسمي، ولكن أباه الإمبراطور غاضب عليه، وزينب ورك ولدت سنة ١٩١٨، ويشي أمابت ولدت سنة ١٩٢٠، وماكونن ولد سنة،١٩٢٣ وهو محبوب من أبيه، ويقال إنه هو المرشح الحقيقي لولاية العهد، وقد أسماه والده «دوق هرر». ومن الإشاعات التي لم نقف على صحتها أن «زوديتو» ماتت مسمومة ليخلو الجو للإمبراطور هالاسلاسي.

حول إسلام النجاشي

وقد ذكرت روايات عن إسلام نجاشي الحبشة في عهد النبي ﷺ الذي أرسل كتابًا إلى النجاشي أصحمة، وهذا ردُّه على النبي ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم» إلى محمد رسول الله من النجاشي أصحمة، سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام، «أما بعد» فقد وصلني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت فيه من أمر عيسى ابن مريم فورب السماء والأرض إن عيسى ابن مريم لا يزيد على ما ذكرت، ولا علاقة ما بين النواة والقمع، وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا، وشهدنا بأنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك بواسطة ابن عمك جعفر، وأسلمت على يديه لله رب العالمين، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

ولما قرأ النبي هذا الكتاب قال:

اتركوا الحبشة ما تركوكم.

فمن أجل هذا الأمر هيمن العرب على آسيا وبعض أوربا، وبلغت طلائع جيشهم أقاصي النيجر وبلاد السنغال والهند وغيرها، ولم يخطر ببال أمراء الإسلام احتلال الحبشة وبسط نفوذهم عليها، بل كانت دول الإسلام وإماراته في سلام ووئام مع الإمبراطورية الحبشية إلى ما بعد القرون الوسطى.

وقد أفتى بعض علماء الصومال الإيطالي ومفتيه بعدم جواز محاربة المسلم للحبشة.

الحبشة والجندية

الأمة الحبشية هي أمة جندية؛ جميع أفرادها على استعداد للقتال، وهو حرفتهم وسجيَّتهم.

وقد أنشأ الإمبراطور هالاسلاسي جيشًا باسم الحرس الإمبراطوري، قام بتدريبه ضباط سويسريون وبلجيكيون وسويديون، وعدده ستة آلاف، وبه وحدات من البيادة والسواري والطبجية، وله بنادق عصرية، ومجهَّز بمدافع كبيرة وصائدات للطائرات.

ولكل رأس من رءوس الحبشة «حكامها» حرس أو جيش لا يقل عدده عن ربع مليون، وجيش غير نظامي لا يقل عن نصف مليون، ولدى إمبراطور الحبشة طائرات وذخائر.

ويقول الأديب محمد عبد الرحيم: ليس للإمبراطورية الحبشية نظام مخصوص للجندية كنظام القرعة العسكرية المصرية، أو كنظام التطوع لدى الدول الغربية، بل تُطلَب الجنود من الولايات كلٌّ بحسب سعة الولاية وضيقها، والجيش العامل في حفظ الأمن في وقت السلم ٢٠٠ ألف جندي، أما في وقت الحرب فتصبح الجندية فرض عين على كل رجل يستطيع حمل السلاح.

والأحباش أكثر العالم شغفًا بالحروب وأسرعهم قبولًا لويلاتها، وقد دلت التجارب على أن الشعب الحبشي إن هو إلا بركان ثائر يحركه الإمبراطور بسبابته متى شاء، هكذا كان في غارته على مملكة سنار، وفي حربه للحملة المصرية التي كان يقودها السردار محمد راتب باشا في سنة ١٢٩٢، وكذا في واقعة القلابات سنة ١٣٠٦، وواقعة عدوة في سنة ١٨٩٥م، أما القيادة العامة فللإمبراطور نفسه، والذي يراجع تاريخ الحبشة قلَّ أن يرى إمبراطورًا مات حتف أنفه كما حدث للإمبراطور ياهنس الرابع، أي «يوحنا» الذي قتله أنصار المهدية وخلافه من أسلافه.

إذن فليس بغريب عزم جلالة الإمبراطور هالاسلاسي على تولي زمام القيادة في الحرب المزمع نشوبها. فما أجود الجندي بروحه عندما يرى مليكه يسير تحت قساطل الجيوش للذود عن الأمة! ولا غرو أن هذا أعظم محرك لحماس الأحباش في حروبهم المتواصلة التي كانت تكلل بالنجاح.

وقد قرر الإمبراطور إلباس ٢٠٠٠٠٠ جندي الملابس العسكرية، وتناول ١٥٠٠٠ منهم طعام الغذاء مع الإمبراطور في قصره في شهر أغسطس سنة ١٩٣٥، وأكثر الجنود حفاة، وأكثر أسلحتهم بنادق قديمة، ولكنهم يجيدون الرماية.

ولايات الحبشة

تتألَّف بلاد الحبشة من ثلاث عشرة ولاية، لكلٍّ منها ملك يلقَّب بالرأس، وهو حاكم الولاية القائم بشئونها الإدارية والسياسية تحت إشراف الإمبراطور أو النجاشي، وهناك ألقاب أخرى؛ وهي: دجاج ودجاز وداز جماج دفيتواري وقيفا زماج، وغير ذلك من الألقاب، وتتألَّف من تلك الممالك الصغيرة إمبراطورية ذات شأن عظيم، ويلقَّب الإمبراطور هناك

بالنجاشي، وهو لقب كلقب بطليموس عند دولة البطالسة، وقيصر عند الروس، وشاه عند العجم، وباي تونس عند التونسيين، وخديوي عند ولاة مصر سابقًا.

وللحبشة لقب ثانٍ، وهو منليك، إلا أنه يقصر على الملوك من سلالة نبي الله سليمان — عليه السلام — لأنه تزوج بلقيسًا ملكة سبأ، ولما رُزق منها بولد قال لها: «مني إليك»، فمزجت الجملتان فصارت «منليك»، وجاء في رحلة الدكتور محمد نيازي الذي كان طبيبًا لأحد الآلايات المصرية في سنة ١٢٨٢هـ بالسودان، قال: سمعت من أحد الأطباء الإفرنج يقول إنه قرأ في بعض المؤلفات القديمة أن ذلك المولود الذي هو منليك الأول بن سليمان كانت بلقيس تخاف عليه من قومها، فبعثته إلى مدينة سوبا ليربَّى بها، وسمِّيت المدينة سبأ، ثم حُرِّف الاسم إلى سوبا لتقادم الزمان، وقد تبوَّأ عرش الحبشة كثير من الملوك، فلا حاجة إلى بيان أسمائهم وزمن ولاية كل منهم تجنبًا للتطويل.

القضاء في الحبشة

ويقول الأديب محمد عبد الرحيم: «إنه بالرغم عن كساد الثقافة الحبشية، وبوار سوق العلوم العقلية والنقلية، فإن القضاء سائر بطريقة كافلة للحقوق المدنية والاجتماعية، والقائمون به يؤدونه بأمانة ونزاهة جديرتين بالإعجاب، حتى كان كلٌّ آمنًا على حقه، وكلٌّ بما فعلت يداه رهين، وما كان للحبشة نواميس شرعية ولا قوانين وضعية فيما يختص بالمعاملات القضائية، بل كان القضاء يسير مع العرف إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، وهناك قام أحد رجال الدين المسيحي — المدعو أسعد عسال القبطي — ووضع للحبشة قانونًا نسَّقه تنسيقًا بديعًا، قسمه على قسمين: الأول منهما يختص بالكنيسة وتعاليمها الدينية، وقد لُخص ذلك من تعاليم المذهب الأرثوذكسي والديانة الإسرائيلية، والثاني في المعاملات، وكان مرجعه فيه كتاب التنبيه لأبي إسحق الشيرازي في فقه السادة الشافعية، وقد أطلق على هذا القانون اسم «فتانفوس»، وقد صدَّق جلالة الإمبراطور على المعاملة به في جميع أنحاء الأقاليم الحبشية.

أما المسئولون عن تنفيذه في القرى هم أكبر سكانها سنًّا وأكثرهم حنكة، وفي العواصم الرءوس ما عدا «أديس أبابا» التي يباشر القضاء فيها جلالة الإمبراطور بنفسه، وهو يجلس في ساحة مكشوفة، ثم تُرفع على رأسه مظلة كبرى «شمسية» كملوك الفور ووادای، ويجلس عن يمين الإمبراطور ١٢ رجلًا، وعن شماله ١٢ رجلًا من أعيان

المملكة الذين يشترط أن يكون فيهم رئيس الكهنة بردائه الكهنوتي، ويحمل القانون المسمى «فتانفوس» كاهن آخر، ثم يؤتى بالمتقاضين فيقفون صفًّا أمام الإمبراطور على بعد ٣٠ مترًا منه، ثم يؤذن لهم في عرض ظلامتهم على هيئة القضاء، فينادي المظلوم بأعلى صوته قائلًا: «جاتهوه جاتهوه»؛ أي: يا حضرة الإمبراطور، يكررها سبع مرات، وذلك بين دائرة من جنود الحرس المدججين بالسلاح، والناس في سكون شامل لهيبته.

ومن المألوف في الحبشة نظام التحكيم، وكثيرًا ما يلجأ المتخاصمان إلى رجل محترم في الطريق يحتكمان إليه وينزلان عند حكمه.

(٦-٧) إيطاليا والحبشة: الجيش الإيطالي

منذ بعيد تستعد إيطاليا لغزو الحبشة، وقد بلغ ما أرسلته من الجنود إلى إرتريا حتى آخر سبتمبر سنة ١٩٣٥ ربع مليون جندي إيطالي، مرت من قناة السويس على سفن حربية إيطالية، ومعها ستمائة طائرة، ومدافع كثيرة رشاشة، وسيارات مدرعة، هذا عدا الجيش الإيطالي الذي في شمال إيطاليا وعدده ٥٠٠ ألف، وعدا الجنود الوطنيين.

بدأت إيطاليا استعمارها الإفريقي بإنشاء شركة إيطالية اشترت ثغرًا صغيرًا يدعى «عصب» سنة ١٨٦٩ من شيخها، وكانت من أملاك الباب العالي التركي، فاحتج على هذا البيع، وعده باطلًا لصدوره من غير مالك، ولكن الشركة الإيطالية «شركة روباتينو» نزلت عن «عصب» إلى الحكومة الإيطالية التي أرسلت بعض التجار الإيطاليين للإقامة بها، وعلى رأسهم «الكونت أنتونيلي» الذي عقد مع إمبراطور الحبشة منليك الثاني معاهدة صداقة، واحتلت إيطاليا ثغر مصوع وجزرًا غيرها، وتألفت مستعمرة إرتريا، منتهزة فرصة الثورة المهدية في السودان وضعف مصر، وسعى كل من إنجلترا وفرنسا لتقسيم إفريقيا الوسطى والشرقية.

وواصلت إيطاليا احتلال بلاد الحبشة، وطلب الإمبراطور منليك إلى الجنرال (جيته) الإيطالي إخلاء البلاد، وضم منليك (هرر) إلى أملاكه، ووقعت حرب بين الرأس ألولا وهزم الجيش الإيطالي في يناير سنة ١٨٨٧ على مقربة من دوجالى، فأرسلت الحكومة الإيطالية في أواخر سنة ١٨٨٧ جيشًا عدده (٢٥) ألفًا؛ نصفه من الإيطالين والباقين من الأهلين، واحتل الجيش «صاتى».

وقد حدث في أثناء ذلك أن الملك يوحنا انتقض على إمبراطور (القلابات) منليك الذي حارب جنود المهدي، وقُتل في مارس سنة ١٨٨٨، وانهزمت جنوده بعد انتصارها في حياته.

وقد عقدت إيطاليا مع (منليك) معاهدة أوتشيالي، وبناء عليها قَبِل الإمبراطور أن تكون حكومة إيطاليا وسيطًا بين الحبشة والدول الأجنبية في جميع المسائل.

وقد كتبت هذه المعاهدة من نسختين: نسخة باللغة الحبشية ونسخة باللغة الإيطالية، والنسخة الحبشية تقول: «يجوز لجلالة الإمبراطور أن يتخذ وساطة حكومة جلالة ملك إيطاليا سبيلًا إلى تسوية جميع المسائل المتعلقة بالدول الأجنبية.»

فأما النسخة الحبشية فتقول «يجوز»، والنسخة الإيطالية تقول: «يوافق إمبراطور الحبشة ... إلخ»، وقد وقَّع منليك النسخة الحبشية ولم يوقِّع على النسخة الإيطالية، وفي ١٢ فبراير سنة ١٨٩٣ أبلغ منليك الثاني الدول بأنه غير مرتبط بالمعاهدة الإيطالية التي نشرتها إيطاليا وفسرتها على أنها جعلت الحبشة تحت حمايتها.

غضبت إيطاليا من الحبشة، وزحفت جنودها بقيادة الجنرال باراتيري فاحتلت كسلا من بلاد السودان سنة ١٨٩٤، ثم تقدمت إلى الحدود الحبشية، فانتصرت الجنود الإيطالية على جيش الرأس مانجاشا سنة ١٨٩٥، واحتلت أديجران وميكالي وأمبا ألاجي، ولكن منليك تقدم بجيشه ومعه الرأس ماكونن فهزم الجيش الإيطالي شرَّ هزيمة، وقتل منه ألوفًا، وغنم ذخائره، وانتحر القائد الإيطالي الماجور توسلي، وانسحب الإيطاليون.

وطلب منليك أن تدفع إيطاليا له فورًا ٢٥ مليون ريال حبشي حتى يقبل وَقْفَ الحرب وعَقْدَ الصلح الذي عرضه القائد العام للجيوش الإيطالية في إفريقيا، وهو الجنرال باراتيري، ولكن إيطاليا رفضت الصلح على هذه الشروط، فاستعد الجيش الإيطالي للحرب، وقسَّم نفسه إلى أربعة أقسام أحدقت بها الجيوش الحبشية وهزمتها.

وأعاد براتيري تنظيم الجيش الإيطالي وهجم على (عدوة)، التي وقعت فيها الموقعة المشهورة، وقُتل الجنرال أريمندي والجنرال دامبراميدا، وأُسِر الجنرال ألبريتوني، وأصيب الجنرال أنلينا بجرح خطير، وغنمت الحبشة ٧٢ مدفعًا وذخائر وأعلامًا إيطالية، و٧٠٠٠ أسير، وقتل وجرح ١٠٠٠٠ إيطالي.

وهرب باراتيري، وواصل منليك زحفه، ودخل إرتريا واستولى على حصن «أدي أوجري»، وحاصر الجنرال برستناري، وحمله على التسليم في مايو سنة ١٨٩٦.

وعيَّنت الحكومة الإيطالية الجنرال بالديسيرا، وأراد أن يتقدم بجيش عدده ٣٠ ألف جندي، ولكنه وجد الهزيمة محققة، وأشار على حكومته بالصلح، فذهب وفد

إيطاليا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ إلى أديس أبابا، حيث عقدت معاهدة بين إيطاليا والحبشة اعترفت فيها إيطاليا باستقلال الحبشة استقلالًا تامًّا.

على أن الإيطاليين لن ينسوا موقعة عدوة وهزيمتهم الهائلة، ومن أسباب استعدادهم الحربي الحاضر الرغبة في غسل الإهانة التي لحقتهم بهزيمتهم في عدوة.

وقد تسلَّم منليك غرامة قدرها ٧٠٠٠٠٠ جنيه إنجليزي، وأطلق سراح الأسرى الإيطاليين، وكان عقد المعاهدة في أديس أبابا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وعقدت بعدها معاهدات واتفاقات أخرى في صدد تحديد التخوم بين الحبشة وإرتريا.

موسوليني والحرب

وقد صرَّح السنيور موسوليني علنًا أنه يريد الاستيلاء على الحبشة كلها، وأنه لا بد من محاربتها، وأنه لن يمسك عن الحرب أمام أي قرار من عصبة الأمم أو سواها، وأنه لا يمنع الحرب إلا شيء واحد، هو أن تسلم الحبشة نفسها لإيطاليا بغير قتال.

(٦-٨) الاتحاد بين الحبشان

جمعت الحرب الحبشية القادمة بين القلوب المتنافرة وبين رءوس الحبشة المتنافسين، وقد تحمسوا للدفاع عن الوطن، وقد عني الإمبراطور بكسب رضاء المسلمين من رعاياه، وقد أصبحوا يدًا واحدة مع إخوانهم.

(٦-٩) الجاليات الأجنبية

بالحبشة جاليات أجنبية من جميع الجنسيات، ومنها جاليات عربية ولبنانية وسورية ويونانية وأرمنية، وأكثر أفرادها تجار، ومنهم من جمع ثروة كبيرة وأنشأوا المدارس.

(٧) البعثات في الحبشة

في الحبشة بعثات تبشيرية لمختلف الأديان، ولا سيما البروتستانتية الأمريكية، وبعثات تجارية لمختلف الدول، وقد عقدت البعثة الإنجليزية الذي كان يرأسها السير رنل رود معاهدة صداقة مع الحبشة في ١٥ مايو سنة ١٨٩٧، وللبعثات مدارس ومستشفيات وملاجئ.

ورأس الدجاز «تاساما» بعثة أوربية في عضويتها مسيو فايفز، ومسيو بوتو السويسري، ومسيو أرتومونوف الروسي، واجتازت الحبشة إلى نهر النيل عند مصب نهر السوباط في يونية سنة ١٨٩٨، وبعد أيام وصل إليه الماجور مارشان الذي صار جنرالًا فرنسيًّا، وهو صاحب مسألة فاشودة.

عينت الدول ممثلين لها في العاصمة الحبشية، فكان السير هارنجتن قنصلًا جنرالًا لإنجلترا فوزيرًا مفوضًا.

وعقدت بعثة أمريكية سنة ١٩٠٣ معاهدة تجارية بين الولايات المتحدة والحبشة، وعقدت بعثة ألمانية سنة ١٩٠٥ معاهدة تجارية مع الحبشة، وعُيِّن وزير مفوض ألماني لدى إمبراطور الحبشة.

وقد وضعت إنجلترا وفرنسا وإيطاليا اتفاقًا في ديسمبر سنة ١٩٠٦ جاء فيه: «إن مصالح هذه الدول الثلاث تقضي بالمحافظة على سلامة أملاك إيتيوبيا»، وقضت المادة الأولى من الاتفاق على التعاون بينهم في المحافظة على كيان إيتيوبيا من الوجهة السياسية وسلامة أراضيها، ونصَّت على أنه إذا وقعت طوارئ تخلُّ بالكيان السياسي للحبشة فإن هذه الدول تتفق على صيانة مصالحها الخاصة، وقد تم الاتفاق في شهر يولية في سنة ١٩٠٦، وأبلغ في الحال إلى النجاشي، وقد رد الإمبراطور منليك على تبليغ الدول بأنه يشكر لها نيَّاتها الطيبة، ويشترط أنه لا يكون من شأن هذه الاتفاقية الحدُّ من حقوق سيادته، ثم عين في شهر يونية سنة ١٩٠٨ حفيده ليج ياسو وليًّا لعهده.

(٨) السكة الحديدية ودوليتها

وقد تقرَّر في الاتفاقية المذكورة أن تكون السكك الحديدية في الحبشة دولية، وليس في الحبشة سوى سكة حديدية واحدة بين أديس أبابا وميناء جيبوتي الواقع في الصومال الفرنسي، ولا تسير القطارات إلا نهارًا، وتقف عند إحدى المحطات ليلًا، ويستغرق مسيرها بين جيبوتي وأديس أبابا ستة أيام.

مراجع الكتاب ووثائقه

اطلع المؤلف على طائفة كبيرة من الكتب والوثائق مما يعد بالمئات، وباللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، عن مصر والسودان والنيل والآثار وإفريقيا واستعمارها ومكتشفاتها وتواريخ مصر والقبائل العربية، في سبيل وضع هذا الكتاب، ونذكر فيما يلي أمثلة من هذه المراجع، وهناك مراجع أخرى ورد ذكرها في غضون فصول الكتاب، وننشرها لتسهل زيادة البحث والتقصي للراغبين من حضرات القراء:

- L'Empire Egyptien Sous Mohamed Ali, par M. Sabry الإمبراطورية المصرية في عهد محمد علي — بقلم الدكتور محمد صبري رئيس البعثة المصرية في سويسرا.
- تولية الخديوي إسماعيل — تأليف إدوين.
- لائحة ترتيب المحاكم المختلطة — الدستور المصري.
- Letters of General C.G.Gordon to his sister رسائل غوردون إلى أخته — طبعت في لندن سنة ١٨٨٨.
- الكولونيل غوردون في إفريقيا الوسطى Colonel Gordon in Centeral Africa.
- وثائق رسمية محفوظة بدور المحفوظات في لندن وباريس وبروكسل وروما وعابدين والقلعة.
- سبع سنوات في السودان Sette Anni nel Sudan Egiziano.
- Voyage en Abyssinie et chez les Gallas—Raiss par Gabril Simon رحلة في الحبشة وفي بلاد الجالا ورءوسها — تأليف جبريل سيمون Simon.

- Dix Années en Equatoria.
- عشر سنوات في خط الاستواء — ترجمة لويس وهيسين سنة ١٨٩٢ — عن أمين باشا وبعثة استانلي.
- L'Empire Egyptien sous Ismail et L'Ingerence Anglo—Francaise, par M. Sabry.
- الإمبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزي الفرنسي — تأليف الدكتور محمد صبري مدير البعثة المصرية في جنيف.
- مذكرات سير صمويل بيكر Sir Samuel Baker, Memoir.
- الخطط التوفيقية.
- تاريخ، الجبرتي.
- تاريخ، الطبري.
- عجائب الآثار — الجبرتي.
- الكافي — شاروبيم بك.
- تاريخ النوبة — حتة.
- محاضر الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية.
- مضابط البرلمان: مجلس الشيوخ ومجلس النواب — من سنة ١٩٢٤–سنة ١٩٣٤.
- أعداد كثيرة ومختلفة من القرنين الماضي والحاضر من التيمس والطان وغيرها، ومن الأهرام والمؤيد والمقطم واللواء وغيرها.
- السودان المصري ومطامع السياسة الإنجليزية — تأليف داود بركات.
- كتاب الإسماعيلية Sir Samuel Baker, Ismailia.
- ألبرت نيانزا albert Nyanza بقلم Sir Samuel Baker.
- يوميات غوردون Journal of Gordon at Khartoum.
- مصر والسودان.L'Egypte el Le Soudan.
- السودان وغوردون والمهدي — Le Soudan, Gordon et Le Mahdi للكابتن هومان Heumann طبع سنة ١٨٨٦.
- تركة مصر في الأقاليم الاستوائية La Succession de L'Egypte Dans Les Provinces équatoriales للمسيو ديهران «مجلة العالمين» عدد ١٥ مايو سنة ١٨٩٤.

- سبع سنوات في السودان — تأليف جسي باشا Sept ans au Soudan Par Gessi Pacha.
- عشر سنوات في مديرية خط الاستواء والعودة مع أمين باشا — تأليف كازاتي Dix années Dans Afrique equatoriale Par Casati.
- مصر ومديرياتها المفقودة — بقلم شايي لونج بك — طبع ١٨٩٢ L'Egypte et Les Provinces Perdues Par Chaillé Long Bey.
- إفريقيا الوسطى — بقلم شايي لونج بك Central Africa Par Chaillé Long Bey.
- الأنبياء الثلاثة: غوردون والمهدي وعرابي — طبع سنة ١٨٨٦ Les trios Prophétes Par Chaillé Long Bey.
- منابع النيل — تأليف شايي لونج بك Les Sources Du Nil.
- Egypt, Africa, Africans مصر وإفريقيا والإفريقيون — بقلم شايى لونج بك — طبع سنة ١٨٧٨.
- L'Egypt, Soudan, KasaLa مصر والسودان وكسلا — مجلة العالمين الفرنسية عدد أول نوفمبر سنة ١٨٩٤.
- يوميات عن كشف منابع النيل — تأليف سبيك Journel of the Discovery of the Sources of the Nile by Speke.
- النيل والسودان ومصر — تأليف شيلو بك Le Nil, Le Soudan et l'Egypte par Chelu Bey.
- الكتاب الأزرق الإنجليزي سنة ١٨٨٣ Blue Book, 1883.
- الكولونيل غوردون في إفريقيا الوسطى — تأليف مستر هيل Colonel Gordon in Central Africa, by Hill.
- مصر والسودان — تأليف هنري بنسا L'Egypte et Le Soudan, par Henri Pensa.
- نشرات هيئة أركان حرب الجيش المصري عن السودان — طبع سنة ١٨٧٧ Publications of the Egyptian General Staff, by Colonel Purdy.
- السودان المصري — تأليف واليس بودج — جزءان — طبع سنة ١٩٠٧ The Egyptian Sudan, by Wallis Budge.

- مصر المسلمة والحبشة المسيحية — تأليف وليم داي Moslem Egypt and Christian Abyssinia, by W. Dye.
- الحملة المصرية ضد الحبشة — بقلم مسيو سوتزار — في مجلة مصر أعداد مارس وأبريل ومايو سنة ١٨٩٦ Expedition des Egyptiens contre l'Abyssinie, Par Suzzera Revue d'Egypte.
- فاشودة وفرنسا وإنجلترا — تأليف روبرت دى كي — طبع سنة ١٨٩٩ Fachoda, la France et l'Angleterre, Par Robert de Caix.
- تقسيم إفريقيا — تأليف بانينج — طبعة سنة ١٨٨٨ Le Partage de l'afrique par Banning.
- مسألة إفريقيا — تأليف دي فيل La question d'Afrique, Par Deviélle.
- مسألة إفريقيا La question d'Afrique, par Raymond.
- الري في مصر — تأليف بروا L'Ronze L'Irrigation e Egypte Par Barrois.
- تقارير اللورد كرومر — تقارير غورست — تقارير كتشنر.
- جبر الكسر في الخلاص من الأسر — محمد رفعت بك.
- مجلة الجمعية الجغرافية — والوقائع المصرية — ومجلة العالمين الفرنسية.
- تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته — تأليف نعوم شقير بك — طبع سنة ١٩٠٣ في ثلاث أجزاء.
- إنجلترا في مصر— تأليف ملنر سنة ١٨٩٣ England in Egypt by Alfred Melner.
- مصر الحديثة — تأليف كرومر Modern Egypte—by Cromer.
- تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا — تأليف إلياس الأيوبي بك — طبع سنة ١٩٢٣.
- Sluation Internationale de L'Egypte et du Soudan.
- The Litteráture of Egypte and the Sudan, by Prince Ibrahim Hilmy.
- رحلة سعيد باشا في السودان — تأليف الدكتور أباتة باشا — طبع سنة ١٨٥٨ Voyage de Mohammed Said Pacha dans ses Provinces du Soudan, Par Abbate.
- دائرة المعارف الفرنسية الكبرى La Grande Encyclopedie.

- Bulletin de La Société Royale de Geographie.
- Bulletin de l'Institut Egyptien, Revue des deux Mondes.
- الخطط التوفيقية — تأليف علي مبارك باشا.
- حقائق الأخبار عن دول البحار — تأليف إسماعيل سرهنك باشا — طبع سنة ١٣١٢هـ L'Egypte et ses progrés Sous Ismail Pacha Par Ronchette.
- طبع سنة ١٨٦٧.
- الأثر الجليل لقدماء وادي النيل — لأحمد كمال بك.
- الأدب السوداني — لعباس سعيد.
- الدليل في موارد أعالي النيل — للمستر وليم جارستن.
- تاريخ الأمة القبطية من سنة ١٨٩٣–١٩١٢ ليوسف منقريوس.
- رحلة مصر والسودان — لمحمد مهدي.
- قوانين سودانية — العقوبات، تحقيق الجنايات وغيرهما.
- شعراء السودان — لسعد ميخائيل.
- التوفيقات الإلهامية — للواء محمد مختار باشا.
- تاريخ هيرودوتس — للمؤرخ اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد.
- تاريخ ديودور الصقلي — وهو من سيسيليا، زار مصر سنة ٥٧ قبل الميلاد.
- تاريخ يوسنيوس — وهو مؤرخ يوناني في القرن الأول قبل الميلاد.
- التاريخ العام — بالإنجليزية — تأليف لجنة من العلماء الإنجليز سنة ١٧٤٩.
- العقد الثمين – أحمد كمال باشا.
- فجر العمران سنة ١٨٩٤ — مسيبرو.
- تاريخ الإسلام العام — جورجي زيدان.
- أنسيكلوبيديا — بريتانيكا.
- هو إذ هو بالإنجليزية — أسماء مشاهير الرجال وتراجمهم.
- المسعودي — تاريخ أبو الحسن علي بن حسين سنة ٣٤٦هـ.
- تاريخ، ابن الأثير.
- تاريخ، ابن العذراء.
- تاريخ، ابن خلدون.
- مقدمة ابن خلدون.

- تاريخ مصر لابن إياس.
- سيرة السير صمويل بيكر — بالإنجليزية سنة ١٨١٥.
- تاريخ الدافع — بخط يد إبراهيم عبد الدافع من الفتيحاب الجعليين — عن ملوك سنار والفتح المصري الأول.
- رحلة بورخارت الألماني — بالألمانية عن سياحته في النوبة وسنار سنة ١٨١٤.
- تاريخ دارفور — بالفرنسية للدكتور برون سنة ١٨٣٢.
- تاريخ مصر الحديث — جورجي زيدان بك منشئ مجلة الهلال، وقد رافق الحملة لفتح السودان، وشهد واقعة أبي طليح.
- تاريخ الحملة السودانية — جبرائيل حداد بك.
- كتاب أسر عشر سنين في معسكر المهدي — بالألمانية — سيرة الأب أوهرولدر من المرسلين النمسويين بالسودان.
- كتاب المستهدي إلى سيرة الإمام المهدي — بخط يد الشيخ إسماعيل عبد القادر الكردفاني.
- تاريخ السودان — تأليف الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي من علماء القرن الحادي عشر.
- تاريخ السودان المتقدم — تأليف الدكتور حسن كمال.
- تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكرى وقائع التكرور وعظائم الأمور وأنساب العبيد من الأحرار — تأليف العلامة الفقيه محمود كعت بن المتوكل كعت الكرنتي.
- تاريخ سكت إحدى مدن السودان — عني بنشرها وطبعها المستشرق هوداس.
- تاريخ مدينة سنار — تأليف أحد أفاضل علماء القرن الثالث عشر الهجري.
- تاريخ الحرب السودانية — تأليف الأديب جبرائيل حداد الطرابلسي.
- تاريخ ملوك الفونج بالسودان وأقاليمه إلى حكم محمد باشا سعيد بن محمد علي باشا رأس العائلة الملوكية.
- دليل مصر والسودان لسنة ١٩٠٥ تأليف ثابت وأنطاكي.
- تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان — تأليف الشيخ محمد بن السيد عمر التونسي بن سليمان.
- تاريخ الجامع الأزهر — تأليف مصطفى بك بيرم.

- الأزهر — تأليف محب الدين الخطيب.
- كنز الجوهر في تاريخ الأزهر — تأليف الشيخ سليمان رصد الحنفي الزياتي.
- ذيل المقريزي — تأليف المرحوم عبد الحميد بك نافع.
- أقوال الترمذي.
- أقوال أبو داود.
- أقوال البزار.
- أقوال ابن ماجه.
- كتاب الإمام القرطبي.
- كتاب نور الأبصار.
- تاريخ، ابن الوردي.
- صحيح الإمام البخاري.
- صحيح الإمام مسلم.
- تقويم البلدان — جغرافية أبي الفدا.
- خطط المقريزي.
- مختصر الشعراني.
- العلقمي.
- صحيح الحاكم.
- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة — تأليف العالم المحدث شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي بمكة.
- بلغة الخواص — للإمام محيي الدين بن عربي الصوفي الطائي الأندلسي.
- معجم البلدان — ياقوت.
- تاريخ الأمة القبطية — جزءان — للجنة التاريخ القبطي.
- تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي — لحسن كمال.
- الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام — للمقريزي.
- فتح العرب لمصر — تعريب محمد فريد أبو حديد.
- مصر والسودان في نظر العلم والتاريخ — للدكتور أحمد فؤاد.
- شعراء السودان — لسعد ميخائيل.
- دليل السودان — لأحمد عزام.

- الحوادث في السودان من سنة ١٨٨١–١٨٨٩.
- تاريخ السودان القديم — للدكتور كمال.
- السيف والنار في السودان — لسلاطين باشا — بالألمانية والإنجليزية والفرنسية والعربية.
- رحلة مصر والسودان — لمحمد مهدي.
- المهدية والسودان المصري سنة ١٨٩١ — ونجت.
- أسر عشر سنين في معسكر المهدي سنة ١٨٩٣.
- كتاب ضبط النيل سنة ١٩٢٠ — للسير مردوخ ماكدونالد — وزارة الأشغال.
- غوردون ومكافحة الرقيق الأبيض — القاضي كرابيتس Gordon, the Sudan, and Slavery—by Pierre Crabités.
- إسماعيل الخديوي المفترى عليه — تأليف القاضي كرابيتس، القاضي الأمريكي بالمحاكم المختلطة Ismail, The Maligned Khedive, by Pierre Crabités.
- استعادة السودان — تأليف القاضي كرابيتس The winning of the Sudan—by Crabités.
- سر تقدم الإنجليز السكسونيون — إدمون ديمولان سنة ١٨٩٣.
- سر تطور الأمم — للدكتور جوستاف لوبون.
- مصر Egypt — بقلم الكولونيل الجود المراقب العام لمصلحة التموين سابقًا.
- Sudan Gordon Memorial College at Khartoum.
- Report and accounts to 31 St December, 1926–1927.
- Sudan, foreign relations.
- رسائل خاصة بالغزوات الحبشية على مستعمرات بريطانية وعلى السودان المصري الإنجليزي.
- Sudan Correspondence resepecting Abyssinian Raids and incursions into Brithish Territory and the Anglo – Egyptian sudan 1928.
- الحبشة Apyssinia No. 1 (1928).
- Sudan Government Annual report of the Education Department 1929 Me – Corqudale, 1930. PP.99. 2 pls. 4°.31 Cm.

- السودان الإنجليزي المصري — تأليف سير هارولد ماكميكل السكرتير الإداري السابق بحكومة السودان The Anglo—Egyptian Sudan by Sir Harold Macmichael.
- تاريخ العرب في السودان — تأليف سير ماكميكل A History of the Arabian in the Sudan …, by H.A.Macmichael 2 vols. 1932.
- المركز الدولي لمصر والسودان – تأليف جولز كوشيريس Situation inter- nationale de L’Egypte et du Sudan. By jules Cocheris. March 1932. T.
- ضبط النيل والسودان الحديث.
- كتاب السودان بين يدي غوردون وكتشنر — تأليف اللواء إبراهيم فوزي باشا.
- رحلة كايو.
- السودان المصري في عهد محمد علي — مسيو ديهيران.
- تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر — الجزء الثالث عصر محمد علي — عبد الرحمن الرافعي بك.
- عصر إسماعيل — الجزء الأول — عبد الرحمن الرافعي.
- السودان الإنجليزي المصري — بالإنجليزية — الليفتنانت كولونيل جلايشن، مدير المخابرات بحكومة السودان والجيش المصري سابقًا.
- مصر منذ كرومر — بقلم اللورد جورج لويد المندوب السامي البريطاني الأسبق Egypt Since Cromer.
- إلى السودان.
- A Foreigners’Look at the Sudan—Odette Keun Pagan Tribes of the Nilotic Sudan.
- The Ethnology of Africa, by Direbrgo Schapera Sudan Sand, by Stella Court Treatt.
- Gordon and the Sudan by Bernard Allen.
- Slavery by K. Simon.
- تجارة الرقيق «النخاسة» — تأليف الليدي كاترين سيمون قرينة السير جون سيمون الوزير الإنجليزي المشهور.

- تقارير حكومة السودان، وتقارير إدارتها السنوية، وتقارير الغرفة التجارية بالخرطوم.
- لمحة عامة إلى مصر — تأليف كلوت بك، عشرة أيام في السودان — تأليف هيكل بك، النيل — تأليف دكتور عوض، ذكريات الطفولة في السودان — بقلم القباني، دارفور — بقلم التني، تقارير مصلحة الآثار، مذكرات سليمان محجوب عن القبائل العربية في وادي النيل، تاريخ مصر — أجزاء مسلسلة تأليف المؤرخ الإيطالي أنجلو ساماركو، عباس الثاني — تأليف لورد كرومر، بدائع الزهور — لابن إياس، مذكرات للأمير عمر طوسون، بطولة الأورطة السودانية المصرية في المكسيك لسموه، الأجوبة السديدة في إنذار وتهديد أهل المكيدة.
- ثمانية خطابات صادرة من المرحوم الزبير باشا رحمت الجميعاني أمير جيوش المرحوم إسماعيل باشا الخديوي، ومدير مديرية بحر الغزال سابقًا، إلى السلطان إبراهيم بن السلطان حسين أحد أمراء السودان، وإلى علماء دارفور سنة ١٢٩٠، سنة ١٢٩١هـ، بخصوص ما يجري في بعض الأقطار السودانية من الحوادث.

هنداوي